(فهرسة الجزء الحادي عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير)

صحيفة

صحيفة

(تمت)

الجزء الحادي عشر من تاريخ الكامل للعلامة أبي الحسن علي
ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن
الاثير الجزري الملقب بعز
الدين رحمه
الله

* (وبهامش هذا الجزء تاريخ أبي نصر العتبي رحمه الله تعالى) *

بغداد يوم عرفة

(ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة)

وفي هذه السنة ايضا في شوال ملك شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها وهي لاتابك زنكي بن اقسنقر اخذها من تاج الملوك كما ذكرنا وامّا ملك شمس الملوك قلعة بانياس أقام بدمشق الى شهر رمضان من هذه السنة وسار الى حماة في العشر الاخير منه وسبب طمعه انه بلغه ان المسترشد بالله يريد ان يحصر الموصل فطمع وكان الوالي بحماة قد سمع الخبر فتحصن واستكثر من الرجال والذخائر ولم يبق احد من اصحاب شمس الملوك الا واشار عليه بترك قصدها القوة صاحبها فلم يسمع منهم وسار اليها وحصر المدينة وقاتل من بها يوم العيد وزحف اليها من وقته فتحصنوا منه وقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم فلما كان الغد بكر اليهم وزحف الى البلد من جوانبه فملكه قهرا وعنوة وطلب من به الامان فامنهم وحصر القلعة ولم تكن في الحصانة والعلو على ما هي اليوم فان تقي الدين عمر بن اخي صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا في سنين كثيرة فلما حصرها عجز الوالي بها عن حفظها وسلمها اليه فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح وغير ذلك وسار منها الى قلعة شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فحصرها ونهب بلدها فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله اليه فعاد عنه الى دمشق فوصل اليها في ذي القعدة من السنة المذكورة

(ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي)

وفي هذه السنة عبر الى الشام جمع كثير من التركمان من بلاد الجزيرة واغاروا على بلاد طرابلس وعثوا وقتلوا كثيرا فخرج القمص صاحب طرابلس في جموعه فانزاح التركمان من بين يديه فتبعهم فعادوا اليه وقاتلوه فهزموه واكثروا القتل في عسكره ومضى هو ومن سلم معه الى قلعة بعرين فتحصنوا فيها وامتنعوا عن التركمان فحصرهم التركمان فيها فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارسا من اعيان اصحابه سرا فنجوا وساروا الى طرابلس وترك الباقين في بعرين يحفظونها فلما وصل الى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير واشرف الفرنج على الهزيمة فجمعوا انفسهم وعادوا على حمية الى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم الى وسط بلادهم فعادوا عنهم راجعين

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبها ابن عمرون وصعدوا اليه وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم وفيها وقع الخلف بالشام فقاتل بعضهم بعضا ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل بينهم جماعة وفيها في جمادى الآخرة أغار الامير سوار مقدم عسكر زنكي بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير فخرج اليه الفرنج في جموع كثيرة فقاتلوه فظفر بهم واكثر القتل فيهم وكان عدة القتلى نحو ألف قتيل وعاد سالما وفيها تاسع ربيع الآخر وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جده طغدكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه شيئا وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك

الرضا واصطفائه وتقديمه
على زعماء حشمه واوليائه
فارسل اليه أبو الحسن
العلوي الهمداني في
تهنئته بمقدمه واظهار
تيمنه بموطئ قدمه وعقد
له على بلخ والترمذ وما
والاهما وديار بست وهراة
وما تاخمهما وداناهما وتلطف
في الاعتذار اليه من أمر
نيسابور حرصا على ترضيه
وكراهة لصرف يكثرون
عنها الا بعلة تقتضيه فعلم
الامير سيف الدولة ان تلك
المناقشة صادرة عن تمويه
الحساد وتلبيس المناوين
والاضداد وان داء الحقد
ليس له علاج وان صلاة
الصبح بغير فاتحة البر خداج
فأرسل الى الامير أبي
الحرث ثقته أبا الحسين
الحولي بمدايا تفسح مناها
سمح النفوس ويضيق عن
قدرها رحب الصدور ورسم
له ان يحجب مسمعه عن
نفثات المضربين وتثريب
المثربين ويتلطف لاستخلاص
سره واستصفاء محله
قبله لترتفع الحشمة
وتتأكد العصمة وتستحكم
الثقة ويعرفه بأن قصده
لعرصات خراسان انما هو
من أجل موالاته وحراسة
اقطار ولاياته فلما ورد
بخارا أعرض عما وجه فيه
وعرضت الوزارة عليه

بسم الله الرحمن الرحيم

(ذكر حصر المسترشد بالله الموصل)

في هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد بالله مدينة الموصل في العشرين من شهر رمضان وسبب ذلك ما تقدم من قصة الشهيد زنكي ببغداد على ما ذكرناه قبل فلما كان الآن قصد جماعة من الامراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه فقوي بهم واشتغل السلاطين السلجقية بالخلاف الواقع بينهم فارسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرايني الواعظ الى عماد الدين زنكي برسالة فيها خشونة زادها ابو الفتوح زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة فقبض عليه عماد الدين زنكي واهانه ولقيه بما يكره فارسل المسترشد بالله الى السلطان مسعود يعرفه الحال الذي جرى من زنكي ويعلمه انه على قصد الموصل وحصرها وتمادت الايام الى شعبان فسار عن بغداد في النصف منه في ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها اتابك زنكي في بعض عسكره وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم في دولته وامرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيق على من بها واما عماد الدين فانه سار الى سنجار وكان يركب كل ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى ظفر باحد من العسكر أخذه ونكل به وضاقت الامور بالعسكر ايضا وتواطأ جماعة من الجصاصين بالموصل على تسليم البلد فسعى بهم فأخذوا وصلبوا وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشئ ولا بلغه عمن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائدا الى بغداد فقيل ان نصرا الخادم وصل اليه من عسكر السلطان وابلغه عن عسكر السلطان مسعود ما اوجب مسيره وعوده الى بغداد وقيل بلغه ان السلطان مسعودا عزم على قصد بغداد فعاد بالجملة وانه رحل عنها منحدرا في شبارة في دجلة فوصل الى

بغداد

*(ذكر انزال اسمعيل من قلعة غزنة) واستنزل الامير سيف الدولة أخاه اسمعيل من قلعة غزنة على أمان بذله وضمان أجمله وتسلم منه مفاتيح الخزائن وأحاط بزوايا الاعلاق والدفائن وجبر له كسر حاله وأعاد اليه رونق ماله وجماله وشحن غزنة بثقاته والكفاة من حماته وانحدر الى بلخ في عامة اوليائه وأنصاره وقد انتظم له ما انتثر بعد أبيه واستقر عليه ما سعى في تلافيه فغصت شعاب بلخ وضواحيها بطبقات رجاله وعلامات الاعلام من اقباله وكتب الى الامير أبي الحرث بذكر اقباله ويذكره فضل الشغل كان بأخيه عن باله وانه قائم مقام أبيه في المحاماة عن الدولة والنضال عن الجملة والاقبال على قضاء حقوق ما عرفه من بركة اصطناع

ابن اخيه السلطان محمود باذربيجان فسار اليه وحصره بقلعة روئين دز وكان قد تحصن بها واشتغل بحصره فجمع الملك طغرل العساكر واستمال بعض قواد مسعود ولم يزل يفتح البلاد فكثرت عساكره وقصد مسعودا فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه فلما تراءى العسكران فارق مسعودا من امرائه من كان قد استماله طغرل فبقي في قلة من العسكر فولى منهزما اواخر رمضان وارسل الى المسترشد بالله في القدوم لبغداد فاذن له وكان نائبه باصفهان البقش السلاحي ومعه الملك سلجوق شاه فلما سمع بانهزام مسعود قصد بغداد ايضا فنزل سلجوق شاه بدار السلطان فاكرمه الخليفة وانفذ اليه عشرة آلاف دينار ثم قدم مسعود بغداد واكثر اصحابه ركاب جمال لعدم ما يركبونه ولقي في طريقه شدة فارسل اليه الخليفة الدواب والخيام والآلات وغيرها من الاموال والثياب فدخل الدار السلطانية ببغداد منتصف شوال وقام طغرل بهمدان

(ذكر حصر أتابك زنكي آمد وملكه قلعة الصور)

في هذه السنة اجتمع اتابك زنكي وتمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمد فحصراها فارسل صاحبها الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده فجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها فالتقوا على باب آمد وتصافوا في جمادى الآخرة فاقتتلوا فانهزم داود وعاد مفلولا وقتل جماعة من عسكره واقام زنكي وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعثا البلد ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها فملكها في رجب من هذه السنة واتصل به ضياء الدين ابو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره زنكي وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محبا للخير

(ذكر ملك زنكي قلاع الاكراد الحميدية)

في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الاكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما وكان لما ملك الموصل اقر صاحبها الامير عيسى الحميدي على ولايتها واعمالها ولم يعترضه على شيء مما هو بيده فلما حصر المسترشد الموصل حضر عيسى هذا عنده وجمع الاكراد عنده فاكثر فلما رحل المسترشد عن الموصل امر زنكي ان تحصر قلاعهم فحصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان ملكت هذه السنة فاطمأن اذا اهل السواد المجاورون لهؤلاء القوم فانهم كانوا معهم في ضائقة كبيرة من نهب اموالهم وخراب البلاد

(ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشى)

وحكى عن بعض العلماء من الاكراد ممن له معرفة باحوالهم ان اتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية واجلاهم عنها خاف ابو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة اشب والجزيرة ونوشى فارسل الى اتابك زنكي من استحلفه له وحمل اليه مالا وحضر عنده زنكي بالموصل فبقي مدة ثم مات فدفن بتل توبة ولما سار عن اشب الى الموصل اخرج ولده احمد بن ابي الهيجاء منها خوفا ان يتغلب عليها واعطاه قلعة نوشى وهذا احمد هو والد علي بن احمد المعروف بالمشطوب من اكابر امراء صلاح الدين ابن ايوب بالشام ولما اخرجه ابوه من اشب استناب بها كرديا يقال له باو الارجي فلما مات ابو الهيجاء سار ولده احمد من نوشى الى اشب ليملكها فمنعه باو واراد حفظها للولد الصغير لابي الهيجاء اسمه علي فسار زنكي بعسكره فنزل على اشب وملكها وسبب ملكها ان اهلها نزلوا كلهم الى

وكتب الى الامير ابي الحرث بفصوله عن مكانه اخذا بالوثيقة ومحاماة على الحقيقة واحترازا من غرة اللقاء قبل اختبار العزيمة والرأي فحملته سكرة الحداثة ونزقة الصبا والغرارة وقلة النظر في العواقب وعدم الحظ من التجارب على الاغذاذ الى خراسان فيمن أنهضه الامكان بالمساعدة من وجوه خاصته وسائر حاشيته وسار الى سرخس كالسهم صادرا عن وتره والسيل سائلا الى منحدره فعلم الامير سيف الدولة أن قصده اياه من نتائج التغرير وفائل الرأي والتدبير وسفاهة الناصح والمشير اذ لم يكن في منة القوم مقاواته على شدة باسه وملاقاته على قوة مراسه اذ لو قذفهم ببعض رجومه لغادرهم رمادا تذروه العواصف وتقتسمه الشمائل والجنائب لكنه رأى ان يغضي بجفن الاحترام ويتحمى بستر الاحتشام ويرعى سابق الحق والذمام فخالف طريقه الى مرو الروذ مفرجا له عن نيسابور الى أن تمكن من ارتجاعها بينة تشترك في معرفتها القاصية والدانية وحجة على مناويه وشقاقيه تتصورها الحاضرة والبادية عطفا الى قنطرة زاغول

فاخذوه وقرر ما الذى حمله على ما فعل فقال اردت اراحة المسلمين من شرك وظلمك ولم يزل يضرب حتى اقر على جماعة انهم وضعوه على ذلك فقتلهم شمس الملوك بغير تحقيق وقتل معهم اخاه سونج فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه وفيها توفى الشيخ أبو الوفاء الفارسى وكان له جنازة مشهودة حضرها الاعيان ببغداد وفيها فى رجب توفى القاضى أبو العباس احمد بن سلامة بن عبد الله بن مخلد المعروف بابن الرطبى الفقيه الشافعى قاضى الكرخ وتفقه على أبى اسحق وابى نصر بن الصباغ وسمع الحديث ورواه وكان قريبا من الخليفة يؤدب اولاده وتوفى ابو الحسين على بن عبد الله بن نصر المعروف بابن الزاغونى الفقيه الحنبلى الواعظ وكان ذا فنون توفى فى المحرم وتوفى على بن يعلى بن عوض بن القاسم الهروى كان واعظا وله بخراسان قبول كثير وسمع الحديث فاكثر ومحمد بن أحمد بن على ابو عبد الله الحرانى وهو من اولاد محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان وكان محمد يلقب بالديباج لحسنه واصله من مكة وهو من أهل نابلس وكان مغاليا فى مذهب الاشعرى وكان يعظ توفى فى صفر وفيها توفى ابو فليتة امير مكة وولى الامارة بعده ابنه القاسم وفيها توفى العزيز بن هبة الله بن على الشريف العلوى الحسينى فجأة بنيسابور وكان جده نقيب النقباء بخراسان وعرض على العزيز هذا نقابة العلويين فامتنع وعرض عليه وزارة السلطان فامتنع ولزم الانقطاع والاشتغال بأمر آخرته وفيها توفى قاضى قضاة خراسان ابو سعيد محمد بن أحمد بن صاعد وكان خيرا صالحا

(ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة)

(ذكر ملك شمس الملوك شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج)

فى هذه السنة فى المحرم سار شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق منها الى شقيف تيرون وهو فى الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادى التيم قد تغلب عليه وامتنع به فتحاماه المسلمون والفرنج يحتمى على كل طائفة بالاخرين فسار شمس الملوك اليه فى هذه السنة واخذه منه فى المحرم وعظم اخذه على الفرنج لان الضحاك كان لا يتعرض الى شئ من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى بلد حوران فخربوا امهات البلد ونهبوا أماكنهم نهبة وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون جمع هو ايضا وحشد واحضر عنده جمعا كثيرا من التركمان وغيرهم فنزل بازاء الفرنج وجرت بينهم مناوشة عدة ايام ثم ان شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقى قبالة الفرنج وهم لا يشعرون وقصد بلادهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد فنهب وخرب واحرق وسبى النساء والذرية وامتلات ايدى من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا فى الحال لا يلوى اخ على اخيه وطلبوا بلادهم واما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذى سلكه الفرنج فوصل سالما ورأى الفرنج بلادهم خرابا ففت فى اعضادهم وتفرقوا وراسلوا فى تجديد الهدنة فهادنهم شمس الملوك فى ذى القعدة للسنة

(ذكر عود الملك طغرل الى الجبل وانهزام الملك مسعود)

فى هذه السنة عاد الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها واجلى عنها اخاه السلطان مسعودا وسبب ذلك ان مسعودا لما عاد من حرب اخيه طغرل بلغه عصيان داود

ابن

ما وافقه موزده خاو صدرها عمن يستقل بأمرها ويقوم بحق الكفالة لها والكفاية فيها فكان مثله كما قيل
خلت الديار فسدت غير مسود
ومن الشقاء تفردي بالسودد
فاشتغل بالوزاره عن حق السفاره وأقبل على الامر بوجه الجد المستبد يريد سكر ما انبثق وانتشار عليه النهر وكتمان ما نم عليه الجهر وان يصلح العطار ما أفسد الدهر وانشد فى المضراب انفسه فيه
وكانت للدهر من غير سنة
يوسفه والباهلى وغيره
الى ان رمانا بالغفارى بعدهم
وعاندنا فى عبده وعزيزه
ويا ندها نابابن عيسى وجوده
وفى ابن أبى زيد الخصيب وسيره
فلم نرض بالمقدور فيهم فأمنا
بكل كسير فى الورى وعويره
ولما أحس الامير سيف الدولة بصورة الحال فى تناقض الآراء وتخاذل التدبير والاهواء واشراف الملك على الضياع بمداهنة النصحاء واعتيادهم صلاح انفسهم فى وجوه المقاصد والانحاء عدل الى نيسابور على ما كان بليه من جماهير أوليائه ومواليه وحين سمع بكتوزون باقباله تزحزح عن نيسابور حرصا على البقاء على عدته وعتاده واشفاقا على عدد رجاله واجناده

الاقوات فاصاب أهلها الشيخ وكزاز وعجز كثير منهم عن القيام فضلا عن القتال فلما ظهرت امارات الفتح رحل الامير ارغش فقيل انهم حملوا اليه مالا كثيرا واعلاقا نفيسة فرحل عنهم وفيها توفي الامير سليمان بن مهارش العقيلي امير بني عقيل وولي الامارة بعده اولاده مع صغر سنهم وطيف بهم في بغداد رعاية لحق جدهم مهارش فانه هو الذي كان الخليفة القائم بامر الله عنده لما فعل به البساسيري ما ذكرنا وفيها توفي الفقيه ابو علي الحسن بن ابراهيم بن فرهون الشافعي الفارقي ومولده سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة وتفقه على أبي عبد الله الكازروني فلما توفي الكازروني انحدر الى بغداد وتفقه على ابي اسحق الشيرازي وابي نصر الصباغ وولي القضاء بواسط وكان خيرا فاضلا لا يواري ولا يحابي احدا في الحكم وفيها توفي عبد الله بن محمد ابن احمد بن الحسن ابو محمد بن ابي بكر الفقيه الشافعي تفقه على ابيه وكان يعظ ويكثر في كلامه من التجانس فمن ذلك قوله اين القدود العالية والخدود الوردية هذا ليت بها والله العافية والوردية وهما مقبرتان بنهر معلى ومن شعره

الدمع دما يسيل من اجفاني * ان عشت مع البكا فما أجفاني
هجري شجني وهمي سماني * العاذل بالملام قد سماني *
والذكر لهم يزيد في اشجاني * والنوح مع الحمام قد أشجاني
ضاقت بيعادهم علي اعطاني * والبين يد الهموم قد اعطاني

وفيها توفي ابن أبي الصلت الشاعر ومن شعره يذم ثقيلا

لي صديق عجبت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله
انا أرعاه مكرما وبقلبي * منه ما ينسف الجبال أقله *
هو مثل المشيب اكره رؤيا * ه ولكن اصونه واجله

وله أيضا

ساد صغار الناس من عصرنا * لا دام من عصر ولا كانا
كالدست مهما هم ان ينقضي * صار به البيدق فرزانا

وفيها توفي محمد بن علي بن عبد الوهاب ابو رشيد الفقيه الشافعي من أهل طبرستان وسمع الحديث ايضا ورواه وكان زاهدا عابدا أقام بالجزيرة وهي جزيرة ابن عمر سنين منفردا يعبد الله سبحانه وتعالى وعاد الى آمل وقبره بها

* (ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة) *

* (ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلاد الجبل) *

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود الى بغداد منهزما من اخيه الملك طغرل وان الخليفة اكرمه وحمل اليه ما يحتاج اليه مثله وامره بالمسير الى همدان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل في السلطنة والبلاد ومسعود يعد ويدافع الايام والخليفة يحثه على ذلك ووعده ان يسير معه بنفسه وامر ان يبرز خيامه الى باب الخليفة وكان قد اتصل الامير البقش السلاحي وغيره من الامراء بالخليفة وطلبوا خدمته فاجابهم وصاروا معه واتفق ان انسانا أخذ فوجد معه ملطفات من طغرل الى هؤلاء الامراء بالاقطاع لهم فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أميرهم سم

ومضاعفة الثقل المحنة على ظهره فعل الموتور ما لا شوى له ولا بقيا معه وعمد هو وفائق الى أخيه عبد الملك بن نوح وهو أصغر منه سنا واضعف ركنا فاقاماه مقامه وسدا به مكانه وماج الناس بعضهم في بعض للفتنة الشاغرة والاحوال المتنافرة وندر الناس بالامير سيف الدولة انه قد شخص بقنطرة زاغول فنكروا على ادبارهم كالنعائم الراعية راعها الفوارس واساطت بها الكلاب النواهس حتى أخذوا قرارهم بمرو وأرسل الامير سيف الدولة الى الكافرين بالقسمين يعيبن اليهما ما ارتكباه في ولي النعمة من ازالة الحشمة واضاعة الحق والحرمة غير ناظرين الدين ولا متحرجين للاسلام والمسلمين ولا متقين للاحدوثة الشنعاء على الالسنة الذاكرين مدى دهر الداهرين وامتدت المراجعة بينهم في الحادثة الكارثة وهما يعتذلانه عن انتهاز الفرصة فيهما واهتبال الغرة منهما تقاضيا له عن صاحبهما في تجديد الرعاية ومزيد الولاية وكلاهما يتم بالاحجام على وجه الاحترام طالبته سعادة الجد بالاقدام وحرضته على

القتال فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجرهم حتى ابعدوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا فوضع السيف فيهم فاكثر القتل والاسر وملك زنكي القلعة في الحال واحضر جماعة من مقدمي الاكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها الى الموصل ثم سار عنها ففي غيبته ارسل نصير الدين جقر نائب زنكي فخرب اشب وخلى كهيجة ونوشي وقلعة الجلاب وهي قلعة العمادية وارسل الى قلعة الشعباني وفرح وكوشر والزعفران والف وسروة وهي حصون المهرانية فحصرها فملك الجميع واستقام امر الجبل والزوزان وامنت الرعايا من الاكراد واما باقي قلاع الهكارية فجبل صور وهرور والملاسي ومابرما وبابوخا وباكرا ونسباص فان قراجا صاحب العمادية فتحها من مدة طويلة بعد قتل زنكي وهذا قراجا كان أميرا قد اقطعه زين الدين علي بلد الهكارية بعد قتل زنكي ولم اعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته ههنا وحكى غير هذا بعض فضلاء الاكراد وخالف فيه فقال ان زنكي لما فتح قلعة اشب وخربها وبنى قلعة العمادية ولم يبق في الهكارية الا صاحب جبل صور وصاحب هرور ولم يكن لهما شوكة يخاف منها عاد الى الموصل فخافه اصحاب القلاع الجبلية فاتفق ان عبد الله بن عيسى بن ابراهيم صاحب الربية والف وفرح وغيرها توفي وملكها بعده ولده علي وكانت والدته خديجة بنت الحسن اخت ابراهيم وعيسى وهما من الامراء مع زنكي وكانا بالموصل فارسلها ولدها علي الى اخويها وطلبا له الامان من زنكي وحلفاه له ففعل ونزل الى خدمة زنكي واقره على قلاعه واشتغل زنكي بفتح قلاع الهكارية وكان الشعباني بيد أمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فاخذه منه وقربه منه لكبره وقلة اعماله وكان نصير الدين جقر يكره عليا صاحب الربية وغيرها فحسن لزنكي القبض عليه فاذن له في ذلك فقبض عليه ثم ندم زنكي على قبضه فارسل الى نصير الدين ان يطلقه فرآه قد مات قبل ان نصير الدين قتله ثم أرسل العسكر الى قلعة الربية فنازلوها بغتة فملكوها في ساعة واسروا كل من بها من ولد علي واخوته واخواته وكانت والدة علي خديجة غائبة فلم توجد فلما سمع زنكي الخبر بفتح الربية سره وامر ان تسير العساكر الى باقي القلاع التي لعلي فسارت العساكر فحصروها فرأوها منيعة فراسلهم زنكي ووعدهم الاحسان فاجابوه الى التسليم على شرط ان يطلق كل من في السجن منهم فلم يجبهم الى ذلك الا ان يسلموا ايضا قلعة كواشي فمضت خديجة والدة علي الى صاحب كواشي واسمه خول وهرون وهو من المهرانية فسألته النزول عن كواشي فاجابها الى ذلك وتسلم زنكي القلاع واطلق الاسرى فلم يسمع بمثل هذا فقال ينزل من مثل كواشي لقول امرأة فاما ان يكون اعظم الناس مروءة لا يرد من دخل بيته واما ان يكون اقل الناس عقلا واستقامت ولاية الجبال

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اوقع الدانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيرا منهم وفيها اصطلح الخليفة واتابك زنكي وفيها في ربيع الاول عزل انوشروان بن خالد عن وزارة الخليفة وفيها توفيت ام المسترشد بالله وفيها سير المسترشد عسكرا الى تكريت يحصروا مجاهد الدين بهروز فصانع عنها بمال فعادوا عنه وفيها اجتمع من العساكر السنجرية مع الامير ارغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان وهي للاسماعيلية وضيقوا على أهلها وطال حصرها وعدمت عندهم

تقيم بها امرا عيالا ما يسفر عنه التدبير ويتكشف عن حقيقته الضمير وبادر بكتوزون الى مناخ الامير أبي الحرث وهناك فائق في قضه وقضيضه واتباعه فلما وصل اليه أنكر محله لديه لتقصيره في حق مقدمه قياما عليه وشكا الى فائق ما انكره فشكاه الى نوح وفق ماذكره وتداولا بينهما ذكر معايبه وتقاولا خشونة جانبه وحزونة أخلاقه وضرائبه وأغريا أهل العسكر بخلافه والتماس الراحة منه والاستبدال به فانجروا معه ما في جرير المساعدة سراعا على لذة الاستطراف واغتناما لنهزة الاستضعاف فاستحضر بكتوزون بعلة اجتماع العسكر لهم استحيى الى نظره فيه واشارته بوجه الصواب في تلافيه حتى اذا حضره حصره ووكل به من سمل بصره ضيرا او لقيه بطليق حياته احسن ما كان رداء جمال وهو واعتدال وطلعة هلال وروعة عزة وجلال واقتدأ جهش اليه عند الاستسلام في حاج له ثلاث خلاف المؤنة عليه منها صيانة من قامت عنه عن ذل المناظرة على مال المصادرة فكايده بخلاف حاجته ونقيض مسألته

فيها على محاربته ونزل أولا شماليها ثم انتقل الى ميدان الحصى وزحف وقاتل فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاما على محاربته وقام معين الدين أنز مملوك جده طغدكين في هذه الحادثة بدمشق قياما مشهودا وظهر من معرفته بامور الحصار والقتال وكفايته ما لم يكن سبب تقدمه واستيلائه على الامور باسرها على ما نذكر ان شاء الله تعالى فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزري من جزيرة ابن عمر بخلع الاتابك زنكي ويأمره بصلح صاحب دمشق الملك البارسلان محمود الذي مع اتابك زنكي فرحل عنها لليلتين مضتا من جمادى الاولى من السنة المذكورة

(ذكر قتل حسن بن الحافظ)

قد ذكرنا سنة ست وعشرين وخمسمائة ان الحافظ لدين الله صاحب مصر استوزر ابنه حسنا وخطب له بولاية العهد فبقي الى هذه السنة ومات مسموما وسبب ذلك انه كان جريا على سفك الدماء وكان في نفس الحافظ على الامراء الذين أعانوا أبا على بن الافضل حقد ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه فاستوزر ابنه وأمره بذلك فتغلب على الامر جميعه واستبد به ولم يبق لابيه معه حكم وقتل من الامراء المصريين ومن أعيان البلاد جماعة حتى قيل انه قتل في ليلة واحدة أربعين أميرا فلما رأى أبوه تغلبه عليه أخرج له خادما من خدم القصر الاكابر فجمع الجموع وحشد من الرجالة خلقا كثيرا وتقدم الى القاهرة لقاتل حسنا ويخرجه منها فارسل له جماعة من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم وقتل الرجال الذين معه وعبر الباقون الى الجيزة فاستكان الحافظ فصبر تحت الحجر ثم ان الباقين من الامراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل حسن وارسلوا الى أبيه الحافظ وقالوا له اما انك تسلم ابنك الينا لنقتله او نقتلكما جميعا فاستدعى ولده اليه واحتاط عليه وارسل الى الامراء بذلك فقالوا لا نرضى الا بقتله فرأى انه ان سلمه اليهم طمعوا فيه وليس الى ابقائه سبيل فاحضر طبيبين كانا له احدهما مسلم والآخر يهودي فقال لليهودي نريد سما نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة فقال انا لا اعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الادوية فقال انا اريد ما نخلص به من هذه المصيبة فقال له لا اعرف شيأ فاحضر المسلم وامره بذلك فصنع له شيأ فسقاه الولد فمات لوقته فارسل الحافظ الى الجندية وقال لهم انه قد مات فقالوا نريد ننظر اليه فاحضر بعضهم عنده فراوا وظنوه قد عمل حيلة فجرحوا اسافل رجليه فلم يجر منها دم فعلموا موته ودفن حسن واحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له اخرج من عندنا من القصر وجميع ما لك من الانعام والجامكية باق عليك واحضر اليهودي وقال اعلم انك تعرف ما طلبته منك ولكنك عاقل فتقيم في القصر عندنا وكان حسن سيء السيرة ظالما جريا على سفك الدماء واخذ الاموال فهجاه الشعراء فمن ذلك ما قال المعتمد بن الانصاري صاحب الترسل المشهور

لم تأتيا حسن بين الورى حسنا * ولم تر الحق في دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب * والجور في اخذ اموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا ادب * تيه الملوك واخلاق المجانين

وقيل ان الحافظ لما رأى ابنه تغلب على الملك وضع عليه من سقاه السم فمات والله اعلم ولما مات

مزرورة * وذيول الخذلان عليهم مجرورة * وبوارح الانادر وسوانح الدمار * من كل أوب اليهم محشورة * وظل القوم على علم بانهم يدمرون على الدمار * ويتهافتون تهافت الفراش في النار * ويقتلون الانصار بسيوف الانصار * كما قال الله تعالى يخربون بيوتهم بأيديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا اولي الابصار * وتردد السفراء بينهم وبين الامير سيف الدولة في مواضعته على سلم يساوون معها في العاجل من شدة بأسه * ويفتدون بها من مرارة كأسه * واحسن الامير سيف الدولة اجابتهم الى مواضعتهم على علمه باستبطانهما الختل والحيلة * واستشعارهما للغدر والخديعة * الزاما للحجة وطمعا على الشبهة واعتذارا الى المكافة * وبراءة من سخطة المفضي الى دفع المكافة * فما كان الا أن قوضت للرحيل خيامه * ونشرت للقفول أعلامه * حتى ثار أوباش القوم على اثره لانتهاب عسكره يظنون بأنفسهم الظنون * وانما يتعجلون المنون * ويدوسون أذناب الاراقم لو كانوا يشعرون * ولما رأى الامير سيف الدولة تركوبهم

اسمه غلبك ونهب ماله فاستشعر غيره من الامراء الذين مع الخليفة فهربوا الى عسكر السلطان مسعود فارسل الخليفة اليه فى اعادتهم اليه فلم يفعل واحتج باشياء فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرة ووحشة اوجبت تاخره عن المسير معه وارسل اليه يلزمه بالمسير معه امرا جزما فبينما الامر على هذا اذ جاءه الخبر بوفاة اخيه طغرل وكانت وفاته فى المحرم من هذه السنة وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة فى المحرم وكان خيرا عاقلا عادلا قريبا الى الرعية محسنا اليهم وكان قبل موته قد خرج من داره يريد السفر لقتال اخيه مسعود فدعاله الناس فقال ادعوا بخير لنا للمسلمين ولما توفى وصل الخبر الى مسعود فسار من ساعته نحو همذان واقبلت العساكر جميعها اليه واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد وكان قد خرج بصحبته هو واهله ووصل مسعود الى همذان واستولى عليها واطاعته البلاد جميعها واهلها

(ذكر قتل شمس الملوك وملك اخيه)

فى هذه السنة رابع عشر ربيع الآخر قتل شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك بورى بن طغدكين صاحب دمشق وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم فى اعمال البلد وبالغ فى العقوبات لاستخراج الاموال وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث انه لا يأنف من أخذ الشئ الحقير بالعدوان الى غير ذلك من الاخلاق الدنيئة وكرهه اهله واصحابه ورعيته ثم انه ظهر عنه انه كاتب عماد الدين زنكى انه يسلم اليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول واخلى المدينة من الذخائر والاموال ونقل الجميع الى صوبه وتابع الرسل الى زنكى يحثه على الوصول اليه ويقول له ان اهملت المجئ سلمت البلد الى الفرنج فسار زنكى فظهر الخبر بذلك فامتعض اصحاب ابيه وجده واقلقهم وذكروا الحال لوالدته فساءها واشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الامر ثم انها ارتقبت الفرصة فى الخلوة من غلمانه فلما رأته على ذلك امرت غلمانها بقتله فقتل وامرت بالقائه على موضع فى الدار ليشاهده غلمانه واصحابه فلما رأوه قتيلا سروا بمصرعه وبالراحة من شره وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة وقيل كان سبب قتله ان والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز وكان متمكنا منه ما كان فى دولته ثم فى دولة شمس الملوك بعده فاتهم بام شمس الملوك ووصل الخبر اليه بذلك فهم بقتل يوسف فهرب منه الى تدمر وتحصن بها واظهر الطاعة لشمس الملوك فاراد قتل أمه فبلغها الخبر فقتلته خوفا منه والله اعلم ولما قتل ملك بعده اخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك وحلف له الناس واستقر له الملك بعده والله اعلم

(ذكر حصر اتابك زنكى دمشق)

فى هذه السنة حصر اتابك زنكى دمشق ونازلها اول جمادى الاولى وسببه ما ذكرنا من ارسال شمس الملوك صاحبها اليه واستدعائه ليسلمها اليه فلما وصلت كتبه ورسله سار اليها فقتل شمس الملوك قبل وصوله ولما عبر الفرات ارسل اليهم رسلا فى تقرير قواعد التسليم فرأوا الامر قد فات الا انهم أكرموا واحسنوا اليهم واعادوا بجميل هيئة وعرفوا زنكى بقتل شمس الملوك وان القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين والكلمة متفقة على طاعته فلم يحفل زنكى بهذا الجواب وسار الى دمشق فنازلها وانجفل اهل السواد اليها واجتمعوا

الانتقام للدين والاسلام ثم رأى ان يصدف عن مقامه الى ظاهر مرو ولتكون لطائفة الصلح وسيلة اوسفاهة السفهاء شفاها وليتسامع القوم باقباله دبيب الفشل فى تضاعيف احشائهم وسرى الوهل فى تفاريق اعضائهم واستطار الخوف فى مزاج دمائهم ولما سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين فأبى الله الا ان ينتقم منهم بسيف سيف الدولة جزاء عن فعلهم الفظيع وخطبهم الشنيع وسعيهم المذموم عند الجميع فصبه عليهم صب عزالى الغيث بذوى المرفوعين غير انه غيث قطره عيث وغيم حشوه ضيم وسحاب سحله عذاب وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه أليم شديد وبرز فائق وبكتوزون وأبو القاسم ابن سيمجور يعلوا حدهم عبد الملك بن نوح وسائر اهل العسكر الى ظاهر مرو مقابلين لعسكر الامير سيف الدولة يعلنان بجلادة ويسران بلادة ويقدمان ظاهر العيون ويحجمان خفية الحرب الزبون فضاقت عليهم الارض بما رحبت بنبوب الاقطار عليهم

دون الطفيف ولم يقتل فى هذه المعركة احد وهذا اعجب ما يحكى وعاد السلطان الى همذان وامر فنودى من تبعنا الى همذان من البغاددة قتلناه فرجع الناس كلهم على اقبح حال لا يعرفون طريقا وليس معهم ما يحملهم وسير السلطان الامير بك آبه المحمودى الى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد فقبضوا جميع املاك الخليفة واخذوا غلاتها وثار جماعة من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك ومنعوا من الخطبة وخرجوا من الاسواق يحثون التراب على رؤسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات فى الاسواق يلطمن واقتتل اصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلا وهرب الوالى وحاجب الباب واما السلطان فانه سار فى شوال من همذان الى مراغة لقتال الملك داود ابن اخيه محمود وكان قد عصى عليه فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فترددت الرسل بين الخليفة وبين السلطان فى الصلح فاستقرت القاعدة على ما نذكره ان شاء الله والله الموفق

(ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله)

لما قبض المسترشد بالله ابو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله ابى العباس احمد على ما ذكرناه جعله السلطان مسعود فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود يجمع العساكر وان لا يخرج من داره فاجاب السلطان الى ذلك وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق الا أن يعود الى بغداد فوصل الخبر بان الامير قزان خوان قد ورد رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلا من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا انفه وأذنيه وتركوه عريانا وقتل معه نفر من أصحابه منهم أبو عبد الله بن سكينة وكان قتله يوم الاحد سابع عشر ذى القعدة على باب مراغة وبقى حتى دفنه أهل مراغة واما الباطنية فقتل منهم عشرة وقيل بل قتلوا جميعهم والله أعلم وكان عمره لما قتل ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وكانت خلافته سبعة عشر سنة وستة أشهر وعشرين يوما وامه ام ولد وكان شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة واخباره المذكورة تدل على ما ذكرناه وكان فصيحا بليغا حسن الخط ولقد رايت خطه فى غاية الجودة ورايت اجوبته على الرقاع من احسن ما يكتب وافصحه ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله ابو جعفر المنصور ولقب الراشد بالله وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد فى حياته وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذى القعدة وكتب السلطان مسعود الى بك آبه الشحنة ببغداد ليبايع له وحضر الناس البيعة وحضر بيعته احد وعشرون رجلا من اولاد الخلفاء وبايع له الشيخ ابو النجيب ووعظه وبالغ فى الموعظة واما اقبال الدولة المسترشدى فكأنه كان ببغداد فى طائفة من العسكر فلما جرت هذه الحادثة عبر الى الجانب الغربى واصعد الى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز وحالفه وصعد اليه الى القلعة

(ذكر مسير السلطان سنجر الى غزنة وعوده عنها)

فى هذه السنة فى ذى القعدة سار السلطان سنجر من خراسان الى غزنة وسبب ذلك انه نقل اليه

ووصفاتات كالرعود القواصف * وقسى نشرت عليها القبائل السود * كأنها الاساود والاسود * يخيل اضطراب الرياح فيها انها تزحف للاقتحام * أو تنقض لاختطاف الهام * وأعلام علتها أطراف العوامل * فكأنها آجام السواحل * تأويها شياطين الانس فرسانا * وعفاريت الترك والهند مردا وشبانا * تبص عليهم سابغات داود كقصائح الماء تجلوها الشمس سافره * وتزهاها الشمال سائره * قد جعلوا الدروع وقاية للاجسام * وظاهروا عليها بالقلوب حرصا على الانتقام * فهم يأنسون بمباشرة القتال * ومشاورة الاقتال * واستثارة المنايا عن مرابض الآجال * انس العيون بأناسيها الباصرة * والقلوب بأماسيها الحاضرة * ووقف الامير سيف الدولة فى القلب بنفسه وأخويه نصر واسمعيل ابنى ناصر الدين سبكتكين وعمه بغراجق فكأنما عناه أبو فراس بقوله

علونا دوشنا بأشد منه
وأثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحرا من سلاح
وألسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح

حسن استوزر الحافظ الامير تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فتحكم واستعمل الارمن على الناس فاستذلوا المسلمين وسنذكر اخبار سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ان شاء الله تعالى

(ذكر مسير المسترشد الى حرب السلطان مسعود وانهزامه)

في هذه السنة كان الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود في شهر رمضان وسبب ذلك ان السلطان مسعودا لما سافر من بغداد الى همدان بعد موت أخيه طغرل وملكها فارقه جماعة من أعيان الامراء منهم برنقش بازدار وقزل آخر وسنقر الخمارتكين والى همدان وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم خائفين منه مستوحشين ومعهم عدد كثير ومعهم دبيس بن صدقة وأرسلوا الى الخليفة يطلبون منه الامان ليحضروا في خدمته فقيل له انها مكيدة لان دبيسا معهم وساروا نحو خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق فارسل الخليفة اليهم سديد الدولة بن الانباري بتوقيعات الى الامراء المذكورين بتطييب نفوسهم والامر بحضورهم وكان الامراء المذكورون قد عزموا على قبض دبيس والتقرب الى الخليفة بحمله اليه فبلغه ذلك فهرب الى السلطان مسعود وسار الامراء الى بغداد في رجب فاكرمهم الخليفة وحمل اليهم الاقامات والخلع وقطعت خطب السلطان مسعود من بغداد وبرز الخليفة في العشرين من رجب على عزم المسير الى قتال مسعود وأقام في الشفيعي فعصى عليه بكبه صاحب البصرة فهرب اليها فراسله وبذل له الامان فلم يعد اليه وتريث الخليفة عن المسير وهؤلاء الامراء يحسنون له الرحيل ويسهلون عليه الامر ويضعفون عنده أمر السلطان مسعود فسير مقدمته الى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا ولم ينكر عليهم شيأ ثم سار الخليفة ثامن شعبان ولحق به في الطريق الامير برسق بن برسق فبلغت عدتهم سبعة آلاف فارس وتخلف بالعراق مع اقبال خادم المسترشد بالله ثلاثة آلاف فارس وكان السلطان مسعود بهمذان في نحو ألف وخمسمائة فارس وكان أكثر أصحاب الاطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة فتريث في طريقه فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم حتى عادوا اليه فصار في نحو خمسة عشر ألف فارس وتسلل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف وأرسل اتابك زنكي نجدة فلم يلحق وأرسل الملك داود بن السلطان محمود وهو باذربيجان الى الخليفة يشير بالميل الى الدينور ليحضر بنفسه وعسكره فلم يفعل المسترشد وسار حتى بلغ داي مرج وعبى أصحابه فجعل في الميمنة برنقش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل آخر وبرسق بن برسق وجعل في الميسرة جاولي وبرسق شراب سلار وغلبك الذي كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من حبسه ولما سمع السلطان مسعود خبرهم سار اليهم مجدا فواقعهم بداي مرج عاشر رمضان وانحازت ميسرة الخليفة الى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالا ضعيفا ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه وانهزم عسكره وأخذ هو أسيرا ومعه جمع كثير من اصحابه منهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وقاضي القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة وابن الانباري والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم وانزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيرا فحمل الوزير وقاضي القضاة وابن الانباري وصاحب المخزن وغيرهم من الاكابر الى قلعة سرجهان وباع الباقون نفوسهم بالثمن

مقطعة الضلال * واقحامهم مسبعة الآجال * ملقين خيوط الرقاب بالعرض الغالب * والطمع الكاذب * لا يثنيهم عما اوهمن التسفه والتخبط * ولا يصدهم كبرا وهم عن التهور والتورط * علما ان ذلك أمر يراد * وداء خالطه البغي والعناد * وأيقن ان سرهم بالفساد مشهور * وان السفيه اذا لم ينه مأمور * وأمر بالثائرين فجاش اليهم من سوابق الجيوش من طبقوهم بالهض والرض * وأشبعوهم الامن شاء الله على صعيد من الارض * واستخار الله تعالى في الكر على بغاة السوء حاكما اياهم الى البيض القواطع * وصدلنا بينات الرماح الشوارع * وصولا على الانتصاف منهم بشهادات النسور واللوا مع * واقبل فرائب الجيوش قلبا كنهلان * وميمنة كرضوى وميسرة كأبان * وصحن المصاف بزهاء مائتين من فيله كرعان الجبال * اودكن السحاب الثقال * مغشاة بصفائح لم يعود منها غير حدق النواظر * وحدائد الانياب القواقر * تهول سامعها عليها برخفات كالبروق الخواطف

الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس وكان سبب ذلك ان الحسن اصطنع ميمون بن زيادة أمير طائفة كبيرة من العرب ومال اليه وأكثر الانعام عليه فحسده غيره من العرب فساروا الى يحيى بن العزيز باولادهم وجعلوهم رهائن عنده وطلبوا منه ان يرسل معهم عسكرا ليملكوا المهدية فاجابهم الى ذلك وهو متباطئ فاتفق انه وصله كتب من بعض مشايخ المهدية بمثل ذلك فوثق الى ما أتاه وسير عسكرا كثيرا واستعمل عليهم قائدا كبيرا من فقهاء أصحابه يقال له مطرف بن حمدون وكان هذا يحيى بن العزيز هو وآباؤه يحضرون المعز بن باديس وأولاده بعده فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا على المهدية وحصروها برا وبحرا وكان مطرف يظهر التقشف والتورع عن الدماء وقال انما أتيت الآن لاتسلم البلد بغير قتال فخاب ظنه فبقي أياما لم يقاتل ثم انهم باشروا فظهر أهل المهدية عليهم واثروا فيهم وتتابع القتال وفي كل ذلك الظفر لاهل البلد وقتل من الخارجين الجم الغفير وجمع مطرف عسكره برا وبحرا لما يئس من التسليم وقاتل اشد قتال فلاصقت شوانيه شاطئ البحر وقربوا من السور فاشتد الامر فامر الحسن بفتح الباب وخرج اول الناس وحمل هو ومن معه عليهم وقال انا الحسن فلما سمع من يقاتله ذلك سلموا عليه وانهزموا عنه اجلالا له ثم اخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من الميناء فاخذ من تلك الشواني اربع قطع وهرب الباقون ثم وصلت نجدة من رجار الفرنجي صاحب صقلية في البحر في عشرين قطعة فحصرت شواني صاحب بجاية فامرهم الحسن باطلاقها فاطلقوها ثم وصل ميمون بن زيادة في كثير من العرب لنصرة الحسن فلما رأى ذلك مطرف وان النجدات تأتي الحسن في البر والبحر علم انه لا طاقة له بهم فرحل عن المهدية خائبا وأقام رجار الفرنجي مظهرا للحسن انه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك يعمر الشواني ويكثر عددها وآلاتها

(ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة)

كانت جزيرة جربة من بلاد افريقية قد استوت في كثرة عماراتها وخيراتها غير ان أهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطريق فخرج اليها جمع من الفرنج أهل صقلية في اسطول كثير وجم غفير فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فوقع بين الفريقين وقعات عظيمة فثبت أهل جربة فقتل منهم بشر كثير فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لانفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم والله أعلم بذلك

(ذكر ملك الفرنج حصن روطة من بلاد الاندلس)

في هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجي صاحب طليطلة مدة عشر سنين وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف صاحبها عن مقاومته لقلة جنوده وكثرة الفرنج فرأى ان يصالحه مدة يستريح فيها هو وجنوده ويعتدون للمعاودة فترددت الرسل بينهم فاستقر الصلح على ان يسلم المستنصر الى السليطين حصن روطة وهو من امنع الحصون واحصنها فاستقرت القاعدة واصطلحوا وتسلمت منه الفرنج الحصن وفعل

كمدفع السيل * وميسرة مشحونة بأشاهب الخيل * وماج الفريقان بعضهم في بعض كالجراد المنتشر ضربا يزيل الرؤس عن العواتق * ويبين الزنود عن المرافق * وطعنا يهتك ودائع الصدور * ويرد مشارع الغموم والسرور * ورشقا يصيب شواكل الابصار * ويطلب وراء الفقار مضجع القرار * واشتدت الحرب حتى تقلصت الشفاه * وتغضنت الجباه * وتقطعت الانفاس * وتحسرت الفرسان والافراس * واغبرت الآفاق * واحمرت الحمالق والاحداق * وخاض الامير سيف الدولة غمرة الحرب يجتذب بالاوهاق * مطالع الاعناق * ويختطف بالارماح * ودائع الارواح * ويفض بالاسياف * مجامع الاكتاف * حتى رويت الارض من زلال العلوق * وفرقت الدواعي في نواعر العروق * ودامت على حالها في الاحتدام والاضطرام * والافتراس بانياب الحمام * من حين استقلت الشمس اكليلا على الجبل * الى أن نقضت ورساعلى الاصل * فاضطرب القوم

عن صاحبها بهرام شاه انه تغير عن طاعته وانه قد مد يده الى ظلم الرعايا واغتصاب اموالهم وكان السلطان سنجر هو الذي ملك غزنة وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة فلما سمع هذه الاخبار انزعج فسار الى غزنة ليأخذها ويصلحها فلما رأى الطريق ابعد ادركهم شتاء شديد البرد كثير الثلج وتعذرت عليهم الاقوات والعلوفات فشكا العسكر الى السلطان ذلك وذكروا له ما هم فيه من الضيق وتعذر ما يحتاجون اليه فلم يجب عنه بغير التقدم امامه فلما قارب غزنة ارسل بهرام شاه الى سنجر رسولا يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه فارسل اليه سنجر المقرب جوهر الخادم وهو اكبر امير عنده ومن جملة اقطاعه مدينة الري في جواب رسالته يجيبه عن العفو عنه ان حضر عنده وعاد الى طاعته فلما وصل الى بهرام شاه اجابه الى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور عنده بنفسه واظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيأ كثيرا وعاد المقرب جوهر ومعه بهرام شاه الى سنجر فلما قاربه سبق المقرب الى السلطان سنجر واعلمه بوصول بهرام شاه وانه بكرة غد يكون عنده وعاد المقرب الى بهرام شاه ليجيء بين يديه وركب سنجر من الغد في موكبه لتلقيه وتقدم بهرام شاه ومعه المقرب فلما عاين موكب سنجر والشتر على راسه نكص على عقبيه عائدا فامسك المقرب عنانه وقبح فعله وخوفه عاقبة ذلك فلم يرجع وولى هاربا ولم يصدق بنجاته ظنا منه ان سنجرا يأخذه ويهلك بلده وتبعه طائفة من اصحابه وخواصه ولم يعرج على غزنة وسار سنجر الى غزنة فدخلها وملكها واحتوى على جميع ما فيها وجبى اموالها وكتب الى بهرام شاه يلومه على ما فعله ويحلف له انه ما أراد به شرا ولا له في بلده مطمع ولا هو ممن تلون صنيعته وتعقب حسنته معه سيئة وانما قصده لاصلاحه فاعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصل ويقول ان الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع في عوده الى الاحسان فاجابه سنجر الى ان يعيد عليه بلده وفارق غزنة عائدا الى بلاده فوصل الى بلخ في شوال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقر ملك غزنة لبهرام شاه ورجع اليها

(ذكر قتل دبيس بن صدقة بالتاريخ)

في هذه السنة قتل السلطان مسعود دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خوي أمر غلاما ارمنيا بقتله فوقف على رأسه وهو ينكت الارض باصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر وكان ابنه صدقة بالحلة فاجتمع اليه عسكر أبيه ومماليكه وكثر جمعه واستأمن اليه الامير قتلغ تكين وامر السلطان مسعود بك آبه ان يأخذ الحلة فسار بعض عسكره الى المدائن وأقاموا مدة ينتظرون لحاق بك آبه فلم يسر اليهم جبنا وعجزا عن قصد الحلة لكثرة العسكر بها مع صدقة وبقي صدقة بالحلة الى أن قدم السلطان مسعود الى بغداد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة فقصده وأصلح حاله معه ولزم باب السلطان ومثل هذه الحادثة تقع كثيرا وهو قرب موت المتعادين فان دبيسا كان يعادي المسترشد بالله ويكره خلافته ولم يكن يعلم ان السلاطين انما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقارنة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب والله أعلم بذلك

(ذكر حصر عسكر يحيى المهدية)

في هذه السنة سير يحيى بن العزيز بن حماد صاحب بجاية عسكرا ليحصروا المهدية وبها صاحبها

الحسن

وأزوع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته كريم
قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح
وزحف بهم نحو الخصوم على هيئة وافره * وهيبة ساحره * فكادت الارض تمور * والجبال تمور * والمهار الناهر يحول * والفلك الدائر يزال او يزول * وتقدم القوم باقدامه * واقبال ألويته وأعلامه * فقامت عليهم القيامه * واستفاضت فيهم الحسرة والندامه * واقبل بعضهم على بعض يتلاومون * لما بما ارتكبوه من الامر الامر واجتلبوه من الصيلم الاد وحفزهم حافز الضرورة * عن المشورة * ففزعوا الى الاحتشاد * وبعثوا بالركوب الى القواد والافراد * وبرزوا من جدران المدينه * في أفواف وأسباغ يوم الزينه * وهم أكثر ما كانوا قط في معركة تحشرهم من أطراف خراسان وماوراء النهر كل فارس وراجل * وحامل عضب أو عاسل * سوى من استبقتهم تلك الدولة من كل بطل بازل * وبطل باسل * وشجاع مقاتل * واقاموا الصفوف على الموازاة قلبا لجتمع الليل * وميمنة

وعجد بن عكر في نحو خمسة آلاف فارس واقيم عسكر الخليفة فاخرجوا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر بك ابه الى واسط وسار برتقش الى البندنيجين ونهبت العامة دار السلطان

(ذكر اجتماع اصحاب الاطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته)

في هذه السنة اجتمع كثير من الامراء وأصحاب الاطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود بن السلطان محمود في عسكر اذربيجان الى بغداد فوصلها في رابع صفر ونزل بدار السلطان ووصل اتابك عماد الدين زنكي بعده من الموصل ووصل برتقش بازدار صاحب قزوين وغيرهما والبقش الكبير صاحب اصفهان وصدقة بن دبيس صاحب الحلة ومعه عنتر بن أبي العسكر الجاواني يدبره ويتم اقصر صباه وابن برسق وابن الاحمديلي وخرج اليهم من عسكر بغداد كج ابه والطرنطاي وغيرهما وجعل الملك داود في شحنكية بغداد برتقش بازدار وقبض الخليفة الراشد بالله على ناصح الدولة ابي عبد الله الحسن بن جهير استاذ الدار وهو كان السبب في ولايته وعلى جمال الدولة اقبال المسترشدي وكان قدم اليه من تكريت وعلى غيرهما من اعيان دولته فتغيرت نيات اصحابه عليه وخافوه فاما جمال الدولة فان اتابك زنكي شفع فيه شفاعة تحتها الزام فاطلق وصار اليه ونزل عنده وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين ابي الرضا بن صدقة الى عماد الدين لتهنئته بالقدوم فاقام الوزير عنده وسأله ان يمنعه من الخليفة فاجابه الى ذلك وعاد الموكب بغير وزير وارسل زنكي من حرس دار الوزير من النهب ثم اصلح حاله مع الخليفة واعاده الى وزارته وكذلك ايضا عبر عليه قاضي القضاة الزينبي وسار معه الى الموصل ثم ان الخليفة جد في عمارة السور ففارسل له الملك داود من قلع أبوابه واخرب قطعة منه فانزعج الناس ببغداد ونقلوا اموالهم الى دار الخلافة وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب للملك داود وجرت الايمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكي وارسل الخليفة الى اتابك زنكي مائتي الف دينار لينفقها ووصل الملك سلجوق شاه الى واسط فدخلها وقبض على الامير بك ابه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكي اليه لدفعه عنها واصطلحا وعاد زنكي الى بغداد وعبر الى طريق خراسان وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود وسار الملك داود نحو طريق خراسان فنهب العسكر البلاد ووصلت الاخبار بمسير السلطان مسعود الى بغداد وفارق الملك داود واتابك زنكي فعاد اتابك زنكي الى بغداد وفارق الملك داود واظهر له انه يمضي الى مراغة اذا فارق السلطان مسعود همذان فبرز الراشد بالله الى ظاهر بغداد اول رمضان وسار الى طريق خراسان ثم عاد بعد ثلاثة ايام ونزل عند جامع السلطان ثم دخل الى بغداد خامس رمضان وارسل الى داود وسائر الامراء يأمرهم بالعود الى بغداد فعادوا ونزلوا في الخيام وعزموا على قتال السلطان مسعود ومن داخل سور بغداد ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده فعرض الخليفة الرسالة عليهم فكلهم رأى قتاله فقال الخليفة وانا ايضا معكم على ذلك

(ذكر ملك شهاب الدين حمص)

في هذه السنة في الثاني والعشرين من ربيع الاول تسلم شهاب الدين محمود صاحب دمشق

يفعل الله بالظالمين *
وجفل عبد الملك بن نوح
الى بخارا ومعه فائق في
اتباعه * وانتبذ بكتوزون
الى نيسابور في أشياعه *
وأبو القاسم بن سيمجور
الى قهستان وقد صادروا
سوق مرق وعادوا شذر
مذر وأصبح سيف الدولة
وقد أنجز الله له وعده *
ونصر جنده وحده *
واسعد الله على رغم الراغمين
جده * وأعلى يده * وأورى
زنده * وساق اليه هدي
الملك على غير مهر * سوى
الشكر * ولا صداق * سوى
الاستحقاق * وورث دولة
آل سامان * وملك ديار
خراسان * سنة تسع وثمانين
وثلثمائة ورأى أن يجعل
بكتوزون وأبا القاسم
السيمجوري عن التجمع
ثانيا * والتحدث بالالتقاء
آنفا * فانحدر الى طوس
في البحر الاخضر من رجاله
وأفياله وطار بكتوزون
بجناح الهرب الى حدود
جرجان وقفى السلطان على
اثره بأرسلان الجاذب
يفعل بطرده طرد الشهب
أشخاص العفاريت حتى
نفاه من تخوم خراسان
وولاه السلطان ناحية
طوس ووليه بما فيها ونعم
اليه من قواده وسار الى
هراة مطالا لا عمالها *

المستنصر فانه لم يفعلها قبله احد

(ذكر حصر ابن ردمير مدينة افراغة وهزيمته وموته)

وفي هذه السنة حصر ابن ردمير الفرنجي لعنه الله مدينة افراغة من شرق الاندلس وكان الامير تاشفين بن علي بن يوسف بمدينة قرطبة اميرا على الاندلس لابيه فجهز الزبير بن عمرو اللمتوني من قرطبة ومعه الفا فارس وسير معه ميرة كثيرة الى افراغة وكان يحيى بن غانية الامير المشهور امير مرسية وبلنسية من شرق الاندلس واليه الامر بها الامير المسلمين علي بن يوسف فجهز في خمسمائة فارس وكان عبد الله بن عياض صاحب مدينة لاردة فجهز في مائتي فارس فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى اشرفوا على مدينة افراغة وجعل الزبير الميرة امامه وابن غانية امام الميرة وابن عياض امام ابن غانية وكان شجاعا وكذلك جميع من معه وكان ابن ردمير في اثني عشر الف فارس فاحتقر بجميع الواصلين من المسلمين فقال لاصحابه اخرجوا وخذوا هذه الهدية التي ارسلها المسلمون اليكم وادركه العجب ونفذ قطعة كبيرة من جيشه فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم ورد بعضهم على بعض وقتل فيهم والتحم القتال وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعا مدلين بكثرتهم وشجاعتهم فحمل ابن غانية وابن عياض في صدورهم واشتد الامر بينهم وعظم القتال فكثر القتل في الفرنج وخرج في الحال اهل افراغة جميعهم ذكرهم وانثاهم صغيرهم وكبيرهم الى خيام الفرنج فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا في العسكر واشتغل النساء بالنهب وحملوا جميع ما وجدوه هنالك الى المدينة من قوت وعدد وآلات وسلاح وغير ذلك وبينما المسلمون والفرنج في القتال اذ وصل اليهم الزبير في عسكره فانهزم ابن ردمير وعسكره ولم يسلم منهم الا القليل ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مضجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة وكان أشد ملوك الفرنج باسا وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا كان ينام على طارقته بغير وطاء وقيل له هلا تسريت من بنات اكابر المسلمين اللاتي سبيت منهم فقال الرجل المحارب ينبغي ان يعاشر الرجال لا النساء واراح الله منه وكفى المسلمين شره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في شعبان زلزلت الارض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها وكانت الزلزلة شديدة وهلك فيها كثير من الناس والله أعلم

(ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان)

في هذه السنة وصل برنقش الزكوي من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقر على المسترشد من المال وهو أربعمائة الف دينار فذكر انه لا شيء عنده وان المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب ثم بلغ الراشد بالله ان برنقش يريد التهجم على دار الخلافة وتفتيشها ليأخذ المال فجمع العساكر لمنعها وأمر عليهم كج ابه وأعاد عمارة السور فلما علم برنقش بذلك اتفق هو وبك ابه شحنة بغداد وهو من أمراء السلطان على ان يهجموا على دار الخلافة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعد لهم وركب برنقش ومعه العسكر والامراء البكجية

فجئتهم من تحت المناصل * وضيقها بوخز العوالي والعوامل * وتداعوا بحملة تكشفت عنهم غمة القتال * بفصل الادبار أو الاقبال * فطرحوا المهنة على الميسرة وهم يظنون وراء ذلك ظنونا * ويخطبون من بنات الاماني أبكارا وعونا * وأبى الله الا أن ينكس عليهم ما ظنوه * ويحيق بهم وبال ما اسدوه * حين ركبوا من ولي النعمة ما ركبوه * استغفارا لنعمته * وانكارا لحرمته * واذالة لحشمته * واضاعة لحق نعمته * وألهم الامير سيف الدولة أن يزحف اليهم بسواد موقفه فلم يك الا صدمة واحدة حتى زالت الاقدام عن مقارها * وتهاوت الرقاب عن مرازها * وبهات تتساقط أشخاص الالوية والمطارد * وتبرد النفوس عن ضرب السيوف البوارد * واستقرت الهزيمة بالقلبة عند اعتكار الظلام * فطاروا بين الاقطار كل مطار * وسقت بهم سافية الدمار والادبار * فلم يلتق منهم بعدها اثنان عند تنازل الاقران * وتناوب الضراب والطعان * ذلك ذكرى للذاكرين * وكذلك

بما معهم من الغنائم بالمين منتصف رجب فامتلأ من الاسارى والدواب وفرح المسلمون بذلك فرحا عظيما ولم يقدر الفرنج على شئ يفعلونه مقابل هذه الحادثة لعجزهم ووهنهم وضعفهم

(ذكر وصول السلطان مسعود الى العراق وتفرق اصحاب الاطراف ومسير الراشد بالله الى الموصل)

قيل لما بلغ السلطان مسعودا اجتماع الملك داود والامراء ببغداد على خلافه وخطب للملك داود ابن أخيه السلطان محمود جمع العساكر وسار الى بغداد فنزل بالملكية فسار بعض العسكر حتى شارفوا عسكره وطاردوهم وكان فى الجماعة زين الدين على امير من أمراء اتابك زنكي ثم عادوا ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها وثار العيارون ببغداد وسائر محالها وافسدوا ونهبوا وقتلوا حتى انه وصل صاحب لاتابك زنكي ومعه كتب فخرجوا عليه واخذوها منه وقتلوه فحضر جماعة من اهل المحال عند الاتابك زنكي واشاروا عليه بنهب المحال الغربية فليس فيها غير عيار ومفسد فامتنع من ذلك ثم ارسل لينهب الحريم الطاهرى فاخذ منه من الاموال الشئ الكثير وسبب ذلك ان العيارين فيه وأخذوا أموال الناس ونهبت العساكر غير الحريم من المحال وحصرهم السلطان نيفا وخمسين يوما فلم يظفر بهم فعاد الى النهروان عازما على العود الى همدان فوصله طرنطاى صاحب واسط ومعه سفن كثيرة فعاد اليها وعبر فيها الى غربى دجلة وأراد العسكر البغدادى منعه فسبقهم الى العبور واختلفت كلمتهم فعاد الملك داود الى بلاده فى ذى القعدة وتفرق الامراء وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربى فعبر اليه الخليفة الراشد بالله وسار معه الى الموصل فى نفر يسير من اصحابه فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكي بغداد سار اليها واستقر بها ومنع اصحابه من الاذى والنهب وكان وصوله منتصف ذى القعدة فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف الشديد وأمر بجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف بها الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده انى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الامر فافتوا بخروجه من الخلافة وقيل غير ذلك وسنذكره فى خلافة المقتفى لامر الله وكان الوزير شرف الدين على بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البقشلانى وابن الانبارى مع السلطان لانهم عنده مذ اسرهم مع المسترشد بالله فقدحوا فى الراشد ووافقهم على ذلك اصحاب المناصب ببغداد الا اليسير لانهم كانوا يخافونه وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضا واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان بخلعه واقامة من يصلح فخلع وقطعت خطبته فى بغداد فى ذى القعدة وسائر البلاد وكانت خلافته احد عشر شهرا واحد عشر يوما وقتله الباطنية على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر خلافة المقتفى لامر الله)

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من اعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح ان يلى الخلافة فقال الوزير احد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا اقدر ان افصح باسمه لئلا يقتل فتقدم اليهم بعمل محضر فى خلع الراشد فعملوا محضرا ذكروا فيه ما ارتكبه من اخذ الاموال واشياء تقدح فى الامامة ثم

الظنون فى تدابيره ويطمع فى الارتياش عن تكسيره فواقعه بها وطرده الى نواحى بابس عنها وولى السلطان أثناء الامير نصر ابن ناصر الدين سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان ورتبه بنيسابور على ما كان بيده آل سيمجور على قديم الزمان وامتد الى بلخ مستقر أبيه ناصر الدين فاتخذها حضرة الملك ودار السلام ولما انتهى السلطان الى بعض حدود مروالروذ منصرفه اليها ركب على رسم التصيد فى خف من العدد ومعه أخوه اسمعيل بن ناصر الدين وقائد من قواد أبيه يعرف بنوشتكين كاجق وترة احساسه بما آل أمره على يده لا غير اذ كان كأسد وفقاته فى الاثبات والاطلاق والاحسان والارفاق فبينا السلطان فى هزة الاقتناص اذ حانت منه التفاتة فاذا به قابضا على قبيعة سيفه يروم انتضاءه وقد رمى وجه أخيه اسمعيل طرفه يطالب ايماءه ولاح للسلطان انكار اسمعيل عليه بدلائل رمزه وايماضه وشواهد ارتياعه وامتعاضه غير ان اشارته اياه فهم باسناه قد فرشت له بساط التهمة وجرحته بجارحة الثقة

مدينة حمص وقلعتها وسبب ذلك ان اصحابها اولاد الامير خيرخان بن قراجا والوالي بها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر عماد الدين زنكي اليها والى اعمالها وتضييقهم على من بها من جندي وعامي فراسلوا شهاب الدين في ان يسلموها اليه ويعطيهم عوضا عنها تدمر فاجابهم الى ذلك وسار اليها وتسلمها منهم في التاريخ المذكور وسلم اليهم تدمر واقطع حمص مملوك جده معين الدين انز وجعل فيها نائبا عنه ممن يثق اليه من اعيان اصحابه وعاد عنها الى دمشق فلما رأى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص عن ايديهم تابعوا الغارات الى بلدها والنهب فيه والاستيلاء على كثير منه فجرى بينهم عدة وقائع وارسل شهاب الدين الى زنكي في المعنى واستقر الصلح بينهم وكف كل منهم عن صاحبه

(ذكر الفتنة بدمشق)

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند وسبب ذلك ان الحاجب يوسف بن فيروز كان اكبر حاجب عند ابيه وجده ثم انه خاف اباه شمس الملوك وهرب منه الى تدمر فلما كان في هذه السنة سأل ان يحضر الى دمشق وكان يخاف جماعة المماليك لانه كان اساء اليهم وعاملهم اقبح معاملة فكلهم عليه حنق لاسيما في الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك وقد تقدمت فانه اشار بقتل جماعة برأيه وبقتل سونج بن تاج الملوك فصاروا كلهم اعداء مبغضين فلما طلب الامان والحضور الى دمشق أجيب الى ذلك فانكر جماعة الامراء والمماليك قربه وخافوه أن يفعل بهم مثل فعله الاول فلم يزل يتوصل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم وشرط على نفسه انه لا يتولى من الامور شيأ ثم انه جعل يدخل نفسه في كثير من الامور فاتفق اعداؤه على قتله فبينما هو يسير مع شهاب الدين والى جانبه امير اسمه برتقش يحادثه اذ ضربه برتقش بالسيف فقتله فحمل ودفن في تربة والده بالعقيبة ثم ان برتقش والمماليك خافوا فلم يدخلوا البلد ونزلوا بظاهره وارسلوا يطلبون قواعد اشتطوا فيها فاجابهم الى البعض فلم يقبلوا منه ثم ساروا الى بعلبك وبها شمس الملوك محمد بن تاج الملوك صاحبها فصاروا معه فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم وشرعوا في العيث والفساد واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم واجابتهم الى ما طلبوا واستقرت الاحوال على ذلك وحلف كل منهم لصاحبه فعادوا الى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد وخرج شهاب الدين صاحب دمشق اليهم واجتمع بهم وتجددت الايمان وصار برتقش مقدم العسكر واليه الحل والعقد وذلك في شعبان وزال الخلف ودخلوا البلد والله اعلم

(ذكر غزاة العسكر الاتابكي الى بلاد الفرنج)

في هذه السنة في شعبان اجتمعت عساكر اتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الامير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم وقصدوا اعمال اللاذقية ولم يتمكن اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم وكان الاسرى سبعة آلاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة الف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم واما ما سوى ذلك من الاقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد واخربوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر

وعقد له الامارة بابنها* فلم ينشب بكتوزون حين سمع بانثناء عنانه اليها أن كر الى نيسابور فملكها تاسيا بأنه يناضل عن دولة قد سم سماسها * وانقضت أيامها وناحت عليها اعداؤها واعاديها * فلم يزد على أن جشم السلطان كلفة الكر عليه قبل أن اطمأنت به قعدته * أو سفت على طرقه لبدته * فجفل عن نيسابور على سمت أبيورد وشد السلطان عليه الطلب فركب المفازة الى مرو منفقا بالوحاء على النجاة * ومستظهرا بالنجاة على النجاة * وخلص الى مرو فيمن أعانتهم فراهة المراكب * وقوة الصبر على وعثاء تلك المهارب * ورام أن يتملكها ويحتجز بها فمانعه اهلها موالاة للسلطان * وشكرا لما وسعهم من العدل والاحسان * فشن عليهم غارة شعواء * وخبطهم بالسيوف خبط عشواء * وركب مفازة آمل حتى عبر النهر الى بخارا وما خلت خراسان من بكتوزون واصحابه سرب السلطان ارسلان الجاذب والى طوس الى قهستان لنفضها عن أبي القاسم بن سيمجور اذ كان ينازل

لاحد من زعماء الاطراف ان يكون لهم نصيب من خاص الخليفة وكانت بيعة كمال الدين سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ولما عاد كمال الدين الشهرزورى سير على يده المحضر الذى عمل بخلع الراشد فحكم به قاضى القضاة الزينبى بالموصل وكان عند اتابك زنكى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين انوشروان بن خالد وعاد الى بغداد وقام بداره معزولا ووزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن سلمة الدركزينى وهو من خراسان وفيها ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها وفتكوا فى البلد ونهبوا الاموال ظاهرا وكثر الشر فقصد الشحنة شارع دار الرقيق وطلب العيارين فثار عليه أهل المحال الغربية فقاتلهم وأحرق الشارع فاحترق فيه خلق كثير ونقل الناس أموالهم الى الحريم الظاهرى فدخله الشحنة ونهب منه مالا كثيرا ثم وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وبين أهل المأمونية وقتل بينهم جماعة ثم اصطلحوا وفيها سار قراسنقر فى عساكر كثيرة فى طلب الملك داود بن السلطان محمود فاقام السلطان مسعود ببغداد ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة فالتقيا وتصافا واقتتل العسكران قتالا عظيما فانهزم داود وأقام قراسنقر باذربيجان واما داود فانه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم فبلغت عدتهم نحو عشرة آلاف فارس فقصد تستر وحاصرها وكان عمه الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد بواسط فارسل الى أخيه السلطان مسعود يستنجده فامده بالعساكر فسار الى داود وهو يحاصر تستر فتصافا فانهزم سلجوق شاه وفيها توفى محمد بن حمويه أبو عبد الله الجوينى وهو من مشايخ الصوفية المشهورين وله كرامات كثيرة ورواية الحديث وتوفى أيضا محمد بن عبد الله ابن أحمد بن حبيب العامرى الصوفى مصنف شرح الشهاب وأنشد لما احتضر

ها قد مددت يدى اليك فردها * بالعفو لا بشماتة الاعداء

وتوفى أيضا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفراوى الصاعدى راوى صحيح مسلم عن عبد الغافر الفارسى وطريقه اليوم أعلى الطرق واليه الرحلة من الشرق والغرب وكان فقيها مناظرا ظريفا يخدم الغرباء بنفسه وكان يقال الفراوى الف راوى رحمه الله ورضى عنه

(ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود)

فى هذه السنة فى المحرم اذن السلطان مسعود للعساكر التى عنده ببغداد بالعود الى بلادهم لما بلغه ان الراشد بالله قد فارق اتابك زنكى من الموصل فانه كان يتمسك بالعساكر عنده خوفا ان ينحدر به الى العراق فيملكه عليه فلما أراد أن يأذن للامير صدقة بن دبيس صاحب الحلة زوجه ابنته تمسكا به وقدم على السلطان مسعود جماعة من الامراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحى وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همدان فرضى عنهم وأمنهم وولى البقش شحنكية بغداد فعسف الناس وظلمهم وكان السلطان مسعود بعد تفرق العساكر عنه قد بقى معه الف فارس وتزوج الخليفة فاطمة أخت السلطان مسعود فى رجب والصداق مائة ألف دينار وكان الوكيل فى قبول النكاح وزير

عنها بمثل ما كان يذويه فلله هذا الفعال الذى طرز ديباجة الكرم وغبر فى وجه مساعى ملوك الامم وقد يستغرب هذا الاسجاح من وجه وان كان لا يستبدع من آخر لان هناك عاطفة القربى والرحم ولكن الشأن فى الاجانب الذين تغلق رقابهم الاجرام الفادحة والجنايات الفاحشة كيف يسلط فيهم رأيه على هواه ويستبقى الجانى بما جناه فلم يسمع باعف منه فى الجنايات سيفا ولا أحسن على فورة الزلات صبرا واحتج لهذه الخصلة الفاضلة بان الملك الحازم من يسلب الجانى فى حال سخطه ما يمكنه الوفاء بعينه او بمثله عند رضاه وجرح المال يؤسى بالتعويض والاخلاف فاما النفوس فليس لاتلافها من تلاف

(ذكر الخلع التى أفاضها القادر بالله أمير المؤمنين على السلطان يمين الدولة وأمين الملة أنار الله برهانهما)

أوجب القادر بالله أمير المؤمنين له خلعا لم يسمع بمثلها محمولة من دار الخلافة ولقبه فى كتابه يمين الدولة وأمين الملة لقبا كان مصونا فى صدف الشرف لم تنله أيدى الغاصة قط على كثرة

كتبوا فتوى ما تقول العلماء فيمن هذه صفته هل يصلح للامامة أم لا فافتوا ان من هذه صفته لا يصلح ان يكون اماما فلما فرغوا من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك فحكم بفسقه وخلعه وحكم بعده غيره ولم يكن قاضي القضاة حاضرا فانه كان عند اتابك زنكي بالموصل ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن ابن البقشلاني وغيرهما وأمر باحضار الامير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي يسكن فيه فاحضر وأجلس في المثمنة ودخل السلطان اليه والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجة ولقب المقتفي لامر الله قيل سبب اللقب انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلي الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير اليك فاقتف بي فلقب بذلك ولما استخلف سيرت الكتب الحكمية بخلافته الى سائر الامصار واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي فارسل الى الموصل وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين الزينبي ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن وجرت الامور على أحسن نظام وبلغني ان السلطان مسعودا أرسل الى الخليفة المقتفي لامر الله في تقرير اقطاع يكون لخاصته فكان جوابه ان في الدار ثمانين بغلا تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج اليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فتقررت القاعدة على ان يجعل له ما كان للمستظهر بالله فاجاب الى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله لقد جعلنا في الخلافة رجلا عظيما والمقتفي عم الراشد هو والمسترشد ابنا المستظهر وليا الخلافة وكذلك السفاح والمنصور اخوان وكذلك المهدي والرشيد اخوان وكذلك الواثق والمتوكل اخوان واما ثلاثة اخوة ولوا الخلافة فالامين والمأمون والمعتصم وهم أولاد الرشيد والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر واما اربعة اخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يعرف غيرهم وحين استقرت الخلافة للمقتفي ارسل اليه الراشد بالله رسولا من الموصل مع رسول اتابك زنكي وكان كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري فاحضر في الديوان وسمعت رسالته وحكى لي والدي عنه قال لما حضرت الديوان قيل لي تبايع أمير المؤمنين فقلت امير المؤمنين عندنا في الموصل وله في اعناق الخلق بيعة متقدمة وطال الكلام وعدت الى منزلي فلما كان الليل جاءتني امرأة عجوز سرا واجتمعت بي وابلغتني رسالة عن المقتفي لامر الله مضمونها عتابي على ما قلته واستنزالي عنه فقلت غدا اخدم خدمة يظهر اثرها فلما كان الغد حضرت الى الديوان وقيل لي في تعيين البيعة فقلت انا رجل فقيه قاضي ولا يجوز لي ان ابايع الان يثبت عندي خلع المتقدم فاحضروا الشهود وشهدوا عندي في الديوان بما اوجب خلعه فقلت هذا ثابت لا كلام فيه ولكن لا بد لنا في هذه الدعوى من نصيب لان امير المؤمنين قد حصل له خلافة الله في ارضه والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ويخشى باي شيء نعود فرفع الامر الى الخليفة فامر ان يعطى اتابك زنكي صريفين ودرب هرون وحربى ملكا وهي من خاص الخليفة ويزداد في ألقابه وقال هذه قاعدة لم يسمح بها

لو بادر السلطان الى مضربه وقد أمر بالاحتياط عليه في وقته وحكم فيه خواص غلمانه فاخذته السيوف حتى تطايرت أعضاؤه وتناثرت عليه أوصاله وأجزاؤه ثم دعا السلطان بأخيه اسمعيل فادلى بعذره وجدد العهد بما أبداه الخائن الهالك من خائنة سره وغدره وجرت مفاوضات ومراسلات اقتضاها آخرها أن يستوثق منه لنفسه ومملكته اذ كان لا يلتقي سيفان في غمد ولا يجتمع فحلان في شول وبلغني ان السلطان بعد استنزاله اياه عن القلعة بغزنة بسط منه في بعض مجالس انسه وباحثه بلسان الاستدراج عند حث السقاة عما كان ينوي به في معاملته أن لو ملك من أمره ما ملكه هو منه فحمله سلامة صدره ونشوة خمره على أن قال كان رأيي فيك ان أعزلك الى بعض القلاع موسعا عليك فيما تقترحه من دار وغلمة وسرار ورزق على قدر الكفاية دار فلما ارتاب السلطان عند الحادثة به عامله بعين ما نواه وقابله بجنس ما أبداه واستودعه والى الجوزجان أبا الحرث محمدا بما يشتبه به

وفي هذه السنة في رجب سار عسكر دمشق مع مقدمهم الأمير بزاوش الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان أيضا خلق كثير فلما سمع القمص صاحبها بقربهم من ولايته سار اليهم في جموعه وحشوده فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا الى طرابلس في صورة سيئة قد قتلت فرسانهم وشجعانهم فلما عادوا نهب المسلمون من أعمالهم أكثرها وحصروا حصن وادي ابن الأحمر وضيقوا عليه فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وسبوا الحريم والذرية وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق سالمين والله أعلم

(ذكر حصار زنكي مدينة حمص)

في هذه السنة في شعبان سار أتابك زنكي الى مدينة حمص وقدم اليها صاحبه صلاح الدين محمد الباغيسياني وهو أكبر أمير معه وكان ذا مكر وحيل أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها اليه فوصل اليها وفيها معين الدين أنز وهو الوالي عليها والحاكم فيها وهو أيضا أكبر أمير بدمشق وحمص اقطاعه كما سبق ذكره فلم ينفذ فيه مكره فوصل حينئذ زنكي اليها وحصرها وعاود مراسلة أنز في التسليم غير مرة تارة بالوعد وتارة بالوعيد واحتج بأنها ملك صاحبه شهاب الدين وانما بيده أمانة ولا يسلمها الا عن غلبة فأقام عليها الى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض الى بعرين فحصرها وكان منه ومن الفرنج ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك زنكي قلعة بعرين وهزيمة الفرنج)

وفي هذه السنة في شوال سار أتابك زنكي من حمص كما ذكرناه وحصر قلعة بعرين وهي للفرنج تقارب مدينة حماة وهي من أمنع الحصون وأحصنها فلما نزل عليها قاتلها وزحف اليها فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وساروا في قضهم وقضيضهم وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم الى أتابك زنكي ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم الى أن وصلوا اليه فلقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع أتابك زنكي عنهم كل شيء حتى الأخبار فكان من به منهم لا يعلم شيأ من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكي ان أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها وان المسلمين ليس لهم نية الا قصد البيت المقدس فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم وكان منهم ما نذكره وأما زنكي فانه جد في قتال الفرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة فانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا يعتقدون ان أحدا يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقي البلاد بالشام فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون الى بلادهم فلم يجبهم الى ذلك فلما سمع بقرب ملك الروم من الشام واجتماع من بقي من الفرنج أعطى لمن في الحصن الأمان وقرر عليهم تسليم الحصن ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها اليه فأجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان لا يصل اليهم شيء من الأخبار

ومعه فائق ولقب لاحق به بكتوزون في أصحابه وأولياء عبد الملك في مضامته طمعوا في الاستقلال* وتكهنوا لأنفسهم بطالع الاقبال* وتحققوا بالاستبداد لأنف القتال* واخترم من بينهم فائق في شعبان سنة تسع وثمانين وثلثمائة وهو وجه الرزمة وطراز الحلة* وعمدة الجملة* والملقب بعميد الدولة* فتمكن الانخزال من صدورهم* وسرى الاختلال في أمورهم* وانحدر ايلك الخان الى باب بخارا يظهر لعبد الملك وسائر أجناده واحتشاده موالاة خداع *واحتيال وموالاة استدراج واغتيال* وهم يظنون استظهارا على ما عراهم* واستنباطا لما يشد عراهم* مغرورين عن واجب الاستبصار* والاحتراس عن حبائل الأوتار* حتى آنسهم بلطائف بره واقباله* وأطمعهم بزخارف أقواله وأفعاله* وركب اليه بكتوزون وينال تكين الفائقي وسائر قواد عبد الملك صباح يوم فلما اطمأن بهم المجلس أمر باعتقالهم والقبض على أصحابهم ودوابهم* واستلاب أسلحتهم وأسبابهم* فلم ينج منهم الا القارد الشارد* والسادر

الخليفة على بن طراد الزينبي والوكيل عن السلطان وزيره الزكزبي ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دبيس بن صدقة صهريه وحيث سار الراشد بالله من عند زنكي الاتابك والله أعلم .

(ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوى صاحب مصر وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان نصرانيا أرمنيا فتمكن فى البلاد واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم فلم يكن فى أهل مصر من أنف من ذلك الا رضوان بن الريحيني فانه لما ساءه ذلك وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام فهرب الى الصعيد من غير حرب ولا قتال وقصد مدينة اسوان فمنعه واليها من الدخول اليها وقاتله فقتل السودان من الارمن كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فأمنه فعاد الى القاهرة فسجن بالقصر فبقى مدة ثم ترهب وخرج من الحبس واما رضوان فانه وزر للحافظ ولقب بالملك الافضل وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ثم فسد ما بينه و بين الحافظ فعمل الحافظ فى أمرابيه فثار الناس عليه منتصف شوال فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها ما لا يحد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس ونقل ما بقى فى دار رضوان الى قصره واما رضوان فسار يريد الشام يستنجد الاتراك ويستنصرهم فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال ليرده بالامان والعهد انه لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده فى القصر وقيل انه توجه الى الشام وهو الصحيح وقصد صرخد فوصل اليها فى ذى القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فاكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة اربع وثلاثين وخمسمائة ومعه عسكر فقاتل المصريين عند باب النصر وهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام ثلاثة أيام فتفرق عنه كثير ممن معه فعزم على العود الى الشام فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال فرده وحبسه عنده فى القصر وجمع بينه و بين عياله وأهله فاقام فى القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الاقمر فارسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفرقه على عادتهم فانهم كانوا اذا وزر وزير أرسلوا اليه عشرين الف دينار ليفرقها فارسل الحافظ عشرين الف دينار فقسمها وكثر عليه الناس وطلب زيادة فارسل اليه عشرين الف دينار ففرقها فتفرق الناس وشغبوا عنه فاذا الصوت قد وقع وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقاتلوهم فقام يركب فقدم اليه بعض أصحابه فرسا ليركبه فلما اراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل راسه الى الحافظ فارسله الى زوجته فوضع فى حجرها فالقته وقالت هكذا يكون الرجال ولم يستوزر الحافظ احدا وباشر الامور بنفسه الى ان مات

(ذكر فتح المسلمين حصن وادى ابن الاحمر من الفرنج)

الجلالية وتنافس الملوك فى الالقاب فتبوأ سرير الملك واجتاب خلعة الحمد وأذاع شعار الطاعة لامير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين رسم الخدمة وملتزمين حكم الهيبة وأجلسهم بعد الاذن العام على مجالس الانس وأمر لكل منهم واسائر غلمانه وخاصته ووجوه أوليائه وحاشيته بحسابه بوسمه من روائع الخلع والصلات ونفائس الاحسبة والكرامات بما لم يتسع لمثله ملك ملك ولم يف بمثله ضمير أمير واستجابت خراسان لامره وفرعت منابرها بذكره واتسقت الامور على آخرها فى كنف ايالته واستوسقت الاعمال فى ضمن كفالته وفرض على نفسه فى كل عام غزوة فى الهند ينصر بها الدين ويقمع أعداء الله الملحدين فكتب الله له أجره وأحسن نصره كذلك قال الله تعالى فى محكم كتابه العزيز يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

(ذكر انصراف عبد الملك بن نوح الى بخارا)

ولما وصل عبد الملك بن نوح الى بخارا فى القل

(ذكر ملك اتابك زنكى حمص وغيرها من عمل دمشق)

وفى هذه السنة فى المحرم وصل اتابك زنكى الى حماة وسار منها الى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل وكان لصاحب دمشق وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وهو أيضا لصاحب دمشق وسار الى حمص فحصرها وأدام قتالها فلما نازل ملك الروم حلب رحل عنها الى سلمية فلما انجلت حادثة الروم على ما ذكرناه عاود منازلة حمص وأرسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه أمه ليتزوجها واسمها زمرد خاتون ابنة جاولى وهى التى قتلت ابنها شمس الملوك وهى التى بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادى شقرا ونهر بردى فتزوجها وتسلم حمص مع قلعتها وحملت الخاتون اليه فى رمضان وانما حمله على التزوج بها ما رأى من تحكمها فى دمشق فظن انه يملك البلد بالاتصال اليها فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شئ فاعرض عنها

(ذكر وصول ملك الروم الى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين)

قد ذكرنا سنة احدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده وشغله بالفرنج وابن ليون فلما دخلت هذه السنة وصل الى الشام وخافه الناس خوفا عظيما وقصد بزاعة فحصرها وهى مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فمضى جماعة من أعيان حلب الى اتابك زنكى وهو يحاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه فسير معهم كثيرا من العساكر فدخلوا الى حلب ليمنعوها من الروم ان حصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها منجنيقات وضيق على من بها فملكها بالامان فى الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسر وسبى وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها نحو أربعمائة نفس وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى فقيل لهم ان جمعا كثيرا من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات فدخنوا عليهم فهلكوا فى المغاير ثم رحلوا الى حلب من الغد فى خيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فقاتلهم قتالا شديدا فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام فلم يروا فيها مطمعا فرحلوا الى قلعة الاثارب فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها تاسع شعبان فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والاسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا فلما سمع الامير اسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر الى الاثارب فاوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبى وعادوا الى حلب واما عماد الدين زنكى فانه فارق حمص وسار الى سلمية فنازلها وعبر ثقله الفرات الى الرقة وأقام جريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة واما الروم فانهم قصدوا قلعة شيزر فانها من أمنع الحصون وانما حصروها لانها لم تكن لزنكى فلا يكون له فى حفظها اهتمام وانما كانت للامير أبى العساكر سلطان بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى فنازلوها وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقا فارسل صاحبها الى زنكى يستنجده فسار اليه فنزل على نهر العاصى بالقرب منها بينها وبين حماة وكان يركب كل يوم ويسير الى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم ثم انه أرسل الى ملك الروم يقول له انكم قد تحصنتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقى فان ظفرت بكم ارحت المسلمين منكم وان

باعتقالهم وزنهم افراد الاخوة منهم فى حجرة على حدة احتياطا لنفسه بتفريق ذات بينهم عن تمكينهم من اقتضاب الحيل واختلاق الاراجيف وارتقاب الفرص واحتال أبو ابراهيم المنتصر القاسم من معتقله فى زى جارية كانت تتناوبهم لمطالعة أحوالهم ومراعاة أوقات أقواتهم فكانت حاله فى الخلاص موافقة لحال الكميت حين استغشى ثياب طلته * وانسل عن عقد الاعتقال بهيئته * ثم أنشأ يقول

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل
على الرغم من تلك النوابح والمشلى
على ثياب الغانيات وتحتها
صريمة رأى أشبهت سلة النصل

واستخفى المنتصر بعد خلاصه عند عجوز من أهل بخارا الى ان أيس منه الطلب ثم سار الى خوارزم كالحسام القاضب * بل الشهاب الثاقب * متجردا للانتصار * مستعينا بالله على درك الثار * وتلاحق به من ند وعار * وأنجد وغار * من بقايا القواد والاجناد السامانية فى أطراف خراسان حتى اجتمع له

البتة فاهدا سلوه و كان زنكي في مدة مقامه عليهم فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بينها وبين حلب وحماة مع أهل شيزر في الخزي لان الحرب بينهم قائمة على ساق والنهب والقتل لا يزال بينهم فلما ملك أمن الناس وعمرت البلاد وعظم دخلها وكان فتحا مبينا ومن رآه علم صحة قولي ومن أحسن الاعمال ما عمله زنكي مع أهل المعرة فان الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم فلما فتحها زنكي الآن حضر من بقي من أهلها واعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فقالوا ان الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التي للاملاك فيها فقال اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم اليه ففعلوا ذلك واعاد على الناس املاكهم وهذا من احسن الافعال واعدلها

(ذكر خروج ملك الروم من بلاده الى الشام)

قد تقدم ان الفرنج ارسلوا الى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرفونه ما فعله زنكي فيهم ويحرضونه على لحاق البلاد قبل ان تملك ولا ينفعه حينئذ المجيء فتجهز وسار مجدا فابتدأ وركب البحر وسار الى مدينة انطاكية وهي له على ساحل البحر فارسي فيها واقام ينتظر وصول المراكب التي فيها اثقاله وسلاحه فلما وصلت سار عنها الى مدينة نيقية فحصرها وان اصحابها صالحوه على مال يؤدونه اليه وقيل بل ملكها وسار عنها الى مدينة اذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الارمني صاحب قلاع الدروب فحصرهما وملكهما ورحل الى عين زربة فحصرها وملكها عنوة وملك تل حمدون وحمل اهله الى جزيرة قبرس وعبر مينا الاسكندرية وخرج الى الشام فحصر مدينة انطاكية في ذي القعدة وضيق على اهلها وبها صاحبها الفرنجي ريمند فترددت الرسل اليهم ومشوا بينهم فتصالحا ورحل عنها الى بغراس ودخل منها الى بلد ابن ليون الارمني فبذل له ابن ليون اموالا كثيرة ودخل في طاعته والله اعلم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة رابع وعشرين من ايار ظهر بالشام سحاب اسود واظلمت له الدنيا وصار الجو كالليل المظلم ثم طلع بعد ذلك سحاب احمر كانه النار اضاءت له الدنيا وهبت ريح عاصفة القت كثيرا من الشجر وكان اشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعده مطر شديد وبرد كبار وفيها عاد مؤيد الدين ابو الفوارس المسيب علي بن الحسين المعروف بابن الصوفي من صرخد الى دمشق وكان قد اخرج هو واهله من دمشق الى صرخد فبقوا فيها الى الآن وعادوا وولي ابو الفوارس الرياسة بدمشق وحكم فيها حكما ماضيا وكان ذا رياسة عظيمة ومروءة ظاهرة وفيها كثرت الامراض ببغداد وكثر الموت فجأة باصفهان وهمذان وفيها سار اتابك زنكي الى دقوقا فحصرها وملكها بعد ان قاتل على قلعتها قتالا شديدا وفيها توفي ابو سعيد احمد بن محمد ابن ثابت الخجندي رئيس الشافعية باصفهان وتفقه على والده ودرس بالنظامية باصفهان وتوفي ابو القاسم هبة الله بن احمد بن عمر الحريري ومولده يوم عاشوراء سنة خمس وثلاثين واربعمائة وهو آخر من روى عن ابي الحسن زوج الحرة وقد روى الخطيب ابو بكر بن ثابت من زوج الحرة ايضا وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستين واربعمائة

(ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة)

*(ذكر

المبادر * وبلغ الخبر عبد الملك * أوجد عدته قليله وقوته مستحيله * فلم يجد غير الاستخفاء مجمله * ودخل ايلك بخارا يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعدة سنة تسع وثمانين وثلثمائة ونزل دار الامارة وبث على عبد الملك عيون الطلب * وطلائع الرغب والرهب * حتى ظفر به وحمله الى أوزكند فمات بها وطفئت بقية الشعلة من دولة آل سامان * بما وراء النهر وأطراف خراسان * فصارت كأن لم تغن بالامس كدأب الدول الماضيه * في القرون الخاليه * ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون

(ذكر خروج ابي ابراهيم اسمعيل بن نوح المنتصر وما جرى بينه وبين ايلك الخان بما وراء النهر وبين صاحب الجيش ابي المظفر نصر بن ناصر الدين بخراسان)

كان سبب خروجه انه لما تمكن ايلك الخان من بخارا قبض على ابي الحرث المكحول وعبد الملك وابي ابراهيم المنتصر وابي يعقوب بني نوح بن منصور الرضي وعلى اعمامهم ابي زكريا وابي سليمان وابي صالح الغازي وغيرهم من الارومة السامانية واهل

لحين رميته بك في خميس * تيقن ان ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا * فاحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور * توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى * وليس سوى الحمام له حميم

وهي قصيدة طويلة ومن عجيب ما يحكى ان ملك الروم لما عزم على حصر شيزر سمع من بها ذلك فقال الامير مرشد بن علي صاحبها وهو ينسخ مصحفا اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني اليك فتوفي بعد أيام

(ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الامراء)

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو اذربيجان فوصل مراغة وكان الامير منكبرس صاحب فارس ونائبه بخوزستان الامير بوزابة والامير عبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال والملك داود بن السلطان محمود مستشعرين من السلطان مسعود خائفين منه فتجمعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع لتكون أيديهم واحدة ويردوه الى الخلافة فاجابهم الى ذلك الا انه لم يجتمع معهم ووصل الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم فسار عنها في شعبان نحوهم فالتقوا بپنجن كشت فاقتتلوا فهزمهم السلطان مسعود وأخذ الامير منكبرس أسيرا فقتل بين يديه صبرا وتفرق عسكر مسعود في النهب واتباع المنهزمين وكان بوزابة وعبد الرحمن طغايرك على نشز من الارض فرأيا السلطان مسعودا وقد تفرق عسكره عنه فحملا عليه وهو في قلة فلم يثبت لهما وانهزم وقبض بوزابة على جماعة من الامراء منهم صدقة بن دبيس صاحب الحلة ومنهم ولد اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم عنده فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم اجمعين وصار العسكران منهزمين وكان هذا من اعجب الاتفاق وقصد السلطان مسعود اذربيجان وقصد الملك داود همدان ووصل الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء الجماعة فبعضهم اشار بقصد العراق والتغلب عليه وبعضهم اشار باتباع السلطان مسعود للفراغ منه فان ما بعده يهون عليهم وكان بوزابة اكبر الجماعة فلم ير ذلك وكان غرضه المسير الى بلاد فارس واخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل ان يمتنع من بها عليه فسار اليها فملكها وصارت له مع خوزستان وسار سلجوق شاه ابن السلطان محمد الى بغداد ليملكها فخرج اليه البقش الشحنة بها ونظر الخادم امير الحاج وقاتلوه وكان عاجزا مستضعفا ولما قتل صدقة بن دبيس اقر السلطان مسعود الحلة على أخيه محمد بن دبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول يدبره ولما كان البقش شحنة بغداد يقاتل سلجوق شاه ثار العيارون ببغداد ونهبوا الاموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون ارباب الاموال ظاهرا ويأخذون منهم ما يريدون ويحملون الامتعة على رؤس الحمالين فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب وغلت الاسعار وكثر الظلم منه وأخذ المستورين بحجة العيارين فجلا الناس عن بغداد الى الموصل وغيرها من البلاد

(ذكر قتل الراشد بالله)

أطابيش الترك وصعد صعدة في العدد الدثر نكر أرسلان بالو راجعا الى المنتصر واقتضاه الاحتياط عند ذلك العبور الى آمل الشط فوافاها ووجاها وضاقت به وبعسكره فركب المفازة على سمت ابيورد فملكها وسار عنها قاصدا قصد نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين فالتقيا على فضاء بين بغانق وبشمة وذلك يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من شهر ربيع الاول سنة احدى وتسعين وثلثمائة ودارت عليهما رحا الحرب يفصلون بالبيض البوارق * ما بين الطلى والعواتق * ويضربون مفارق الهام * ضرب القدار نقيعة القدام * ولما اشتدت وطأة الحرب على صحبها * ومرت كأسها على شربها * وتكاثفت جموع أبي ابراهيم المنتصر على صاحب الجيش أبي المظفر اقتضاهم الاستظهار أن ينحيزوا الى جانب هراة انتظارا للمدد * واستمرارا للمأمول صنع الله في الغد * فخشوا ظهور الخيل * بين ذيول الليل * حتى شابت عليهم لمة بين سعدود ونوزبان وتمكن المنتصر من نيسابور وانضم اليه من

ظافر ثم استرجعتم واخذتم شيزر وغيرها ولم يكن له بهم قوة وانما كان يرهبهم بهذا القول واشباهه فاشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافقته وهونوا امره عليه فلم يفعل وقال اتظنون ان ليس له من العسكر الا ماترون انما هو يريد ان تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له وكان زنكي يرسل ايضا الى ملك الروم يوهمه بان فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها في رمضان وكان مقامه عليها اربعين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار اتابك زنكي يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير ممن تخلف منهم واخذ جميع ما تركوه ولما كان الفرنج على بزاعة ارسل زنكي القاضي كمال الدين ابا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الى السلطان مسعود يستنجده ويطلب العساكر فمضى الى بغداد وانهى الحال الى السلطان وعرفه عاقبة الاهمال وانه ليس بينه وبين الروم الا ان تملك حلب وتنحدر مع الفرات الى بغداد فلم يجد عنده حركة فوضع انسانا من اصحابه يوم جمعة فمضى الى جامع القصر ومعه جماعة من زنود العجم وامرهم ان يثوروا بهم اذا طلع الخطيب المنبر ويصيح ويصيحون معه واسلاماه وادين محمداه ويشق ثيابه ويرمي عمامته من راسه ويخرج الى دار السلطان والناس معه يستغيثون كذلك ووضع انسانا آخر يفعل بجامع السلطان مثله فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم راسه والقى عمامته وشق ثوبه واولئك معه وصاحوا فابكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وسار وامن الجامع يتبعون الشيخ الى دار السلطان يستغيثون ويبكون فخاف السلطان فقال احضروا الي ابن الشهرزوري فاحضر فقال كمال الدين لقد خفت منه مما رأيت فلما دخلت قال لي اي فتنة اثرت فقلت ما فعلت شيأ انا كنت في بيتي وانما الناس يغارون للدين والاسلام ويخافون عاقبة هذا التواني فقال اخرج الى الناس ففرقهم عنا واحضر غدا واختر من العسكر ما تريد ففرقت الناس وعرفتهم ما امر به من تجهيز العساكر وحضرت الغد الى الديوان فجهزوا لي طائفة عظيمة من الجيش فارسلت الى نصير الدين بالموصل اعرفه ذلك واخوفه من العسكر ان طرقوا البلاد فانهم يملكونها فاعاد الجواب يقول البلاد لا شك مأخوذة فلأن يأخذها المسلمون خير من ان يأخذها الكافرون فشرعنا في التحمل واذا قد وصلني كتاب اتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرني بان لا استصحب من العسكر احدا فعرفت السلطان ذلك فقال العسكر قد تجهزت ولا بد من الغزاة الى الشام فاعتذ الجهد وبذل الحزم له ولاصحابه حتى عاد العسكر ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء اتابك زنكي واكثروا فمن ذلك ما قاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي من جملة قصيدة اولها

بعزمك ايها الملك العظيم * تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملتها هذه الابيات

الم تر ان كلب الروم لما * تبين انه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلا * كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه * ودان لخطبه الخطب العظيم

وكثف خيله ورجاله * وركض ارسلان بالواجب الى بخارا فبيت الخانية بها فحشا الاحف وغلهم بحقائق السيوف البوارق * عن مجاز الاحلام الطوارق وقبض على جعفر تكين وعلى سبعة عشر نفسا من اعيان القواد الخانية * وسلمهم في وثاق الاسر الى البلرسانيه * وافلت الباقون بجريعة الاذقان * فحنوا ايلك الخان * فركب ارسلان اكتافهم بحيث الشمال فنزع الخريف وطردهم الى سمرقند فقفى آثارهم * وكاسع ادبارهم * ووافقه بقنطرة كوهك تكين خان في عسكر جرار ناصعا ايلك في حراسة سمرقند وما يليها فانتدب لمناجزته * واستعان بالقل وسائر اصحابه على مبارزته * فنصب له ارسلان وجها وقفاها * واضرم عليه الارض كفاها * فولاه ظهر الادبار * واتقاه بعوذة الفرار * وغنم ارسلان ومن معه اموالهم * وردوا بتلك الانفال اموالهم * وعاد ابو ابراهيم المنتصر عند ذلك الى بخارا فاستبشر اهلها بمعاودته على مراده وبلغ ايلك الخان خبره فجمع

السيرة ازال المكوس ورفع المظالم وكان يقيم مؤنة السلطان ووظائفه وجمع له خزائن كثيرة وكشف اشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق فثقل على المتصرفين وارباب الاعمال فاوقعوا بينه وبين الامراء لاسيما قراسنقر صاحب اذربيجان فانه فارق السلطان وارسل يقول اما ان تنفذ رأس الوزير واما ان نخدم سلطانا آخر فاشار من حضر من الامراء بقتله وحذروه فتنة لا تتلافى فقتله على كره منه وارسل راسه الى قراسنقر فرضي وكانت وزارته سبعة اشهر وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ووزر بعده ابو العز طاهر بن محمد البروجردي وزير قراسنقر ولقب عز الملك وضاقت الامور على السلطان مسعود واستقطع الامراء البلاد بغير اختياره ولم يبق له شيء من البلاد البتة الا اسم السلطنة لا غير

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ملك حسام الدين تمرتاش ايلغازي صاحب ماردين قلعة الهتاخ من بلاد ديار بكر اخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهذا آخر من بقي فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا يتطرق اليه النقص ولا التغيير وفيها انقطعت كسوة الكعبة لما ذكرناه من الاختلاف فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسي كساها من الثياب الفاخرة بكل ما وجد اليه سبيل فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر الف دينار مصرية وهو من التجار المسافرين الى الهند كثير المال وفيها توفيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق زوج السلطان مسعود وتزوج بعدها سفرى ابنة دبيس بن صدقة في جمادى الاولى وتزوج ابنة قاورت وهو من البيت السلجوقي الا انه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلا ونهارا فلهذا اسقط اسمه وذكره وفيها قتل السلطان مسعود بن البقش السلاحي شحنة بغداد وكان قد ظلم الناس وعسفهم وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم فقبض عليه وسيره الى تكريت فسجنه بها عند مجاهد الدين بهروز ثم امر بقتله فلما ارادوا قتله القى بنفسه في دجلة فغرق فاخذ راسه وحمل الى السلطان وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز ففعل افعالا صالحة منها انه عمل مسناة النهروان واشباهها وكان حسن السيرة كثير الاحسان وفيها درس الشيخ ابو منصور بن الرزاز بالنظامية ببغداد وفيها ارسل الخليفة الى اتابك زنكي في اطلاق قاضي القضاة الزينبي فاطلق وانحدر الى بغداد فخلع عليه الخليفة واقره على منصبه وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالت مدته وعظم امره حتى اكل الناس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدواب وتفرق اكثر اهل البلاد من الجوع وفيها توفي طغان ارسلان صاحب بدليس وارزن من ديار بكر وولي بعده ابنه فرتي واستقام له الامر وفيها في شهر صفر جاءت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها من البلاد فخربت كثيرا منها وهلك تحت الهدم عالم كثير وفيها توفي احمد بن محمد بن ابي بكر بن ابي الفتح الدينوري الفقيه الحنبلي ببغداد وكان ينشد كثيرا هذه الابيات

تمنيت ان تمسى فقيها مناظرا * بغير عناء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة * تلقيتها فالعلم كيف يكون

وفيها توفي محمد بن عبد الملك بن عمر ابو الحسن الكرخي ومولده سنة ثمان وخمسين واربعمائة

الأسمرية والأسقاطونيات العضدية * والحلل القطرية والخزوز الطاقية * وسائر الثياب المصرية * وأمر لأهل عسكره بعشرين ألف درهم معونة لهم على عوارض حاجاتهم * وأشار على المنتصر بقصد الري اذ كانت معرضة لقصادها بتخاذل أهوائها وتوا كل أوليائها * واشتجار الفتن والاحن بين الذائدين عن فنائها * على أن عدة بولديه دارا ومنوجهر في جيوش الجيل والديلم ووجوه الاكراد والعرب ليستظهر باستخلاص تلك الولاية * وليكون ما ينويه من معاودة خراسان عن ظهر الكفاية * فقبل الاشارة * وقدم الاستخارة * وسار حتى خيم بظاهر الري فأحس أهلها منه بأم الربيق * على أريق * وقامت الري أفلاذ كبدها فأناخوا قبالة المنتصر ودس الكفلاء بتلك الدولة الى أرسلان بالو وأبي القاسم بن سيمجور وغيرهما من أولياء المنتصر من أطمعهم في مال يحمل اليهم سرا على أن يثنوا عنهم عنان المنتصر بوجه من وجوه اللطائف والحيل فانخدعوا لسويلهم * وطمعوا في أسيلهم * وتنصحوا للمنتصر بان

لما وصل الراشد بالله الى همذان وبها الملك داود وبوزابة ومن معهما من الامراء والعساكر على ما تقدم ذكره ثم سار الى خوزستان مع الملك داود ومعهما خوارزمشاه فقاربا الجزيرة فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود الى فارس وعاد خوارزمشاه الى بلاده بقى الراشد وحده فلما ايس من عساكر العجم سار الى اصفهان فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا فى خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة وكان فى أعقاب مرض برئ منه ودفن بظاهر اصفهان بشهرستان فركب من معه فقتلوا الباطنية ولما وصل الخبر الى بغداد جلسوا للعزاء به فى بيت النوبة يوما واحدا وكان أبيض أشقر حسن اللون مليح الصورة مهيبا شديد القوة والبطش قال أبو بكر الصولى الناس يقولون ان كل سادس يقوم بامر الناس من أول الاسلام لا بد من أن يخلع وربما قتل قال فتأملت ذلك فرأيته كما قيل فان أول من قام بامر هذه الامة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن رضى الله عنهم فخلع ثم معاوية ويزيد ابنه ومعاوية بن يزيد ومروان وعبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير فخلع ثم عبد الملك وأخوه سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابنا عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك فخلع وقتل ثم لم ينتظم أمر بنى أمية ثم ولى السفاح والمنصور والمهدى والهادى والرشيد والامين فخلع وقتل والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين فخلع وقتل والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمقتدر فخلع ثم رد ثم قتل ثم القاهر والراضى والمتقى والمستكفى والمطيع والطائع فخلع ثم القادر والقائم والمقتدى والمستظهر والمسترشد والراشد فخلع وقتل قلت وفى هذا نظر لان البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان وكونه جعله بعده لا وجه له والصولى انما ذكر الى أيام المطيع لله ومن بعده ذكره غيره

(ذكر حال ابن بكران العيار)

فى هذه السنة فى ذى الحجة عظم أمر ابن بكران العيار ببغداد والعراق وكثرت اتباعه وصار يركب ظاهرا فى جمع من المفسدين وخافه الشريف أبو الكرم الوالى ببغداد فامر أبا القاسم ابن أخيه حامى باب الازج ان يشتد اليه ويلابس امراو يل فتوة منه ليأمن شره وكان ابن بكران يكثر المقام بالسواد ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز فانتهى أمرهما الى انهما ارادا ان يضربا باسمهما سكة فى الانبار فارسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبى الى الوالى ابى الكرم وقالا اما ان تقتل ابن بكران واما ان نقتلك فاحضر ابن اخيه وعرفه ما جرى وقال له اما ان تختارنى ونفسك واما ان تختار ابن بكران فقال انا اقتله وكان لابن بكران عادة يجىء فى بعض الليالى الى ابن اخى ابى الكرم فيقيم فى داره ويشرب عنده فلما جاء على عادته وشرب اخذ ابو القاسم سلاحه ووثب به فقتله وأراح الناس من شره ثم اخذ بعده بيسير رفيقه ابن البزاز وصلب وقتل معه جماعة من الحرامية فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة

(ذكر قتل الوزير الدركزينى ووزارة الخازن)

فى هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد ابى البركات بن سلمة الدركزينى واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وكان الكمال شهما شجاعا عادلا نافذ الحكم حسن

شذاة العسكر الجم الكثير* والجيم الغذير* وبلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة خبره فاستركب خيله من غيران يتربص بنهار لليله* وسار سير الشهب* يطوى الارض كطى السجل للكتب* حتى انقض على نيسابور انقضاض بغى الهواء* على بنات الماء* ولما اسمع المنتصر باقباله انحدر الى اسفراين فى عامة رجاله* وبث أصحابه فى الرساتيق لجباية أموالها* وازاحة اطماع حشمه بها* فازعجه الطلب للحاق بشمس المعالى قابوس بن وشمكير مستصرخا اياه* ومؤملا غوثه وجدواه* فتلقاه بكل ما اقتناه* ومهد له ذراه وأعطاه حتى ارضاه* وكان مما أمر بحمله اليه صفقة واحدة عشر دواب بمراكب الذهب وثلاثون بمراكب الفضة وثلاثون من العتاق الجياد بالبراقع والجلال وعشرون بغلا بمراكب الفضة والذهب وثلاثون أخرى مقرونة بخمسين جملا موقرة احمالا واثقالا من البسط النادرة* والفرش الفاخرة* ومن حصر طبرستان* وسائر الطرائف المجموعة فى الخزائن بجرجان* وأضيف الى ذلك ألف ألف درهم وثلاثون ألف دينار ومائة وخمسون تختا من الديابيج

شيأ مما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد في تحصيله وأقاموا ينتظرون وصوله اليهم فتركهم وسار الى بعلبك وقيل كان السبب في ملكها انها كانت لمعين الدين انز كاذ كرناه وكان له جارية يهواها فلما تزوج ام جمال الدين سيرها الى بعلبك فلما سار زنكي الى الشام عازما على قصد دمشق سير الى انز يبذل له البذول العظيمة ليسلم اليه دمشق فلم يفعل وسار اتابك الى بعلبك فوصل اليها في العشرين من ذي الحجة في السنة فنازلها في عساكره وضيق عليها وجد في محاربتها ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عددا ترمي ليلا ونهارا فأشرف من بها على الهلاك وطلبوا الامان وسلموا اليه المدينة وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان شجعان الاتراك فقاتلهم فلما أيسوا من معين ونصير طلبوا الامان فأمنهم فسلموا اليه القلعة فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم الا القليل فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وخافه غيرهم وحذروه لاسيما أهل دمشق فقالوا لو ملكنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفورا وجدوا في محاربته ولما ملك زنكي بعلبك أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين انز بها فتزوجها بحلب فلم تزل بها الى ان قتل فسيرها ابنه نور الدين محمود الى معين الدين انز وهي كانت أعظم الاسباب في المودة بين نور الدين وبين انز والله أعلم

(ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده منها)

وفي هذه السنة جمع اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان عساكر كثيرة وسار طالبا بثار ابيه الذي قتله بوزابة في المصاف المقدم ذكره فلما قارب السلطان مسعودا أرسل اليه يطلب منه قتل وزيره الكمال فقتله كما ذكرناه فلما قتل سار قراسنقر الى بلاد فارس فلما قاربها تحصن بوزابة منه في القلعة البيضاء ووطئ قراسنقر البلاد وتصرف فيها وليس له دافع ولا مانع الا انه لم يمكنه المقام وملك المدن التي في فارس فسلم البلاد الى الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمود وقال له هذه البلاد لك فاملك الباقي وعاد الى اذربيجان فنزل حينئذ بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وملك البلاد وأسر سلجوق شاه وسجن في قلعة بفارس

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في صفر توفي الوزير شرف الدين انوشروان بن خالد معزولا ببغداد وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه ودفن في داره ثم نقل الى الكوفة فدفن في مشهد أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وكان فيه تشيع وهو كان السبب في عمل المقامات الحريرية وكان رجلا عاقلا شهما دينا خيرا وزر للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود وكان يستقيل من الوزارة فيجاب الى ذلك ثم يخطب اليها فيجيب كارها وفيها قدم السلطان مسعود بغداد في ربيع الاول وكان الزمان شتاء وصار يشتي بالعراق ويصيف بالجبال ولما قدمها ازال المكوس وكتب الالواح بازالتها ووضعت على ابواب الجوامع والاسواق وتقدم ان لا ينزل جندي في دار عامي من اهل بغداد الا باذن فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان وفيها في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد وكان اشدها بالشام وكانت متوالية عشرة ليال كل ليلة عشر دفعات فخرب كثير من البلاد ولاسيما حلب فان اهلها لما كثرت عليهم فارقوا البلاد والبيوت وخرجوا الى الصحراء وعدوا ليلة

والى هراة البدار اليه في معظم الجيوش من شجعان الترك وسرعان الهنود حتى اذا استظهر بذوي الغناء في حومة الهيجاء * كرّ عائدا الى نيسابور وتلقاهم المنتصر بارسلان بالو وأبي نصر بن محمود وأبي القاسم بن سيمجور فالتقوا على حرب تقطعت فيها الصفائح المشهورة * وتقصدت الرماح المطرورة * وعريت عندها الكواكب المستورة * ثم شاعت الهزيمة في السامانية فولوا على أدبارهم نفورا * وكان أمر الله قدرا مقدورا * ودخل صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين نيسابور وقد زينت له كالهدي * على زوجها الكفي * وأقيمت له النثارات كأمثال النجوم السائرة * وتهادى الثلوج المتطايرة * وركب المنتصر سمت أبيورد والطلب على أثره حتى وصل الى جرجان ولما تسامع الامير شمس المعالي قابوس بنبإ رماه بزهاء ألفين من اجناد الاكراد فألجؤه الى الارتحال وآيسوه من طلب المحال وكر على ادراجه تائها في النجي * واعتاك الرأي * بظاهر الري * وقد كان

وكان فقيها مجوّدًا سامع الحديث بكرخ واصفهان وهمذان وغيرها وفي شعبان منها توفي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن اسمعيل بن صاعد وهو ابن عم القاضي أبي سعيد وولي القضاء بنيسابور بعد أبي سعيد

(ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه)

في هذه السنة في المحرم سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه وهو ابن ملكشاه محاربا لخوارزم شاه اتسز بن محمد وسبب ذلك ان سنجر بلغه ان اتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له وان هذا الامر قد ظهر على كثير من اصحابه وأمرائه فأوجب ذلك قصده وأخذ خوارزم شاه فجمع عساكره وتوجه نحوه فلما قرب من خوارزم شاه في عساكره خرج خوارزم شاه اليه في عساكره فالتقيا مقابلا وعبى كل واحد منهما عسكره وأصحابه فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يثبتوا وولوا منهزمين وقتل منهم خلق كثير ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه فحزن عليه أبوه حزنا عظيما ووجد وجدا شديدا وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمد ورتب له وزيرا واتابكا وحاجبا وقرر قواعده وعاد الى مرو وفي جمادى الآخرة من هذه السنة فلما فارق خوارزم عاد اليها اتسز خوارزم شاه الفرصة فرجع اليها وكان أهلها يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزم شاه فلما عاد أعانوه على ملك البلد ففارقها سليمان شاه واختلفا بعد الاتفاق ففعل خوارزم شاه في خراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره ان شاء الله

(ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد)

في هذه السنة في شوال قتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق على فراشه غيلة قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصه وأقرب الناس اليه في خلوته وجلوته وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهرب واحد منهم وأخذ الآخران فصلبا وكتب معين الدين انز من دمشق الى أخيه جمال الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك وهو بها بصورة الحال واستدعاه ليملك بعد أخيه فحضر في أسرع وقت فلما دخل البلد جلس للعزاء بأخيه وحلف له الجند وأعيان الرعية وسكن الناس وفوض أمر دولته الى معين الدين انز مملوك جده وزاد في علو مرتبته وصار هو الجملة والتفصيل وأقطعه بعلبك وزوجه بأمه وكان انز خيرا عاقلا حسن السيرة فجرت الامور عنده على أحسن نظام

(ذكر ملك زنكي بعلبك)

في هذه السنة في ذي القعدة سار عماد الدين اتابك زنكي بن اقسنقر الى بعلبك فحصرها ثم ملكها وسبب ذلك ان محمودا صاحب دمشق لما قتل كانت والدته زمرد خاتون عند اتابك زنكي بحلب قد تزوجها فوجدت لقتل ولدها وجدا شديدا وحزنت عليه وأرسلت الى زنكي وهو بديار الجزيرة تعرفه الحادثة وتطلب منه ان يقصد دمشق ويطلب بثار ولدها فلما وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقف ولا تريث وسار مجدا ليجعل ذلك طريقا الى ملك البلد وعبر الفرات عازما على قصد دمشق فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا

قد رمتك من جهة ما وراء النهر قوم من آل سامان على حلالة أقدارهم * ونفاسة أخطارهم * ليجل عن مساواة قوم يدعون اليك قرابة * ويفترضون لك طاعة ومهابة * والاولى بتيسير النفاد الى قرصه بالتعويل عليك ومغزاه أن يحترش الافعى بيديك فله الغنم ان قدرت * وعليك الغرم ان عجزت * فلفتوا المنتصر عن رأيه * وزينوا له الملك بخراسان من ورائه * فارتحل من باب الري يريد دامغان * وانفرد والدا شمس المعالي عنه تنفس نجم ذلك التدبير وانحل عقد ذلك التقدير * واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال وامتد المنتصر طالقا الى نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر فاشفق من زلة القدم كالتي حدثت قبل فاحتاط بالانحياز الى بوزجان ودخل المنتصر نيسابور في شوال سنة احدى وتسعين وثلثمائة وبث عماله في جباية الاموال * ومطالبة من ظفر بهم من العمال * واستقر صاحب الجيش السلطان يمين الدولة وأمين الملة برسم الحاجب الكبير التونتاش

الدين أتز الى بانياس فى عسكر دمشق وهى فى طاعة زنكى كما تقدم ذكره ليحصرها ويسلمها
الى الفرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بجمعه الى مدينة صور للاغارة على بلادها فصادفه
صاحب انطاكية وهو قاصد الى دمشق نجدة لصاحبها على زنكى فاقتتلا فانهزم المسلمون
واخذوا الى بانياس فقتل ونجا من سلم منهم الى بانياس وجمعوا معهم كثيرا من البقاع وغيره
وحفظوا القلعة فنازلها معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم ومعه طائفة من الفرنج فاخذها
وسلمها الى الفرنج واما الحصر الثانى لدمشق فان اتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد الى بعلبك
ليدفع عنها من يحصرها فاقام هنالك فلما عاد عسكر دمشق بعد ان ملكوها وسلموها الى الفرنج
فرق اتابك زنكى عسكره على الاغارة على حوران واعمال دمشق وسار هو جريدة مع خواصه
فنازل دمشق سحرا ولم يعلم به احد من اهلها فلما اصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتج
البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه فلم
يمكن زنكى عسكره من الاقدام فى القتال لان عامة عسكره كانوا قد تفرقوا فى البلاد والنهب
والتخريب وانما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر الى عسكره وهم متفرقون فلما اقتتلوا ذلك
اليوم قتل بينهم جماعة ثم احجم زنكى عنهم وعاد الى خيامه ورحل الى مرج راهط واقام ينتظر
عودة عسكره فعادوا اليه وقد ملأوا ايديهم من الغنائم لانهم طرقوا البلاد واهلها غافلون فلما
اجتمعوا عنده رحل بهم عائدا الى بلادهم

(ذكر ملك زنكى شهرزور واعمالها)

فى هذه السنة ملك اتابك زنكى شهرزور واعمالها وما يجاورها من الحصون وكانت بيد قفجاق
ابن ارسلان تاش التركمانى وكان حكمه نافذا على قاصى التركمان ودانيهم وكلمته لا تخالف يرون
طاعته فرضا فتحامى الملوك قصده ولم يتعرضوا لولايته لانها منيعة كثيرة المضايق فعظم شانه
وازداد جمعه واتاه التركمان من كل فج عميق فلما كان هذه السنة سير اليه اتابك زنكى عسكرا
فجمع اصحابه ولقيهم فتصافوا واقتتلوا فانهزم قفجاق واستبيح عسكره وسار الجيش الاتابكى
فى اعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الامان لقفجاق فصار اليهم
وانخرط فى سلك العساكر ولم يزل هو وبنوه فى خدمة البيت على احسن قضية الى بعد سنة
ستمائة بقليل وفارقوها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة جرى بين امير المؤمنين المقتفى لامر الله وبين الوزير شرف الدين على بن طراد
الزينبى منافرة وسببها ان الوزير كان يعترض الخليفة فى كل ما يأمر به فنفر الخليفة من ذلك فغضب
الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان فى سمرية وقت الظهر ودخل اليها واحتمى بها فارسل اليه
الخليفة فى العود الى منصبه فامتنع وكانت الكتب تصدر باسمه واستنيب قاضى القضاة الزينبى
وهو ابن عم الوزير وارسل الخليفة الى دار السلطان رسلا فى معنى الوزير فارخص له السلطان
فى عزله فحينئذ اسقط اسمه من الكتب واقام بدار السلطان ثم عزل الزينبى من النيابة وناب
سديد الدولة بن الانبارى وفيها قتل المقرب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر وكان قد حكم
فى دولته جميعها ومن جملة اقطاعه الرى ومن مماليكه عباس صاحب الرى وكان سائر عسكر

طريقا يوردها ويردها
ويجبوا ما لها وارتاعوا بما
سمع اهم الزعيم بها وحين علم
صاحب الجيش باجتماعهم
على مضغ الاباطيل بينهم
دلف اليهم فى سراة الكماة
لطردهم عن شريعة الطمع
وازعاجهم عن حضانة
الامل ووصل السير
بالسرى حتى أشرف على
مرخس فى الهيئة
المشهوره * والهيبة الموفورة
وبرز المنتصر الى ظاهرها
بنفسه بازائه * واستعد للقائه *
وتجايشا للقتال فاستك
مسمع الهواء من قرع
الحديد بالحديد * ورويت
صدور المواضى من موارد
الوريد * وبلغ كل من
الفريقين غاية الامكان * فى
منازلة الاقران * ومناوشة
الضراب والطعان * مجاحشة
عن خيوط الرقاب * وتماديا
عن سوء الذكر على تناسخ
الاحقاب * غير ان قضاء الله
أغلب وأمره أنفذ وله
الحكم فى تبديل الابدال *
وتصريف الاحوال * ونقل
الاموال من وال الى وال *
وهبت لصاحب الجيش
أبى المظفر قبول الاقبال *
فمزق مصف المنتصر عن
هزيمة عوابس الوجوه *
وحرمى بايباب المكروه *
ولم يلبث صاحب الجيش
أبو المظفر أن أتاه بعض

واحدة جاءتهم ثمانين مرة ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع صفر الى تاسع عشره وكان معها صوت وهزة شديدة وفيها اغار الفرنج على اعمال بانياس فسار عسكر دمشق في اثرهم فلم يدركوهم فعادوا وفيها توفي ابو القاسم طاهر بن طاهر الشحامي النيسابوري بها ومولده سنة ست واربعين واربعمائة وكان اماما في الحديث مكثرا عالي الاسناد وتوفي عبد الله بن احمد بن عبد القاهر بن محمد بن يوسف ابو القاسم بن أبي الحسين البغدادي بها ومولده سنة اثنتين وخمسين واربعمائة وعبد العزيز بن عثمان بن ابراهيم بن محمد الاسدي البخاري كان قاضي بخارا وكان من الفقهاء اولاد الائمة حسن السيرة وتوفي محمد بن شجاع بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم اللفتواني الاصفهاني باصفهان في جمادى الآخرة ومولده سنة ست وتسعين واربعمائة وسمع الحديث الكثير باصفهان وبغداد وغيرهما

(ثم دخلت سنة اربع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر حصار اتابك زنكي دمشق)

في هذه السنة حصر اتابك زنكي دمشق مرتين فأما المرة الاولى فانه سار اليها في ربيع الاول من بعلبك بعد الفراغ من أمرها وتقرير قواعدها واصلاح ما تشعث منها بحصرها فنزل بالبقاع وارسل الى جمال الدين محمد صاحبها يبذل اليه بلدا يقترحه ليسلم اليه دمشق فلم يجبه الى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا ثالث عشر ربيع الاول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيون منهزمين فقتل كثير منهم ثم تقدم زنكي الى الموصل فنزل هنالك ولقيه جمع كثير من جند دمشق واحداثها ورجالة الغوطة فقاتلوه فانهزم الدمشقيون واخذهم السيف فقتل فيهم واكثر واسر كذلك ومن سلم عاد جريحا واشرف البلد ذلك اليوم على الاخذ وان علك لكن عاد زنكي وامسك عنه عشرة ايام وتابع الرسل الى صاحب دمشق وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال الى ان يسلم وامتنع غيره من اصحابه من ذلك وخوفوه عاقبة فعله وان يفعل ويغدر كما فعل باهل بعلبك فلما لم يسلموا اليه عاد القتال والزحف ثم ان جمال الدين محمدا صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان وطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف اليه زحفا شديدا ظنا منه انه ربما يقع بين المقدمين الامراء خلاف فيبلغ به الغرض وكان ما امله بعيدا فلما مات جمال الدين ولي بعده مجير الدين ابق ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنز فلم يظهر لموت ابيه اثر مع ان عدوهم على باب المدينة فلما رأى أنز أن زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن حصرهم راسل الفرنج واستدعاهم الى نصرته وان يتفقوا على دفع زنكي عن دمشق وبذل لهم بذولا وان يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها اليهم وخوفهم من زنكي ان ملك دمشق فعلموا صحة قوله وعلموا انه ان ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام وان الفرنج اجتمعوا وعزموا على المسير الى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي فحين علم زنكي بذلك سار الى حوران خامس رمضان عازما على قتال الفرنج قبل ان يجتمعوا بالدمشقيين فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم فلما رآهم كذلك عاد الى حصر دمشق ونزل بعذرا شماليها سادس شوال فاحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائدا الى بلاده ووصل الفرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي فعادوا فسار معين

الدين

المنتصر يعتقد على ارسلان بالولتصبه عليه * واشتطاطه في المطالب بين يديه * ومنازعته الرأي فيما يحاوره * ومراجعته القول في كل ما يفوه به فوه * واضاف الى ذلك اتهامه اياه بالتخاذل في الحرب التي انهزم فيها عن وجه صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين انفاسته على أبي القاسم السيمجوري بمكانه من اختصاصه وايثاره * وغيرته على الشركة الواقعة به في محله ومقداره * فحمله ما استفاده من ماء الكريب على التشفي باراقة دمه والاستراوح الى انتهاك روحه نفثك به فتكة أنست فتكات الاسلام * وشفت نفسه من الداء العقام * وتجمع أهل عسكره لانكار ما فعل * والى اهم ذلك وقد سبق السيف العذل * وقام أبو القاسم علي بن محمد مصانعا لهم عن المنتصر * بلسان المعتذر * حتى خمد التهابهم * وسكن هيجهم واضطرابهم * وتآمروا بينهم على قصد مرشد للاستظهار بزعيم أهلها المعروف كان أبوه بالفقيه اذ كان قد رغب والمنتصر في ارفاده وانجاده * وايثاره بعدته وعتاده * فركبوا المسافة اليها على

عليه ومكروا به حتى صعدوا اليه وقتلوه وملكوا الحصن وهو بايديهم الى الآن وفيها توفى مؤيد الدولة بن الانبارى واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جهير وكان قبل ذلك استاذ الدار وفيها توفى برتقش بازدار صاحب قزوين وفيها فى رجب ظفر ابن الدانشمند صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحى بجمع من الروم فقتلهم وغنم ما معهم وفيها فى رمضان سارت طائفة من الفرنج فخرج اليهم العسكر الذى بعسقلان وقاتلهم فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيرا فعادوا منهزمين وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ولما فرغت درس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل وحضر ارباب المناصب وسائر الفقهاء وفيها فى رجب مات القاضى أبو بكر بن محمد بن عبد الباقى الانصارى قاضى المارستان عن نيف وسبعين سنة وله الاسناد والعوالى بالحديث وكان عالما بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الاوائل وهو آخر من حدث فى الدنيا عن ابى اسحق البرمكى والقاضى أبى بكر الطبرى وأبى طالب العشارى وأبى محمد الجوهرى وغيرهم وتوفى الامام الحافظ أبو القاسم اسمعيل بن محمد بن الفضل الاصفهانى عشر ذى الحجة ومولده سنة تسع وخمسين وله التصانيف المشهورة وتوفى يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن وهب الهمدانى من أهل بروجرد وسكن مرو وتفقه على أبى اسحق الشيرازى وروى الحديث واشتغل بالرياضات والمجاهدات ووعظ ببغداد فقام اليه متفقه يقال له ابن السقاء وسأله وآذاه فى السؤال فقال اسكت انى اشم منك ريح الكفر وسار الرجل الى بلد الروم وتنصر وفيها مات أبو القاسم على بن افلح بن افلح الشاعر المشهور

(ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر انهزام السلطان سنجر من الاتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر)

ذكر اصحاب التواريخ فى هذه الحادثة اقاويل نحن نذكرها جميعها الخروج من اختلافها وعهدتها ناقلها فى هذه السنة فى المحرم وقيل فى صفر انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار وسبب ذلك ان سنجرا كان قتل ابنا لخوارزم شاه اتسز بن محمد كما ذكرناه قبل فبعث خوارزم شاه الى الخطا وهم بما وراء النهر يطمعهم فى البلاد ويروج عليهم أمرها ويحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر فساروا فى ثلثمائة الف فارس وسار اليهم سنجر فى عساكره فالتقوا بما وراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة الف قتيل منهم اثنا عشر الفا كلهم صاحب عمامة واربعة آلاف امرأة واسرت زوجة السلطان سنجر وتم السلطان منهزما الى ترمذ وسار منها الى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو فدخلها مراغمة للسلطان سنجر وقتل بها وقبض على أبى الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من اعيان البلد ولم يزل السلطان سنجر مسعودا الى وقتنا هذا لم تنهزم له راية ولما تمت عليه هذه السنة الهزيمة ارسل الى السلطان مسعود واذن له فى التصرف فى الرى وما يجرى معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره ان يكون مقيما فيها بعساكره بحيث ان دعت حاجة استدعاه لاجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الرى الى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة وسار السلطان الى الرى امتثالا لامر عمه سنجر وقيل ان بلاد تركستان

توسمته بالعلياء اولى اولى
الامر
فيالك من فتح غدا زينة العلا
وواسطة الدنيا وفائدة العصر
أبى الله الا نصره نصرورة
على قمة العيوق او هامة البدر
وملكه صدر السرير كانه
اذا ما الك بالخير أوضحه يجرى
وخوله دون الملوك محاسنا
تبرعلى الشمس المنيرة والقطر
اذا ذكرت فاح الندى
بذكرها
كما فاح أذكى المسك وهج الجمر
فتى السن كهل الحلم والرأى
والحجى
يمد الآمال بالنائل الغمر
له همة لما حسبت علوها
حسبت الثريا فى الثرى أبدا
تسرى
غدا راعيا للمسلمين وناصرا
لما انه راع قد تكفل بالنصر
لا ايها الملك الذى ترك العدا
عباديد بين القتل والكسر
والاسر
قدمت قدوم الغيث أيمن
مقدم
فطابت وجه الدهر بالحسن
والبشر
ألست ترى كتب الربيع
ورسله
يقولون هذا الربيع على
الاثر
نسيم نسيب للحياة وانفسه
يجر فويق الارض أردية
العطر
وترب بأنفاس الربيع مبر

السلطان سنجر يقصدونه ويقفون ببابه وكان قتله بيد الباطنية وقف له جماعة منهم بزى النساء واستغاثوا به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه فلما قتل جمع صاحبه عباس العساكر وقصد الباطنية فقتل منهم وأكثر وفعل بهم ما لم يفعله غيره ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم الى ان مات وفيها زلزلات كثيرة وغيرها من اعمال اذربيجان واران الا ان اشدها كان بكنجة فخرب منها الكثير وهلك عالم لا يحصون كثرة قيل كان الهلكى مائتى ألف وثلاثين ألفا وكان من جملة الهلكى ابنان لقراسنقر صاحب البلاد وتهدمت قلعة هنالك لمجاهد الدين بهروز وذهب له فيها من الذخائر والاموال شئ عظيم وفيها شرع مجاهد الدين بهروز فى عمل النهروانات سكر سكرا عظيما يرد الماء الى مجراه الاول وحفر مجرى الماء القديم وخرق اليه مجراة تأخذ من ديالى ثم استقال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر وبقى السكر فى البر لا ينتفع به احد ولم يتعرض احد الى رده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق ولم يجئ غير مرة واحدة فى اذار ثم انقطع ووقع الغلاء وعدمت الاقوات وفيها فى جمادى الآخرة دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود وكان يوم حملها الى دار الخليفة يوما مشهودا غلقت بغداد عشرة ايام وزينت وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة وفيها فى ربيع الاول توفى القاضى ابو الفضل يحيى ابن قاضى دمشق المعروف بالزكى

(ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر مسير جهاردانكى الى العراق وما كان منه)

فى هذه السنة أمر السلطان مسعود الامير اسمعيل المعروف بجهاردانكى والبقش كون خر بالمسير الى خوزستان وفارس واخذها من بوزابة واطلق لهم نفقة على بغداد فساروا فيمن معهما الى بغداد فمنعهم مجاهد الدين بهروز عن دخولها فلم يقبلوا منه فارسل الى المعابر فخرقها وغرقها وجد فى عمارة السور وسد باب الظفرية وباب كلواذى واغلق باقى الابواب وعلق عليها السلاسل وضرب الخيام للمقاتلة فلما علموا بذلك عبروا بصرصر وقصدوا الحلة فمنعهم فقصدوا واسط فخرج اليهم الامير طرنطاى وتقاتلوا فانهزم طرنطاى ودخلوا واسط ونهبوها ونهبوا بلد فرسان والنعمانية وانهزم طرنطاى الى حماد بن أبى الخير صاحب البطيحة ووافقهم عسكر البصرة وفارق اسمعيل والبقش عسكرهما وصارا مع طرنطاى فضعف أولئك فصاروا الى تستر واستشفع اسمعيل الى السلطان فعفا عنه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر ومعه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب وكانا قد أخذا من المسترشد فأعادهما الآن الى المقتفى وفى هذه السنة توفى اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان واران بمدينة اردبيل وكان مرضه السل وطال به وكان من مماليك الملك طغرل وسلمت اذربيجان واران الى الامير جاولى الطغرلى وكان قراسنقر عظيم محله على سلطانه يخافه السلطان وفيها كان بين اتابك زنكى وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا حرب شديد وانهزم داود وملك زنكى من بلاده قلعة بهمرد وأدركه الشتاء فعاد الى الموصل وفيها ملك الاسماعيلية حصن مصياث بالشام وكان واليه مملوكا لبنى منقذ أصحاب شيزر فاحتالوا

الغرب بأبى القاسم على بن محمد فى قلادة من الوهق * على بقية من الرمق * وأردف بتوزتاش الحاجب * وكان وراء المنتصر جلسة ما بين الامين والحاجب * وانضمت حبالة الاسر على معظم ذلك العسكر فحملوا الى غزنة فى الاصفاد مقرنين وسار المنتصر سير القطار لا يرى وزرا غير اعتساف المسالك * وارتكاب المهالك * على جملة لا تتميز فيها المسلوك من المسالك * وقال أبو المظفر نصر بن ناصر الدين وقد أعلى الله كعبه ورفع قدره * وأطعمه نصره * واطار بين الخافقين ذكره * وانشدنى ابو منصور الثعالبى لنفسه فيه يذكر ما اتيح له من هذا الفتح الرائع منظره والشائع فى الآفاق خبره

تبلجت الايام عن غرة الدهر
وحلت باهل البغى قاصمة الظهر
وولى بنو الادبار ادبارهم وقد
تحكم فيهم صاحب الدهر بالقهر
وقد جاء نصر الله والفتح مقبلا
الى الملك المنصور سيدنا نصر
غياث الورى شمس الزمان وبدره

الكثيرة والامتعة النفيسة ما حملوه وأحضروا التجار وقالوا لهم أنتم تريدون أموالكم فعرفونا بلدا كثير الرعي فسيحا يسعنا ويسع أموالنا فاتفق رأي التجار على بلاد بلاساغون فوصفوها لهم فأعادوا اليهم اموالهم وأخذوا الموكلين الذين كانوا بهم لمنعهم عن قتالهم وكتفوهم وأخذوا نساءهم وساروا الى بلاساغون وكان ارسلان خان يغزوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفا عظيما فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصيني انضافوا اليه ايضا فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم وملكوا بلاد تركستان وكانوا اذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيأ بل يأخذون من كل بيت دينارا من اهل البلاد وغيرها من القرى وأما المزدرعات وغير ذلك فلاهلها وكل من أطاعهم من الملوك شد في وسطه شبه لوح فضة فتلك علامة من اطاعهم ثم ساروا الى بلاد ماوراء النهر فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة في رمضان سنة احدى وثلاثين وخمسمائة واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد الى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحا ومساء وكذلك اهل بخارا وغيرهما من بلاد ماوراء النهر وأرسل الخاقان محمود الى السلطان سنجر يستمده وينهي اليه مالقي المسلمون ويحثه على نصرتهم فجمع العساكر فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان والغور وملك غزنة وملك مازندران وغيرهم فاجتمع اليه اكثر من مائة الف فارس وبقي العرض ستة اشهر وسار سنجر الى لقاء الترك فعبروا الى ماوراء النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فشكا اليه محمود بن محمد خان من الاتراك القارغلية فقصدهم سنجر فالتجؤا الى كوخان الصيني ومن معه من الكفار وأقام سنجر بسمرقند فكتب اليه كوخان كتابا يتضمن الشفاعة في الاتراك القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب اليه يدعوه الى الاسلام ويهدده ان لم يجب اليه ويتوعده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ في قتالهم بانواع السلاح حتى قال وانهم يشقون الشعر بسهامهم فلم يرض هذا الكتاب وزير السلطان طاهر ابن فخر الملك بن نظام الملك فلم يصغ اليه وسير الكتاب فلما قرئ الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول وأعطاه ابرة وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يقدر يفعل ذلك فقال كيف يشق غيرك شعرة بسهم وانت عاجز عن شقها بابرة واستعد كوخان للحرب وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم وقصد السلطان سنجر فالتقى العسكران وكانا كالبحرين العظيمين بموضع يقال له قطوان وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم الى واد يقال له درغم وكان على ميمنة سنجر الامير قماج وعلى ميسرته ملك سجستان والاثقال وراءهم فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكانت الاتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالا ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر احسن قتالا من صاحب سجستان وأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين فقتل منهم ما لا يحصى من كثرتهم واشتمل وادي درغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى ومضى السلطان سنجر منهزما وأسر صاحب سجستان والامير قماج وزوجة السلطان سنجر وهي ابنة أرسلان خان فاطلقهم واطلق الحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري الفقيه الحنفي المشهور ولم يكن في الاسلام وقعة أعظم من هذه ولا اكثر ممن قتل فيها بخراسان واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر وبقي كوخان الى رجب من سنة سبع

في جيوش الترك يستعر في طلب الثار * استعجاب الثار * حتى أناخ بجلاوز سمرقند وتناذرت الغزية باقدامه وتناصروا بينهم على بياته فكبعوا الركض عليه فشوا الليل * تحت ظلام الليل * حتى كاد لا تنتقش الارض بوطء أقدامها * ولا تشعر النجوم باشخاص الوبها واعلامها * حتى أوقعوا به وانتهبوا حل سواده * وقبضوا على جلة قواده * وانقلبوا بها غنوه الى أوطانهم عند حصول البغية * فاستأثروا على المنتصر بالاسرى طمعا في الفدية * ثم بلغ المنتصر تنازعهم الامر بينهم في موالاتهم ايلك عليه وافراجهم عن الاسرى تقربا اليه فرابه ذلك من أمرهم ريبة لم تأخذه الارض معها بقرار * ولم تكتحل عينه عندها بغرار * فاختار من بريته قرابة سبعمائة رجل ركبانا ورجالا * خفافا وثقالا * وطاف على المعابر فاذا النهر جامد * وآمل الشط في البعد آمد * ففرشوا النهر بأتبان الارز حتى امكنهم من العبور وتبعه الطلب فنعهم خطر العبر من قصد المنتصر وأرسل هو عند قراره بآمل رسولا الى السلطان يعز

وهى كاشغر وبلاد بلاساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ماوراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الاتراك وهم مسلمون من نسل افراسياب التركي الا انهم مختلفون وكان سبب اسلام جدهم شبوق قراخاقان انه رأى في منامه كان رجلا نزل من السماء فقال بالتركية ما معناه أسلم تسلم في الدنيا والآخرة فاسلم في منامه وأصبح فاظهر اسلامه فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق ولم يزل الملك بتلك الناحية في أولاده الى ارسلان خان بن محمد بن سليمان بن داود بغراخان بن ابراهيم الملقب بطمغاج خان بن ايلك الملقب بنصر ارسلان بن علي بن موسى بن شبق فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه وقتل سنجر قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وأعاد الملك الى ارسلان خان وثبت قدمه وخرج خوارج فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده الى ملكه وكان من جنده نوع من الاتراك يقال لهم القارغلية والاتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره ان شاء الله وهم نوعان نوع يقال لهم ابجق وأميرهم طوطي بن داديك وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد ثم ان الشريف الاشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي السمرقندي لولد ارسلان خان المعروف بنصر خان طلب الملك من أبيه وأطمعه فسمع محمد بن خان الخبر فقتل الابن والشريف الاشرف وجرت بين ارسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم الى العصيان عليه وانتزاع الملك منه فعاود الاستعانة بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان بينهما مصاهرة فوصل الى سمرقند وهرب القارغلية من بين يديه واتفق ان السلطان سنجر خرج الى الصيد فرأى خيالة فقبض عليهم فقررهم فأقروا ان ارسلان خان وضعهم على قتله فعاد الى سمرقند فحصر ارسلان خان بالقلعة فملكها وأخذه أسيرا وسيره الى بلخ فمات بها وقيل بل غدر به سنجر واستضعفه فملك البلد منه فأشاع عنه ذلك فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين وكان من أعيان بيت الخانية الا ان ارسلان خان اطرحه فلما ولي سمرقند وكان هذا حسن بن أخت سنجر لم تطل أيامه فمات عن قليل فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن ارسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان وهو ابن الذي أخذ منه سنجر سمرقند وكان هذا محمود ابن أخت سنجر وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الاعور وهو كوخان الصيني الى حدود كاشغر في عدد كثير لا يعلمهم الا الله فاستعد له صاحب كاشغر وهو الخان أحمد بن الحسن وجمع جنوده فخرج اليه والتقوا فاقتتلوا وانهزم الاعور الصيني وقتل كثير من أصحابه ثم انه مات فقام مقامه كوخان الصيني وكو بلسان الصين لقب لاعظم ملوكهم وخان لقب ملوك الترك فمعناه أعظم الملوك وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار وكان مانويا ولما خرج من الصين الى تركستان انضاف اليه الاتراك الخطا وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم في خدمة الخانية أصحاب تركستان وكان ارسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر ألف خركاه ومنزلهم على الدروب التي بينه وبين الصين يمنعون أحدا من الملوك أن يتطرق الى بلاده وكان لهم على ذلك جرايات واقطاعات فاتفق انه وجد عليهم في بعض السنين فمنعهم عن نسائهم لئلا يتوالدوا فعظم عليهم ولم يعرفوا وجها يقصدونه وتحيروا فاتفق ان اجتاز بهم قفل عظيم فيه الاموال

بملك من طيب وبالشمس أشرق
وغيم جعا كي راستيك كأنه
على المسك والكافور
يوطل بالتبر
قرقرنى لشرب الراح روسك
انها
أتى تعب من وقعة البيض
والسمر
ودم لاقتناء الملك في اكمل
المنى
وفي أرفع العليا وفي أطول
العمر

(وأنشدني أبو سعيد بن دوست فيه لنفسه)

للامير المظفر العلم العا
دل فينا ابي المظفر نصر
كرم في شجاعة وسماح
في وقار وقوة مع صبر
ومعال لو رامها بختنصر
يوم فخر أعيت على بختنصر
فيه قطع الخطوب والذرى
وبه دفع الكروب وأمرى
واتبدا الركض بالمنتصر الى
محال الاتراك الغزية * وأهل
صغو الى الدولة السامانية *
فأخذتهم المذمة من خذلانه *
وحركتهم الحمية لعونه على
شانه * وتذاكروا بينهم
شرف آل سامان وما تعرفوه
قديما من بركات ذلك البيت
القديم * والكرم العميم *
وسار بهم معه حتى
لحق بايلك الخان وذلك في
شوال سنة ثلاث وتسعين
وثلثمائة وعندها دارت
ايلك للانتصار من المنتصر

وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكى فلما رأى قوة زنكى صار معه وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكية بغداد ووليها قزل أمير اخور وهو من مماليك السلطان محمود وكان له بروجرد والبصرة فأضيف اليه شحنكية بغداد ثم وصل السلطان الى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ما ساءه فأعاد بهروز الى الشحنكية فتاب كثير منهم ولم يقنع الناس بذلك لان ولد الوزير واخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم وفيها تولى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان واستولى على المملكة وعزل الامير تتر الطغرلى عنها وآل أمره الى أن مشى فى ركاب عبد الرحمن وفيها توفى ابراهيم السهاوى مقدم الاسماعيلية فأخرجه ولد عباس صاحب الرى فى تابوته وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد وقد لبس ثياب الصوفية وتخلى عن جميع ما كان عليه وأقام فى داره مرعى الجانب محروس القاعدة وفيها وصل السلطان الى بغداد وكان الوزير الزينبى بدار السلطان كما ذكرناه فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة الى داره فأرسل السلطان وزيره الى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبى وشفع ان يعود الى داره فأذن له فى ذلك وأعاد أخاه الى نقابة النقباء فلزم الوزير داره ولم يخرج منها الا الى الجامع وفيها أغار عسكر أتابك زنكى من حلب على بلاد الفرنج فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج فقتلوا فيهم واكثروا فكان عدة القتلى سبعمائة رجل وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسير السلطان مسعود سرية اليهم من العسكر فنهبوا حللهم وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين وفيها سير رجار الفرنجى صاحب صقلية اسطولا الى أطراف افريقية فأخذوا مراكب سيرت من مصر الى الحسن صاحب افريقية وغدر بالحسن ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لاجل حمل الغلات من صقلية الى افريقية لان الغلاء كان فيها شديدا والموت كثيرا وفيها توفى ابو القاسم عبد الوهاب ابن عبد الواحد الحنبلى الدمشقى وكان عالما وفيها توفى ضياء الدين ابو سعيد الكفرتوثى وزير أتابك زنكى وكان حسن السيرة فى وزارته كريما رئيسا وفيها توفى أبو محمد بن طاوس امام الجامع بدمشق فى المحرم وكان رجلا صالحا فاضلا وفيها توفى أبو القاسم اسمعيل بن احمد بن عمر بن أبى الاشعث المعروف بابن السمرقندى ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثرا من الحديث عالى الرواية

(ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة)

*(ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكى قلعة اشب وغيرها من الهكارية)

فى هذه السنة أرسل أتابك زنكى جيشا الى قلعة اشب وكانت أعظم حصون الاكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا على من بها فملكوها فأمر باخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنها وكانت هذه القلعة العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخربوه لكبره لانه كبير جدا وكانوا يعجزون عن حفظه فخربت الآن اشب وعمرت العمادية وانما سميت العمادية نسبة الى لقبه وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية

(ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب)

شادخة الاوم بغرّته * وقد كان أبو نصر نصر بن محمود الحاجب للتسامع بتقدم راية المنتصر مالا * على صاحبه * وأظهر الانقطاع الى جانبه * وأقام له الخطبة بنسا مظهرا طاعته * ومستنفذا فى نصرته جهده واستطاعته * ولما أحس أهل نسا برأى أبى نصر فى اتباع راية الخلاف أشفقوا على أنفسهم من عاقبة الاتهام بموالاته * والاشتراك فى جناياته * فكاتبوا خوارزم شاه مستعدين عليه فأنهض أبو الفضل الحاجب أحد أعيان ذلك الباب الرفيع لازالة شره * وكفاية أمره * ومال أبو نصر بن محمود الى المنتصر فتضافرت العدد * وتوافرت المدد * وصدر الى خبوشان من رستاق استواء وناهضهم أبو الفضل فى رجال خوارزم شاه فاتفق التقاؤهم فى الحرب ايلا يرأى من النجوم الشوابك حيث لا يدرى الضارب مضروبه * ولا يبصر الراكب مركوبه * واختلط الدارس بالراجل * والقارس بالنابل * وتضاربوا ما بين الشوى والمقاتل

وتطاعنوا اسلاكى وشكاوجة كرلسالا من على نابل
وتصدع شمل الفريقين

وثلاثين وخمسمائة فمات فيه وكان جميلاً حسن الصورة لا يلبس الا الحرير الصيني له هيبة عظيمة على أصحابه ولم يسلط أميراً على اقطاع بل كان يعطيهم من عنده ويقول متى اخذوا الاقطاع ظلموا وكان لا يقدم أميراً على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه وكان ينهى اصحابه عن الظلم وينهى عن السكر ويعاقب عليه ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت فملك بعدها امها زوجة كورخان وابنه محمد وبقي ماوراء النهر بيد الخطا الى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان)

قد ذكرنا قبل قصد السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه اتسز وعوده اليها وقتل ولد خوارزم شاه وانه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الاسلام فلما انهزم السلطان سنجر وعاد منهزماً سار خوارزم شاه الى خراسان فقصد سرخس في ربيع الاول من السنة فلما وصل اليها لقي الامام أبا محمد الزيادي وكان قد جمع بين الزهد والعلم فأكرمه خوارزم شاه اكراماً عظيماً ورحل من هناك الى مرو الشاهجان فقصده الامام احمد الباخرزي وشفع في اهل مرو وسأل ان لا يتعرض اليهم أحد من العسكر فأجابه الى ذلك ونزل بظاهر البلد واستدعى أبا الفضل الكرماني الفقيه وأعيان أهلها فثار عامة مرو وقتلوا بعض اهل خوارزم شاه وأخرجوا أصحابه من البلد وأغلقوا ابوابه واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزم شاه ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الاول من السنة وقتل كثيراً من أهلها وممن قتل ابراهيم المروزي الفقيه الشافعي وعلي بن محمد بن ارسلان وكان ذا فنون كثيرة من العلم وقتل الشريف علي بن اسحق الموسوي وكان رأس فتنة وملقح شر وقتل كثيراً من أعيان اهلها وعاد الى خوارزم واستصحب معه علماء كثيراً من اهلها * منهم ابو الفضل الكرماني وأبو منصور العبادي والقاضي الحسين بن محمد الارسابندي وابو محمد الخرقي الفيلسوف وغيرهم ثم سار في شوال من السنة الى نيسابور فخرج اليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرو فأجابهم الى ذلك لكنه استقصى في البحث عن اموال اصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر اول ذي القعدة وخطبوا له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديداً وانما منع الناس ذوو الرأي والعقل نظراً في العاقبة فقطعت الى اول المحرم سنة سبع وثلاثين فأعيدت خطبة السلطان سنجر ثم سير خوارزم شاه جيشاً الى اعمال بيهق فأقاموا بها يقاتلون اهلها خمسة أيام ثم ساروا عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعاثوا بخراسان اعمالاً عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة اتسز خوارزم شاه لاجل قوة الخطا بما وراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ملك اتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهراش الى الموصل ورتب اصحابه فيها وفيها ايضاً خطب لزنكي بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته

وكان

الدولة * وأمن الملة * يذكره بحقوق سلفه عليه * واشتداد الامر في اقبال العداء عليه * وانه لا يجد من ترتيبه قيمة طاعته واخلاص هواه * وأظهر الانقطاع الى كنف قبوله واقباله * والافتقار الى معونته بماله ورجاله * واستمد من آمل الشط الى سوادهم واسترابها من معرة الترك * في العبور على الاطراف والفلك * وأرسل الى أبي جعفر المعروف بخواهرزاده وكان ابوه رجلاً من جملة الرعاع رفعه الزمان * في دولة آل سامان * يستعجله المعونة بما يفضل عن سعة يده من مال وسلاح * فرد الرسول على غير وجه الحرية * والارتياح * بحكم الانسانية * ولم يرض بالرد حتى خرج اليه مقاتلا * وبالجفاء مقابلا * فحمل اصحاب المنتصر عليه حملة فرقت جمعه جملة * وتعدى مسافة أبيورد حتى وافاها في شهور سنة أربع وتسعين وثلثمائة وأوجب السلطان اكرام رسوله * وتحقيق مأموله * ووصله بصدر من المال يجبر خلته وخاطب ابن خواهرزاده بخدمته وتقمص مرضاته وترك الانحراف عن مراده فاضطره الامر الى طاعته حين شاعت سمة الخذل عليه * واستطارت

الى الموصل والوصول اليه فهرب غازي وبلغ الخبر والده فأرسل اليه يأمره بالعودة الى السلطان ولم يجتمع به وأرسل معه رسولا الى السلطان يقول له ان ولدي هرب خوفا من السلطان لما رأى تغيره علي وقد أعدته الى الخدمة ولم أجتمع به فانه مملوكك والبلاد لك فحل ذلك من السلطان محلا عظيما

(ذكر ملك اتابك بعض ديار بكر)

وفي هذه السنة سار اتابك زنكي الى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون فمن ذلك مدينة طنزة ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الروق وحصن مطليس وحصن باتسية وحصن ذي القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ شهرة هذه الاماكن وأخذ أيضا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج حاني والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ورتب امور الجميع وخلى فيها من الاجناد من يحفظها وقصد مدينة آمد وحاني فحصرهما وأقام بتلك الناحية مصلحا لما افتتحه ومحاصرا لما لم يفتحه

(ذكر أمر العيارين ببغداد)

وفي هذه السنة زاد أمر العيارين وكثر الاذى منهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخي زوجة السلطان لانهما كان لهما نصيب من الذي يأخذه العيارون وكان النائب في شحنكية بغداد مملوكا اسمه ايلدكز وكان صارما مقداما ظالما فحمله الاقدام الى أن حضر عند السلطان فقال له السلطان ان السياسة قاصرة والناس قد هلكوا قال يا سلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا امرأتك فأي قدرة لي على المفسدين وشرح له الحال فقال له الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا وتصلبهما فان فعلت والا صلبتك فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده وأخذ من كان عنده وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع الامر ورؤي ابن قاورت مصلوبا فهرب اكثر العيارين وقبض على من أقام وكفي الناس شرهم

(ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه)

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين مسير سنجر الى خوارزم وملكه اياها وعود اتسز خوارزم شاه اليها وأخذها وما كان منه بخراسان بعد ذلك فلما كان في هذه السنة سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه فجمع خوارزم شاه عساكره وتحصن بالمدينة ولم يخرج منها للقتال لعلمه انه لا يقوى لسنجر وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور فاتفق في يوم من بعض الايام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربي فلم يبق غير ملكه قهرا وعنوة وكان منقال التاجي هجم من الشرق فانهزم منقال عن البلد وبقي سنقر وحده في البلد فقوي عليه خوارزم شاه اتسز وأخرجه من البلد وبقي سنجر وحده واشتد في قتله فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه عزم على العود الى مرو ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما فاتفق ان خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود الى ما كان عليه من الانقياد فأجابه الى ذلك واصطلحا وعاد سنجر الى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم

(ذكر عدة حوادث)

بابن علمدار رئيس الفتيان
بسمرقند فأتاه في ثلاثة
آلاف رجل وتقرب اليه
مشايخ أهلها بثلاثمائة غلام *
على سبيل بروشدمه *
ووصلوا بها كرامات تضاهيها *
ونثارات تدل على اخلاصهم
فيها * وتوالى اليه الغزية
فاشتعلت جذوته * وتراجعت
قوته * ولما سمع ايلك الخان
باستعداد شوكته * واشتداد
وطأته * زحف اليه في اخلاس من
الذكور من ديارات الترك
واشتبكت الحرب بينهم
بيورغند حتى نفدت النبال *
وتكسرت النصال *
وتحطمت السمر الطوال *
وخان ايلك الخان مقامه * وانفض
عنه أقوامه * فاستقفاه
الغزية في طلاب الاسلاب *
حتى بردت أيديهم بالسبايا
والمواهب * والغنائم الرغاب *
وذلك في شعبان سنة أربع
وتسعين وثلثمائة وعاود
ايلك الخان أرض الترك فضم
النشر * ونادى فحشر * ثم كر
على ثاره * وبث على المنتصر
شرر ناره * ووافق اقباله
تراجع الغزية الى أوطانهم
بغنائم حووه * على عاداتهم في كل
ما غنموه * واستأنف الحرب
على فضاء بين قسريق دزك
وخاوس من أسروشنة
فاستأمن المعروف كان *
بالحسن بن طاق الى الخان *

وفى هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وسبب ذلك ان أهلها فى أيام الامير الحسن صاحب أفريقية لم يدخلوا أبدا فى طاعته ولم يزالوا مخالفين مشاققين له قد قدموا عليهم من بنى مطروح مشايخ يدبرون أمرهم فلما رآهم ملك صقلية كذلك جهز اليهم جيشا فى البحر فوصلوا اليوم تاسع ذى الحجة فنازلوا البلد وقاتلوه وعلقوا الكلاليب فى سوره ونقبوه فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدة لاهل البلد فقوى أهل طرابلس بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب والآلات فنهبها العرب واهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل فلما رآهم اهل البلد هربوا الى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة خرج حسن أمير الامراء على السلطان سنجر بخراسان وفيها توفى شمس الدين دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية وفيها خرج من الروم عسكر كبير الى الشام فحصروا الفرنج بانطاكية فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم واصلح حاله معه وعاد الى مدينته ومات فى رمضان من هذه السنة ثم ان ملك الروم بعد ان صالح صاحب انطاكية سار الى طرابلس فحصرها ثم سار عنها وفيها قبض السلطان مسعود على الامير ترشك وهو من خواص الخليفة وممن ربى عنده وفى داره فساء ذلك الخليفة ثم أطلقه السلطان حفظا لقلب الخليفة وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك منه اكثر البلاد

(ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكى)

فى هذه السنة وصل السلطان مسعود الى بغداد على عادته فى كل سنة وجمع العساكر وتجهز لقصد اتابك زنكى وكان حقد عليه حقدا شديدا وسبب ذلك ان اصحاب الاطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ما تقدم ذكره فكان ينسب ذلك الى اتابك زنكى ويقول هو الذى سعى فيه وأشار به لعلمه انهم كلهم كانوا يصدرون عن رأيه فكان اتابك زنكى لاشك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره فلما تفرغ السلطان هذه السنة جمع العساكر ليسيروا الى بلاده فسير اتابك يستعطفه ويستميله وأرسل اليه السلطان أبا عبد الله بن الانبارى فى تقرير القواعد فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها الى السلطان ليعود عنه فحمل عشرين ألف دينار اكثرها عروض ثم تنقلت الاحوال بالسلطان الى ان احتاج الى مداراة اتابك وأطلق له الباقى استمالة له وحفظا لقلبه وقعود السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله ومن جيد الرأى ما فعله الشهيد فى هذه الحادثة فانه كان ولده الاكبر سيف الدين غازى لا يزال عند السلطان سفرا وحضرا بأمر والده فأرسل اليه ثانية وأرسل الى نائبه نصير الدين جقر يقول له ليمنعه عن الدخول

الى

قبل ان صافح الليل صباحه* ونفض النجم على الغرب وشاحه* فلم يشعر أحدهما بغتته بدا الظلام على كماة ذلك الجيش اللهام* حتى اذا استفاض ضوء النهار فاذا ابن محمود قتيل وابن حسام الدولة أبى العباس تاش الى جنبه صريع وتفرق الباقون عباديد* بين أقطار الهامه والبيد* ووقع المنتصر الى اسفراين فسامه أهلها سذاذ الفتنة* وشفقة الهرج والفتنه* فانثنى على أدراجه فى شرذمة من أصحابه يقطع الارض طولا وعرضا حتى انتهى الى بعض حدود سرخس فأقام هنالك ريثما تلاحق به الفل وسار حتى عبر النهر من ساحل قطنان وبرز ثمنة بخارا فى طلبه* ونذروا عليه وجوه مهربه* فركب عزيمة الرجال فى ثبات القوم وثبت بعضهم للبعض جلادا بالدبابيس والحراب* واغمادا للسيوف فى قراب الرقاب* فجد المنتصر فى الامر واشتد* وشحا برأسه ولم يكد* وصار القوم الى دبوسية من السغد* مستنجدين من بهامى العمال* وتفاريق الرجال* ووقع المنتصر الى ثغر النور من بخارا وركض منها عليهم وكضة اقتسمتهم بين اجتياح واستئصال واصطلام

قطعته فقتله وسلم الشهيد ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما فزحف اليه عدة دفعات وقدم النقابين فنقبوا سور البلد وبالغ في قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنة التي نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهرا وحصر قلعته فملكها أيضا ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجبه ورأى ان تخريب مثله لا يجوز في السياسة فامر فنودي في العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والاطفال الى بيوتهم واعادة ما غنموه من اثاثهم وامتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شئ الا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من اخذه العسكر فعاد البلد على حاله الاول وجعل فيه عسكرا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فسار اليها وحصرها وكانوا قد اكثروا ميرتها ورجالها فبقي على حصارها الى أن رحل عنها على ما نذكره ان شاء الله تعالى (حكى) ان بعض الحكماء بالانساب والتواريخ قال كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الاعمال فنهبوا وقتلوا وكان بصقلية انسان من العلماء المسلمين وهو من أهل الصلاح وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ويرجع الى قوله ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان وكان أهل ولايته يقولون انه مسلم بهذا السبب ففي بعض الايام كان جالسا في منظرة تشرف على البحر واذ قد أقبل مركب لطيف واخبره من فيه ان عسكره دخل بلاد الاسلام وغنموا وقتلوا وظفروا وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى فقال له الملك يا فلان أما تسمع ما يقولون قال لا قال انهم يخبرون بكذا وكذا أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها فقال له كان غاب عنهم وشهد فتح الرها وقد فتحها المسلمون الآن فضحك منه من كان هناك من الفرنج فقال الملك لا تضحكون فوالله ما يقول الا الحق فبعد أيام وصلت الاخبار من فرنج الشام بفتحها * وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح ان انسانا صالحا رأى الشهيد في النوم فقال له ما فعل الله بك قال غفر لي بفتح الرها

(ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على كوجك قلعة الموصل)

في هذه السنة في ذي القعدة قتل نصير الدين جقر نائب اتابك زنكي بالموصل والاعمال جميعها التي شرق الفرات وسبب قتله ان الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود كان عند اتابك الشهيد وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود واصحابه بالاطراف ان هذه البلاد لهذا الملك وانا نائبه فيها وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد باسمه وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمته فعرضت له نفس له بعض المفسدين طلب الملك وقال له ان قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من البلاد ولا يبقى مع اتابك زنكي فارس واحد فوقع هذا منه موقعا حسنا وظنه صدقا فلما دخل نصير الدين اليه وثب عليه من عنده من اجناد اتابك ومماليكه فقتلوه وألقوا برأسه الى أصحابه ظنا منهم ان اصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد وكان الامر بخلاف ما ظنوه فان اصحابه واصحاب اتابك الذين في خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دولة اتابك مملوءة بالرجال والاجناد ذوي الرأي والتجربة ثم دخل اليه القاضي

والى طوس يحثون الظهور في الطلب * ويترفقون بالاثر بين الركض والخبب * فقاتهم الى بيورقند ومنها الى ابيورد فسرجاه شمس المعالي قابوس بن وشمكير برجاء ألفين من الاكراد الشاهجانية فازعجوه عنها الى بيارة راجعا بالاوم على من لقيه الا صداره * ولما ضاقت عليه المذاهب * وأحاطت به المعاطب * بادر الى كورة نسا بدار من لا يكنه بدار * ولا يوطئ الارض جنب قرار * وتلقاه ابن سرخك الساماني بكتاب يزين له الانتقال اليه لمشاهدة على ايلك الخان ومواربة وواراه * ومطابقة الخلاف عليه ومواطاه * فنازعته نفسه بتقديم اجابته طمعا في وفاته * وتأميلا لعونه على زمانه * فركب الطريق وسار حتى اذا بلغ بئر سعاد من مفازة آمل سبقته خيله الى الشط فوافق ذلك جمود جيحون فاغتنموا مفارقته خلاصا مما منوا به من مكابدة الاسفار * وعدم الاستقرار * ووصل سهر الليل بدأب النهار * وتشاوروا في العبور الى سليمان ابنا جيب وصافي حاجبي ايلك الخان فعبروا اليهما وعرفوهما ان الساماني بالقرب وان

في هذه السنة سير اتابك زنكي عسكرا الى مدينة عانة من اعمال الفرات فملكوها وفيها في المحرم توفي أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن احمد الانماطي الحافظ ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين واربعمائة * وفيها توفي ابو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الاسفرايني الواعظ من اهل اسفراين من خراسان وأقام مدة ببغداد يعظ وسار الى خراسان فلما مات حضر الغزنوي عزاءه ببغداد وبكى واكثر فقال بعض أصحاب أبي الفتوح للغزنوي كلاما أغاظ له فيه فلما قام الغزنوي لامه بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له كنت مهاجرا لهذا الرجل فلما مات حضرت عزاءه واكثرت البكاء واظهرت الحزن قال كنت ابكي على نفسي كان يقال فلان وفلان فمن يعدم النظير أيقن بالرحيل وأنشد هذه الابيات

ذهب المبرّد وانقضت أيامه * وسينقضي بعد المبرّد ثعلب
بيت من الآداب أصبح نصفه * خربا وباق نصفه فسيخرب
فتزوّدوا من ثعلب فبمثل ما * شرب المبرّد عن قليل يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه * ان كانت الانفاس مما يكتب

وفيها توفي الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي في رمضان معزولا ودفن بداره بباب الازج ثم نقل الى الحربية وفيها توفي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي المفسر وزمخشر احدى قرى خوارزم

(ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية)

في هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح اتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها ووصلت غاراتهم الى ادانيها وأقاصيها وبلغت آمد ونصيبين وراس العين والرقة وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحملين والموزر والقرادي وغير ذلك وكانت هذه الاعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر وكان اتابك يعلم انه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير متفرغ الى قصد بلادهم فلما رأوه انه غير قادر على ترك الارتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث انه محارب لهم اطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات الى بلاده الغربية فجاءت عيون اتابك اليه فأخبروه الخبر فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وجمع الامراء عنده وقال قدموا الطعام وقال لا يأكل معي على مائدتي هذه الا من يطعن غدا معي بباب الرها فلم يتقدم اليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف لما يعلمون من اقدامه وشجاعته وان أحدا لا يقدر على مساواته في الحرب فقال الامير لذلك الصبي ما أنت في هذا المقام فقال اتابك دعه فوالله اني أرى وجها لا يتخلف عني وسار والعساكر معه ووصل الى الرها وكان هو اول من حمل على الفرنج وحمل ذلك الصبي وحمل فارس من خيالة الفرنج على اتابك عرضا فاعترضه ذلك الامير

في زهاء ستة آلاف رجل من رفقائه عند اتقاد جمرات المصاع * واشتداد زفرات القراع * فاضطر المنتصر الى الانهزام * وحكم الطغيان في أهل عسكره سيف الانتقام * حتى رويت الارض من دمائهم * وشبعت النسور من اشلائهم * وسار المنتصر الى شط جيحون فعبر على الجمد لعدم السفائن وخلو المعابر ومضى الى اندخوذ من أرض جوزجان * متترسا من ركضة الطغيان * وأمر باستياق الدواب الراعية بها واقتسامها بين أهل جملته فركب المفازة الى قنطرة زاغول ولما بلغ السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * خبره أسرع الانحدار الى بلخ لاجتثاله * عن تفاقم أمره واستفحاله * واتبعه بفريغون بن محمد في أربعين قائدا من قواده * لطرد سواده * وحصد فساده * فانهزم المنتصر وسار الى الجنابذ من قهستان ضروره * اذ كانت جيوب عليه من زوره * فحيث أم شهرت عليه السيوف * واين ألم احدقت به الحتوف * ووافى اليه صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين في طغانجق والى سرخس وأرسلان الجاذب

في هذه السنة سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره الى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود ووصل اليهما الملك سليمان شاه بن السلطان محمد واجتمع بوزابة والامير عباس صاحب الري واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيرا من بلاده ووصل الخبر اليه وهو ببغداد ومعه الامير عبد الرحمن طغايرك وهو امير حاجب حاكم في الدولة وكان ميله اليهما فسار السلطان في رمضان عن بغداد ونزل بها الامير مهلهل ونظر وجماعة من غلمان بهروز وسار السلطان وعبد الرحمن معه فتقارب العسكران ولم يبق الا المصاف فلحق سليمان شاه باخيه مسعود وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي ارادوها واضيف الى عبد الرحمن ولاية اذربيجان وارانية الى ما بيده وصار ابو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود وهو وزير بوزابة فصار السلطان معهم تحت الحجر وارسلوا الى ارسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك وهو ملازم السلطان وتربيته وصار في خدمته عبد الرحمن ايحقن دمه وصار الجماعة في خدمة السلطان بالصورة لا بالمعنى والله اعلم

(ذكر استيلاء علي بن دبيس بن صدقة على الحلة)

في هذه السنة سار علي بن دبيس الى الحلة هاربا فملكها وكان سبب ذلك ان السلطان لما اراد الرحيل من بغداد اشار عليه مهلهل ان يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت فعلم ذلك فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر فمضى الى الازيز وجمع بني اسد وغيرهم وسار الى الحلة وبها اخوه محمد بن دبيس فقاتله فانهزم محمد وملك علي الحلة واستهان السلطان امره اولا فاستفحل وضم اليه جماعة من غلمانه وغلمان ابيه واهل بيته وعساكرهم وكثر جمعهم فسار اليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر وضربوا معه مصافا فكسرهم وعادوا منهزمين الى بغداد وكان اهلها يتعصبون لعلي بن دبيس وكانوا يصيحون اذا رأوا مهلهلا وبعض اصحابه يا علي كله وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب ومد علي يده في اقطاع الامراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها على وجل منه وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور وحفظه وراسل عليا فاعاد بانه العبد المطيع مهما رسم له فعل فسكن الناس ووصلت الاخبار بعد ذلك ان السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه فازداد سكون الناس لذلك

(ذكر عدة حوادث)

حج بالناس هذه السنة قايماز الارجواني صاحب امير الحاج نظر واستحج نظر الخادم بركة نهب في كسرة الحلة وان بينه وبين امير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحج وفيها اتصل بالخليفة عن اخيه ابي طالب ما كرهه فضيق عليه واستاط على غيره من اقاربه وفيها ملك الفرنج لعنهم الله مدينة شنترين وباجة وماردة واشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الاندلس وكانت للمسلمين فاختلفوا فطمع العدو واخذ هذه المدن وقوي بها قوة تمكن وتيقن ملك بلاد الاسلام بالاندلس فخيب الله ظنه وكان ما نذكره وفيها سار اسطول الفرنج من صقلية فقصدوا جزيرة قرقنة من افريقية فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم فارسل الحسن صاحب افريقية الى رجار ملك صقلية يذكره بالعهود التي بينهم فاعتذر بانهم غير مطيعين له وفي هذه السنة توفي مجاهد الدين بهروز الغياثي وكان حاكما بالعراق نيفا وثلاثين سنة وبرتقش الزكوي صاحب اصفهان وكان

من الضرب واعتلت علته
القضاء المبرم
ما انبثه في مستنقع الموت
رجله
وقال لها من تحت اخمصك
الحشر
غدا غدوة والحمد نسج رداءه
فلم ينصرف الا واكفانه
الاجر
مضى طاهر الاثواب لم تبق
روضة
غداة ثوى الا اشتهت انها قبر
عليك سلام الله وقفا فانني
رأيت الكريم الحر ليس
له عمر
ثم نقل تابوته الى قرية ماي
مرغ من رودبار ودفن
بها في شهر ربيع الاول سنة
خمس وتسعين وثلثمائة
وبلغ السلطان يمين الدولة
وامين الملة خبره فامر
بالقبض على البندار
واداقته مر الانكال
وشن الغارة على حلة ابن
بايج الاعرابي خاصة
وعلى سائر العرب السيارة
عامة وصارت بجرة آل
سامان رمادا تذروه الرياح
وكان الله على كل شئ
مقتدرا
*(ذكر الامراء السامانية
ومقادير ايامهم من حيث
تمهدت دولتهم الى ان ورثها
السلطان يمين الدولة وامين
الملة)*
كان ملك آل سامان

تاج الدين يحيى بن الشهرزوري ولم يزل به يخدعه وكان فيما قال له ارأيت مثل هذا يامولانا لم يخرج من هذا المكان هذا واستاذه مالك والحمد لله الذي اراحنا منه ومن صاحبه على يدك وما الذي يقعدك في هذه الدار قم لتصعد القلعة وتأخذ الاموال والسلاح وتملك البلاد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع فقام معه واصعده القلعة فلما قارب الدار من بها من النقيب والاجناد القتال فتقدم اليهم القاضي تاج الدين وقال لهم افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا به ما اردتم ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضي اليها ومعهما من اعان على قتل نصير الدين فسجنوا ونزل القاضي وبلغ الخبر اتابك زنكي وهو يحاصر قلعة البيرة وقد اشرف على ملكها فخاف ان تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ففارق البيرة وارسل زين الدين علي بن بكتكين الى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجردي ووزر بعده المرزبان بن عبد الله ابن نصر الاصفهاني وسلم اليه البروجردي فاستخرج امواله ومات مقبوضا وفيها كان اتابك عماد الدين زنكي يحاصر البيرة وهي للفرنج شرق الفرات بعد ملك الرها وهي من امنع الحصون وضيق عليها وقارب ان يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وارسل نائبا الى الموصل واقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج ان يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفا شديدا فارسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها اليه فملكها المسلمون وفيها خرج اسطول الفرنج من صقلية الى ساحل افريقية والغرب ففتحوا مدينة برشك وقتلوا اهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين وفيها توفي تاشفين بن علي بن يوسف صاحب الغرب وكانت ولايته تزيد على اربع سنين وولي بعده اخوه وضعف امر الملثمين وقوي عبد المؤمن وقد ذكرنا ذلك سنة اربع عشرة وخمسمائة وفيها في شوال ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق وبقي الى نصف ذي القعدة ثم غاب ثم طلع من جانب الغرب فقيل هو هو وقيل بل غيره وفيها كانت فتنة عظيمة بين الامير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوي الحسيني امير مكة والامير نظر الخادم امير الحاج فنهب اصحاب هاشم الحجاج وهم في المسجد يطوفون ويصلون ولم يرقبوا فيهم الا ولا ذمة وفيها في ذي الحجة توفي عبد الله احمد بن محمد بن عبد الله بن حمدويه ابو المعالي المروزي بمرو وسافر الكثير وسمع الحديث الكثير وبنى بمرو رباطا ووقف فيه كتبا كثيرة وكان كثير الصدقة والعبادة وتوفي محمد بن عبد الملك بن حسن بن ابراهيم بن خيرون ابو منصور المقري في رجب ومولده في رجب سنة اربع وخمسين واربعمائة وهو آخر من روى عن الجوهري بالاجازة وفي ذي الحجة منها توفي ابو منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين واربعمائة وتفقه على الغزالي والشاشي ودفن في تربة الشيخ ابي اسحق

(ثم دخلت سنة اربعين وخمسمائة)

(ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان)

قسطنطنيه فهو خلسة الطامع ونهزة الطالب وطعمة الانياب والمخالب فلم يشعر ابو ابراهيم الا بالطبل معالنة قطاردهم ساعة ثم ولاهم ظهر الفرار وقبض على أخويه وخاصتهما برباط بشرى ووصلوا الى أورك اسرى وأحسن المنتصر هربه على ابن بيع الاعرابي من جملة العرب السيارة في تلك المفازة ليقضي الله أمرا كان مفعولا وكان المعروف بأبي عبد الله ما روي بندارا من جهة السلطان يمين الدولة فيهم وقد أوصاهم بالقعود له بكل مرصد واذكاء العيون عليه عند كل مورد فلما ايس الليل جلدة العيش وعرض على النجوم جيش الحبش وثب أهل تلك الحلة على المنتصر بهم لا مهم بقدر وغدره وقساوة وشقاوة واخفروا حق مقدمه واحلوا للارض حرام دمه فكأنما عناه أبو تمام حبيب بن أوس الطائي حيث يقول

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

وما مات حتى مات مضرب سيفه

حصان من الحصر وقد تقدم ذكره وكان هذا القول من الاتفاق الحسن والا فقبل اتابك زنكي رسل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهي بيد عقاب صاحبها الى الآن وهم يذكرون انهم لهم بها نحو الثلاثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصبية ياخذون بيد كل من يلتجئ اليهم ويقصدهم ولا يسلمونه الى طالبه كائنا من كان قريبا ام غريبا

(ذكر قتل اتابك عماد الدين زنكي وشئ من سيرته)

في هذه السنة لخمس مضين من ربيع الآخر قتل اتابك الشهيد عماد الدين زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر على ما ذكرناه قتله جماعة من مماليكه ليلا غيلة وهربوا الى قلعة جعبر فصاح من بها من اهلها الى العسكر يعلمونهم بقتله واظهروا الفرح ودخل اصحابه اليه فادركوه وبه رمق (حدثني والدي) عن بعض خواصه قال دخلت اليه في الحال وهو حي فحين رآني ظن اني اريد قتله فاشار الي باصبعه السبابة يستعطفني فوقعت من هيبته فقلت يا مولاي من فعل هذا فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله قال وكان حسن الصورة اسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان قد زاد عمره على ستين سنة لانه كان لما قتل والده صغيرا كما ذكرناه قبل ولما قتل دفن بالرقة وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل ان يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت اهلا وسكانا (حكى لي والدي) قال رأيت الموصل واكثرها خراب بحيث يقف الانسان قريب محلة الطبالين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة قط وكان الانسان لا يقدر على المشي الى الجامع العتيق الا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة وهو الآن في وسط العمارة وليس في هذه البقاع المذكورة كلها ارض براح قال وحدثني أيضا انه وصل الى الجزيرة في الشتاء فدخل الامير عز الدين الدبيسي وهو من اكابر أمرائه ومن جملة اقطاعه مدينة دقوقا ونزل في دار انسان يهودي فاستغاث اليهودي الى اتابك وانهى حاله اليه فنظر الى الدبيسي فتأخر ودخل البلد واخرج بركه وخيامه قال فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه في الوحل وقد جعلوا على الارض تبنا يقيهم الطين وخرج فنزلها وكانت سياسته الى هذا الحد وكانت الموصل من اقل بلاد الله فاكهة فصارت في أيامه وما بعدها من اكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك وكان أيضا شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد وكان يقول ان لم نحفظ نساء الاجناد والا فسدن لكثرة غيبة ازواجهن في الاسفار وكان اشجع خلق الله أما قبل ان يملك فيكفيه انه حضر مع الامير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية وهي للفرنج فوصلت طعنته باب البلد واثرت فيه وحمل أيضا على قلعة عقر الحميدية وهي على جبل عال فوصلت طعنته الى سورها الى اشياء اخر واما بعد الملك فقد كان الاعداء محدقين ببلاده وكلهم يقصدها ويريدون اخذها وهو لا يقنع بحفظها حتى انه لا ينقضي عليه عام حتى يفتح من بلادهم فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره في ناحية تكريت وقصد الموصل وحصرها ثم الى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ثم ابن سقمان صاحب خلاط ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ثم صاحب آمد وماردين ثم الفرنج من مجاورة ماردين الى دمشق ثم اصحاب دمشق فهذه الولايات قد احتاطت بولايته

ملك ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يوما رفيع العماد قوي العماد وري الزناد زكي المراد وتوفي ليلة الخميس لثلاث بقين من رجب سنة احدى وثلاثين وثلثمائة وتسلم في ارث الملك ابنه (نوح بن نصر) وهو الحميدي فملك اثنتي عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام وتوفي ببخارا يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وانتصب منصبه (عبد الملك بن نوح) فملك سبع سنين وستة أشهر واحد عشر يوما وعثرت به دابته فسقط الى الارض سقطة حمل منها ميتا وذلك عشية يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلثمائة وخلفه في الولاية أخوه (منصور ابن نوح) خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وتوفي ببخارا يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وستين وثلثمائة وولي امره من بعده (نوح بن منصور) احدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وتوفي يوم الجمعة ببخارا لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة سبع وثمانين وثلثمائة وملك بعده ولده (أبو الحرث منصور)

ايضا شحنة بالعراق وهو خادم ارمنى لبعض الجهاد وولى الامير ايلدكز شحنة بغداد والشيخ ابو منصور موهوب بن احمد بن الخضر الجواليقى اللغوى ومولده فى ذى الحجة سنة خمس وستين واربعمائة واخذ اللغة عن ابى زكريا التبريزى وكان يؤم بالمقتفى أمير المؤمنين وتوفى احمد بن محمد ابن الحسين بن على بن أحمد بن سليمان أبو سعد بن ابى الفضل الاصفهانى ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمائة وروى الحديث الكثير وكان على سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله عليه

(ثم دخلت سنة احدى وأربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب)

فى هذه السنة ملك الفرنج لعنهم الله طرابلس الغرب وسبب ذلك ان رجار ملك صقلية جهز اسطولا كثيرا وسيره الى طرابلس فاحاطوا بها برا وبحرا ثالث المحرم فخرج اليهم اهلها وانشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة ايام فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة وخلت الاسوار من المقاتلة وسبب ذلك ان اهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بايام يسيرة قد اختلفوا فاخرج طائفة منهم بنى مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين قدم يريد الحج ومعه جماعة فولوه أمرهم فلما نازلهم الفرنج اعادت الطائفة الاخرى بنى مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين وخلت الاسوار فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج المدينة عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء اهلها وسبوا نساءهم واخذوا اموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب فنودى بالامان فى كافة الناس فرجع كل من فر منها واقام الفرنج ستة اشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خندقها ولما عادوا اخذوا رهائن أهلها ومعهم بنو مطروح والملثم ثم اعادوا رهائنهم وولوا عليها رجلا من مطروح واخذوا رهائنه وحده واستقامت امور المدينة والزم اهل صقلية والروم بالسفر اليها فعمرت سريعا

(ذكر حصر زنكى حصن جعبر وفنك)

وفى هذه السنة سار اتابك زنكى الى حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك العقيلى سلمه السلطان ملكشاه الى ابيه لما اخذ منه حلب وقد ذكرناه فحصره وسير جيشا الى قلعة فنك وهى تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان فحصرها أيضا وصاحبها حينئذ الامير حسام الدين الكردى البشنوى وكان سبب ذلك انه كان لا يريد ان يكون فى وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطا فنازل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها فلما طال عليه ذلك ارسل الى صاحبها مع الامير حسان المنبجى لمودة كانت بينهما فى معنى تسليمها وقال له تضمن عنى الاقطاع الكثير والمال الجزيل فان اجاب الى التسليم والا فقل له والله لاقيمن عليك الى ان املكها عنوة ثم لا ابقى عليك ومن الذى يمنعك منى فصعد اليه حسان وادى اليه الرسالة ووعده وبذل له ما قيل له فامتنع من التسليم فقال له حسان فهو يقول لك من يمنعك منى فقال يمنعنى منه الذى منعك من الامير بلك فعاد حسان واخبر الشهيد بامتناعه ولم يذكر له هذا فقتل اتابك بعد ايام وكانت قصة حسان مع بلك ابن اخى ايلغازى ان حسانا كان صاحب منبج فحصره بلك وضيق عليه فبينما هو كذلك فى بعض الايام يقاتل جاءه سهم لا يعرف من رماه فقتله وخلص

ما وراء النهر وبلاد خراسان بما ينضاف اليها فى الوقت بعد الوقت من كور سجستان وكرمان وجرجان وطبرستان والرى الى حدود أصفهان مائة سنة وسنتين وستة أشهر وعشرة أيام فاولهم (أبو ابراهيم اسمعيل) بن أحمد وهو الذى قبض على عمرو بن الليث بناحية بلخ يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين وولى خراسان ثمان سنين ومضى لسبيله ببخارا ليلة الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة خمس وتسعين ومائتين منعوتا بالعدل والرافه موسوما بطاعة الخلافه وقام بعده (أبو نصر أحمد) ابن اسمعيل فملك ست سنين وثلاثة أشهر وقتله نفر من غلمانه بفربر ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان مقتديا بابيه فى ايثار العدل واختيار الاحدوثة الحسنة اقتداء الابناء بالآباء فى اختيار أفضل السنن واتباع أحمد السنن الى أن طوت الدنيا صحائف أيامهم كما اتفق فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وسنة مسند الشهيد (أبو الحسن نصر بن أحمد)

الشهيد وقع في يدي من السبي جارية رائعة الحسن حسنها ومال قلبي اليها فلم يكن بأسرع من ان أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب وكان مهيبا مخوفا فرددتها وقلبي متعلق بها فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عدة جوار فيها تلك الجارية فوطئتها خوفا ان تقع مثل تلك الردة

(ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الاندلس)

في هذه السنة سير عبد المؤمن بن علي جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا ما فيها من بلاد الاسلام وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاءه اليه جماعة من اعيان الاندلس منهم ابو جعفر احمد بن محمد بن حمدين ومعهم مكتوب يتضمن بيعة اهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين واقامتهم لامره فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره في البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة اشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملثمين فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وامن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد وكان لعبد المؤمن بها

(ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الري)

في هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولته عبد الرحمن طغايرك وهو صاحب خلخال وبعض اذربيجان والحاكم في دولة السلطان وليس للسلطان معه حكم وكان سبب قتله ان السلطان لما ضيق عليه عبد الرحمن وبقي معه شبه الاسير ليس له في البلاد حكم حتى ان عبد الرحمن قصد خلاف ما كان للسلطان وهو ولد ارسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكري وقد رباه السلطان وقربه فابعده عنه وصار لا يراه وكان في خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة وتوصل لما يريده بعقله فجمع عبد الرحمن العساكر وخاص بك فيهم وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود ان يقتل عبد الرحمن فاستدعى خاص بك جماعة ممن يثق بهم وتحدث معهم في ذلك فكل منهم خاف الاقدام عليه الا رجلا اسمه زنكي وكان جاندارا فانه بذل من نفسه ان يبدأ بالقتل ووافق خاص بك على القيام في الامر جماعة من الامراء فبينما عبد الرحمن في موكبه ضربه زنكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه فسقط الى الارض فاجهز عليه خاص بك واعانه على حماية زنكي والقائمين معه من كان واطأه على ذلك من الامراء وكان قتله بظاهر جنزة وبلغ الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد ومعه الامير عباس صاحب الري وعسكره اكثر من عسكر السلطان فانكر ذلك وامتعض منه فداراه السلطان ولطف به واستدعى الامير البقش كون خر وتتر وهو أمير العلف وتتر الذي كان حاجبا فلما قوي بهما أحضر عباسا اليه في داره فلما دخل اليه منع اصحابه من الدخول معه وعدلوا به الى حجرة وقالوا له اخلع الزردية فقال ان لي مع السلطان أيمانا وعهودا فلكموه وخرج له غلمان أعدوا لذلك فحينئذ تشهد وخلع الزردية والقاها وضربوه بالسيوف واحتزوا رأسه والقوه الى اصحابه ثم القوا جسده ونهب رحله وانزعج البلد لذلك وكان عباس من غلمان السلطان محمود حسن السيرة عادلا في رعيته كثير الجهاد للباطنية قتل منهم خلقا كثيرا وبنى من رؤسهم منارة بالري وحصر

السلطان يمين الدولة وأمين الملة اليه ووعظفته الى انتزاع الملك من يديه وما يجري خلال ذلك من وقائعه في الهند الى أن استتب له ما أراد في أمره بعون الله ونصره)*

قد سبق في أول هذا الكتاب ذكر الامير خلف بن أحمد فما رآه السديد منصور ابن نوح من رده الى بيته واظهاره على خصمه الى أن تهاوت رجوم الفتن بخراسان ففرقه اشتغال ولاتها بما دهاهم منها للاستعصام والاندفاع والاستظهار بما يقربه أرض سجستان من صنوف الارتفاع حتى اتسع نطاق همته لطلب الفضول والزيادات على ما في يده ومنازعة القروم والسادات ولما تصدى الامير ناصر الدين سبكتكين لمراقعة ملك الهند حين تورد حدود الاسلام على ما نطق بشرحه صدر هذا الكتاب غتنم خلف بن أحمد انتقاض بست عن الطاعة ومناوءها عن الذمة فأسرى اليها من اقتاض بيننا وافتض عذرتها وصرف كلمة الدعوة عنها وعسر يده في أموالها فيفاها وجوها وأقاها ولما أفلج الله ناصر الدين في الكافر اللعين عطف العنان

من كل جهاتها فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة ويأخذ من هذا ويصانع هذا الى ان ملك من كل من يليه طرفا من بلاده وقد اتينا على اخباره في كتاب الباهر في تاريخ دولته ودولة اولاده فليطلب من هنالك

(ذكر ملك ولديه سيف الدين غازي ونور الدين محمود)

لما قتل اتابك زنكي اخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضرا معه وسار الى حلب فملكها وكان حينئذ يتولى ديوان زنكي ويحكم في دولته من اصحاب العمائم جمال الدين محمد بن علي وهو المنفرد بالحكم ومعه امير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسياني فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد اتابك الملك الب ارسلان ابن السلطان محمود فركب ذلك اليوم واجتمعت العساكر عليه وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات والجواري وادخلاه الرقة فبقي بها اياما لا يظهر ثم سار الى ماكسين فدخلها واقام بها اياما وجمال الدين يحلف الامراء لسيف الدين غازي بن اتابك زنكي ويسيرهم الى الموصل ثم سار من ماكسين الى سنجار وكان سيف الدين قد وصل الى الموصل فلما وصلوا الى سنجار أرسل جمال الدين الى الدزدار يقول له ليرسل الى ولد السلطان يقول له انني مملوكك ولكن ينبغي الموصل فان ملكتها سلمت اليك سنجار فسار الى الموصل فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد وقد بقي معه من العسكر القليل فأشار عليه بعبور دجلة فعبرها الى الشرق في نفر يسير وكان سيف الدين غازي بمدينة شهرزور وهي اقطاعه فارسل اليه زين الدين علي نائب ابيه بالموصل يستدعيه الى الموصل فحضر قبل وصول الملك فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين الى الموصل أرسل اليه يعرفه قلة من معه فأرسل اليه بعض عسكره فقبضه وحبس في قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين البلاد وبقي أخوه نور الدين بحلب وهي له وسار اليه صلاح الدين الباغيسياني مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها وقد استقصينا شرح هذه الحادثة في التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية

(ذكر عصيان الرها لما قتل اتابك)

كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته وهي تل باشر وما يجاورها فراسل أهل الرها وعامتهم من الارمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فأجابوه الى ذلك وواعدهم يوما يصل اليهم فيه وسار في عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكي وهو بحلب فسار مجدا اليها في عسكره فلما قاربها خرج جوسلين هاربا عائدا الى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفي هذه الدفعة نهبت وخلت من اهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكثير من الناس يظن انها نهبت لما فتحها الشهيد وليس كذلك وبلغ الخبر الى سيف الدين غازي بعصيان الرها فسير العساكر اليها فسبقه الملك نور الدين الى البلد واستباحه وهم في الطريق فعادوا ومن اعجب ما يحكى ان زين الدين علي الذي كان نائب الشهيد واولاده بقلعة الموصل جاءه هدية ارسلها اليه نور الدين من هذا الفتح وفي الجملة جارية فلما دخل اليها وخرج من عندها وقد اغتسل وقال لمن عنده تعلمون ما جرى لي في يومنا هذا قالوا لا قال لما فتحنا الرها مع

الشهيد

ابن نوح سنة وتسعة أشهر فاعتقله بكتوزون بسرخس يوم الاربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وبويع أخوه (عبد الملك ابن نوح) فاستقرت قدمه في الولاية حتى خربت على يد السلطان يمين الدولة وأمين الملة دعامته * وشالت نعامته * فطار الى بخارا وقبض ايلك الخان عليه * وانتزع ولايتها من يديه * فكانت مدة أمره ثمانية أشهر وسبعة عشر يوما ثم أخوه (المنتصر أبو ابراهيم) اسمعيل بن نوح وذلك عند ثان ما ولى السلطان * كور خراسان * وأقبل بعد ذلك يزداد في أسباب العلا جده وجده * ويتضاعف في رقاب الاعداء حده * فما يتركه شهر الا عن ثغر مفتوح * وصنع ممنوح * وذكر على هامات الاعواد مرفوع * وباب الى قضاء المنى والآمال مشروع * وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

*(ذكر الاحوال التي جرت للأمير ناصر الدين سبكتكين وخلف بن أحمد والي سجستان من خلاف مرة ووفاق أخرى وما جرى بعد ذلك من الطوائل والترات التي ثنت عنان

بين يديه وانهزم أصحابه الا من أخذوا اسيرا وبلغت هزيمة العسكر السلطاني من الميمنة والميسرة الى همذان وخراسان وقتل من الفريقين خلق كثير وكان هذا الحرب من اعظم الحروب الكائنة بين الاعاجم

(ذكر طاعة اهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها)

كان صاحب مدينة قابس قبل هذه السنة انسان اسمه رشيد فتوفي وخلف اولادا فعمد مولى له اسمه يوسف الى ولده الصغير واسمه محمد فولاه الامر واخرج ولده الكبير معمرا واستولى يوسف على البلد وحكم على محمد لصغر سنه وجرى منه اشياء من التعرض الى حرم سيده والعهدة على ناقله وكان من جملتهن امرأة من بني قرة فارسلت الى اخوتها تشكو اليهم ما هي فيه فجاء اخوتها لاخذها فمنعها منهم وقال هذه حرمة مولاي ولم يسلمها فسار بنو قرة ومعمر بن رشيد الى الحسن صاحب افريقية وشكوا اليه ما يفعل يوسف فكاتبه الحسن في ذلك فلم يجبه وقال ان لم يكف الحسن عني والا سلمت قابس الى صاحب صقلية فجهز الحسن العسكر اليه فلما سمع يوسف بذلك ارسل الى رجار الفرنجي صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له اريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لاكون نائبا عنك كما فعلت مع بني مطروح اصحاب طرابلس فسير اليه رجار الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بجمع الناس فجد حينئذ الحسن في تجهيز العسكر الى قابس فساروا اليها ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج وسلموا البلد الى عسكر الحسن وتحصن يوسف في القصر فقاتلوه حتى فتحوه وأخذ يوسف اسيرا فتولى عذابه معمر بن رشيد وبنو قرة فقطعوا ذكره وجعلوه في فيه وعذب بانواع العذاب وولي معمر قابس مكان أخيه واخذ بنو قرة اختهم وهرب عيسى اخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجار صاحب صقلية فاستجاروا به وشكوا اليه ما لقوا من الحسن فغضب لذلك وكان ما نذكره سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من فتح المهدية ان شاء الله تعالى وهذا الذي كان من يوسف والله أعلم

(ذكر حادثة ينبغي ان يحتاط العاقل من مثلها)

كان هذا يوسف صاحب قابس قد ارسل رسولا الى رجار صاحب صقلية فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهدية عنده فجرى بين الرسولين مناظرة فذكر رسول يوسف الحسن ومانال منه وذمه ثم انهما عادا في وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما في مركبه فارسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعة من اصحابه في البحر فاخذوا رسول يوسف واحضروه عند الحسن فسبه وقال ملكت الفرنج بلاد الاسلام وطولت لسانك بذمي ثم أركبه جملا وعلى رأسه طرطور وطيف به في البلد ونودي عليه هذا جزاء من سعى ان يملك الفرنج بلاد المسلمين فلما توسط المهدية ثار به العامة فقتلوه بالحجارة

(ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الاندلس)

في هذه السنة في جمادى الاولى حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة واكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شاشة وولاية بياسة وكلاها

واشمار الشفق من ابي على بحوته الحاضره * وقوته الباهره * اذ كان قدوته بقصد حصاره * وغزوه في عقر داره * واقتساره بسيوف أنصاره وصحبه الى بوشنج في جمهور اشياعه واتباعه ثم خلفه بها ناصر الدين سبكتكين صيانة له عن كلفة السفر * وابقاء عليه من خطة الخطر * وسار الى طوس لمواقعة ابي علي وطلب الثار المنيم عنده حتى اذا طرده ونفض عن شغل تلك الحرب يده * رد الى خلف بن احمد اصحابه مثقلين بالنعم الباهره وموشحين بالخلع الفاخره تقدمهم المراكب والجنائب * وتردفهم النجائب والرغائب

وعادوا فأثنوا بالذي كان اهله ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب

فصفت لذلك شريعة الحال بينهما عن قذى المواراه وتجلت عن عرض المداجية والمداجاه * الى ان عبر الامير ناصر الدين سبكتكين النهر الى ماوراءه لمدافعة ايلك الخان عن ولاية الرضى برفق المناصحه * او بخرق المكاشفه * ثم اقتضته صورة الحال مساهمته بعض تلك البلاد على ان يسلم له سائرها ويأمن من عبث العيث بأديمها وحاضرها * وترامت اليه اثناء ذلك مكاتبة خلف

قلعة الموت ودخل الى قرية من قراهم فالقى فيها النار فاحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبي وغير ذلك وقتل بالجانب الغربي فارسلت ابنته فحملته الى الري فدفنته هناك وكان مقتله في ذي القعدة ومن الاتفاق العجيب ان العبادي كان يعظ يوما فحضره عباس فامسع بعض اهل المجلس ورمى بنفسه نحو الامير عباس فضربه اصحابه ومنعوه خوفا عليه لانه كان شديد الاحتراس من الباطنية لايزال لابسا الزردية لاتفارقه الغلمان الاجلاد فقال له العبادي كم هذا الاحتراز والله لئن قضي عليك بأمر لتحلن انت بيدك ازرار الزردية فينفذ القضاء فيك وكان والله كما قال وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارها على ماتقدم ذكره فعزله الآن لانه اختار العزل والعود الى صاحبه بوزابة فلما عزله قرر معه ان يصلح له بوزابة ويزيل ماعنده من الاشمئزاز بسبب قتل عبد الرحمن وعباس فسار الوزير وهو لايعتقد النجاة فوصل الى بوزابة وكان مانذكره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة حبس السلطان مسعود اخاه سليمان شاه بقلعة تكريت وفيها توفي الامير جاولي الطغرلي صاحب ارانية وبعض اذربيجان وكان قد تحرك للعصيان وكان موته فجأة مدقوسا فبرد فمات وتوفي شيخ الشيوخ صدر الدين اسمعيل بن ابي سعيد الصوفي مات ببغداد ودفن بظاهر رباط الدوري بباب البصرة ومولده سنة اربع وستين واربعمائة وقام في منصبه ولده عبد الرحيم وفيها توفي مسعود بن بلال شحنة بغداد وسار السلطان عنها وفيها كان بالعراق جراد كثير اهلك اكثر البلاد وفيها ورد العبادي الواعظ رسولا من السلطان سنجر الى الخليفة ووعظ ببغداد وكان له قبول بها وحضر مجلسه السلطان مسعود فمن دونه واما العامة فانهم كانوا يتركون أشغالهم لحضورهم مجلسه والمسابقة اليه وفيها بعد قتل الشهيد زنكي بن آقسنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين ايوب بن شاذي فخاف ان اولاد زنكي لايمكنهم انجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة اليه واخذ منه اقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق وانتقل ايوب الى دمشق فسكنها واقام بها وفي هذه السنة في ربيع الآخر توفي عبد الله بن علي بن احمد المقرى ابن بنت الشيخ ابي منصور ومولده في شعبان سنة أربع وستين وأربعمائة وكان مقرئا نحويا محدثا وله تصانيف في القراآت

(ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة)

(ذكر قتل بوزابة)

لما اتصل بالامير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار الى اصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر الى همذان وعسكرا ثالثا الى قلعة الماهكي من بلد اللحف فاما عسكره بالماهكي فانه سار اليهم الامير البقش كون خر فدفعهم عن اعماله وكانت اقطاعه ثم ان بوزابة سار عن اصفهان يطلب السلطان مسعودا فراسله السلطان في الصلح فلم يجب اليه وسار مجدا فالتقيا بمرج قراتكين وتصافا فاقتتل العسكران فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته واقتتل القلبان اشد قتال واعظمه صبر فيه الفريقان وصار الحرب بينهما فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه وقيل بل عثر به الفرس فأخذ أسيرا وحمل الى السلطان فقتل

الى بيت مجمعا من غدره محتفظا من سوء مقابلته فالتقاه اصحاب خلف بن أحمد بظهور العار واعقاب الادبار والصغار وهم لناصر الدين سبكتكين لمناهضته واستخار الله تعالى في منابزته فأرسل اليه خلف من يتأول عليه في ذلك البعث محافظته على حكم الموالاة في حفظ ولايته ويتضمن تصحيح ماصار في جبايته ويتبرع بزيادة تقوم مقام الارش عن جنايته تفاديا عن ثقل وطأته على أعماله وتصونا عن عورة الافتضاح في قتاله فتغابى ناصر الدين عن شر غدره مقبلا اليه الاعتذار واكتفى منه بذل الاعتذار فكان مثله في ذلك كما قال أبو تمام

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

ثم طالبه بتصحيح المال حتى أداه وارتهن بعض رضاه فكانت الحال بينهما من بعد قائمة على جملة المسالمة الى أن حدث من أمر ابي علي بن سيمجور في الدولة التي اتفقت له بباب نيسابور ماسبق شرحه فأظهر تقربا الى ناصر الدين بمساعدته على خصمه ومرافدته بنفسه وسائر أهل جملته امتنانا عليه بظاهر الظاهرة

البيت لا يبقى منهم احد وباد كثير منهم الى صقلية في طلب القوت ولقوا امرا عظيما

(ثم دخلت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بافريقية)

قد ذكرنا سنة احدى واربعين وخمسمائة مسير اهل يوسف صاحب قابس الى رجار ملك صقلية واستغاثتهم به فغضب لذلك وكان بينه وبين الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب افريقية صلح وعهود الى مدة سنتين وعلم انه قد فاته فتح البلاد فى هذه الشدة التى اصابتهم وكانت الشدة دوام الغلاء فى جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين الى هذه السنة وكان اشد ذلك منه سنة اثنتين واربعين فان الناس فارقوا البلاد والقرى ودخل اكثرهم الى مدينة صقلية واكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت فى الناس فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الاسطول واكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوأة رجالا وسلاحا وقوتا وسار الاسطول عن صقلية ووصل الى جزيرة قوصرة وهى ما بين المهدية وصقلية فصادفوا بها مركبا وصل من المهدية فأخذ أهله واحضروا بين يدى جرجى مقدم الاسطول فسألهم عن حال افريقية ووجد فى المركب قفص حمام فسألهم هل ارسلوا منها شيئا فحلفوا بالله انهم لم يرسلوا شيئا فامر الرجل الذى كان الحمام صحبته ان يكتب بخطه انا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الاسطول المخذول فذكروا انه اقلع الى جزائر القسطنطينية واطلق الحمام فوصل الى المهدية فسر الامير الحسن والناس واراد جرجى بذلك ان يصل بغتة ثم سار وقدر وصولهم الى المهدية وقت السحر ليحيط بها قبل ان يخرج اهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم احد فقدر الله تعالى ان ارسل عليهم ريحا هائلة فلم يقدروا على السير الا بالمقاذيف فطلع النهار ثانى صفر فى هذه السنة قبل وصولهم فرآهم الناس فلما رأى جرجى ذلك وان الخديعة فاتته ارسل الى الامير الحسن يقول انما جئت بهذا الاسطول طالبا بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس ورده اليها واما انت فبيننا وبينك عهود وميثاق الى مدة ونريد منك عسكرا يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والاعيان وشاورهم فقالوا نقاتل عدونا فان بلدنا حصين فقال اخاف ان ينزل الى البر ويحصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما يقوتنا شهرا فنؤخذ قهرا وانا ارى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خيرا من الملك وقد طلب منى عسكرا الى قابس فان فعلت فما يحل لى معونة الكفار على المسلمين وان امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد الا ان يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأى ان نخرج بالاهل والولد ونترك البلد فمن اراد ان يفعل كفعلنا فليبادر معنا وامر فى الحال بالرحيل واخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم باهليهم واولادهم وما خف من اموالهم واثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس وبقى الاسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول الى المهدية الى ثلثى النهار فلم يبق فى البلد ممن عزم على الخروج احد فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه الا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأى الخزائن مملوأة من الذخائر النفيسة وكل شئ غريب يقل وجود

فقتاد الا بأزمة الايادى والعوارف * ولا تستقاد الا بابتذال الرغائب من التوالد والطوارف * ثم الكلمة الجافية تهيج وادعها وتطير راقعها * وتكدر عليها مشارعها * وتلا عليه قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ثم فسرها حتى نزل عن ظهر مركب التجهيل * الى ارض التسهيل * وانشدنى ابو الفتح البستى رحمه الله فى شرح ما دار بينه وبين ناصر الدين سبكتكين لنفسه

اذا شئت ان تصطاد حب اخى لب
وتملك منه حوزة القلب واللب
فأشركه فى الخير الذى قد رزقته
وادخله بالاحسان فى شرك الحب
الم تر طير الجو تهوى مسفة
لحب كقطر من ذرى الجو منصب
كذلك لا يصطاد ذو الرأى والحجى
حبات حبات القلوب بلا حب

وكتب خلف بن احمد بعد ذلك متنصلا مما عزى اليه ومتبريا مما نقم منه فعفا ناصر الدين عما حاك فى صدره من امره * واغمض له عما استحقه من قلب قلبه وغدر غدره

بالاندلس ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلاد الفرنج)

في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب بلاد الفرنج ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصر مابولة وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما اخذه فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملهم

(ذكر اخذ الحلة من علي بن دبيس وعوده اليها)

في هذه السنة كثر فساد اصحاب علي بن دبيس بالحلة وما جاورها وكثرت الشكاوى منه فاقطع السلطان مسعود الحلة سلاركرد فسار اليها من همذان ومعه عسكر وانضاف اليه جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الحلة فجمع علي عسكره وحشد والتقى العسكران بطيرباذ فانهزم علي وملك سلاركرد الحلة واستاط على اهل علي ورجعت العساكر واقام هو بالحلة ومماليكه واصحابه وسار علي بن دبيس فلحق بالبقش كون خر وكان باقطاعه في اللحف مجتنبا على السلطان فاستنجده فسار معه الى واسط واتفق هو والطرنطاي وقصدوا الحلة فاستنقذوها من سلاركرد في ذي الحجة وفارقها سلاركرد وعاد الى بغداد

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى خطب للمستنجد بالله يوسف ابن المقتفي لامر الله بولاية العهد وفيها ولي عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد وولي زعيم الدين يحيى بن جعفر المخزن وفيها في ربيع الاول مات ابو القاسم طاهر بن سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير الميهني شيخ رباط البسطامي ببغداد وفي ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتفي لامر الله وفي رجب منها مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن علي ابن المسلمة ابن رئيس الرؤساء ومولده سنة اربع وثمانين وكان قد تصوف وجعل داره التي في القصر رباطا للصوفية وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي الى قلعة دارا فملكها وغيرها من بلد ماردين ثم سار الى ماردين وحصرها وخرب بلدها ونهبه وكان سبب ذلك ان اتابك زنكي لما قتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن الى ما كان قد فتحه من بلادهما فاخذاه فلما ملك سيف الدين وتمكن سار الى ماردين وحصرها وفعل ببلدها الافاعيل العظيمة فلما رأى صاحبها وهو حينئذ حسام الدين تمرتاش ما يفعل في بلده قال كنا نشكو من اتابك الشهيد وأين ايامه لقد كانت اعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يأخذ هو ولا احد من عسكره مخلاة تبن بغير ثمن ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان وارى هذا ينهب البلاد ويخربها ثم راسله وصالحه وزوجه ابنته ورحل سيف الدين عنه وعاد الى الموصل وجهزت ابنة حسام الدين وسيرت اليه فوصلت وهو مريض قد اشفى على الموت فلم يدخل بها وبقيت عنده الى ان توفي وملك قطب الدين مودود فتزوجها على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها اشتد الغلاء بافريقية ودامت ايامه فان أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وعظم الامر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضا وقصد اهل البوادي المدن من الجوع فاغلقها اهلها دونهم وتبعه وباء وموت كثير حتى خلت البلاد وكان اهل

ابن اسد ايلك ارسلان من هذا من غربه * وعرّيا اياه بحربه طمعا في بست ونواحيها وغزنة وما يليها * وانضافت اليه بلاغات وقوارص برقت له من جانبه في امراني على واظهار الندامة على ما سبق من عونه عليه والافصاح على رؤس الاشهاد بوضا بأن استباح الملوك شؤم واستباحة البيوتات اثم وضعف في الرأي معلوم فطار الغضب بناصر الدين كل مطار * وحدته نخوة الاقتدار بالبدار * الى ارض سجستان لاطفاء الغليل وشفاء الداء الدخيل * فناداه كاتبه ابو الفتح علي بن محمد البستي عما نواه بالقول الرفيق * والرأي المؤيد بالتوفيق * ورش ماء التلطف على ذلك الحريق * وأراه ان بعض البلاغات زور * وان القابل لها كالقائل مأخوذ بها ومزور * وان قلوب الرجال وحوش نافرة وطيور في صدور الجوارح فما يستمكن منها الا بالاعمال الحيل في نصب الحبائل وتمكين الجوارح ورمي البنادق وبث الحبوب والمطاعم ثم لاشئ أيسر من افلاتها من حبالة القانص وارسالها من شرك الصائد كذلك القلوب لا تصاد الا بشرك الصنائع والعواطف * ولا

في هذه السنة سار ملك الالمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازما على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوفر امواله وعدده فلما وصل الى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا امره ونهيه فامرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغدكين وليس له من الامر شيء وانما الحكم في البلد لمعين الدين انز مملوك جده طغدكين وهو الذي اقام مجير الدين وكان معين الدين عاقلا عادلا خيرا حسن السيرة فجمع العساكر وحفظ البلد واقام الفرنج يحاصرونهم ثم انهم زحفوا سادس ربيع الاول بفارسهم وراجلهم فخرج اليهم اهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي وكان شيخا كبيرا فقيها صالحا فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له يا شيخ انت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له قد بعت واشترى مني فوالله لا أقيله ولا استقيله يعني قول الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق وقوي الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك الالمان حتى نزل بالميدان الاخضر فايقن الناس بانه يملك البلد وكان معين الدين قد ارسل الى سيف الدين غازي ابن اتابك زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه اخاه نور الدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص وارسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي فاريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر والقى الفرنج فان انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتمينا به وان ظفرنا فالبلد لكم لا انازعكم فيه فارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا عن البلد فكف الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح وربما اضطروا الى قتال سيف الدين فابقوا على نفوسهم فقوي اهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وارسل معين الدين الى الفرنج الغرباء يقول لهم ان ملك المشرق قد حضر فان رحلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون وارسل الى فرنج الشام يقول لهم بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية واما انا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن ملك الالمان وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم واجتمع الساحلية بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلموا قلعة بانياس وعاد الفرنج الالمانية الى بلادهم وهي بزوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرهم وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ان بعض العلماء حكى له انه رأى الفندلاوي في المنام فقال له ما فعل الله بك واين انت فقال غفر لي وانا في جنات عدن على سرر متقابلين

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزية)

شهور المناطق * واشتفاء الارواح بارشية الرماح واختلاء الرؤس * بسيوف كسيوف الروس * ثم حمل بعضهم على بعض فذهبت الميامن بالمياسر والمياسر بالميامن وانفل طاهر من بين يديه هزيما * واتبعه بغراجق يحثه نحسه ظلوما وقد كان بغراجق قبل ان شمر للحرب * اصاب كؤسا يسلبه حظ الحسين الطعن والضرب * فتعاوره ناران من كأس وبأس حتى غفل بهما عن وثيقة الحزم وذهل معهما عن بصيرة الضبط والتحرز فغور بنفسه في اتباع خصمه اغترارا بخيال سكره فلم يشعر الا بطاهر بن خلف قد كر اليه بضربة قعصته في مكانه قتيلا ونزل الوقت اليه من قطف عنقه واخذ رأسه وانقسمت الهزيمة كلا الفريقين فلم يعرف الغالب من المغلوب * ولا السالب من المسلوب * خلا ابن خلف فانه قفى آثاره فله * يردهم الى شمله * وورد الناعي على السلطان فناله من الغم لفقد العم * ما ينال الوالد لعدم واحده * والولد لافتقاد معنو والده * واستدل بما اتفق لابن خلف على احداق الشقاء به وبأبيه * واطباق البلاء عليه وعلى من يليه *

مثله فختم عليه وجمع سراري الحسن من قصره وكان عدة من ملك منهم من زيري بن مناد الى الحسن تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من احدى وستين وثلاثمائة الى سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وكان بعض القواد قد ارسله الحسن الى رجار برسالة فاخذ لنفسه واهله منه امانا فلم يخرج معهم ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين ونودي بالامان فخرج من كان مستخفيا واصبح جرجي من الغد فارسل الى من قرب من العرب فدخلوا اليه فاحسن اليهم واعطاهم اموالا جزيلة وارسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ومعهم امان لاهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الاطفال والنساء وكانوا قد اشرفوا على الهلاك من الجوع ولهم بالمهدية خبايا وودائع فلما وصل اليهم الامان رجعوا فلم يمض غير جمعة حتى رجع اكثر اهل البلد واما الحسن فانه سار باهله واولاده وكانوا اثني عشر ولدا ذكرا غير الاناث وخواص خدمه قاصدا الى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقيه في طريقه امير من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب منه مالا انكسر له في ديوانه فلم يمكن الحسن اخراج مال لئلا يؤخذ فسلم اليه ولده يحيى رهينة وسار فوصل في اليوم الثاني الى محرز وكان الحسن قد فضله على جميع العرب واحسن اليه ووصله بكثير من المال فلقيه محرز لقاء جميلا وتوجع لما حل به فاقام عنده شهورا والحسن كاره للاقامة فاراد المسير الى ديار مصر الى الخليفة الحافظ العلوي واشترى مركبا لسفره فسمع جرجي الفرنجي فجهز شواني ليأخذه فعاد الحسن عن ذلك وعزم على المسير الى عبد المؤمن بالمغرب فارسل كبار اولاده يحيى وتميما وعليا الى يحيى ابن العزيز وهو من بني حماد وهما اولاد عم يستأذنه في الوصول اليه وتجديد العهد به والمسير من عنده الى عبد المؤمن فاذن له يحيى فسار اليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وسيره الى جزيرة بني مزغنان هو واولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقوا كذلك الى ان ملك عبد المؤمن بجاية سنة سبع واربعين فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هنالك ولما استقر جرجي بالمهدية سير أسطولا بعد اسبوع الى مدينة سفاقس وسير اسطولا اخر الى مدينة سوسة فاما سوسة فان اهلها لما سمعوا خبر المهدية وكان واليها علي بن الحسن الامير فخرج الى ابيه وخرج الناس لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر واما سفاقس فان اهلها اتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم اهل البلد فاظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى ابعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقي من الرجال وسبي الحريم وذلك في الثالث والعشرين من صفر ثم نودي بالامان فعاد أهلها اليها وافتكوا حرمهم واولادهم ورفق بهم وباهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع اهل افريقية بالامان والمواعيد الحسنة ولما استقرت احوال البلاد سار جرجي في اسطول الى قلعة اقليبية وهي قلعة حصينة فلما وصل اليها سمعت به العرب فاجتمعوا اليها ونزل اليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين الى المهدية وصار للفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن المغرب الى دون القيروان والله اعلم

* (ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي) *

وثبت باقي عمره على مداراته وملاطفته الى ان اتاه اليقين من ربه فانتقل الى جوار رحمته وعفوه وبلغ السلطان يمين الدولة وامين الملة حل حبوة الزمانه باظهار الشماته فاستنشد قول القائل

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى
تجهز لاخرى مثلها فكأن قد

ثم اسرّها في نفسه مترقبا لميقات الفرصة في الايقاع به والاستشفاء منه الى ان ورث ملك خراسان نقي الاطراف عن غبرات الخلاف سليم الآفاق عن غبرات الشقاق * وقد كان خلف بن احمد عند قيام السلطان باستصفاء المملكة قد بعث ابنه طاهرا الى قهستان فملكها ثم عن منها الى بوشنج فاستولى عليها وكانت هراة وبوشنج برسم بغراجق اخي ناصر الدين سبكتكين فلما وضع الله عن السلطان اوزار تلك الملاحم اتاه عمه بغراجق يستأذنه في طرد المتغلب عن ولايته وقل ما جده من عدد نكايته فأذن له فيه وسار حتى اذا شارف بوشنج تلقاه طاهر ابن خلف بمن والاه من العديد تحت الحديد * فتناوشا الحرب قدا للهام * من خطوط المفارق * وقطا للاجسام * من

والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر متصلة وكان السلطان سنجر قد أرسل اليه يلومه على تقديم خاص بك ويأمره بابعاده ويتهدده بانه ان لم يفعل ان يقصده ويزيله عن السلطنة وهو يغالط ولا يفعل فسار السلطان سنجر الى الرى فلما علم السلطان مسعود بوصوله سار اليه وترضاه واستنزله عما فى نفسه فسكن وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر انهزام الفرنج بيغرى)

فى هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكى الفرنج بمكان اسمه يغرى من ارض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها فعلم نور الدين فسار اليهم فى عسكره فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وارسل من الغنيمة والاسارى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وغيرهم وفى هذه الوقعة يقول ابن القيسرانى فى قصيدته التى أولها

يا ليت أن الصد مصدود * اولا فليت النوم مردود

ومنها ماهر فى ذكر نور الدين

وكيف لا يثنى على عيشنا الـ * محمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثنى * الا وشلو الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة * الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها * عند ملوك الكفر مشهود

(ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها)

فى هذه السنة قصد سورى بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة فملكها وسبب ذلك ان أخاه ملك الغورية قبله محمد بن الحسين كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة وهو من بيت سبكتكين فعظم شانه بالمصاهرة وعلت همته فجمع جموعا كثيرة وسار الى غزنة ليملكها وقيل انما سار اليها لاظهار الخدمة والزيارة وهو يريد المكر والغدر فعلم به بهرام شاه فاخذه وحبسه ثم قتله فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الاخذ بثاره ولما قتل ملك بعده اخوه سام بن الحسين فمات بالجدرى وملك بعده أخوه الملك سورى بن الحسين بلاد الغور ورواته اعلم وقوى أمره وتمكن فى ملكه فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار الى غزنة طالبا بثار اخيه المقتول وقاصدا ملك غزنة فلما وصل اليها ملكها فى جمادى الاولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفارقها بهرام شاه الى بلاد الهند وجمع جموعا كثيرة وعاد الى غزنة وعلى مقدمته السلار الحسين وابراهيم العلوى أمير هندوستان وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سورى بن الحسين الغورى وخدموه وقلوبهم مع بهرام شاه وانما هم يظاهرهم مع سورى فلما التقى سورى وبهرام شاه رجع عسكر غزنة الى بهرام شاه وصاروا معه وسلموا اليه سورى ملك الغورية وملك بهرام شاه غزنة فى المحرم سنة أربع وأربعين وصلب الملك سورى مع السيد الماهيانى فى المحرم أيضا من السنة وكان سورى أحد الاجواد له الكرم الغزير والمروأة العظيمة حتى انه

وخناق الوثاق وفى نفسه قصد سجستان لكنه احب أن يجعل غزوة فى الهند مقدمة للوطر * وصدقة بين يدى نجواه * تبركا بما يجرى على يديه من ارتفاع راية الدين * واتساع ساحة اليقين * وانارة كلمة الصدق واغارة قوة الحق * فتوغل بلاد الهند متوكلا على الله الذى هداه بنوره * وقضى له بالعز فى مقدوره * وبالنجح فى تصاريف اموره * حتى انتهى الى مدينة برشور نخيم بظاهرها وبلغه اجتراء عدو الله جيبال ملك الهند على لقائه * واستعجاله الفناء بمجاورة فنائه * فاستعرض الخيول من ابناء جريدته * وسائر الغزاة والمطوعة فى جملته * واختار الجهاد خمسة عشر الف عنان من فحول الرجال * وقروم الابطال * ونظر أن يختلط بهم من رده الاختبار ويهرجه الانتقاد حتى اذا خلص عددهم على الانتخاب وابتلاهم كنان السهام اواسود الغاب * دلف بهم الى قتال الهجين اللعين بقلوب كالهضاب ثابتة * وفروع صبر على دوح الاخلاص نابتة * واقبل الفاجر الكافر فى اثنى عشر الف فارس وثلاثين الفا راجل وثلثمائة فيل تئن

الما سار الفرنج عن دمشق ارسل نور الدين الى حصن العريمة وهو للفرنج فملكه وسبب ذلك ان
ملك الالمان لما خرج الى الشام كان معه ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من اولاد ملوك
الفرنج وكان جده هو الذي اخذ طرابلس الشام من المسلمين فاخذ حصن العريمة وملكه
واظهر انه يريد اخذ طرابلس من القمص فارسل القمص الى نور الدين محمود وقد اجتمع هو
ومعين الدين أنر بعلبك يقول له ولمعين الدين ليقصدا حصن العريمة ويملكاه من ولد الفنش
فسارا اليه مجدين في عساكرهما وارسلا الى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه فامدهما
بعسكر كثير مع الامير عز الدين ابي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر وغيرها فنازلوا الحصن
وحصروه وبه ابن الفنش وامتنع به فزحف المسلمون اليه غير مرة وتقدم اليه النقابون فنقبوا
السور فاستسلم حينئذ من به من الفرنج فملكه المسلمون واخذوا كل من به من فارس وراجل
وصبي وامرأة وفيهم ابن الفنش واخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وكان مثل ابن الفنش
كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير اذنين

(ذكر الخلاف بين السلطان مسعود وجماعة من الامراء ووصولهم الى بغداد وما كان منهم بالعراق)

في هذه السنة فارق السلطان مسعود جماعة من اكابر الامراء وهم من اذربيجان ايلدكز
المسعودي صاحب كنجة وارانية وقيصر ومن الجبل البقش كون خر وتتر الحاجب وهو
مسعودي ايضا وطرنطاي المحمودي شحنة واسط والدكز وقرقوب وابن طغايرك وكان سبب
ذلك ميل السلطان الى خاص بك واطراحه لهم فخافوا ان يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن
وعباس وبوزابة ففارقوه وساروا وقصدوا العراق فلما قربوا خاف الناس ببغداد واعمال
العراق وغلت الاسعار وتقدم الامام المقتفي لامر الله باصلاح السور وترميمه وارسل الخليفة
اليهم بالعبادي الواعظ فلم يرجعوا الى قوله ووصلوا الى بغداد في ربيع الآخر والملك محمد بن
السلطان محمود معهم ونزلوا بالجانب الشرقي وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفا
من الخليفة وسار الى تكريت وكانت له فعظم الامر على أهل بغداد ووصل اليهم علي بن
دبيس صاحب الحلة فنزل بالجانب الغربي فجند الخليفة اجنادا يحتمي بهم ووقع القتال بين
الامراء وبين عامة بغداد ومن بها من العسكر واقتتلوا عدة دفعات ففي بعض الايام انهزم
الامراء الاعاجم من عامة بغداد مكرا وخديعة وتبعهم العامة فلما ابعدوا عادوا عليهم
وصار بعض العسكر من ورائهم ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير ولم يبقوا على
صغير ولا كبير وفتكوا فيهم فاصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله وكثر القتلى والجرحى وأسر
منهم خلق كثير فقتل البعض وشهر البعض ودفن الناس من عرفوا ومن لم يعرف ترك طريحا
بالصحراء وتفرق العسكر في المحال الغربية فاخذوا من أهلها الاموال الكثيرة ونهبوا بلد
دجيل وغيره واخذوا النساء والولدان ثم ان الامراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبلوا
الارض واعتذروا وترددت الرسل بينهم وبين الخليفة الى آخر النهار وعادوا الى خيامهم
ورحلوا الى النهروان فنهبوا البلاد وأفسدوا فيها وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تكريت
الى بغداد ثم ان هؤلاء الامراء تفرقوا وفارقوا العراق وتوفي الامير قيصر باذربيجان هذا كله

والسلطان

وسدتن ان البقرة نحت
عن المدية بروقيها * والفملة
يقضي عليها انبات جناحيها
ولو عقل الفراش لما عشا
ما عاش الى ضوء نار * ولا
تهافت في مصرع بوار
اسارت الفرس في اخبارها
مثلا
وللاعاجم في أيامها امثل
قالوا اذا جل ساتت منيته
اطاف بالبئر حتى يهلك الجمل
وزحف السلطان في شهور
سنة تسعين وثلثمائة الى
خلف بن احمد وهو محتجز
بحصار اصبهذ قلعة بينها
وبين مجرى النجوم قاب
قوسين * بل قيد سهمين
تحور عن مراماتها الابصار
وتحاردون مساماتها الاطيار
فحاصره بها حتى عاين فسحة
الاختيار * ضنوا بشدة
الاضطرار * مفجوعا براحة
القرار ولذة الفرار * حتى
نضب الروع روعه * وودع
الروح روعه * فاستشعر
الخضوع والطاعه * واظهر
الخشوع والضراعه * وسأل
سؤال مستكين ان يفسر
عن خناقه * ويعفى من حبل
ارهاقه * على أن يفتدي
بمائة الف دينار * وما يليق
بها من خدمة ونثار وتحف
ومبار * فأجابه السلطان الى
ما استدعاه * ووكل به من
اقتضاه المال حتى استوفاه
وغادره كما هو في اسار الحصار

الامير التالجد في زي شاعر * وقد ضلت شوقا فروع المنابر

فوصله بالف دينار عين سوى الخلع وغيرها ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مقيما بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تمليكه فاحضروه واستحلفوه وحلفوا له واركبوه الى دار السلطنة وزين الدين في ركابه واطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة والشام وتزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفي قبل الدخول بها وهي أم أولاد قطب الدين سيف الدين وعز الدين وغيرهما من أولاده

(ذكر استيلاء نور الدين على سنجار)

لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد اخيه سيف الدين غازي كان أخوه الاكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فكاتبه جماعة من الامراء وطلبوه وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد وكان حينئذ مستحفظا بسنجار فارسل اليه يستدعيه ليتسلم سنجار فسار جريدة في سبعين فارسا من امراء دولته فوصل الى ماكسين في نفر يسير قد سبق اصحابه وكان يوما شديد المطر فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب فاخبر الشحنة ان نفرا من التركمان المجندين قد دخلوا البلد فلم يستتم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة فقام اليه وقبل يده ولحق به باقي اصحابه ثم سار الى سنجار فوصلها وليس معه غير ركابي وسلاح دار ونزل بظاهر البلد وارسل الى المقدم يعلمه بوصوله فرآه الرسول وقد سار الى الموصل وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة فاعلمه بمسير والده الى الموصل واقام من لحق اباه بالطريق فاعلمه بوصول نور الدين فعاد الى سنجار فسلمها اليه فدخلها نور الدين وارسل الى فخر الدين قرا ارسلان صاحب الحصن يستدعيه اليه لمودة كانت بينهما فوصل اليه في عسكره فلما سمع اتابك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سنجار فوصلوا الى تل يعفر وترددت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسنجار فقال لهم جمال الدين ليس من الرأي محاقته وقتاله فاننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة وجعلنا انفسنا دونه وهو يظهر للفرنج تعظيمنا وانه تبعنا ولا يزال يقول لهم ان كنتم كما يجب والا سلمت البلاد لصاحب الموصل وحينئذ يفعل بكم ويصنع فاذا لقيناه فان هزمناه طمع السلطان فينا ويقول هذا الذي كانوا يعظمونه ويحتمون به اضعف منهم وقد هزموه وان هو هزمنا طمع فيه الفرنج ويقولون ان الذين كان يحتمي بهم اضعف منه وقد هزمهم وبالجملة فهو ابن اتابك واشار بالصلح وسار هو اليه فاصطلح وسلم سنجار الى اخيه قطب الدين وسلم مدينة حمص والرحبة بارض الشام اليه وبقي الشام له وديار الجزيرة لاخيه واتفقا وعاد نور الدين الى حلب واخذ معه ما كان قد ادخره ابوه عماد الدين اتابك فيها من الخزائن وكانت كثيرة جدا

(ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الحافظ لدين الله عبد المجيد ابن الامير ابي القاسم بن المستنصر بالله العلوي صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة الا خمسة اشهر وعمره نحوا من سبع وسبعين سنة ولم يزل في جميعها محكوما عليه يحكم عليه وزراؤه حتى انه جعل ابنه حسنا

فلم يتصف الفرار الا باتصاف المسلمين * من أعداء الله المشركين * وسكنوا السيوف في زهاء خمسة آلاف رجل فبسطوهم على العراء * وأطعموهم سباع الارض وطيور الهواء * وجدل على صعيد المعترك خمسة عشر الاف روزانه العراقيب * باطراف الشاشيب * محزوزات الطراطير * بأسياف الهاميم وأحاط بعد قتالله جميع الروبنيه وسقدته وبني أخيه * وذوي الصيت من رهطه وذويه فسيقوا بخزائم الاسر والقسر الى موقف السلطان كما يساق المجرمون الى النيران * وجوه عليها غبرة الكفران * ترهقها قترة الخذلان * فمن مكتوف الى القفا وقهرا * أو مسحوب على الخد سبرا * ومضروب على الوريد صبرا * وحل قلائد جبال عن انظام مرصع فرائد الدر * والجواهر الزهر قوم بمائتي ألف دينار وأصيب أضعافه في اعناق المتقسمين من قرابته بين قتل وأسر * والمطعمين شدق ضبع ونسر * ونفل الله أولياءه ما فات حد الاحصاء وجاز جهد الحصر والاستقصاء * وأخذهم خمسمائة ألف رأس من روقة العبيد والاماء * وآب

كان يرمى الدراهم فى المقاليع الى الفقراء لتقع بيد من تقع ومن يتفق له ثم عاود الغورية وملكوها وخربوها وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين وذكرناهناك ابتداء دولة الغورية لانهم فى ذلك الوقت عظم محلهم وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان وعلاشأنهم وفى بعض الخلاف كما ذكرناه والله اعلم

(ذكر ملك الفرنج مدنا من الاندلس)

فى هذه السنة ملك الفرنج بالاندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وافراغة ولم يبق للمسلمين فى تلك الجهات شئ الا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم وبقى بايديهم الى الآن

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبى غالب البغدادى المعروف أبوه بالخفاف سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد وفيها غلت الاسعار بالعراق وتعذرت الاقوات بسبب العسكر الوارد وقدم أهل السواد الى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم وهلكوا جوعا وعريا وكذلك أيضا كان الغلاء فى أكثر بلاد خراسان وبلاد الجبل واصفهان وديار فارس والجزيرة والشام وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو اليها وفيها توفى ابراهيم بن نبهان الرقى ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وصحب الغزالى والشاشى وروى الجمع بين الصحيحين للحميدى عن مصنفه وفيها فى ذى القعدة توفى الامام أبو الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى امام خراسان

(ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين غازى بن أتابك زنكى وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين)

فى هذه السنة توفى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى صاحب الموصل بها بمرض حاد ولما اشتد مرضه أرسل الى بغداد واستدعى أوحد الزمان فحضر عنده فرأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجع فيه الدواء وتوفى أواخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما وكان حسن الصورة والشباب وكانت ولادته سنة خمسمائة ودفن بالمدرسة التى بناها بالموصل وخلف ولدا ذكرا فرباه عمه نور الدين محمود وأحسن تربيته وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود فلم تطل ايامه وتوفى فى عنفوان شبابه فانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا عاقلا وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاما كثيرا بكرة وعشية فاما الذى بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة وهو اول من حمل على رأسه السنجق وأمر الاجناد أن لا يركبوا الا بالسيف فى اوساطهم والدبوس تحت أركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الاطراف وبنى المدرسة الاتابكية العتيقة بالموصل وهى من أحسن المدارس ووقفها على الفقهاء الحنفية والشافعية وبنى رباطا للصوفية بالموصل أيضا على باب المشرعة ولم تطل ايامه ليفعل ما فى نفسه من الخير وكان عظيم الهمة ومن جملة كرمه انه قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته التى أولها

الارض من وطء اطرافها وتضج من ثقل اسخافها حتى اناخ بساحة السلطان متطاولا لا يهده ومطاولا يقرة باعه ويده ويظن ان كثرة الجموع اطوى كتاب الله طيا أو تغنى من امر الله شيا ولو درس الجاهل كتاب الله لقرأ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله وارتأى الكافر بمكانه جانحا الى المطاولة متحرزا بالمدافعة والمراوغة انتظارا لمن وراءه من اوباش الجيوش واوشاب القبائل والشعوب فأعجل السلطان ما حكم به من تقديم المطاولة وتشمير المقاتلة وبسط عليه ايدى اولياء الله تعالى فأوسعوهم حربا ونهبا ومشقا ورشقا وسرا ووخزا وحتا وحصا حتى اضطر الى الدفاع وصلى نار القراع فاسطفت عند ذلك الخيول وخفقت الطبول وفحشت القبول واقبل بعضهم على بعض يصول وترامت النبال على النصل تراى ولدان الاصائل بالخشل وتلالأت متون القواضب كما تلالأ برق الغيم جنح الغياهب وفارت ينابيع الدماء كما فاضت مجاديح الانواء وتكاثر اولياء الله على جماهير المدابير يؤزونهم أزا ويجزونهم رقصا وجزا

الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وحارم وتلك الاعمال وساروا الى نور الدين ابن صاحب (؟) انب فلقيهم واقتتلوا قتالا عظيما وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج اقبح هزيمة وقتل منهم جمع كثير وأسر مثلهم وكان ممن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت امه ببرنس آخر ليدبر البلد الى ان يكبر ابنها واقام معها بانطاكية ثم ان نور الدين غزاهم غزوة اخرى فاجتمعوا ولقوه فهزمهم وقتل فيهم واسر وكان فيمن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند فتمكن حينئذ بيمند بانطاكية واكثر الشعراء مديح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر فان قتل البرنس كان عظيما عند الطائفتين وممن قال فيه القيسراني الكاتب في القصيدة المشهورة التي اولها

هذي العزائم لاما تدعي القضب * وذي المكارم لاما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت * تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها * براحة للمساعي دونها تعب *

مازال جدك يبني كل شاهقة * حتى بنى قبة اوتادها الشهب

أغرت سيوفك بالافرنج راجفة * فؤاد رومية الكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

طهرت أرض الاعادي من دمائهم * طهارة كل سيف عندها جنب

(ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم)

في هذه السنة اختلف رجار الفرنجي صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد افريقية وكان القتال بينهم برا وبحرا والظفر في جميع ذلك لصاحب صقلية حتى ان اسطوله في بعض السنين وصل الى مدينة القسطنطينية ودخل فم الميناء واخذوا عدة شواني من الروم واسروا جماعة منهم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذي يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجي وزير صاحب صقلية فمرض عدة امراض منها البواسير والحصاة ومات سنة ست واربعين وخمسمائة فسكنت الفتنة واستراح الناس من شره وفساده ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة زلزلت الارض زلزلة عظيمة فقيل ان جبلا مقابل حلوان ساخ في الارض وفيها ولي أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفي لامر الله وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد وحسن قيام في ردهم فرغب الخليفة فيه فاستوزره يوم الاربعاء رابع ربيع الآخر سنة اربع واربعين وكان القمر على تربيع زحل فقيل له لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات فقال واي سعادة اكبر من وزارة الخليفة وابسها ذلك اليوم وفيها في المحرم توفي قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي وولي القضاء عماد الدين ابو الحسن علي بن احمد الدامغاني وفيها في المحرم رخصت الاسعار بالعراق

نفسه اقبال بان أباه قد لبس بردة الشرف * وعض على بجرة الهرم وقد طلع عليه نسر الاسرود بران الادبار * وتوله عوى الامتحان وشالت به شولة الخذلان فقدحان ان يلقى حينه ويتقاضى عليه الزمان دينه * ومن سنتهم الطاعة فيهم ان من حصل منهم في أيدي التائبة وهم المسلمون اسيرا لم ينتقد له من بعد رياسه * ولم تستتم له زعامة وسياسه * ولما رأى حبال حموله بين قيد الهرم وقيد المذلة آثر النار * على العار والمنيه * على الدنيه * فبدأ بشعره فحلق * ثم تحامل على النار فاحترق * ولما استقب للسلطان ما أراد * وانقاد له ما اقتاد * ارتاح لغزوة أخرى يطرز بها ديباجة رقاعه * ويعلم بها الهاعذبات أعلامه * فمال نحو بهنه فضرب عليها بكلكل الاقتدار حتى افتضها صغرا واعتاض منها بعد العسر يسرا * وبلغه ان طوائف من الهنود بشعاب تلك الاعلام * واستتارهم بجمر الغياض والآجام * متحدثين بالحرب والتألب على العناد واغزاهم جيشا يدقق جبالهم * ويفرق قبل الوصول أوصالهم * فولعت فيهم السيوف حتى رويت من

وزيرا وولى عهده فحكم عليه واستبد بالامر دونه وقتل كثيرا من امراء دولته وصادر كثيرا فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سما فمات وقد ذكرناه ولم يل الامر من العلويين المصريين من ابوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد وسيرد ذكر نسب العاضد وولى الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر بامر الله ابو منصور اسمعيل بن عبد المجيد الحافظ واستوزر ابن مصال فبقى اربعين يوما يدبر الامور فقصده العادل بن السلار من ثغر الاسكندرية ونازعه فى الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة فى طلب بعض المفسدين من السودان فخالفه العادل بالقاهرة وصار وزيرا وسير عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى فى عسكره وهو ربيب العادل الى ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم واما سبب وصول عباس الى مصر فان جده يحيى اخرج ابا الفتوح من المهدية فلما توفى يحيى وولى بعده بلاد افريقية ابنه على بن يحيى بن تميم بن يحيى صاحب افريقية اخرج أخاه أبا الفتوح والد عباس من افريقية سنة تسع وخمسمائة فسار الى الديار المصرية ومعه زوجته بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس وولده عباس هذا وهو صغير يرضع ونزل أبو الفتوح بالاسكندرية فاكرم واقام بها مدة يسيرة وتوفى وتزوجت بعده امرأته بلارة بالعادل بن السلار وشب العباس وتقدم عند الظافر حتى ولى الوزارة بعد العادل فان العادل قتل فى المحرم سنة ثمان واربعين قيل وضع ربيبه عباس من قتله فلما قتل ولى الوزارة بعده وتمكن منها وكان جلدا حازما ومع هذا ففى ايامه اخذ الفرنج عسقلان واشتد وهى الدولة بذلك وفى ايامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وصار الامر بعد هذا الى ان أخذت مصر منهم على ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى

(ذكر عود جماعة من الامراء الى العراق)

فى هذه السنة فى رجب عاد البقش كون خر والطرنطاى وابن دبيس ومعهم ملكشاه ابن السلطان محمود الى العراق وراسلوا الخليفة فى الخطبة لملكشاه فلم يلتفت اليهم وجمع العساكر وحصن بغداد وارسل الى السلطان مسعود يعرفه بالحال فوعده بالوصول الى بغداد فلم يحضر وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر الى الرى فى معنى خاص بك فلما وصل الى الرى سار اليه السلطان مسعود ولقيه واسترضاه فرضى عنه فلما علم البقش عراسلة الخليفة الى مسعود نهب النهروان وقبض على الامير على بن دبيس فى رمضان فلما علم الطرنطاى بذلك هرب الى النعمانية ووصل السلطان مسعود الى بغداد منتصف شوال ورحل البقش كون خر من النهروان واطلق على بن دبيس فلما وصل السلطان الى بغداد قصده على والقى بنفسه بين يديه واعتذر فرضى عنه وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع واربعين وذكر أيضا مثلها سنة ثلاث واربعين فظنهما حادثتين واظنهما واحدة ولكنا تبعناه فى ذلك ونبهنا عليه

(ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج)

فى هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكى بلاد الفرنج من ناحية انطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن انب فحصره ايضا فاجتمعت

السلطان بن معه من الاولياء* الى المعسكر غانمين وافرين ظاهرين* ظافرين شاكرين* لله رب العالمين وفتح الله على السلطان من بلاد الهند أرضا* تتضاءل بلاد خراسان فى جنبها طولا وعرضا* ووافقت هذه الوقعة الباهر أثرها* السائر فى الآفاق خبرها* يوم الخميس الثامن من المحرم سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ولما وضعت هذه الحرب أحمالها* وحطت عن الظهور اثقالها* أحب السلطان أن يصرف الجبت وراءه لبراه بنوه وذووه فى شعار العار واسار الشنار* وتستطير هيبة الاسلام فى ديار الكفار* فوافقه على حسين رأسا من خفاف الافيال وارتهن ابنا وحافده على الوفاء بها على الكمال* وعاد الكافر وراءه* حتى اذا استقر مكانه* كاتب ابنه أندبال وشاهيته وراءه يحون يشكو اليه ما عراه من الفاقرة الكبرى* والداهية العظمى* وساله سؤال ملتف أن يؤدى عنه الضمان* بما عزوهان* فساق اليه تلك الفيول* وصرف الرسول وسيقت بجملتها الى السلطان فأمر بالافراج عن أولئك الرهائن* وكسع أدبارهم فحوزات الد تن* وحدث

(ذكر فتح حصن فاميا)

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكي حصن فاميا من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماة على تل عال من أحصن القلاع وامنعها فسار نور الدين اليه وحصره وبه الفرنج وقاتلهم وضيق على من بها منهم فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا الا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وبجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه مسير الفرنج اليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحصن وسار اليهم يطلبهم فحين رأوا أن الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه في المهادنة وعاد سالما مظفرا ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح فمن ذلك قول ابن الرومي من قصيدة أولها

اسنى الممالك ما أطلت منارها * وسمت مرهفة الدسار دسارها

واحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنفا عدله اقطارها

ومنها في وصف الحصن

ادركت ثارك في البغاة وكنت يا * مختار امة احمد مختارها

ضاهت نجومك فوقها والطالما * باتت تنافسها النجوم شرارها

عادية الزمن المبير حالها * منك المغيرة فاستردمعارها

امست مع الشعرى العبور واصبحت * شعراء تستقل الفحول شوارها

وهي طويلة

(ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها)

في هذه السنة سار السليطين وهو الاذفونش وهو ملك طليطلة واعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج في اربعين الف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهي في ضعف وغلاء فبلغ الخبر الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجهزه وقدمهم ابا زكريا يحيى بن يرموز ونفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها فلم يقدروا ان يلقوا عسكر السليطين في الوطاء وارادوا الاجتماع باهل قرطبة ليمنعوها لخطر العاقبة بعد القتال فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما في الوعر في مسافة أربعة أيام في السهل فوصلوا الى الجبل المطل على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق امرهم رحل عن قرطبة وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القائد ابن غلبون وهو من أبطال أهل الاندلس وامرائها فلما رحل الفرنج خرج من الوقته وصعد الى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذي خفته عليكم لاني علمت ان السليطين ما اقام الا طالبا لكم فان من الموضع الذي كان فيه طريق سهلة ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين انهم قد فاتوه علم انه لم يبق له طمع في قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة اشهر والله أعلم

(ذكر ملك الغورية هراة)

في هذه السنة سار ملك الغور الحسن بن الحسين من بلاد الغور الى هراة فحصرها وكان أهلها

خلف في المصادر المذكورة واستدعى ابنه لقبول الوصية وتسليم الودايع الخفية ففقل عن سر التدبير وتدبر العقاب والنكير وأقبل اقبال طرفه بن العبد على شصلق الضيع من ضرب الجيد وأوعر الوريد وقد كان خلف بن أحمد كمن له مقانب من جيشه فاحاطوا به احاطة خيل الزباء بجذيمة الوضاح الى أن حصل في معتقله وحبس في مكمن اجله وبقي في السجن على حاله الى ان اخرجت جنازته بالاعلام في قتل نفسه والجناية على روحه ودمه والسبع طاهر بن زيد صاحب جيش خلف بن احمد وسائر القواد بسجستان ما جرى في امر طاهر دخلت في طاعته ضمائرهم ونغلت في موالاته سرائرهم وانتقضت خوف الاسوة به مرائرهم وضبطوا اقاليم المدينة على طاعة السلطان ومشايعته وارسلوا اليه بها وبجوه من التمسك بحبل الطاعة والتمسك بدين الجماعة وسألوا انهاض من يتولى تسليم الناحية منهم ليتقدموا الى بابه ويتمطروا بلثم ترابه ففعل السلطان ما سألوه وجزاهم الخير على ما فعلوه

وكثرت الخيرات وخرج أهل السواد الى قراهم وفيها توفى الامير نظر امير الحاج وكان قد سار بالحاج الى الحلة فمرض واشتد مرضه واستخلف على الحاج قايماز الارجوانى وعاد الى بغداد مريضا فتوفى فى ذى القعدة وكان خصيا عاقلا خيرا له معروف كثير وصدقات وافرة وفيها توفى احمد بن نظام الملك الذى كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله وفيها توفى على بن رافع بن خليفة الشيبانى وهو من اعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية ومات الامام مسعود الصوابى فى المحرم منها وفيها توفى معين الدين أنز نائب أبق صاحب دمشق وهو كان الحاكم والامر اليه وكان أبق صورة امير لا معنى تحتها وفيها توفى القاضى احمد بن محمد بن الحسين الارجانى أبو بكر قاضى تستر وله شعر حسن فمنه قوله

ولما بلوت الناس اطلب عندهم * اخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعت فى حالى رخاء وشدة * وناديت فى الاحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت * ولم أر فيما سرنى غير حاسد
تمتعتما يا ناظرىّ بنظرة * واوردتما قلبى أمرّ الموارد
أعينىّ كفا عن فؤادى فانه * من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وفيها توفى أبو عبد الله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز وكان ظريفا وله شعر حسن كتب اليه صديق له رقعة وزاد فى خطابه فاجابه

قد زدتنى فى الخطاب حتى * خشيت نقصا من الزياده
فاجعل خطابى خطاب مثلى * ولا تغير على عاده *

(ثم دخلت سنة خمس واربعين وخمسمائة)

(ذكر أخذ العرب الحاج)

فى هذه السنة رابع عشر المحرم خرج العرب زعب ومن انضم اليها على الحاج بالغرابى بين مكة والمدينة فاخذوهم ولم يسلم منهم الا القليل وكان سبب ذلك ان نظرا امير الحاج لما عاد من الحلة على ما ذكرناه وسار على الحاج قايماز الارجوانى وكان حدثا غرا فسار بهم الى مكة فلما رأى أمير مكة قايماز استصغره وطمع فى الحاج وتلطف قايماز الحال معه الى ان عادوا فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب فقال للحاج من المصلحة أن لا نمضى الى المدينة فضج العجم وتهددوه بالشكوى منه الى السلطان سنجر فقال لهم فاعطوا العرب مالا نستكفى به شرهم فامتنعوا من ذلك فسار بهم الى الغرابى وهو منزل يخرج اليه من مضيق بين جبلين فوقفوا على فم المضيق وقاتلهم قايماز ومن معه فلما رأى عجزه اخذ لنفسه أمانا وظفروا بالحاج وغنموا أموالهم وجميع ما معهم وتفرق الناس فى البر وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة ولم يسلم الا القليل فوصل بعضهم الى المدينة وتحملوا منها الى البلاد واقام بعضهم مع العرب حتى توصل الى البلاد ثم ان الله تعالى اقتص للحاج من زعب فلم يزالوا فى نقص وذلة ولقد رأيت شابا منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة وجرى بينى وبينه مفاوضة قلت له فيها انى والله كنت اميل اليك حتى سمعت انك من زعب فنفرت وخفت شرك فقال لم فقلت بسبب أخذكم الحاج فقال لى انا لم أدرك ذلك الوقت وكيف رأيت الله صنع بنا والله ما افلحنا ولا نجحنا قل العدد وطمع العدو فينا

*(ذكر

رشاش دمائهم * وصدقت
من مخالطة أحشائهم
وتهاربهم من ظلماتها
كالا وغال * فى ربود تلك
الجبال * يرون الكواكب
ظهرا * والمنايا سودا وحمرا
وذاقوا وبال امرها وكان عاقبة
أمرها خسرا * وانقلبت
رايات السلطان الى غزنة
خافقة بالنجح الشائع *
والفتح الرائع * والحول
المتين * والنصر المستبين *
وقد أشرق وجه الاسلام
وابتسم ثغر الايمان وانشرح
صدر المله * وانقصم ظهر
الشرك والبدعه * وقد كان
خلف بن أحمد عند انصراف
راية السلطان عن وجهه
عهد الى ولده طاهر فى اعمال
سجستان وأسند أمورها
اليه ايثارا له على نفسه
وهداه كريمة الملك اليه قبل
وقته * تثبيتا لها فى ملكه
قبل استحقاقه اياها بارثه
تعريضا للسلطان باستعفائه
من الملك * واقباله على النسك
واعتياضه تواضع العباده
عن ترفع السياده * ليقطع
بخروج الامر من يده * طمعه
عن قصده وحصده * فلما
تنفست المدة على ما ولاه
نطقت شواهد الشك فى
اختياره * وبدت نواجذ
العقوق عن شق آثاره * فلم
يزل يلاطفه ويداريه * حتى
أعياه عما نوا فيه * ثم تمارض

فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك وعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ بثاره واحضر جماعة من امراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه اما قتيلا او اسيرا لانه علم انه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيدا فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مال يؤديه اليهم فاجابوه الى اطلاقه اذا احضر المال فارسل في احضاره فمضى بعضهم الى أبي بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب فاعلمه الحال فسير عسكرا معه فكبسوا اولئك التركمان وجوسلين معهم فاخذوه اسيرا واحضروه عنده وكان اسره من أعظم الفتوح لانه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسي القلب واصيبت النصرانية كافة باسره ولما أسر سار نور الدين الى قلاعه فملكها وهي تل باشر وعين تاب واعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفرلاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة يرد تفصيلها وكان نور الدين كلما فتح منها حصنا نقل اليه من كل ما يحتاج اليه الحصون خوفا من نكبة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو ومدحه الشعراء فممن قال فيه القيسراني من قصيدة في ذكر جوسلين

كما أهدت الاقدار للقمص اسره * واسعد قرن من حواه لك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
وامست عزاز كاسمها بك عزة * تشق على النسرين لوانها وكر
فسر واملك الدنيا ضياء وبهجة * فبالافق الداجي الى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم لا فل حده * واقصاه بالاقصى وقد قضي الامر
وقد اصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جاري الدماء له طهر

(ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الاندلس)

في هذه السنة سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس الى الاندلس مع ابي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وسير معهم نساءهم فكن يسرن منفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه احمد بن ملحان صاحب مدينة وادي آش واعمالها بجماعته ووحدوا وصاروا معه واتاه ابراهيم ابن همشك صهر بن مردنيش صاحب جيان واصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وحرضوه على المسارعة الى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الاندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فارسل الى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجي في عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن ووصلوا الى حصة بالقوارة وبينها وبين مرسية التي هي مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنج فرجع وحصر مدينة المرية وهي للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء في العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيلية فاقاموا بها

(ذكر عدة حوادث)

النهار على التكبيد حتى اعرض عرض الخاصة من جانب باب الحصار الركوب وثار اليه عند ذلك الخيول وتبعتها الفيول * ومانع اصحاب خالد بن احمد من شرفات الحصار بقذفات الاحجار * واشتعلت بينهم الحرب بترمي بشرر كالقصر وتهوي على القصرات بالفرس والقسر * وزحف الفيل العظيم الى باب الحصار فاقتلعه بنابه وزخ به في الهواء فانحط الى الارض من حالق وقتل من اصحاب خالد الجم الغفير ولجأ الباقون على اطراف الحاجز الى السور الداخل وذمر عسكر السلطان على الحصار وتماسك اصحاب خالد فوق شرافات السور الآخر مناضلين عنها بأحجار المجانيق * وأطراف الحراب والمزاريق * واطلع خالد ابن احمد عند اشتداد الخطب على ملتقى الفريقين فرأى هول المطلع ورأى تموج الفضاء بضاربته لاغماده على شياطين الجلاد وتطاير النبال كرجل الجراد * وترامي الحراب كنزا الى العصاب * وفيح لدماء * كسيح السماء * وعاين الفيل قد اهوى الى بعض اصحابه بخرطومه فرمى به

قد كانوه وطابوا ايساوها اليه هربا من الاترالذاهم وزوال هيبة السلطنة عنهم فامتنع اهل هراة عليه ثلاثة أيام ثم خرجوا اليه وسلموا البلد واطاعوه فاحسن اليهم وافاض عليهم النعم وغمرهم بالعدل وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد اليه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة امر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر طريثيث اقامة الخطبة للخليفة ولبس السواد ففعل الخطيب ذلك فثار به عمه واقاربه ومن وافقهم وقاتلوه وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب وكان فعل علاء الدين هذا لان اباه كان مسلما فلما تغلب الاسماعيلية على طريثيث اظهر موافقتهم وابطن اعتقاد الشريعة وكان يناظر على مذهب الشافعي و زداد تقدما بطريثيث وجرت امورها بارادته فلما حضره الموت اوصى ان يغسله فقيه شافعي واوصى الى ابنه علاء الدين ان امكنه ان يعيد فيها اظهار شريعة الاسلام فعل فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له وفيها كثر المرض بالعراق لاسيما ببغداد وكثر الموت أيضا فيها ففارقها السلطان مسعود وفيها توفي الامير على بن دبيس بن صدقة صاحب الحلة باسداباد واتهم طبيبه محمد بن صالح بالمواطأة عليه فمات الطبيب بعده بقريب وفيها استوزر عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب اباجعفر ابن أبي أحمد الاندلسي وكان ماسورا عنده فوصف له بالعقل وجودة الكتابة فاخرجه من الحبس واستوزره وهو أول وزير كان للموحدين وفي هذه السنة في المحرم جلس يوسف الدمشقي مدرسا في النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير امر الخليفة فمنع يوم الجمعة من دخول الجامع فصلى في جامع السلطان ومنع من التدريس فتقدم السلطان مسعود الى الشيخ ابي النجيب بان يدرس فيها فامتنع بغير امر الخليفة فاستخرج السلطان اذن الخليفة في ذلك فدرس منتصف المحرم من السنة وفيها توفي أبو عبد الله محمد بن علي مهران الفقيه الشافعي تفقه على الهراسي وولي قضاء نصيبين ثم ترك القضاء وتزهد فاقام بجزيرة ابن عمر ثم انتقل الى جبل بلد الحصن في زاوية وكان له كرامات ظاهرة وفيها مات الحسن بن ذي النون بن أبي القاسم بن أبي الحسن المسعري ابو المفاخر النيسابوري سمع الحديث الكثير وكان فقيها اديبا دائم الاشتغال بوعظ الناس وكان مما ينشد

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا * ومات من بعدهم تلك الكرامات
وخلفوني في قوم ذوي سفه * لو ابصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

(ثم دخلت سنة ست واربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك)

في هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار الى بلاد جوسلين الفرنجي وهي شمال حلب منها تل باشر وعين تاب واعزاز وغيرها وعزم على محاصرتها واخذها وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأي فلما علم بذلك جمع الفرنج فاكثر وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم واسر جمع كثير وكان في جملة من أسر سلاح دار نور الدين فاخذ جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره الى الملك مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه

فلما

وأقيمت الدعوة للسلطان بها في سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ولما فتح الله له رتاجها ويسر له انفراجها عزم على قصد شلف وحسم دائه وكف نكاية الخاصة والعامة عوداي مكره ودهائه وهو يومئذ بمصار الطاق ومن صفته انه ذو سبعة اسوار رفيعة الجدران منيعة البنيان وثيقة الاركان يحيط بها خندق بعيد القعر فسيح العرض منيع الخاض لا يعبر منه الى المدينة الا من طريق في مضيق على جسر يطرح عند الحاجة ويرفع وقت الاستغناء عنه فعسكر السلطان حواليه محيطا به من جوانبه احاطة الخط بنقطة المركز وجعل يستقري بالرأي وجه الحيلة في طم ذلك الخندق وكبسه ليستدف على الفارس والراجل خوضه وعبوره وكانت حوالى معسكره غابات اثل وطرفاء ذوات التفاف والتفاف ففرض على اهل عسكره خاصهم وعامهم راجلهم وفارسهم عضد ما يمكنهم عضده منها اضغاثا وحزما لاقم عرض الخندق ليستتب ظهور الجبال والمخترق وبادر الناس اليه فلم تشرق شمس

اليهم جيشا كثيرا ومقدمهم ابو سعيد يخلف وهو من الخمسين فالتقوا في عرض الجبل الشرقي بجاية فانهزم ابو قصبة وقتل اكثر من معه ونهبت اموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ولما فرغوا من صنهاجة ساروا الى قلعة بني حماد وهي من احصن القلاع واعلاها لا ترام على رأس جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها ولكن القدر اذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤس الجبال وملكت القلعة واخذ جميع ما فيها من مال وغيره وحمل الى عبد المؤمن فقسمه بين اصحابه

(ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود)

في هذه السنة اول رجب توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو اسبوع وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت اليها

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان رحمه الله حسن الاخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس فمن ذلك ان اتابك زنكي صاحب الموصل ارسل اليه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري في رسالة فوصل اليه واقام معه في العسكر فوقف يوما على خيمة الوزير حتى قارب اذان المغرب فعاد الى خيمته فاذن المغرب وهو في الطريق فرأى انسانا فقيها في خيمة فنزل اليه فصلى معه المغرب ثم سأله كمال الدين من أين هو فقال انا قاضي مدينة كذا فقال له كمال الدين القضاة ثلاثة قاضيان في النار وهو انا وانت وقاض في الجنة وهو من لم يعرف ابواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم فلما كان الغد ارسل السلطان واحضر كمال الدين اليه فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال القضاة ثلاثة فقال كمال الدين نعم يا مولانا فقال والله صدقت ما اسعد من لا يرانا ولا نراه ثم امر ان تقضى حاجته واعاده من يومه وكان كريما عفيفا عن الاموال التي للرعايا حسن السيرة فيهم من اصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الاخلاق لطيفا فمن ذلك انه اجتاز يوما في بعض اطراف بغداد فسمع امرأة تقول لاخرى اطري الى السلطان فوقف وقال حتى تجيء هذه الست تنظر الينا وله فضائل كثيرة ومناقب جمة وكان عهد الى ملكشاه ابن اخيه السلطان محمود فلما توفي خطب له الامير خاص بك ورتب الامور وقررها بين يديه واذعن له جميع العسكر بالطاعة ولما وصل الخبر الى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها وهو مسعود بلال الى تكريت واستظهر الخليفة المقتفي لامر الله على داره ودور اصحاب السلطان ببغداد واخذ كل ما لهم فيها وكل من كان عنده وديعة لاحد منهم احضرها بالديوان وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم باراقة الخمور من مساكن اصحاب السلطان ووجد في دار مسعود بلال شحنة بغداد كثير من الخمر فاريق ولم يكن الناس يظنون انه شرب الخمر بعد الحج وقبض على المؤيد الالوسي الشاعر وعلى الحيص بيص الشاعر ثم اطلق الحيص بيص وأعيد عليه ما اخذ منه ثم ان السلطان ملكشاه سير سلاركرد في عسكر الى الحلة فدخلها فسار اليه مسعود بلال شحنة بغداد واظهر له الاتفاق معه فلما اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرقه واستبد بالحلة فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر اليه مع عون الدين

قاشتا بارض الجوزجان ستروا سالروح نسيم هوائها واستعذبا بالعشير مائها واستاطا في مراتع الصيود حول ارجائها * وامر السلطان بتسييرهما الى سافي هيئة ذوي الهيئة بما في بلباس الصيانة * عن عورة الاهانة * فاقام بها قرابة أربع سنين في ظل الترفيه وساعدته القناعة بما هو فيه * ثم انهى الى السلطان مراطنة بينه وبين ايلك الخان ملطفات سيرها اليه ورسالات أغراه بها على اقتضاء الاحتياط نقله الى جرديز ابقاء عليه * من صدق ما أضيف اليه * واستتماما للصنيعة لديه * واستراسا بها اليه * من ابطال ذلك الافضال وتكدير ذلك الغدير فبقي هنالك على حالته الى أن حقت عليه القضية واخترمته المنية * وذلك في رجب سنة تسع وتسعين وثلثمائة وأمر السلطان بحفظ جميع ما تخلف عنه على ولده أبي حفص وتقرير ما في يده وتمكينه من خدمته وأنشدني ابو منصور الثعالبي لنفسه حين وهى أمره وصفرت عن الملك يده قوله

من ذا الذي لا يذل الدهر صعبته

ولا تلين يد الايام صعدته

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي العبادي الواعظ واسمه المظفر بن اردشير بخوزستان وكان الخليفة المقتفي لامر الله قد سيره في رسالة الى الملك محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحواثري فتوفي هنالك وجلس ولده ببغداد للعزاء واقيم بحاجب من الديوان العزيز وكان ابنه يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكي هو والناس كافة ونقل العبادي الى بغداد ودفن بالشونيزي ومولده سنة احدى وتسعين واربعمائة وسمع الحديث من أبي بكر المروي وزاهر الشحامي وغيرهما وفيها انفجر بثق النهروان الذي اتهم بروز بكثرة الزيادة في تامرا واهمال امرها حتى عظم ذلك وتضرر به الناس وفيها سار الامير بقش في طائفة من عسكر السلطان سنجر الى طريثيث بخراسان واغار على بلاد الاسماعيلية فنهب وسبى وخرب واحرق المساكن وفعل بهم افاعيل عظيمة وعاد سالما

(ثم دخلت سنة سبع واربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد)

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن علي الى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني حماد وكان لما اراد قصدها سار من مراكش الى سبتة سنة ست واربعين فاقام بها مدة يعمل الاسطول ويجمع العساكر القريبة منه واما ما هو على طريقه الى بجاية من البلاد فكتب اليهم ليتجهزوا ويكونوا على الحركة اي وقت طلبهم والناس يظنون انه يريد العبور الى الاندلس فارسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من سبتة في صفر سنة سبع واربعين فاسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه فلم يشعر اهل بجاية الا وهو في اعمالها وكان ملكها يحيى ابن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد وكان مولعا بالصيد واللهو لا ينظر في شيء من امور مملكته قد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن فلقيهم مقدمته وهي تزيد على عشرين ألف فارس فانهزم اهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرق جميع عسكر يحيى ابن العزيز وهربوا برا وبحرا وتحصن يحيى بقلعة قسطنطينية الهواء وهرب اخواه الحرث وعبد الله الى صقلية ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال ثم ان يحيى نزل الى عبد المؤمن بالامان وأمنه وكان يحيى قد فرح لما أخذت بلاد افريقية من الحسن بن علي فرحا ظهر عليه فكان يذمه ويذكر معايبه فلم تطل المدة حتى اخذت بلاده ووصل الحسن بن علي الى عبد المؤمن في جزائر بني مزغنان وقد ذكرناه سنة ثلاث واربعين سبب مصيره اليها واجتمعا عنده فارسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز الى بلاد المغرب واقام بها واجرى عليه شيأ كثيرا واما الحسن بن علي فانه احسن اليه والزمه صحبته واعلى مرتبته فلازمه الى ان فتح عبد المؤمن المهدية فجعله فيها وامر واليها ان يقتدي برأيه ويرجع الى قوله ولما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض الى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك ان بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بامانه

*(ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة)

لما ملك عبد المؤمن بجاية تجمعت صنهاجة في امم لا يحصيها الا الله تعالى وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن فارسل

اليهم

في الهواء قاب رمحين ثم تلقاه بثنايه * واقبل على آخرين يدوسهم بخفيه ثم انحنى على الباب بمنكبيه فزعزعه بعضادتيه * واقتلعه بشبابيك الحديد عليه * فاستطار عند ذلك قلبه وجاش جاشه وارتاع روعه واضطره هول المقام * وفزع الاصطلام * الى طلب الامان واستغاثة السلطان * فكف عنه يد الاخترام * ووضع عنه سوط الانتقام * كما غذاه الله بدره * واطربه بنشوة خمره * واقبل خلف ابن احمد على يده البائزة حتى استؤذن له على السلطان فدخل واهوى الى الارض بشيبته البيضاء متعززا بذل الخدمة وعشى البساط من نسج الجواهر والفرائد بما كسف النهار وخطف الابصار نثارا ينوب عنه في شكر ما اذاقه من برد العفو والرحمة وحماه من حريم الروح والمهجة فتكرم السلطان بالرفع من قدره وضم يده عند التقريب الى صدره * تناسيا لما سبق من هناته * وتغابيا عما اقدم من ذنوبه وتراته * وحكمه في استعمال ما احب من زبد يساره * وذخائر حصاره * وخيره في المقام حيث شاء من ديار مملكته وامصاره

فحاصرالهافنهب عسكره نابو اوبة ومارباد من هراة الروذ وسار الى بلخ وحصرها فقاتله الامير قماج ومعه جمع من الغز فغدر وا به وصاروا مع الغوري فملك بلخ فلما سمع السلطان سنجر بذلك سار اليه ليمنعه فثبت له علاء الدين واقتتلوا فانهزم الغورية وأسر علاء الدين وقتل من الغورية خلق كثير لاسيما الرجالة واحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه وقال له يا حسين لو ظفرت بي ما كنت تفعل فاخرج له قيد فضة وقال كنت اقيدك بهذا وأحملك الى فيروز كوه فخلع عليه سنجر ورده الى فيروز كوه فبقي بها مدة ثم انه قصد غزنة وملكها حينئذ بهرام شاه بن مسعود بن محمود بن سبكتكين فلم يثبت بها بين يدي علاء الدين بل فارقها الى مدينة كرمان وهي مدينة بين غزنة والهند وسكانها قوم يقال لهم ابغان وليست هذه بالولاية المعروفة بكرمان فلما فارق بهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغوري واحسن السيرة في اهلها واستعمل عليهم اخاه سيف الدين واجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولاخيه سيف الدين بعده ثم عاد علاء الدين الى بلد الغور وأمر اخاه ان يخلع على اعيان البلد خلعا نفيسة ويصلهم بصلات سنية ففعل ذلك واحسن اليهم فلما جاء الشتاء ووقع الثلج وعلم اهل غزنة ان الطريق قد انقطع اليهم فكاتبوا بهرام شاه الذي كان صاحبها واستدعوه اليهم فسار نحوهم في عسكره فلما قارب البلد ثار اهله على سيف الدين فاخذوه بغير قتال وكان العلويون هم الذين تولوا أسره وانهزم الذين كانوا معه فنهم من نجا ومنهم من أخذ ثم انهم سودوا وجه سيف الدين واركبوه بقرة واطافوا به البلد ثم صلبوه وقالوا فيه اشعارا يهجونه وغنوا بها حتى النساء فلما بلغ الخبر الى اخيه علاء الدين الحسين قال شعرا معناه ان لم اقلع غزنة في مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين ثم توفي بهرام شاه وملك بعده ابنه خسروشاه وتجهز علاء الدين الحسين وسار الى غزنة سنة خمسين وخمسمائة فلما بلغ الخبر الى خسروشاه سار عنها الى لهاوور وملكها علاء الدين ونهبها ثلاثة ايام واخذ العلويين الذين اسروا اخاه فالقاهم من رؤس الجبال وخرب المحلة التي صلب فيها واخذ النساء اللواتي قيل عنهن انهن كن يغنين بهجاء اخيه والغورية فادخلهن حماما ومنعهن من الخروج حتى متن فيه وأقام بغزنة حتى اصلحها ثم عاد الى فيروز كوه ونقل معه من أهل غزنة خلقا كثيرا وحملهم المخالي مملوأة ترابا فبنى به قلعة في فيروز كوه وهي موجودة الى الآن وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية وقد تقدم سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا في بعض الامر وكلا سمعناه ورأيناه في مصنفاتهم فلهذا ذكرنا الامرين وأقام الحسين على ذلك مدة واستعمل ابني اخيه وهما غياث الدين وشهاب الدين

(ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين)

لما قوي امر عمهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمال والامراء على البلاد وكان ابنا اخيه وهما غياث الدين ابو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام فيمن استعمل على بلاد من بلاد الغور اسمه سنجة وكان غياث الدين يلقب حينئذ شمس الدين ويلقب الآخر شهاب الدين فلما استعملهما احسنا السيرة في عملهما وعدلا وبذلا الاموال فمال الناس اليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما الى عمهما علاء الدين وقال انهما يريدان

محمد البيق الكاتب قال كنت عملت فيه ثلاثة أبيات من غير قصد لتبليغها اياه لكنها سارت على ألسنة الرواة اليه فلم اشعر الا بصرة فيها ثلثمائة دينار أحضرت بها على يد بعض ثقاته صلة لي على ما قلته والابيات

هذا خلف بن أحمد أحمد الاخلاف

أربى بسودده على الاسلاف

خلف بن أحمد في الحقيقة واحد

لكنه مربي على الآلاف

أضحى لآل الليث اعلام الورى

مثل النبي لآل عبد مناف

فقلت له قريب من هذه الصورة حديث أبي اسحق ابراهيم بن هلال الصابي وذلك ان رسول سيف الدولة كان قدم بلد السلام فطلب شيأ من شعره على لسان صاحبه فدافعه به الى ان أزف ارتحاله وأتاه عند الوداع ملحا عليه فاعطاه بحالة الوقت قوله

ان كنت خنتك في المودة ساعة

فذممت سيف الدولة المحمودا

وزعمت ان له شريكا في العلا

وجحدته في فضله التوحيدا

قسما لواني حالف بغموسها

لغريم دين ما أراد مزيدا

فلما عاد الرسول الى الحضرة

ابن هبيرة فسار اليه فلما قاربوا الحلة عبر مسعود بلال الفرات اليهم وقاتلهم فانهزم من عسكر الخليفة ونادى اهل الحلة بشعار الخليفة فلم يدخلها ووقعت الهزيمة عليه وعلى اصحابه فعاد الى تكريت وملك عسكر الخليفة الحلة وسير الوزير عسكرا الى الكوفة وعسكرا الى واسط فملكوهما ثم ان عساكر السلطان وصلت الى واسط ففارقها عسكر الخليفة فلما سمع الخليفة ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد الى واسط ففارقها العسكر السلطانى وملكها الخليفة وسار منها الى الحلة ثم عاد الى بغداد فوصلها تاسع عشر ذى القعدة وكانت غيبته خمسة وعشرين يوما ثم ان خاص بك بن بلنكرى قبض على الملك ملكشاه الذى خطب له بالسلطنة بعد مسعود وارسل الى اخيه الملك محمد سنة ثمان واربعين وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده ان يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل اجلسه على تخت السلطنة اوائل صفر وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم انه دخل الى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد وقتل معه زنكى الجاندار والقى براسهما فتفرق اصحابهما ولم ينتطح فيهما عنزان وكان ايدغدى التركمانى المعروف بشملة مع خاص بك فنهاه عن الدخول الى الملك محمد فلم ينته فقتل ونجا شملة فنهب جشير الملك محمد ومضى طالبا خوزستان واخذ محمد من اموال خاص بك شيأ كثيرا واستقر محمد فى السلطنة وتمكن وبقى خاص بك ملقى حتى اكلته الكلاب وكان صبيا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود فتقدم على سائر الامراء ثم كان هذا خاتمة امره

(ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج)

فى هذه السنة تجمعت الفرنج وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن ملكها وصلوا اليه وهو بدلوك فلما قربوا منه رجع اليهم واقيهم وجرى المصاف بينهم عند دلوك واقتتلوا اشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وقتل منهم واسر كثير وعاد نور الدين الى دلوك فملكها واستولى عليها ومما قيل فى ذلك

اعدت بعصرك هذا الانيق * فتوح النبى واعصارها
فواطات يا حبذا احسبها * واسررت من بدر ابدارها
وكان مهاجرها تابعيك * والانصار رأيك انصارها
فجددت اسلام سلمانها * وعمر جدك عمارها
وما يوم انب الا كذا * لك بل طال بالنوع اشارها
صدمت عزيتها صدمة * اذابت مع الماء احجارها
وفى تل باشر باشرتهم * بزحف قسور اسوارها
وان دالكتهم دلوك فقد * شددت فصدقت اخبارها

(ذكر الحرب بين سنجر والغورية)

فى هذه السنة كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب وكانت دولتهم اول ما قد ظهرت واول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسين ملك جبال الغور ومدينة فيروز كوه وهى تقارب اعمال غزنة وقوى امره وتلقب بعلاء الدين وتعرض الى اعمال ثم جمع جيشا وقصد هراة

أماترى خلفا شيخ الملوك غدا
عملوكه من فتح العذراء بادته
قد كان بالامس ملكا لانظير له
فاليوم فى الاسر لا ينتاش اسرته

وكان خلف بن أحمد مغشى الجناب من اطراف البلاد لسماحة كفه وغزارة سيبه * وافضاله على أهل العلم وحزبه * وقد مدح على ألسنة الشعراء والعلماء بما هو سائر * وذكره فى الآفاق طائر * وقد كان جمع العلماء على تصنيف كتاب فى تفسير كتاب الله تعالى لم يغادر فيه حرفا من أقاويل المفسرين * وتأويل المتأولين * ونكت المذكرين وأتبع ذلك بوجوه القراآت وعلل النحو والتصريف وعلامات التذكير والتأنيث * ووشحها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث * وبلغنى انه انفق عليهم مدة اشتغالهم بعونته على جمعه وتصنيفه عشرين ألف دينار ونسخته بنيسابور موجود فى مدرسة الصابونية لكنها تستغرق عمر الكاتب وتستنفد حبر الناسخ الا ان يتقاسمها النساخ بالخطوط المختلفة وأخبرنى أبو الفتح على بن

(ذكر انقراض دولة سبكتكين)

لما انفذ غياث الدين الى اخيه شهاب الدين يطلب انفاذ خسروشاه اليه امر شهاب الدين بالتجهيز والمسير فقال انا لا اعرف اباك ولا لي حديث الا معك ولا عين الا في عنقك فتناه وطيب قلبه وجهزه وسيره معه ولده واصحبهما جنائبه فطوفهما فسارا كارهين فلما بلغا فرشابور خرج اهلها اليهما يبكون ويدعون لهما فزجرهم الموكلون بهما وقالوا سلطان يزور سلطانا فلاي شيء تبكون وضربوهم فعادوا وخرج ولده خطيبا الى خسروشاه متوجها قال فلما دخلت عليه ادّيت اليه رسالة أبي وقلت انه قد اعتزل الخطابة ولا حاجة بي الى خدمة غيركم فسأل في سلمه واعطاني فرجية قوطا ومصلى من عمل الصوفية وقال هذه تذكرة ابيك عند أبي فسلمها اليه وقل له دع الدهر كيف دار وانشد بلسان فصيح

وليس كعهد الدار يا ام مالك * ولكن احاطت بالرقاب السلاسل

قال فانصرفت الى أبي وعرفته الحال فبكى وقال قد ايقن الرجل بالهلاك ثم وصلوا فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل امر بهما فرفعا الى بعض القلاع فكان آخر العهد بهما وهو آخر ملوك آل سبكتكين وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدة ولايتهم مائتي سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من احسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود فان آثاره في الجهاد معروفة واعماله للآخرة مشهورة

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بآبائهم او مجدهم قعدوا

فتبارك الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور فاف لهذه الدنيا الدنية تفعل هذا بابنائها نسأل الله تعالى ان يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة وأن يقبل بنا اليه وأن يشغلنا به عما سواه انه على كل شيء قدير هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسروشاه آخر ملوك آل سبكتكين وقد ذكر غيره انه توفي في الملك وملك بعده ابنه ملكشاه وسنذكره في سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندي فيه اختلاف ولم ينكشف الحق فاصلحه ان شاء الله تعالى

(ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة)

لما استقر ملكهم بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين الى أخيه شهاب الدين باقامة الخطبة له بالسلطنة وتلقب بالقاب السلاطين كان لقبه شمس الدين فتلقب غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين ولقب اخاه بعز الدين ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة

(ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان)

لما فرغ شهاب الدين من اصلاح أمر لهاوور وتقرير قواعدها سار الى اخيه غياث الدين فلما اجتمع به استقر رأيهما على المسير الى خراسان وقصد مدينة هراة ومحاصرتها فسارا في العساكر الكثيرة اليها وكان بها جماعة من الاتراك السنجرية فنازلا البلد وحصراه وضيقا على من به فاستسلموا اليهما وأرسلوا يطلبون الامان منهما فاجاباهم الى ذلك وامناهم فتسلما البلد واخرجا من فيه من الامراء السنجرية واستناب فيه غياث الدين خرنك الغوري وسار غياث الدين واخوه الى فوشنج فملكاها ثم الى باذغيس وكالين وبيوار فملكاها أيضا وتسلم

أذا اقشعر زمان من جدوبته
اغنى الورى وكفى جوده وكفا
بسخطه يدع الافلاك خائفة
والشمس حائرة والبدر منكسفا
يرى التوقف في يوم وغى وندى
وصاقفان عن رأى مشكل وقفا
لله نصل ضئيل في انامله
اعاد سطحي سبا بعد ما نصفا
يهين امواله كي يستفيد بها
عزا يؤثل في اعقابه الشرفا
والمرء لوم في احواله هدف
ان لم يكن ماله من دونه هدفا
لا يلحق الواصف المطري معاليه
وان يكن سابقا في كل ما وصفا
وانشدني ابو الفضل الهمداني قصيدته التي يمدح بها شهاب بن احمد اولها
سماء الدجى ما هذه الحدق النجل
اصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل
لك الله من عزم اجوب جيوبه
كأني في اجفان عين الردى كحل
وفيها اذ كراباه بهمدان
واستقباله الخليج للسؤال

الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك فارسل عمهما يستدعيهما اليه فامتنعا وكانا قد علما
الخبر فلما امتنعا جهز اليهما عسكرا مع قائد يسمى خروش الغوري فلما التقوا انهزم خروش
ومن معه وأسر هو وابقيا عليه واحسنا اليه وخلعا عليه واظهرا عصيان عمهما وقطعا
خطبته فتوجه اليهما علاء الدين وسار اليهما ايضا فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم
علاء الدين واخذ اسيرا وانهزم عسكره فنادى فيهم ابنا اخيه بالامان فاحضرا عمهما واجلساه
على التخت ووقفا في خدمته فبكى علاء الدين وقال هذان صبيان قد فعلا مالو قدرت عليه منهما
لم افعله واحضر القاضي في الحال وزوج غياث الدين بنتاله وجعله ولي عهده وبقي كذلك الى ان
مات فلما توفي ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه في الغور وغزنة بالملك وبقي كذلك الى ان
ملك الغز غزنة بعد موت علاء الدين طمعوا فيها وبقيت بايديهم خمس عشرة سنة يصبون
على اهلها العذاب ويتابعون الظلم كعادتهم في كل بلدة ملكوها ولو أنهم لما ملكوا احسنوا
السيرة في الرعايا لدام ملكهم فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة وغياث الدين يقوى امره ويحسن
السيرة والناس يميلون اليه ويقصدونه محبة له

(ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد)

لما قوي امر غياث الدين جهز جيشا كثيرا مع اخيه شهاب الدين الى غزنة فيه اصناف
الغورية والخلج والخراسانية فساروا اليها فلقيهم الغز فقاتلوهم فانهزم الغورية وثبت شهاب
الدين فيمن ثبت معه على صاحب علمهم فقتله واخذ العلم وتركه على حاله فتراجع الغز ولم يكونوا
علموا بما كان من شهاب الدين فجاؤا يطلبون علمهم فكلما جاء اليه طائفة قتلهم فاتى على
اكثرهم ودخل غزنة وتسلمها واحسن السيرة في اهلها وافاض العدل وسار من غزنة الى كرمان
وشنوران فملكها ثم تعدى الى ماء السند وعزم على العبور الى بلد الهند وقصد لهاوور وبها
يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه المقدم ذكر والده فلما سمع خسروشاه بذلك سار فيمن معه الى ماء
السند فمنعه من العبور فرجع عنه وقصد فرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند واعمال
الافغان والله أعلم

(ذكر ملك شهاب الدين لهاوور)

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوي امره وجنانه وعظمت هيبته في قلوب الناس واحبوه
لحسن سيرته فلما خرج الشتاء واقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة سار نحو لهاوور
في جمع عظيم وحشد كثير من خراسان والغور وغيرها فعبر الى لهاوور وحصرها وارسل الى
صاحبها خسروشاه والى اهلها يتهددهم ان منعوه واعلمهم انه لا يزول حتى يملك البلد وبذل
لخسروشاه الامان على نفسه واهله وماله ومن الاقطاع ما اراد وان يزوج ابنته بابن
خسروشاه على ان يطأ بساطه ويخطب لاخيه فامتنع عليه واقام شهاب الدين محاصرا له
مضيقا عليه فلما رأى اهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نياتهم في نصرة صاحبهم فخذلوه فارسل
لما رأى ذلك قاضي البلد والخطيب يطلبون له الامان فاجاب شهاب الدين الى ذلك وحلف له
وخرج اليه ودخل الغورية الى المدينة وبقي كذلك شهرين مكرما عند شهاب الدين فورد رسول
من غياث الدين الى شهاب الدين يأمره بانفاذ خسروشاه اليه

*(ذكر

حمل اليه ثمرة فيها ثلثمائة
دينار وسوء باسمه وللشيخ
أبي الفتح البستي فيه أيضا
يمدحه
من كان يبغي علو الذكر
والشرفا
أو يتقي عطف دهر قد نبا
وجفا
أو كان يأمل عند الله منزلة
تدنيه قرب الابرار والزلفا
أو كان يطلب دنيا يستقيم به
ولا يرى عوجا فيه ولا جنفا
أو كان ينشد عما فاته خلفا
فليخدم الملك العدل الرضى
خلفا
الوارث العدل والعلياء من
سلف
حذوا بعلياهم في وجه من
سلفا
المؤثر القصد في انحاء
سودده
فان اراد عطاء آثر السرفا
اذا التوى عنق ولى حكومته
سيفا اذا ما اقتضى حقا له
اتصفا
والسيف ابلغ للاعناق
موعظة
كم من صلف حماه حسه
الصلفا
وان بدا كلف في وجه
مكرمة
جلا بلا كلف عن وجهه
الكلفا
رضاه يصرف عمن يستجير به
صرف الزمان اذا ما نابه
صرفا

غياث الدين فعل ذلك مكرا وخديعة وكان بين العسكرين نهر وقد حفظ الهنود المخاضات فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم فبينما هم كذلك إذ وصل انسان هندى الى شهاب الدين وأعلمه بمعرفة مخاضة قريبا من عسكر الهنود وطلب ان يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض ويكبسون الهنود وهم غارون آمنون فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكرا فأقام له ضمناء من أهل آبرة والمولتان فأرسل معه جيشا كثيفا وجعل عليهم الامير الحسين بن خرميل الغورى وهو الذى صار بعد صاحب هراة وكان من الشجاعة والرأى بالمنزلة المشهورة فسار الجيش مع الهندى فعبروا النهر فلم يشعر الهنود الا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات فعبر شهاب الدين وباقى العساكر وأحاطوا بالهنود وأكثروا القتل فيهم ونادوا بشعار الاسلام فلم ينج من الهنود الا من عجز المسلمون عن قتله وأسره وقتلت ملكتهم وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند وأمن معرة فسادهم والتزموا له بالاموال وسلموا اليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلى وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند فأرسل عسكرا من الخلج مع محمد بن بختيار فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل اليها مسلم قبله حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبه هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف وقد ذكرناه سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى يعقوب الكاتب ببغداد وكان يسكن بالمدرسة النظامية وحضر متولى التركات وختم على الغرفة التى كان يسكنها بالمدرسة فثار الفقهاء وضربوا المتولى وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما فأغلق الفقهاء المدرسة وألقوا كرسى الوعاظ فى الطريق وصعدوا سطح المدرسة ليلا واستغاثوا وتركوا الادب وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر فعفى عنه وفيها توفى حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبى وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الارموى الشافعى المحدث ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وفيها توفى أبو الاسعد عبد الرحمن القشيرى فى شوال وهو شيخ شيوخ خراسان وفيها فى المحرم باض ديك ببغداد بيضة وباض بازى بيضتين وباضت نعامة لا ذكر معها بيضة

(ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم)

فى هذه السنة فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الاتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا الترجوهم منه كما ذكرناه فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا فأقاموا بنواحى بلخ يرعون فى مراعيها وكان لهم امراء اسم احدهم دينار والآخر بختيار والآخر طوطى والآخر ارسلان والآخر جغر والآخر محمود فأراد الامير قماج وهو

ويا ملكا أدنى مناقبه العلى
وأيسر ما فيه السماحة والبذل
هو البدر الا أنه البحر زاخرا
سوى أنه الضرغام لكنه الوبل
محاسن يبديها العيان كما ترى *
وان نحن حدثنا بها دفع العقل
فتولا لوسام المكارم باسمه
لبهنك أن لم تبق مكرمة غفل
وجازك أفراد الملوك الى الندى
وحقا القدا عجزتم سم ولك الفضل
سمابك من عمرو ويعقوب بعده
كذا الاصل مفخورا به وكذا النسل
وانشدنى السيد ابو جعفر محمد بن موسى الموسوى بيتين ذكر انهما مكتوبان على باب داره بسجستان وهما
من سره ان يرى الفردوس عالية
فلينظر اليوم الى ايوان كيوان
اوسره ان يرى الرضوان عن كثب
بل عين فيه فلينظر الى الباني
نعم وصفت سجستان للسلطان فهدأت عيون الفتن وانقطعت اطماع

ذلك بجمعه غياث الدين وأحسن السيرة في أهل البلاد ورجع الى فيروزكوه ورجع شهاب الدين الى غزنة وكان ينبغي ان حوادث الغورية تذكر في السنين وانما جمعناها ليتلو بعضها بعضا ولان فيه ما لم يعرف تاريخه فتركناه بحاله

(ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلاد الهند)

لما رجع شهاب الدين من خراسان الى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره ثم سار الى بلاد الهند فحاصر مدينة آجرة وبها ملك من ملوك الهند فلم يظفر منه بطائل وكان للهندي زوجة غالبة على أمره فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها فأعادت الجواب انها لا تصلح له وانما لها ابنة جميلة تزوجه اياها فارسل اليها يجيبها الى التزويج بابنتها فسقت زوجها سما فمات وسلمت البلد اليه فلما تسلمه اخذ الصبية فاسلمت وتزوجها وحملها الى غزنة وأجرى عليها الجرايات الوافرة ووكل بها من علمها القرآن وتشاغل عنها فتوفيت والدتها ثم توفيت هي بعد عشر سنين ولم يرها ولم يقربها فبنى لها مشهدا ودفنها فيه وأهل غزنة يزورون قبرها ثم عاد الى بلد الهند فذلل له صعابها وتيسر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم وبلغ منهم ما لم يبلغه احد قبله من ملوك المسلمين

(ذكر ظفر الهند على المسلمين)

لما اشتدت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند واثخانه في اهلها واستيلاؤه عليها اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبخ بعضهم بعضا فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه فجمعوا عساكرهم وحشدوا وأقبل اليهم الهنود من كل فج عميق على الصعب والذلول وجاؤا بحدهم وحديدهم وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هي من أكبر ملوكهم فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم اليه تقدم هو أيضا اليهم في عسكر عظيم من الغورية والخلج والخراسانية فالتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهنود يقتلون ويأسرون وأثخنوا فيهم وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليسرى وضربة أخرى على رأسه فسقط منها الى الارض وحجز الليل بين الفريقين فحمل شهاب الدين جماعة من غلمانه الاتراك في ظلمة الليل وهم يطلبونه في القتلى ويبكون وقد رجع الهنود الى ورائهم فكلمهم وهو على ما به من الجهد فجاؤا اليه مسرعين وحملوه على رؤسهم رجالة يتناوبون حمله حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته في الناس فجاؤا اليه يهنؤنه من أقطار البلاد فاول ما عمل ان أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه فملأ مخالي خيلهم شعيرا وحلف انهم لم يأكلوه ليضربن أعناقهم فأكلوه ضرورة وبلغ الخبر الى أخيه غياث الدين فأرسل اليه يلومه على عجلته واقدامه وأنفذ اليه جيشا عظيما

(ذكر ظفر المسلمين بالهند)

لما سلم شهاب الدين وعاد الى آجرة وأتاه المدد من أخيه غياث الدين وعاد الهنود جددوا سلاحهم ووفروا جمعهم وأقاموا عوض من قتل منهم وسارت ملكتهم وهم معها في عدد يضيق عنه الفضاء فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها فلم تجبه الى ذلك وقالت اما الحرب واما ان تسلم بلاد الهند وتعود الى غزنة فاجابها الى العود الى غزنة وانه يستأذن أخاه

غياث

من شعره * والحنين لوطنه
ووطره
يذكرني قرب العراق
ودجلة
لذي الله لا يسليه مال
ولا أهل
حننه النوى عني وأضننه
شيق
ويهدي به كالليث جوّ سوره
عبل
اذا ورد الحجاج لاقى رفاقهم
بفؤاد رقيق دمعه هما الجبل
والسهل
يسائلهم كيف ابنه أين
داره
الام انتهى ام لم يعد هل له
شغل
اضاقت به حال أطالت له يد
أأثرى فقص أقدامه فضل
يقولون وافى حضرة الملك
الذي
له اليكتف الامول والنائل
الجزل
فقيد له طرف وحلت له حبى
ونضد له قصر ودر له نزل
وفاضت عليه مطرة خلافية
بها الاعوادي عن ولايتها
عزل
يذكرهم بالله الا صدقتم
لدى أجدتما تقولون أم
هزل
طوينا للقيا الملك الملوك
وانما
عنالك عن أمثالهم أبدا انسلو
ولما بلونا كم تلونا مديحكم
فما طيب ما تبلو وما صدق

الامير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان اليه وانزالهم بلاده وكانت بينه
وبين الامير قماج عداوة استحكمت الايام للمجاورة التي بينهما وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر
ويحكم عليه فتقوى بهم زنكي وساروا معه الى بلخ لمحاربة قماج فكاتبهم قماج فمالوا اليه
وخذلوا زنكي عند الحرب فاخذ زنكي وابنه اسيرين فقتل قماج ابن زنكي وجعل يطعم اباه لحمه
ثم قتل الاب ايضا واقطع قماج الغز مواضع واباحهم مراعي بلاده فلما قام الحسين بن الحسين
الغوري وقصد بلخ خرج اليه قماج وعسكره ومعه الغز ففارقه الغز وانضموا الى الغوري حتى
ملك مدينة بلخ فسار السلطان سنجر الى بلخ ففارقها الغوري بعد قتال انهزم منه ثم دخل الى
السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته فرده الى غزنة وبقي الغز بنواحي طخارستان وفي نفس قماج
منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه فاراد صرفهم عن بلاده فتجمعوا وانضم اليهم طوائف من الترك
وقدموا عليهم ارسلان بوقا التركي فجمع قماج عسكره ولقيهم فاقتتلوا يوما كاملا الى الليل
فانهزم قماج وعسكره واسر هو وابنه ابو بكر فقتلوهما واستولوا على نواحي بلخ وعاثوا فيها
وافسدوا بالنهب والقتل والسلب وبلغ السلطان سنجر الخبر فجمع عساكره وسار اليهم فراسلوه
يعتذرون ويتنصلون فلم يقبل عذرهم ووصل اليهم مقدمة السلطان وفيها محمد بن أبي بكر بن
قماج المقتول والمؤيد اي ابه في المحرم من سنة ثمان واربعين وخمسمائة ووصل بعدهم السلطان
سنجر فالتقاه الغز بعد ان ارسلوا يعتذرون ويبذلون الاموال والطاعة والانقياد الى كل
ما يؤمرون به فلم يقبل سنجر ذلك منهم وسار اليهم فاتوه وقاتلوه وصبروا له ودام القتال فانهزم
عسكر سنجر وهو معهم فتوجهوا الى بلخ على اقبح صورة وتبعهم الغز وقاتلوا مرة ثانية فانهزم
السلطان سنجر ايضا ومضى منهزما الى مرو في صفر من السنة فقصدها الغز اليها فلما سمع العسكر
الخراساني بقربهم منهم اجفلوا من بين ايديهم هاربين لما دخل في قلوبهم من خوفهم والرعب
منهم فلما فارقها السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها افحش نهب واقبحه وذلك في جمادى
الاولى من السنة وقتلوا بها كثيرا من اهلها وأعيانها منهم قاضي القضاة الحسن بن محمد
الارسابندي والقاضي علي بن مسعود وغيرهما من الائمة العلماء ولما خرج سنجر من مرو قصد
بوزابة واخذه الغز اسيرا واجلسوه على تخت السلطنة على عادته وقاموا بين يديه وبذلوا له
الطاعة ثم عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة فمنعهم اهلها وقاتلوهم قتالا شديدا بذلوا
فيه جهدهم وطاقتهم ثم انهم عجزوا فاستسلموا اليهم فنهبوها اقبح من النهب الاول لم يتركوا بها
شيأ وكان قد فارق سنجر جميع امراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ولم
يبق عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه فلما وصلوا الى نيسابور احضروا الملك سليمان
شاه ابن السلطان محمود فوصل الى نيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة فاجتمعوا عليه
وخطبوا له بالسلطنة وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطاني الى طائفة كثيرة من
الغز فاوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرا وانهزم الباقون الى امرائهم الغزية فاجتمعوا
معهم ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه وساروا الى مرو ويطلبون الغز فبرز الغز
اليهم فساعة رآهم العسكر الخراساني انهزموا وولوا على ادبارهم وقصدوا نيسابور وتبعهم
الغز فمروا بطوس وهي معدن العلماء والزهاد فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها وخربوا

باسل اموال وايمن مقدم
واتم اقبال يليه دوام
ورحم الله البديع ابا الفضل
الهمداني حيث يقول في
السلطان يمين الدولة وامين الملة
تعالى الله ما شاء
وزاد الله ايماني
أأفريدون في التاج
ام الاسكندر الثاني
ام الرجعة قد عادت
الينا بسليمان
اظلت شمس محمود
على انجم سامان
وامسى آل بهرام
عبيدا لابن خاقان
اذا ما ركب الفيل
لحرب او لميدان
رأت عيناك سلطانا
على منكب شيطان
فمن واسطة الهند
الى ساحة جرجان
ومن قاصية السند
الى أقصى خراسان
على مقتبل العمر
وفي مقتبل الشان
فيوما رسل الشاه
ويوما رسل الخان
فما يعزب بالمعر
ب عن طاعتك اثنان
لك السرج اذا شئت
على كاهل كيوان
ايا والي بغداد
ويا صاحب همدان
تأمل ما ترى فيل
على سبعة اركان
يقلين السلاطين
ويا عين بثعبان

مقطع بلخ ابعادهم فضمانوه وبذلوه له فعادعنهم فاقاموا على حالة حسنة لا يؤذون احدا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ثم ان قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده فامتنعوا وانضم بعضهم الى بعض واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك فسار قماج اليهم فى عشرة آلاف فارس فجاء اليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم ويعطونه من كل بيت مائتى درهم فلم يجبهم الى ذلك وشدد عليهم فى الانتزاح عن بلده فعادوا عنه واجتمعوا وقاتلوه فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل فى العسكر والرعايا واسترقوا النساء والاطفال وعملوا كل عظيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقماج الى مرو وبها السلطان سنجر فاعلمه الحال فراسلهم سنجر يتهددهم فامرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم فلم يجبهم الى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديد فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا وتبعهم الغز قتلا واسرا فصار قتلى العسكر كالتلال وقتل علاء الدين قماج وأسر السلطان سنجر واسر معه جماعة من الامراء فاما الامراء فضربوا اعناقهم واما السلطان سنجر فان امراء الغز اجتمعوا وقبلوا الارض بين يديه وقالوا نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك فقد علمنا انك لم ترد قتالنا وانما حملت عليه فانت السلطان ونحن العبيد فمضى على ذلك شهران او ثلاثة ودخلوا معه الى مرو وهى كرسى ملك خراسان وطلبها منه بختيار اقطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز ان تكون اقطاعا لاحد فضحكوا منه وحبق له بختيار بفمه فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو وتاب عن الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله وولوا على نيسابور واليا فقسط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم وعلق فى الاسواق ثلاث غرائر وقال اريد ملء هذه ذهبا فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهبا مجحفا وجعلوها قاعا صفصفا وقتلوا الكبار والصغار واحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء فى البلاد كلها فممن قتل الحسين بن محمد الارسابندى والقاضى على بن مسعود والشيخ محيى الدين محمد ابن يحيى واكثر الشعراء فى مراثى محمد بن يحيى فمن قال فيه على بن ابراهيم الكاتب

مضى الذى كان يحيى الدين من فيه * يسيل بالفضل والافضال واديه

مضى ابن يحيى الذى قد كان صوب حيا * لابن شهر ومصباحا لداجيه

خلا خراسان من علم ومن ورع * لما نعاه الى الآفاق ناعيه

لما أماتوه مات الدين وأسفا * من ذا الذى بعد محيى الدين يحييه

ويتعذر وصف ما جرى منهم بتلك البلاد جميعها ولم يسلم من خراسان شئ لم تنهبه الغز غير هراة ودهستان لانهما كانتا حصينة فامتنعت وقد ذكر بعض مؤرخى خراسان من اخبارهم ما فيه زيادة ووضوح وقال ان هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحى الثغر من اقاصى الترك الى ماوراء النهر فى ايام المهدى واسلموا واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق الشعبذة حتى تم امره فلما سارت العساكر اليه خذله هؤلاء الغز واسلموه وهذه عادتهم فى كل دولة كانوا فيها وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانية الى ان الاتراك القارغلية قووهم وطردوهم من اوطانهم فدعاهم

الطليقة بماضى التعصيب والضرب* وانخفضت ابصارهم دون التوثب والتقلب* ورجع السلطان الى غزنة باهى الامر* عالى الظفر والنصر* قد صنع الله له بإبرامه* ويستدعو المراد سهامه* ونشره باقتراع المدينة العذراء* واستصفاء المملكة الغراء* واطلاع ذروة الرجاء* واذراع لامة العز والعلاء* وانشدنى ابو منصور الثعالبى لنفسه فى فتح سجستان من قصيدة هذه الابيات

سعدت بغرة وجهك الايام
وتزينت ببقائك الاعوام
وتصرفت بك فى المعالى همة
تعيا بها الافهام والاوهام
ولقد فرشت مهاد عدلك فاغتدت
تتوارد الآساد والآرام
وانتضى سيف علاك كل مدينة
بكر عليها اللاياس ختام
هدى رديف استغلقت وتمنعت
فكأنها الاعلاق حرام
فتحتها وابحتها ومنحتها
نقرا هم اقساتك الاقدام
وقدمت والايام تنشد فى الورى
بيتا تجيد نشيده الايام
قد جاء نصر الله والفتح الذى
ترهى بكتة وصفه الاقلام

وعاودوا المصادرة لاهلها وسار السلطان محمود بن محمد الى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد على مانذكره وراسل الغز فى الصلح فاصطلحوا فى رجب من سنة خمسين وخمسمائة هدنة على دخل وسيرد باقى اخبارهم سنة اثنتين وخمسين

(ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها)

كان للسلطان سنجر مملوك اسمه اى ابه ولقبه المؤيد فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شانه واطاعه كثير من الامراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وابيورد وشهرستان والدامغان وازاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقا كثيرا واحسن السيرة وعدل فى الرعية واستعمال الناس ووفر الخراج على اهله وبالغ فى مراعاة ارباب البيوت فاستقرت البلاد له ودانت له الرعية لحسن سيرته وعظم شانه وكثرت جموعه فراسله خاقان محمود بن محمد فى تسليم البلاد والحضور عنده فامتنع وترددت الرسل بينهم حتى استقر على المؤيد مال يحمله الى الملك محمود فسكت عنه محمود واقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود

(ذكر ملك ايناخ الرى)

كان ايناخ احد مماليك السلطان سنجر فلما كان من فتنة الغز ما ذكرناه هرب من خراسان ووصل الى الرى فاستولى عليها واقام بها وارسل السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همدان واصفهان وغيرهما يخدمه وهاداه وارضاه واظهر له الطاعة وبقى بها الى ان مات السلطان محمد فاستولى على عدة بلاد تجاور الرى فملكها فعظم امره وعلا شانه وصارت عساكره عشرة الاف فارس فلما ملك سليمان شاه همدان على ما نذكره حضر عنده واطاعه لانسه به كان ايام مقام سليمان شاه بخراسان فتقوى امره بذلك

(ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس)

فى هذه السنة فى المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله قتله ربيبه عباس بن ابى الفتوح ابن يحيى الصنهاجى اشار اليه بذلك الامير أسامة بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فامر ولده نصرا فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب كما ذكرناه الى مصر وتعلم الخياطة وكان خياطا حسنا فلما تزوج ابن السلار بأمه احبه واحسن تربيته فجازاه بان قتله وولى بعده وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين وقل ان وليها احد بعد الافضل الا بحرب وقتل وما شاكل ذلك فلذلك ذكرناهم فى تراجم مفردة والله اعلم

(ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن)

فى هذه السنة فى صفر كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة سطيف وسبب ذلك ان العرب وهم بنو هلال والاثبج وعدى ورياح وزغب وغيرهم من العرب لما ملك عبد المؤمن بلاد بنى حماد اجتمعوا من ارض طرابلس الى اقصى المغرب وقالوا ان جاورنا عبد المؤمن اجلانا من المغرب وليس الرأى الا القاء الجد معه واخراجه من البلاد قبل ان يتمكن وتحالفوا على التعاون والتظافر وان لا يخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والاهل والمال ليقاتلوا قتال الحريم واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجى صاحب صقلية فارسل الى امراء

الحصار * ونشبت الحرب بعد العصر يوم الجمعة للنصف من ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وخاض السجزية غمرتها ساعة * متوازرين على المدافعة * ومتضافرين على الممانعة والمنازعة * حتى اذا أوهنهم السلاح * واثخنتهم الجراح * لاذوا بالانحيار والاعتصار بسور الحصار * وظهر اولياء السلطان على بعض جوانب السور * فى ظلمة الديجور * تنادوا بشعار الملك المنصور فانهزم الفجار * وملكت عليهم الحصار * وبسطت أيدى القتل والضرب على من تضمنتهم الدور * وافظتهم المساكن والقصور * فمن رؤس منبوذة * واعناق مجذوذة * ووجوه مكبوبة ودماء على الارض مصبوبة وهام الآخرون على وجوههم يتساقطون * من كسع الادبار فى الآبار * ويلوذون * من ضرب الاخادع * بالمخادع ويفزعون * من شن الغارات الى المغارات * والطلب يقطع دابرهم * ويلحق بالاول آخرهم * حتى خلت سجستان من عيث شرارهم * وسلمت من بث شرارهم * وفتح الله ملك المملكة على السلطان فتحا ثانيا * ومكانا ثانيا * فلم يسمع على مرور الايام * بمثل فتحها فى غلق الظلام * فاستفاضت هيبة السلطان * فى أهل

مساجدها ومساكن اهلها ولم يسلم من جميع ولاية طوس الا البلد الذي فيه مشهد علي بن موسى الرضا ومواضع أخر يسيرة لها اسوار وممن قتل من اعيان اهلها امامها محمد المارشكي ونقيب العلويين بها علي الموسوي وخطيبها اسمعيل بن الحسن وشيخ شيوخها محمد بن محمد وافنوا من بها من الشيوخ الصالحين وساروا منها الى نيسابور فوصلوا اليها في شوال سنة تسع واربعين ولم يجدوا دونها مانعا ولا مدافعا فنهبوها نهبا ذريعا وقتلوا اهلها فاكثروا حتى ظنوا انهم لم يبقوا بها احدا حتى انه احصي في محلتين خمسة عشر الف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان وسبوا نساءها واطفالها واخذوا اموالها وبقي القتلى في الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض واجتمع اكثر اهلها بالجامع المنيعي تحصنوا به فحصرهم الغز فعجز اهل نيسابور عن منعهم فدخل الغز اليهم فقتلوهم عن آخرهم وكانوا يطلبون من الرجال المال فاذا اعطاهم احد قتلوه وقتلوا كثيرا من أئمة العلماء والصالحين منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعي الذي لم يكن في زمانه مثله كان رحلة الناس من اقصى الغرب والشرق اليه ورثاه جماعة من العلماء منهم ابو الحسن علي بن أبي القاسم البيهقي فقال

يا سافكا دم عالم متبحر * قد طار في اقصى الممالك صيته

بالله قل لي يا ظلوم ولا تخف * من كان محيي الدين كيف تميته

ومنهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الاكاف واحمد بن الحسين الكاتب سبط القشيري وابو البركات الفراوي والامام علي الصباغ المتكلم واحمد بن محمد بن حامد وعبد الوهاب الملقاباذي والقاضي صاعد بن عبد الملك بن صاعد والحسن بن عبد الحميد الرازي وخلق كثير من الائمة والزهاد والصالحين واحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم الا بعضها وحصروا شارستان وهي منيعة فاحاطوا بها وقاتلهم اهلها من فوق سوره وقصدوا جوين وبذلوا نفوسهم لله تعالى واحموا بيضتهم والباقي الى النهب والقتل عليه ثم قصدوا اسفراين فنهبوها وخربوها وقتلوا في اهلها فاكثروا وممن قتل عبد الرشيد الاشعثي وكان من اعيان دولة السلطان فتركها واقبل الى الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة وابو الحسن الفندورجي وكان من ذوي الفضائل لاسيما في علم الادب ولما فرغ الغز من جوين واسفراين عادوا الى نيسابور فنهبوا ما بقي فيها بعد النهب الاول وكان قد سلم بشارستان كثير من اهلها فحصرهم الغز واستولوا عليها ونهبوا ما كان فيها لاهلها ولاهل نيسابور وهتكوا الحرم والاطفال وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين وكان العيارون ايضا ينهبون نيسابور اشد من نهب الغز ويفعلون اقبح من فعلهم ثم ان السلطان سليمان شاه ضعف وكان قبيح السيرة سيء التدبير وان وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك توفي في شوال سنة ثمان واربعين فضعف امره واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك ابا علي الحسن بن طاهر وانحل امر دولته بالكلية ففارق خراسان في صفر سنة تسع واربعين وعاد الى جرجان فاجتمع الامراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن اخت السلطان سنجر وخطبوا له على منابر خراسان واستدعوه اليهم فملكوه امورهم وانقادوا له في شوال سنة تسع واربعين وخمسمائة وساروا معه الى الغز وهم يحاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الظفر في اكثرها للغز ورحلوا في جمادى الاولى من سنة خمسين وخمسمائة وسار معهم من على هراة الى مرو

وعاودوا

قانون شوافيت
يشهرت بالوان
ويأجوج ومأجوج
من البلد توجان
واستخلف السلطان على
سجستان المعروف
بقضي الحاجب احمد
المشهور * من قواد ناصر
الدين سبكتكين * فحسنت
في السياسة سيرته * واستعملت
في الرفق بالبرئ * والعنف
على المريب بصيرته * ثم ان
طوائف من شرار الفتنة
* ورسوم الشر والعصبية
ابطرتهم رفاهة العيش
ورفاغة الامن ونعمة
الحال * وسعة المجال
فحدثوا بينهم * بتقديم من
يقدمهم * على العصيان
ويؤمهم * في الخروج على
السلطان * لهم الصلاء
وتحككا بالشقاء * واجتراء
على سوء القضاء * فأبرزوا
صفحة الخلاف * واحترطوا
نصل الشر من الغلاف
فلما رأى السلطان * انتقاض
سجستان * على حافاته
وأمنائه * بادر اليها في عشرة
آلاف رجل من نخب
العسكر * ومعه صاحب
الجيش أبو المظفر * بن ناصر
الدين والتونتاش الحاجب
وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم
الطائي وحصر المردة العتاة
في حصار أرك ووكل خيول
عسكره بجوانب الاسوار
واقتسم بينهم حوالي ذلك

ويقهم حضورنهارا لما مات ملك ولده خسرو شاه الملك بعده

(ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان)

في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلا وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء كل سنة يرسلون اليها من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان في هذه السنة قتل ابن السلار على ما ذكرناه واختلفت الاهواء في مصر وولي عباس الوزارة والى ان استقرت قاعدة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا حتى انهم بعض الايام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج الى خيامهم مقهورين وتبعهم اهل البلد اليها فايس حينئذ الفرنج من ملكه فبيناهم على عزم الرحيل اذ قد أتاهم الخبر ان البلد قد وقع بين أهله خلاف وقتل منهم قتلى فصبروا وكان سبب هذا الاختلاف انهم لما عادوا من قتال الفرنج قاهرين منصورين ادعى كل طائفة منهم ان النصرة من جهتهم كانت وانهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم الى ان قتل من احدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب وعظم حينئذ وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى فطمع الفرنج وزحفوا اليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه

(ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها)

في هذه السنة سير الخليفة المقتفي لامر الله عسكرا الى تكريت ليحصروها وارسل معهم مقدما عليهم ابن الوزير عون الدين ابن هبيرة وترشك وهو من خواص الخليفة وغيرهما فجرى بين ابن الوزير وترشك منافرة اوجبت ان كتب ابن الوزير يشكو من ترشك فامر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فارسل الى مسعود بلال صاحب تكريت فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين وسلمهم الى مسعود بلال فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك من تكريت الى طريق خراسان فنهبا وافسدا فسار المقتفي من بغداد لدفعهما فهربا من بين يديه فقصد تكريت فحصرها اياما وجرى له مع اهلها حروب من وراء السور فقتل من العسكر جماعة بالنشاب فعاد الخليفة عنها ولم يملكها

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصلت مراكب من صقلية فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية وفيها كان بين الكرج بارمينية وبين صلتق صاحب ارزن الروم مصاف وحرب شديد وانهزم صلتق واسره الكرج ثم اطلقوه وفيها توفي أبو العباس احمد بن أبي غالب الوراق المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادي بها وكان من الصالحين وله حديث ورواية وتوفي عبد الملك بن عبد الله بن ابي سهل أبو الفتح بن ابي القاسم الكروخي الهروي راوي جامع الترمذي ومولده سنة اثنتين ومن طريقه سمعناه

(ثم دخلت سنة تسع واربعين وخمسمائة)

(ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز)

الولاية وايستقلاليا بالجباية واتقان السياسة وانتظام الحراسة قيام من عدله الزمان بثقافه وقرنه الكمال بأوصافه عاد السلطان الى بلخ عازما على استئناف الجد في غزو الهند على ما سنذكره في موضعه ان شاء الله تعالى

(ذكر شمس المعالي قابوس ابن وشمكير وانتقاله الى مملكته بعون الله ونصرته بعد طول التقلب في التغرب)

قد كان شمس المعالي اقام بخراسان ثماني عشرة سنة مصابرا للدهر على رقعاته وتصرف حالاته لم تغمز يد الحادثات قناته ولم يقرع صرف النائبات صفاته ولم تنقص دوائر الايام مروته ولم تنقض حبوته ولم يبق من اصحاب الجيوش وزعماء الجمهور من لم يضرب له بسهم من نوافله ولم يرسخ الى حظ من عطاياه وفواضله ولم يتخلص احد من ذوي الشعة بسلام الاحظي منه بانعام واحسان واحسنة الوان وافراس مطهمة حسان فعلى الاكتاف خلعه ولباسه وتحت الافخاذ مراكبه وافراسه وحشو البيوت بدره واكياسه وقد كان آل سامان يهمون برده الى مملكته مجازاة لسبب

العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم يحثهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم ان يرسل اليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا اليه الرهائن فشكروه وقالوا ما بنا حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين وساروا في عدد لا يحصى وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية الى بلاد المغرب فلما بلغه خبرهم جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين الف فارس واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاتي وسعد الله بن يحيى وكان العرب أضعافهم فاستجرهم الموحدون وتبعهم العرب الى ان وصلوا الى ارض سطيف بين جبال فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن والعرب على غير اهبة والتقى الجمعان واقتتلوا اشد قتال واعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين وترك العرب جميع ما لهم من اهل ومال واثاث ونعم فاخذ الموحدون جميع ذلك وعاد الجيش الى عبد المؤمن بجميعه فقسم جميع الاموال على عسكره وترك النساء والاولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وامر بصيانتهم فلما وصلوا معه الى مراكش انزلهم في المساكن الفسيحة واجرى لهم النفقات الواسعة وامر عبد المؤمن ابنه محمدا ان يكاتب امراء العرب ويعلمهم ان نساءهم واولادهم تحت الحفظ والصيانة وانه قد بذل لهم الامان والكرامة فلما وصل كتاب محمد الى العرب سارعوا الى المسير الى مراكش فلما وصلوا اليها اعطاهم عبد المؤمن نساءهم واولادهم واحسن اليهم واعطاهم أموالا جزيلة فاسترق قلوبهم بذلك واقاموا عنده وكان بهم حفيا واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد على ما نذكره سنة احدى وخمسين

(ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم)

في هذه السنة سار اسطول رجار ملك الفرنج بصقلية الى مدينة بونة وكان المقدم عليهم فتاه فيلب المهدوي فحصرها واستعان بالعرب عليها فاخذها في رجب وسبى اهلها وملك ما فيها غير انه اغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا باهليهم واموالهم الى القرى فاقام بها عشرة ايام وعاد الى المهدية وبعض الاسرى معه وعاد الى صقلية فقبض رجار عليه لما اعتمد من الرفق بالمسلمين في بونة وكان فيلب يقال انه وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك وشهدوا عليه انه لا يصوم مع الملك وانه مسلم فجمع له رجار الاساقفة والقسوس والرهبان فحكموا بان يحرق فاحرق في رمضان وهذا اول وهن دخل على المسلمين بصقلية ولم يمهل الله رجار بعده الا يسيرا حتى مات في العشر الاول من ذي الحجة من السنة وكان مرضه الخوانيق وكان عمره قريب ثمانين سنة وكان ملكه نحو عشرين سنة ولما مات ملك بعده ابنه غليالم وكان فاسد التدبير سيئ التصوير فاستوزر مايو البرصاني فاساء التدبير فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية وتعدى الامر الى افريقية على ما نذكره

(ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة)

في هذه السنة في رجب توفي السلطان بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بها وكانت ولاية بهرام شاه ستا وثلاثين سنة وكان عادلا حسن السيرة جميل الطريقة محبا للعلماء مكرما لهم باذلا لهم الاموال الكثيرة جامعا للكتب تقرأ بين يديه

بهبشان * حتى نامت ايامهم عن دبيب العقارب * وصرير الجنادب * وانشد بعض اهل العصر * في تهنئة النصر

يا أيها الملك الذي
زند المعالي يقتدح
لازال ثغرك باسما
من أجل ثغر تفتتح

وانشدني أبو منصور الثعالبي في هذا الفتح الشهير * والنجح الكبير * يمدح السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بهذه الابيات

يا خاتم الملك ويا قاهر الـ * أملاك بين الاخذ والصفح
عليك من الله مر فاتح
للأرض مستول على النجح
راياته تنطق بالنصر بل
تكاد تملا كتب الفتح
كم أثر في الدين أثرته
يقصر عنه أثر الصبح
وكم ترى للملك شيدتها
تثني عليها ألسن المدح
فاسعد بايامك واستغرق الـ * اعداء بالكبح وبالدبح
ودم رفيعا عالي القدح
ممتع الملك على القدح

ثم جعل السلطان سجستان طعمة لصاحب الجيش أخيه أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين مضافة الى نيسابور وناهيك بها سما ولاية في بلاد الشرق فنصب تلقاءه عليها أبا منصور نصر بن اسحق وزيره * ووكل به تدبيره * ورضي لها تقديمه وتأخيره * فقام بضبطها

كان اخذه من القصر فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه واخذوا جميع ما معه فتقووا به وسار الملك الصالح فدخل القاهرة باعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التي أرسلت اليه من القصر على رؤس الرماح وكان هذا من الفال العجيب فان الاعلام السود العباسية دخلتها وازالت الاعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة واستقر في الامر واحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر فاراه موضع دفنه فاخرجه ونقله الى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنج عباسا اسروا ابنه فارسل الملك الصالح الى الفرنج وبذل لهم مالا واخذه منهم فسار من الشام مع اصحاب الصالح فلم يكلم احدا منهم كلمة واحدة الى ان رأى القاهرة فانشد

بلى نحن كنا اهلها فابادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

وادخل القصر فكان آخر العهد به فانه قتل وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح البيوت الكبار والاعيان بالديار المصرية فامسك اهلها وابعدهم عن ديارهم واخذ اموالهم فقتل منهم من هلك ومنهم من تفرق في البلاد والحجاز واليمن وغيرها فعل ذلك خوفا منهم ان يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب الى الشام

*(ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا)

في هذه السنة ارسل الخليفة المقتفي لامر الله رسولا الى والي تكريت بسبب من عندهم من المأسورين وهم ابن الوزير وغيره فقبضوا على الرسول فسير الخليفة عسكرا اليهم فخرج اهل تكريت فقاتلوا العسكر ومنعوهم من الدخول الى البلد فسار الخليفة بنفسه مستهل صفر فنزل على البلد فهرب أهله فدخل العسكر فشعثوا فيه ونهبوا بعضه ونصب على القلعة ثلاثة عشر منجنيقا فسقط من اسوارها برج وبقي الحصر كذلك الى الخامس والعشرين من ربيع الاول وامر الخليفة بالقتال والزحف فاشتد القتال وكثر القتلى ولم يبلغ منها غرضا فرحل عائدا الى بغداد فدخلها آخر الشهر ثم امر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعود الى محاصرتها والاستعداد والاستكثار من الآلات للحصار فسار اليها سابع ربيع الآخر ونازلها وضيق عليها فوصل الخبر بان مسعود بلال وصل الى شهرابان ومعه البقش كون خر وترشك وعسكر كثير ونهبوا البلاد فعاد الوزير الى بغداد وكان سبب وصول هذا العسكر انهم حثوا الملك محمد ابن السلطان محمود على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك فسير هذا العسكر وانضاف اليهم خلق كثير من التركمان فخرج الخليفة اليهم فارسل بلال مسعود الى تكريت واخرج منها الملك ارسلان بن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوسا بتكريت وقال ان هذا السلطان نقاتل بين يديه بازاء الخليفة والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من بعقوبا ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوما ثم انهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغت الهزيمة بغداد ونهبت خزائنه وقتل خازنه فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده وصاح يا آل هاشم كذب الشيطان وقرأ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وحمل باقي العسكر معه فانهزم مسعود والبقش وجميع من معهم وتمت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدانق وكانوا قد حضروا بنسائهم واولادهم وخركاواتهم وجميع مالهم فأخذ جميعه ونودي من أخذ من اولاد التركمان

والصدر الى طوس لطلبه أخيه ابي القاسم السيمجوري فجد عند ذلك شمس المعالي عهده به ولاطف كل منهما صاحبه بما لا يفي به بيان ولا يتسع لحساب ولا حسبان * وجرى ذكر فخر الدولة واستظهاره ببدر بن حسنويه صاحب الاكراد والفوارس الاشداد فاراد ناصر الدين سبكتكين ان يستظهر عليهم بكماة الشرق ورماة الحدق * من كتائب الاتراك الخانية فارسل حاجبه الكبير التونتاش الى ايلك الخان يتنجز حكم الحال التي تفارقا عليها بما وراء النهر من الاتحاد في الوداد والاشتراك في الاملاك بامداده بعشرة آلاف رجل من نخب رجاله * وشهب ابطاله * وصرف شمس المعالي وراءه على ميعاد معاده * ورجع ناصر الدين سبكتكين الى بلخ مستعدا للامر * ومنتظرا لوصول العدد الدثر * فاستأثر الله به قبل ان عاد الرسول وتقوّض المسؤول فجرى عليه ما نبع * ووقع دونه ما ارتفع * ووسط وجوه الناس بين الملك عين الدولة * وامين الملة * وبين شمس المعالي قابوس في اسعاده * ورده الى معاده على مال يقضي به حق غنائه ويضاهي حسن بلائه

في هذه السنة في المحرم قتل الظافر بالله أبو المنصور اسمعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله ان وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر فاحبه الظافر وجعله من ندمائه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة فاتفق ان قدم من الشام مؤيد الدولة الامير اسامة بن منقذ الكناني في وزارة ابن السلار واتصل بعباس فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه فقتله وولاه الظافر الوزارة فاستبد بالامر وتم له ذلك وعلم الامراء والاجناد ان ذلك من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال وما ذلك قال الناس يزعمون ان الظافر يفعل بابنك نصر وكان نصر خصيصا بالظافر وكان ملازمه ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله وقيل ان الظافر اقطع نصر بن عباس قرية قليوب وهي من أعظم قرى مصر فدخل اليه مؤيد الدولة ابن منقذ وهو عند ابيه عباس قال له نصر قد اقطعني مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ما هي في مهرك بكثير فعظم عليه وعلى ابيه وأنف من هذه الحال وشرع في قتل الظافر فامر ابنه فحضر نصر عند الظافر وقال له اشتهي ان تجيء الى داري لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه في نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وافلت خويدم صغير اختبأ فلم يروه ودفن القتلى في داره واخبر اباه عباسا الخبر فبكر الى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر ان يطلبوا له اذنا في الدخول عليه لامر يريد ان يأخذ رايه فيه فقالوا انه ليس في القصر فقال لا بد منه وكان غرضه ان ينفي التهمة عنه بقتله وان يقتل كل من بالقصر ممن يخاف ان ينازعه فيمن يقيمه في الخلافة فلما الح عليهم عجزوا عن احضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر اذ وصل اليهم الخويدم الصغير الذي شاهد قتله وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه واخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فانه يعرف اين هو لانهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال اريد ان اعترض القصر لئلا يكون قد اغتاله احد من أهله فاستعرض القصر فقتل اخوين للظافر وهما يوسف وجبريل واجلس الفائز بنصر الله ابا القاسم عيسى بن الظافر بامر الله اسمعيل ثاني يوم قتل ابوه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه واجلسه على سرير الملك وبايع له الناس واخذ عباس من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ما اراد ولم يترك فيه الا ما لا خير فيه

(ذكر وزارة الملك الصالح ابن رزيك)

كان السبب في وزارة الملك الصالح ابن رزيك ان عباسا لما قتل الظافر واقام الفائز ظن ان الامر يتم له على ما يريده فكان الحال خلاف ما اعتقده فان الكلمة اختلفت عليه وثار به الجند والسودان وصار اذا امر بالامر لا يلتفت اليه ولا يسمع قوله فارسل من بالقصر من النساء والخدم الى الصالح طلائع ابن رزيك يستغيثون به وارسلوا شعورهم على الكتب وكان في منية بني خصيب واليا عليها وعلى أعمالها وليست من الاعمال الجليلة وانما كانت اقرب الاعمال اليهم وكان فيه شهامة فجمع ليقصد عباسا وسار اليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الاموال التي لا تحصى كثرة والتحف والاشياء التي لا توجد الا عنده مما

كان

السبق في أداته على خفة وإفاءة ما سكه الى يده فقطعهم توالى الفتوق من كل وجه عليهم عن اصابة اغراضهم في امره وألهمته بصيرة التجارب مداراة المحنة حتى ينتهي زمانها ويتقضى على الاقبال جرانها اذ كان الاضطراب في المحن كالاضطراب في حبل الخناق ما يزداد صاحبه على نفسه حركة الا ازداد اختناقا وهلكه * ومما يضاف الى شعره قوله في اقبال محنته

قل للذي بصروف الدهر عيرنا
هل عاند الدهر الا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
وتستقر باقصى قعره الدرر
فان تكن نشبت أيدي الزمان بنا
ومسنا من تمادي بؤسه الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد
وليس يكسف الا الشمس والقمر

ولما وطئ ناصر الدين سبكتكين عراص خراسان واقتعده الظفر بأبي علي على كره ما ارتاح للقائه وما يتجشمه من اندرته واعلائه * ثم اتفق له من الانقلاب الى بلخ ما حال بينه وبين مراده فغبر مدة على جملته الى ان انقرض امر ابي علي بن سيمجور وخوى نجم الشغل به

فى القلعة وراسله فى تسليمها وبذل له اقطاعا من جملته مدينة حمص فسلمها اليه وسار الى حمص واعطاه عوضا عنها بالس فلم يرضها وسار منها الى العراق واقام ببغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية وتوفى بها

(ذكر قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم)

فى هذه السنة فى ربيع الآخر اجتمع جمع كثير من الاسماعيلية من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل وساروا يريدون خراسان لاشتغال عساكرها بالغز وقصدوا اعمال خواف وما يجاورها فلقيهم الامير فرخشاه بن محمود الكاسانى فى جماعة من حشمه واصحابه فعلم ان لا طاقة له بهم وسار عنهم وارسل الى الامير محمد بن انز وهو من اكابر امراء خراسان واشجعهم يعرفه الحال ويطلب منه المسير اليهم بعسكره ومن قدر عليه من الامراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوهم فسار محمد بن انز فى جماعة من الامراء وكثير من العسكر واجتمعوا هم وفرخشاه ووافوا الاسماعيلية وقاتلوهم وطال الحرب بينهم ثم نصر الله المسلمين وانهزم الاسماعيلية وكثر القتل فيهم واخذهم السيف من كل مكان وهلك اعيانهم وساداتهم بعضهم قتل وبعضهم اسر ولم يسلم منهم الا القليل الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع فلولا اشتغال العساكر بالغز لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة واراحوا المسلمين منهم ولكن لله امر هو بالغه

(ذكر ملك نور الدين تل باشر)

فى هذه السنة او التى بعدها ملك نور الدين محمود بن زنكى قلعة تل باشر وهى شمالى حلب من امنع القلاع وسبب ملكها ان الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق خافوه وعلموا انه يقوى عليهم ولا يقدرون على الانتصاف منه لما كانوا يرون منه قبل ملكها فراسله من بهذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها فسير اليهم الامير حسان المنبجى وهو من اكابر امرائه وكان اقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج وهى تقارب تل باشر وامره ان يسير اليها ويتسلمها فسار اليها وتسلمها منهم وحصنها ورفع اليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مات استاذ دار ابو الفتوح عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وكان له صدقات ومعروف كثير ومجالسة للفقراء والصالحين وولى الخلافة ابنه الاكبر عضد الدين ابو الفرج محمد بن عبد الله ما كان الى ابيه وتوفى عبد الرحمن بن عبد الصمد بن احمد بن على ابو القاسم الاكاف النيسابورى كان زاهدا عابدا فقيها مناظرا وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه وكان ربما حجبه فلا يمكنه من الدخول اليه وفيها توفى ثقة الدولة ابو الحسن على بن محمد الزوينى القزوينى وكان يخدم ابا نصر محمد بن الفرج الابرى وزوجه ابنته شهدة الكاتبة فقربه المقتفى لامر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الازج

(ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة)

فى هذه السنة سار الخليفة المقتفى لامر الله الى دقوقا فحصرها وقاتل من بها ثم رحل عنها لانه بلغه ان عسكر الموصل قد تجهزوا للمسير اليه فرحل ولم يبلغ غرضا وفيها استولى شملة

للاعتضاد به والاستظهار * بعدته وعديده * بجرد عزمه للانصراف * وضرب تلك المواعيد بالاخلاف * غير حافل بما لحقه من المذمة بخذلان من جشمه انصرته * واستقدمه على ما تحت يده وقدرته * وسار نحو اسفراين فانقلب شمس المعالى قابوس الى نيسابور على سرة النهل اسنانا بالوقت الى مقتطف الرجاء ومخترف الامل * وتربصا لما سوته رحم الليالى من جنين المقدور * فى ادالة الميسور على المعسور * ولما رأى ابو على آل سامان مختلة النظام * مخلاة العراقى والاوذام * لا تزداد على الرقع الا خرقا * ولا على الرتق الا انفتاقا * خفض الرأى فيما يقيم له ملك امره * ويحوش عليه ابد ملكه * فكاتب زبدة تحفة اسپهبد شهريار بن شروين الى جبل شهريار لاستصفائه * فسار نحوه بمن تحت لوائه وعلى الجبل يومئذ رستم بن المرزبان خال الامير مجد الدولة ابى طالب رستم بن فخر الدولة صاحب الرى وتناهد القتال على رسمهم فى الاحتراس بالبراس * وادراع لباس الباس * وشد عليهم الاصبهبذ شدة فرق تهم بين الهامه والدكادك * واقحمتهم لهوات المعاطب والمهالك * واصاب منهم غنيمة

ونسائهم شيأ فلم يرده ورده فاخذ البقش كون خر الملك ارسلان وانهزم الى بلد اللحف وقلعة
الماهكين وفي هذه الحرب غدر بترشك من عسكر الخليفة وقتلوا ابا النجم رمضى هندى
الكردي ايضا منهم وكان الملك محمد قد ارسل عسكرا مع خاص بك بن آقسنقر نجدة لكون خر
فلما وصلوا الى الراذان اتاهم خبر الهزيمة فعادوا ورجع الخليفة الى بغداد فدخلها اواخر
شعبان فوصل الخبران مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط فنهبوا وخربوا فسير الخليفة
الوزير ابن هبيرة في عسكر خامس عشر شعبان فانهزم العجم ولحقهم عسكر الخليفة ونهب منهم
شيأ كثيرا وعاد الى بغداد فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش وسير الخليفة عسكرا الى
بلد اللحف فاخذه وصار في جملته واما الملك البا ارسلان بن طغرل فان البقش اخذه معه الى
بلده فارسل اليه الملك محمد يقول له ليحضر عنده وارسلان معه فمات البقش كون خر في رمضان
في هذه السنة وبقي ارسلان مع ابن البقش وحسن الجاندار ارفعاه الى الجبل فخاف السلطان
محمد أن يصل ارسلان الى زوج امه ابي بكر فيجعله ذريعة الى قصد البلاد فلم ينفعه حذره واتصل
أرسلان بابي بكر زوج امه فصار معه وهو أخو بهلوان بن ايلدكز لامه وطغرل الذي قتله
خوارزم شاه ولد ارسلان هذا وكان طغرل آخر السلجوقية

(ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق)

في هذه السنة في صفر ملك نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر مدينة دمشق واخذها من
صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغدكين اتابك وكان سبب حرصه على ملكها
ان الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم
عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق حتى انهم
استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى فمن أراد المقام بها ترك ومن أراد
العود الى وطنه اخذوه قهرا من صاحبه شاء أم أبى وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها
منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما رأى نور الدين ذلك خاف ان يملكها
الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فاعمل الحيلة في أخذها حيث علم انها لا تملك قوة لان
صاحبها متى رأى غلبة ممن يقصده راسل الفرنج واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على
قتالهم فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه فكان
نور الدين يقول له في بعض الاوقات ان فلانا قد كاتبني في تسليم دمشق يعني بعض امراء مجير
الدين فكان يبعد الذي قيل عنه ويأخذ اقطاعه فلم يبق عنده من الامراء احد فقدم اميرا
يقال له عطاء بن حفاظ السلمي الخادم وكان شهما شجاعا وفوض اليه أمر دولته فكان نور
الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق فقبض عليه مجير الدين وقتله فسار نور الدين حينئذ الى
دمشق وكان قد كاتب من بها من الاحداث واستمالهم فوعدوه بالتسليم اليه فلما حصر نور الدين
البلد ارسل مجير الدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك اليهم لينجدوه ويرحلوا
نور الدين عنه فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد فالى ان اجتمع لهم
ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين واما كيفية تسليم دمشق فانه لما حصرها ثار
الاحداث الذين راسلهم فسلموا اليه البلد من الباب الشرقي وملكه وحصر مجير الدين

في قبضة رهانه * وتعيق
مكايد احداثه * انظار الوفاء
به لغاية شهرين من قراره
بجرجان اذ كان يحيل بحمل
ما يلتزمه على ما يدركه من
اسلابها * ويحصل من
اغلالها * وانه يتحاشى به *
انتقال الملك اليه ضبط
رعيته بالرفق والعسف *
والانضاء عليهم بجمع الحرق
والخرق فاعمل السلطان
يمين الدولة * وامين الملة *
ما أهمه من ارشاده * وشغل
الخاطر بأشيه عن تقديم
اظهاره * وتعجيل رده الى داره
فاستمهله ريثما يكفي ما امامه
ويقضي الشغل بما وراءه
وسار الى غزنة حتى يسر الله
افتتاحها * وداوى على يده
جراحها * وكان ابو القاسم
ابن سيمجور حتى ما بقوس
فلما مضى فخر الدولة لسبيله
اشرأب نحوها * الى جرجان متغلبا
عليها * وكاتب ابو القاسم
شمس المعالي قابوس في
الاستمداد اليها * ليقوم
بتسليمها اليه * وتقريرها
في يديه * فسار على سمت
الرويند حتى وافى جرجان
وابو القاسم بن سيمجور
باستراباذ وقد سير من الري
ابو العباس فيروزان بن
الحسن في جماهير المشاهير
من قواد الديلم والاكراد
وقد كان اطمع ابو القاسم
من بخارا في ولاية قهستان
وهراة وامر بمعاودة خراسان

صقلية احضر ابا الحسين وعرفه ما عمل ابنه فامره ان يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود الى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال من قدم على هذا يرجع بكتاب فارسل ملك صقلية اليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج اهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وارسل عمر الى الرسول يقول له هذا ابي قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما اردتم فعاد الرسول الى غاذالم فاخبره بما صنع عمر بن ابي الحسين فاخذ اباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات واما اهل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب واهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الاقوات بالمهدية قليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وارسلوا الى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم واهل زويلة فانهزمت العرب وبقي اهل زويلة واهل سفاقس وركبوا في البحر فنجوا وبقي اهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا ابوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل اكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شيء من اموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر الفرنج بالمهدية الى ان اخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل)

في هذه السنة قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قد جعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما جرى لسنجر مع الغز ما ذكرناه وتقدم على عسكر خراسان وضعفوا عن الغز مضى الى خوارزم شاه فزوجه ابنة اخيه اتسز ثم بلغه عنه ما كرهه فابعده فجاء الى اصفهان فمنعه شحنتها من الدخول فمضى الى قاشان فسير اليه محمد شاه ابن اخيه محمود بن محمد عسكرا ابعدوه عنها فسار الى خوزستان فمنعه ملكشاه عنها فقصد اللحف ونزل البندنيجين وارسل رسولا الى الخليفة المقتفي يعلمه بوصوله وترددت الرسل بينهما الى ان استقر الامر على ان يرسل زوجته تكون رهينة فارسلها الى بغداد ومعها كثير من الجواري والاتباع وقال قد ارسلت هؤلاء رهائن فان اذن امير المؤمنين في دخول بغداد فعلت والا رجعت فاكرم الخليفة زوجته ومن معها واذن له في القدوم اليه فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلثمائة رجل فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة وخلع عليه الخليفة واقام ببغداد الى ان دخل المحرم من سنة احدى وخمسين وخمسمائة فاحضر في سليمان شاه الى دار الخلافة واحضر قاضي القضاة والشهود واعيان العباسيين وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وانه لا يتعرض الى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد ولقب ألقاب ابيه غياث الدنيا والدين وباقي ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة وسير معه من عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارس وجعل الامير قويدان صاحب الحلة امير حاجب معه وسار

ايناء الجليل من كان يسلك شعب هواه * ويستلم ركن طاعته ورضاه * وكتب شمس المعالي الى الاصبهبذ بالانضمام الى بابي وجمع اليه الى يده فيما قدم واخر * والشد على عضده فيما اورد واصدر * فتقبل ما امر وتسامع ابو العباس فيروزان ابن الحسن بنبئهما وهو مقيم بجرجان فنهد الكفاية امرهما * واستعاد ما انتهب من جرهما * فواقعاه بباب استراباذ وتعستانت فيها حدود القواطع * من حديد المدارع * ومن ارق الزانات من مفارق الهامات * وكادت الهزيمة تستقر باصحاب بابي لولا انقلاب الاكراد والعرب في عسكر الديلم عليهم ببيض الظبا وزرق العوالي * منادين بشعار شمس المعالي فانهزم ابو العباس فيروزان بن الحسن فيمن معه وركب الطلب اكتافهم فأسروا زهاء عشرين نفرا من وجوه القواد في جملته واسرى بقية الفل نحو جرجان وقد قدم اليها قابوس ابن وشمكير سالار بن خركاش أسدا قاربه فوافق انهزامهم اليها فاطلاه عليها فضجوا رنة وعويلا * وضلوا فلا يهتدون سبيلا * واضطروا الى استئناف الهزيمة قرحا على قرح *

التركماني على خوزستان وصاحبها حينئذ ملكشاه بن محمود بن محمد فسير الخليفة اليه عسكرا فلقيهم شملة في رجب وقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة واسر وجوههم ثم احسن اليهم شملة واطلقهم وارسل يعتذر فقبل عذره وسار الى خوزستان فملكها وازاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وفيها سار الغز الى نيسابور فملكوها بالسيف ودخلوها وقتلوا محمد بن يحيى الفقيه الشافعي ونحوا من ثلاثين الفا وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة وهو معتقل لا يلتفت اليه حتى انه اراد كثيرا من الايام ان يركب فلم يكن له من يحمل سلاحه فشده على وسطه وركب وكان اذا قدم اليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر خوفا من انقطاعه عنه لتقصيرهم في واجبه ولانهم ليس هذا مما يعرفونه وفيها وثب قسوس الارمن بمدينة آني فاخذوها من الامير شداد وسلموها الى اخيه فضلون وفيها في ذي الحجة قتل الاتراك القارغلية طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر والقوه في الصحراء ونسبوه الى اشياء قبيحة وكان مدة ملكه مستضعفا غير مهيب وفيها توفي أبو الفضل محمد بن ناصر بن علي البغدادي الحافظ الاديب وكان مشهورا بابي الفضل وكان شافعيا وصار حنبليا مغاليا ومولده سنة سبع وستين واربعمائة في شعبان وكان موته ايضا في شعبان وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة في ذي الحجة وفيها توفي يحيى الغساني النحوي الموصلي وكان فاضلا خيرا وتاج الدين ابو طاهر يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري قاضي جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة)

(ذكر عصيان الجزائر وافريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم)

قد ذكرنا سنة ثمان واربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده غليالم وانه كان فاسد التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية فلما كان هذه السنة قوي طمع الناس فيه فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة واظهروا الخلاف عليه وخالف عليه اهل افريقية فاول من اظهر الخلاف عليه عمر بن ابي الحسين الفرياني بمدينة سفاقس وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها اباه ابا الحسين وكان من العلماء الصالحين فاظهر العجز والضعف وقال استعمل ولدي فاستعمله واخذ اباه رهينة الى صقلية فلما اراد المسير اليها قال لولده عمر اني كبير السن وقد قارب اجلي فمتى امكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر في انني اقتل واحسب اني قد مت فلما وجد هذه الفرصة دعا اهل المدينة الى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو امرني بهذا واذا قتل بالشيخ الوف من الاعداء فما مات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك اول سنة احدى وخمسين وخمسمائة ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن الى بونة فملكها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهدية وسوسة وارسل عمر بن ابي الحسين الى زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة فاعانوا اهلها على من بالمهدية من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك

بخسيسة * بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة * واقام الخطبة بالجرجان على شمس المعالي قابوس بن وشمكير وكان بابي ابن سعيد أسد اعيان الجبل ونصحائهم مقيما عند الاستندارية في طوائف من أضرابه مشابهالهم في ظاهر الامر * وناظرا الى موالاة شمس المعالي من نقابة السر * واتفق ان نصر ابن الحسن بن فيروزان انفذته الاضاقة بناحية الديلم الى حدود الاستندارية فطمع في مغالبتهم عليها وعزا اسمهم فيها * فقذف من بحرات ايامها من طرده عنها وقبض على خاله أبي الفضل اصبهبذ كاوذ فسجن الى ان دفن وماول بعد ذلك بابي بن سعيد نصرا فتساعدا على قصد آمل وبها ابو العباس الحاجب في زهاء الفين من عسكر الري وأجلاه عنها هزيما تقفوه الصفاح * وهشيما تذروه الرياح * وطير بابي بن سعيد عند ذلك كتبه الى شمس المعالي بذكر الفتح الذي اتيح له على شعار موالاته * واستشعار طاعته وموالاته * واظهار التنصح باستطلاع راياته * فقصد عن نيسابور سائرا نحو جرجان وتحير بابي بن سعيد عن مضامة نصر الى استراباذ مجاهرا بشعار صاحبه وتجمع اليه من

وهى طويلة

(ذكر وفاة خوارزم شاه اتسز وغيره من الملوك)

فى هذه السنة تاسع جمادى الآخرة توفى خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين وكان قد اصابه فالج فتعالج منه فلم يبرأ فاستعمل ادوية شديدة الحرارة بغير امر الاطباء فاشتد مرضه وضعفت قوته فتوفى وكان يقول عند الموت ما اغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه وكانت ولادته فى رجب سنة تسعين واربعمائة ولما توفى ملك بعده ابنه ارسلان فقتل نفرا من اعمامه وسمل أخاله فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه وارسل الى السلطان سنجر وكان قد هرب من أسر الغز على ماذكره يبذل الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم وسير اليه الخلع له فى رمضان فبقى فى ولايته ساكنا آمنا وكان اتسز حسن السيرة كافا عن اموال رعيته منصفا لهم محبوبا اليهم مؤثرا للاحسان والخير اليهم وكان الرعية معه بين امن غامر وعدل شامل وفى سابع عشر الشهر المذكور توفى أبو الفوارس بن محمد بن ارسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه وفيها توفى الملك مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم وملك بعده ابنه قلج ارسلان

(ذكر هرب السلطان سنجر من الغز)

فى هذه السنة فى رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من اسر الغز وجماعة من الامراء الذين معه وساروا الى قلعة ترمذ واستظهروا على الغز وكان خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز فيقاتلانهم فيرين معهما فكانت الحرب بينهم سجالا وغلب كل واحد من الغز والخراسانيين على ناحية من خراسان فهو يأكل دخلها الى ان اتيح لهم هربه وسار السلطان سنجر من ترمذ الى جيحون يريد العبور الى خراسان فاتفق ان مقدم الاتراك القارغلية واسمه على بك توفى وكان اشد شئ على السلطان سنجر وعلى غيره كثير الشر والفساد واثارة الفتن فلما توفى اقبلت القارغلية على السلطان سنجر وكذلك غيرهم من سائر الامم من اقاصى البلاد وادانيها وعاد الى دار ملكه بمرو فى رمضان فكانت مدة اسره مع الغز من سادس جمادى الاولى سنة ثمان واربعين الى رمضان سنة احدى وخمسين وخمسمائة

(ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد ابيه)

فى هذه السنة امر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمران يلى عمر الامر بعد عبد المؤمن فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر اولاده احب ان ينقل الملك اليهم فاحضر امراء العرب من هلال وزغب وعدى وغيرهم اليه ووصلهم واحسن اليهم ووضع عليهم من يقول لهم اطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريد ان تجعل لنا ولى عهد من ولدك يرجع الناس اليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم اكراما لعمر لعلو مرتبته فى الموحدين وقال لهم ان الامر لابى حفص عمر فلما علم عمر بذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن واجاب الى خلع نفسه فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد وكتب الى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها فاخرج عبد المؤمن فى ذلك اليوم من الاموال شيأ كثيرا

(ذكر استعمال عبد المؤمن اولاده على البلاد)

والدهر ذو غير اسد والهنوب
عسر ويسر واحلاء وامرار
والبدر يدركه التمحيق منتقصا
وبعد ما بضياء التم نوار
والنار فى خلل العيدان كامنة
وسقطها باقتداح الزند سعار
والمجد يطبع كالصمصام شرله
من صيقل الدهر جبلاء وشهار
هذا الشمس العالى فى سيادته
له مع الفلك الدوار اسحار
اعطاه من غرر الآمال ماقصرت
عن نيل امثالها فى الدهر اعمار
ملكا وعزا وعيشا رافعا وعلا
ودولة ضمنها النصر والظهار
لما كساه دروع العز ضافية
ولم يجد منه غير الشكر جبار
ابدى نشوزا عليه كى يجربه
بالصبر والصبر للاحرار صبار
حتى اذا ماقضى من سبره وطرا
وللامور نهايات واطوار
امسى يعاود مارضاه فى سفر
وخدمه بدم النشور فوار
فالدهر خادمه والعز صارمه
والرأى رايته والخلق انصار
قرم اضحى حماة العالمين به
كانه الشمس والاعمار اقمار
راح الكرام الى اوكارها له
كانه الليل والاحرار اطيار

هو وبلاد الجبل في ربيع الاول وسار الخليفة الى حلوان وارسل الى ملكشاه ابن السلطان محمود اخي السلطان محمد صاحب همذان وغيرها يدعوه الى موافقته فقدم في الفي فارس فحلف كل منهما لصاحبه وجعل ملكشاه ولي عهد سليمان شاه وقواهما الخليفة بالمال والاسلحة وغيرها فساروا واجتمعوا هم وايلدكز فصار في جمع كبير فلما سمع السلطان محمد خبرهم ارسل الى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبه زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبذل لهما البذول الكثيرة ان ظفر فاجاباه الى ذلك ووافقاه فقويت نفسه وسار الى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم في جمادى الاولى واشتد القتال بين الفريقين فانهزم سليمان شاه ومن معه وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجل نحو من خمسين رجلا ولم يقتل منهم احد وانما اخذت خيولهم واموالهم وتشتتوا وجاؤا متفرقين وفارق سليمان شاه ايلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور فخرج اليه زين الدين علي في جماعة من عسكر الموصل وكان بشهرزور الامير برزان مقطعها من جهة زين الدين وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه فاخذاه اسيرا وحمله زين الدين الى قلعة الموصل وحبسه بها مكرما محترما الى ان كان من امره ما نذكره سنة خمس وخمسين ان شاء الله فلما قبض سليمان شاه ارسل زين الدين الى السلطان محمود يعرفه ذلك ووعده المعاضدة على كل ما يريده منه والمساعدة له والله اعلم

* (ذكر حصر نور الدين قلعة حارم) *

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي الى قلعة حارم وهي للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية وهي تقارب انطاكية من شرقيها وحصرها وضيق على اهلها وهي قلعة منيعة في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون الى رأيه فارسل اليهم يقول انا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف فلا تخاطروا انتم باللقاء فانه ان هزمكم اخذها وغيرها والرأي مطاولته فارسلوا اليه وصالحوه على ان يعطوه نصف اعمال حارم فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم فقال بعض الشعراء

البست دين محمد يا نوره * عزا له فوق السها آساد *
مازلت تشمله بعياد القنا * حتى تثقف عوده المياد *
لم يبق مذ ارهفت عزمك دونه * عدد يراع به ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما * حمدتك عن خطبائها الاعواد
ملق باطراف القريحة كلكلا * طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردا * حاموا فرائس كيدهم او كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة * حزما لحارم والمصاد مصاد
من منكر ان ينسف السيل الربا * وابوه ذاك العارض المداد
اوان يعيد الشمس كاسفة السنا * نار لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـ * ـعلياء حتى يرفع الاولاد *

وعلا فوق سرح * وشوطب
شمس المعالي قابوس بخير
الفتح * وما هيأه الله له من
عظيم النجح * فسار الى جرجان
وقد شرح الله صدره *
وجلى عن الكسوف بدره
ونسخ باليسر عسره * وزاد
على القدر قدره * ودخلها
في شعبان سنة ثمان وثمانين
وثلثمائة ولبعض كتاب
اهل العصر فيه عند زفاف
الملك اليه قصيدة اولها
الملك ما لم يعنه الله عثار
والحزم ما لم يزنه الصبر خوار
والكريم اذا الايام زان به
من الملق بثبات النفس اعذار
كم فاضل وجنون الجنون له
حيفا على حسك الالاء وامرار
وكم جريح قريح القلب
ذي عبر
وكم قتيل وما للسيف اثار
وكم فقير بلا جرم وشانئة
وكم غني وللايام ادوار
سير سريع ودون غيه هرم
نصب العيون ودون الغيب
استار
من كان يخبر حال الدهر دائرة
لم يثنه عن عيان الحال اخبار
وانما حاصل الايام مختبرا
بنداء صم عن التحقيق قرار
ينعى الزمان على من لا
اصطبار له
ورقة للذي في العسر صبار
فاصبر هديت فان الصبر
منجية
ومن وراء ظلام الليل
اسفار

جرح جرحاً ليس بكبير فحضر الوزير يطلب الدنانير فقال له الوزير ليس هذا الجرح بشيء فعاود القتال فضرب فانشقت جوفه وخرج شيء من شحمه فحمل الى الوزير فلما رآه قال يا مولانا الوزير ارضيت هذا فضحك منه واضعف له ورتب له من يعالج جراحته الى ان برئ وتعذرت الاقوات في العسكر الا ان اللحم والفواكه والخضر كثيرة وكانت الغلات ببغداد كثيرة لان الوزير كان يفرقها في الجند عوض الدنانير فيبيعونها فنزلت الاسعار عندهم رخيصة الا ان اللحم والفاكهة والخضر قليل عندهم واشتد الحصار على اهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وعدم الميرة لاهلها وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين في القتال لاجل الخليفة والمسلمين وقيل لان نور الدين محمود بن زنكي وهو اخو قطب الدين صاحب الموصل الاكبر ارسل الى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتروا وقصروا ولم تزل الحرب في اكثر الايام وعمل السلطان محمد شاه اربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها الى السور ورحف وقاتلوا وفتح اهل بغداد ابواب البلد وقالوا اي حاجة بكم الى السلالم هذه الابواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على ان يقربوها فبينما الامر على ذلك اذ وصل الخبر الى السلطان محمد ان اخاه ملكشاه وايلدكز صاحب بلاد اران ومعهما الملك ارسلان ابن الملك طغرل بن محمد وهو ابن امرأة ايلدكز قد دخلوا همذان واستولوا عليها واخذوا اهل الامراء الذين مع محمد شاه واموالهم فلما سمع محمد شاه ذلك جد في القتال لعله يبلغ منها غرضا فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همذان في الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وعاد زين الدين الى الموصل وتفرق ذلك الجمع على عزم العود اذا فرغ محمد شاه من اصلاح بلاده فلم يعودوا يجتمعون وفي كثرة حروبهم لم يقتل بينهم الا نفر يسير وانما الجراح كانت كثيرة ولما ساروا نهبوا بعقوبا وغيرها من طريق خراسان ولما رحل العسكر عن بغداد اصاب اهلها امراض شديدة حادة وموت كثير للشدة التي مرت بهم واما ملكشاه وايلدكز ومن معهما فانهم ساروا من همذان الى الري فخرج اليهم اينانج صاحبها وقاتلهم فهزموه فارسل الملك محمد الامير سقمش بن قيماز الحرامي في عسكر نجدة لاينانج فسار سقمش وكان ايلدكز وملكشاه ومن معهما قد عادوا من الري يريدون محاصرة الخليفة فلقيهم سقمش وقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره واثقاله فاحتاج الملك محمد الى الاسراع فسار فلما بلغ حلوان بلغه ان ايلدكز بالدينور واتاه رسول من نائبه اينانج انه دخل همذان واعاد الخطبة له فيها فقويت نفسه وهرب شملة صاحب خوزستان الى بلاده وتفرق اكثر جمع ايلدكز وملكشاه وبقيا في خمسة آلاف فارس فعادا الى بلادهما بنية الهارب ولما دخل محمد شاه همذان اراد التجهز لقصد بلاد ايلدكز فابتدأ به مرض السل وبقي به الى ان مات

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في ربيع الاول اطلق ابو الوليد البدر ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت ولما قدم بغداد خرج اخوه والموكب يتلقونه وكان يوما مشهودا وكان مقامه في الحبس يزيد على ثلاث سنين وفيها احترقت بغداد في ربيع الآخر وكثر الحريق بها واحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن جردة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب

ان السلامة ان لو الهمت
نطقت
يارب انك لي من سيفه جار
يا ايها الملك الميمون طائره
ومن نداه كفيض اليم زخار
ان الزمان عروس ما لها
ابدا
سوى خصالك مشاط وعطار
الجود منك في وجه الندى
كاس
ثم وفي غرة الاقبال ادبار
ترمي العدى من بنات الكيد
صائبة
وان رموا اخطأت المرمى اوتار
كان ما قدروا من امن نابلة
وما رموا بشبه وحي واقدار
تحمي وتلتهب الاوتار راصية
كانما حت الاوتار اوتار
لازلت في نعم تفضي الى نعم
ما طاف حول فناء البيت
عمار
عمته بسرور غير منقرض
حتى يفوق خدود الارض
انوار
ولابي بكر محمد بن العباس
الطبري المعروف بالخوارزمي
من قصيدة يمدح بها
وقت مقامه بنيسابور
قامت تودعني بالادمع
السجم
والصمت بين يديها وبين فم
البين اخرسها او البين انطقها
وهذه حالة في الناس كلهم
قد طالما انرمتنا
السيوف فلا
تعارينا يجيش الورد
واعنم

في هذه السنة استعمل عبد المؤمن اولاده على البلاد فاستعمل ولده ابا محمد عبد الله على بجاية واعمالها واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على فاس واعمالها وولى ابنه ابا سعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة وكذلك غيرهم واقد سلك في استعمالهم طريقا عجيبا وذلك انه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من اصحاب المهدى محمد بن تومرت وكان يتعذر عليه ان يعزلهم فاخذ اولادهم وتركهم عنده يشتغلون في العلوم فلما مهروا فيها وصاروا يقتدى بهم قال لآبائهم انى اريد ان تكونوا عندى استعين بكم على ما أنا بصدده ويكون اولادكم في الاعمال لانهم علماء فقهاء فاجابوا الى ذلك وهم فرحون مسرورون فولى اولادهم ثم وضع عليهم بعضهم من يعتمد عليه فقال انى ارى امرا عظيما قد فعلتموه فارقتم فيه الحزم والادب فقالوا وما هو فقال اولادكم في الاعمال واولاد امير المؤمنين ليس لهم منها شئ مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة وانى اخاف ان ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلموا اصدق القائل فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا نحب ان تستعمل على البلاد السادة اولادك فقال لا افعل فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم اياه

(ذكر حصر السلطان محمد بغداد)

في هذه السنة في ذى الحجة حصر السلطان محمد بغداد وسبب ذلك ان السلطان محمد بن محمود كان قد ارسل الى الخليفة يطلب ان يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من اجابته الى ذلك فسار من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق ووعده اتابك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بارسال العساكر اليه نجدة له على حصر بغداد فقدم العراق في ذى الحجة سنة احدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد وارسل الخليفة يجمع العساكر فاقبل خطلبرس في عسكر واسط ورحل مهلهل الى الحلة فاخذها واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بامر الحصار وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج ونودى منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين ان لا يقيم احد بالجانب الغربى فاجفل الناس واهل السواد ونقلت الاموال الى حريم دار الخلافة وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمى ونهب اصحابه ما وجدوا وحرب اصحاب محمد شاه نهر القلابين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا واما أهل الكرخ واهل باب البصرة فانهم خرجوا الى عسكر محمد وكسبوا معهم اموالا كثيرة وعبر السلطان محمد فوق حراقة الى الجانب الغربى ونهبت اوبا واتصل به زين الدين هناك وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان في العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين على ووقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب الى ناحية التاج فعبر اليهم عامة بغداد فقاتلوهم ورموهم بالنفط وغيره ثم جرى بينهم عدة حروب وفي ثالث صفر عاودا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفي السفن فقاتلوا وكان يوما مشهودا ولم تزل الحرب بينهم كل وقت وعمل الجسر على دجلة وعبر عليه أكثر العسكر الى الجانب الشرقى وصار القتال في الجانبين وبقى زين الدين في الجانب الغربى وامر الخليفة فنودى كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح انسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير فاتفق ان بعض العامة

له المعالى معاهو الندى شهب
والجد سارية والجود امطار
علاه كالليل والاصباح همته
وثقله الجود والآمال سمار
تراه تنهزم الاموال عن يده
مثل انهزام العدى عنه اذا ثاروا
ويجده الدهر ناص لهمته
والجود بازله والمجد احرار
سماؤه بوقاح السيف مترج
وعدله في حزون البأس سيار
ندى يديه الى الاردوس منتسب
ووقع سطوته في سوء النار
يوم الهياج صفاح البيض طالته
والجو من لهب الطعنات صهار
يغامس الحرب والارواح راقية
الى التراقى وطرف الموت نظار
يرش من دفع الاعناق قسطلها
ذنتها بحوامى الخيل ثوار
اذرت انجم الافق لسطوته
اذ الرماح من الارواح تمتار
فهن في ذمة الاضواء آنسة
وهن من طعمة الظلماء نفار
المشترى بينها في النصر ناطقة
يبغى رضاه وللمريخ زنار
فتة روعته امر بعسطلة
يدور على المحظور ديار
افاص على الغالماء هيبته
صر سقا ارا الباس صرار

الآن اذ غدت الدنيا قميصه * وقابلته صبا أوجه النعم ترنو اليه فتخفى شخص منه بطن راحته وتغضي طرف حذائم

اولاد اخيه على اولاده وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلا منهما على اخيه فكتب سلطان الى اخيه مرشد ابيات شعر يعاتبه على اشياء بلغته عنه فاجابه بشعر في معناه رأيت اثبات ما تمس الحاجة اليه منه وهي هذه الأبيات

قلب سلوم أبت في الظلم الا تماديا * وفي الصد والهجران الا تماليا
شكت هجرنا والذنب فيه اليها * فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما * عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى القلى * وهيهات ان أمسي لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها * وان هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما اتاني من قريضك جوهر * جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لانه * تولى برغمي حين ولى شبابيا
واين من المشتاق لفظا منسقا * اذا رمت ادنى القول منه عصانيا
وقلت أخي يرعى بني واسرتي * ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
ويجزيهم مالم اكافه فعله * لنفسي فقد اعددته من تراثيا
فمالك لما ان حنى الدهر صعدتي * وثلم مني صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة * وقربك مني جفوة وتناسيا
واصبحت صفر الكف مما رجوته * أرى اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على أنني ما حلت عما عهدته * ولا غيرت هذي السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فانني * أراك يميني والانام شماليا
تحمل بها عذراء لو قرنت بها * نجوم السماء لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها * كما زان منظوم اللآلي الغواليا
وعش بانيا للمجد ما كان واهيا * مشيدا من الاحسان ما كان هاويا

وكان الامر بينهما فيه تماسك فلما توفي مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة قلب اخوه لاولاده ظهر المجن وبادأهم بما يسوءهم وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد اكثرهم نور الدين وشكوا اليه ما قواهم عمهم فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده ولا الاخذ بثارهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج وخوفه ان يسلم شيزر الى الفرنج ثم توفي سلطان وولي بعده اولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد حنقه عليهم وانتظر فرصة تمكنه فلما خربت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينج من بني منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم اجمعين ان صاحبها منهم كان قد ختن ولدا له وعمل دعوة للناس واحضر جميع بني منقذ عنده في داره وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه واذا كان في مجلس اقيم الفرس على بابه وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلا كان اولهم فقتله وامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ولم ينج منها الا اليسير فبادر اليها بعض امراء نور الدين وكان بالقرب منها فصعد اليها وتسلمها نور الدين منه فملكها وعمر اسوارها ودورها واعادها جديدة

اذا ادعت خوفه ذاقا نبوت قدما
والسمر يذهب بين الساق والقدم
سرى تقدم الآمال وتحمدها
كذا يكون رجوع الآبق السدم
وله من قصيدة أخرى يقول في نسيبها
شموس لهن البيت والخدر مغرب
فطالعها الدين والهجر غارب
ولكنه شمس المعالي خلافها
مشارقه ليست لهن مغارب
وما القبول الشمس الا وقد رأوا
بانك شمس والملوك كواكب
أقول لزوار الامير تربعوا
فمن زاره من راجل فهو راكب
وان زاره الفرسان كنت كفيلهم
بأن يرجعوا والخيل فيهم جنائب
ألا بلغا عني الامير رسالة
تدل على الحي على الدهر عاتب
الى كم يحل المرء منك بلدة
بها منبر فيه لغيرك خاطب
عليك بهذا السيف فاقض ديونه
فللسيف دين عند كفك واجب
ولا تقعدن تغضى الجفون على القذى
وفي الارض من كوكب وريح وصاحبه

الاريج وسوق السلطان وغير ذلك وفيها فى شوال قصد الاسماعيلية طبس بخراسان فاوقعوا بها وقعة عظيمة واسروا جماعة من اعيان دولة السلطان ونهبوا اولادهم ودوابهم وقتلوا منهم وفيها فى ذى القعدة توفى شيخ الاسلام ابو المعالى الحسن بن عبد الله بن احمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنيسابور وهو من أعيان الأفاضل وفى هذه السنة توفى مريد الدين بن بسان رئيس آمد والحاكم فيها على صاحبها وولى ما كان اليه بعده ابنه كمال الدين ابو القاسم وتوفى أبو الحسن على بن الحسين الغزنوى الواعظ المشهور ببغداد وكان قدم اليها سنة ست عشرة وخمسمائة وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء الا ان المقتفى اعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لاقبال السلطان عليه وكان موته فى المحرم وتوفى ابو الحسن ابن الخل الفقيه الشافعى شيخ الشافعية ببغداد وكان يؤم بالمدينة فى الصلاة وتوفى ابن الآمدى الشاعر وهو من اهل النيل من اعيان الشعراء فى طبقة الغزى والارجانى وكان عمره قد زاد على تسعين سنة وفيها قتل مظفر بن حماد بن ابى الخير صاحب البطيحة قتله نفيس بن فضل بن أبى الخير فى الحمام وولى بعده وفيها توفى الواوا الحلبى الشاعر المشهور وفيها فى رمضان توفى الحكيم ابو جعفر بن محمد البخارى باسفراين وكان عالما بعلوم الحكماء الاوائل

(ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الزلازل بالشام)

فى هذه السنة فى رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية خربت كثيرا من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى كثرة فخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحمص وحصن الاكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية واما ما لم يكثر فيه الخراب ولكن خرب اكثره فجميع الشام وتهدمت اسوار البلاد والقلاع فقام نور الدين محمود فى ذلك المقام المرضى وخاف على بلاد الاسلام من الفرنج حيث خربت الاسوار فجمع عساكره واقام باطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من اسوار البلاد واما كثرة القتلى فيكفى ان معلما كان بالمدينة وهى مدينة حماة ذكر عنه انه فارق المكتب لمهم عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت احد يسأل عن صبى كان له بالمكتب

(ذكر ملك نور الدين حصن شيزر)

نبتدئ بذكر هذا الحصن ولمن كان قبل ان يملكه نور الدين محمود بن زنكى فنقول هذا الحصن قريب من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك اليه الا من طريق واحدة وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من ايام صالح بن مرداس الى ان انتهى الامر الى أبى المرهف نصر بن على بن نصر بن منقذ بعد ابيه أبى الحسن على وكان بيده الى ان مات سنة احدى وتسعين واربعمائة وكان شجاعا كريما فلما حضره الموت استخلف اخاه أبا سلامة مرشد بن على فقال والله لا وليته ولاخرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن وهو والد مؤيد الدولة اسامة بن منقذ فولاها اخاه الاصغر سلطان بن على واصطحبا اجمل صحبة مدة من الزمان فاولد مرشد عدة اولاد ذكور وكبروا وسادوا منهم عز الدولة أبو الحسن على ومؤيد الدولة اسامة وغيرهما ولم يولد لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر فجاءه اولاد ذكور فحسد أخاه على ذلك وخاف

وقد سلامت ايام الاتباع فلا
تلق سوالفنا فى ذمة اللجم
لم يبق فى الارض لى شئ
اهاب له
فهول اهاب انكسار الجفن
ذى السقم
استغفر الله من قولى غلطت
بلى
اهاب شمس المعالى امة الامم
كان لحظك من سيف الامير
ومن
حتم القضاء ومن عزمى ومن
كامى
غضى جفونك عن رجمة الدمى
فان سفرت فقد حاوت
سفك دمى
وان دعاك ابو يحيى لنصرته
على يوما أبدى الثغر وابتسم
قال الامير لاخلاق الكرام
قفى
بحيث انت فما زادت على نعم
وقال للعلم والآداب لا ترد
الاعلى فما فاها بلا ولم
القائل القول لو فاه الزمان به
صارت لياليه اياما بلا ظلم
والفاعل الفعلة الغراء
لو منحت
بالنار لم تكن النيران من حمم
لا تحسبن بمضوب المال فى يده
فقد تحف ضروع العارض
السجم
قد يحجز البحر بعد المد زخرفه
ويبزل الجدب وكر الاجدل
القطم
ولا يغرنك ان الدهر حاربه
قد يعمد السيف يوم الروع
بالبهم

على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقاً فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من ينجدهما من ان يصل اليهما فجمع الادفونش ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين فى اثنى عشر ألف فارس من الفرنج ومعه محمد بن سعد بن مردنيش فى ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ودفع المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين فى عوده قبل ان يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة اشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فاجابهم أبو سعيد اليه وأمنهم وتسلم الحصن ورحل الفرنج فى البحر عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين

(ذكر غزو صاحب طبرستان الاسماعيلية)

فى هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن على بن شهريار عسكره وسار ولم يعلم احد اين يريد مقصده وسلك المضايق وبعد السير الى بلد ألموت وهى للاسماعيلية فاغار عليها واحرق القرى والسواد وقتل فاكثر وغنم اموالهم وسبى نساءهم واسترق ابناءهم فباعهم فى السوق وعاد سالما غانما وانخذل الاسماعيلية ودخل عليهم من الوهن مالم يصابوا بمثله وخرب من بلادهم مالا يعمر فى السنين الكثيرة

(ذكر أخذ حجاج خراسان)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار حجاج خراسان فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان فاخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم وسلم الباقون وساروا من موضعهم فبينما هم سائرون اذ طلع عليهم الاسماعيلية فقاتلهم الحجاج قتالا عظيما وصبروا صبرا عظيما فقتل أميرهم فانخذلوا وألقوا بأيديهم واستسلموا وطلبوا الامان وألقوا اسلحتهم مستأمنين فأخذهم الاسماعيلية وقتلوهم ولم يبقوا منهم الا شرذمة يسيرة وقتل فيهم من الائمة والعلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الاسلام وخصت خراسان ولم يبق بلد الا وفيه المأتم فلما كان الغد طاف شيخ فى القتلى والجرحى ينادى يا مسلمون يا حجاج ذهب الملاحدة وأنا رجل مسلم فمن أراد الماء سقيته فمن كلمه قتله واجهز عليه فهلكوا اجمعون الا من سلم وولى هاربا وقليل ما هم

(ذكر الحرب بين المؤيد والامير ايثاق)

قد ذكرنا تقدم الامير اى ابه مملوك السلطان سنجر وتقدمه على عساكر خراسان فحسده جماعة من الامراء منهم الامير ايثاق وهو من الامراء السنجرية وانصرف عنه وكان تارة يقصد خوارزمشاه وتارة مازندران وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ويبطن المخالفة فلما كان الآن فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد وكل منحرف عن المؤيد وقصد خراسان وأقام بنواحى نسا وابيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها وانتقل المؤيد من المكاتبة الى المكاشفة وسار اليه جريدة فاغار عليه وأوقع به فتفرق عنه جموعه ونجا بحشاشة نفسه وغنم المؤيد وعسكره كل ما لايثاق ومضى منهزما الى مازندران وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه على تنازع على الملك وقد

الى حتفه والقود الخوف معطب
يقض العدى اطراقه قبل عزمه
ويطرقهم جهرا ولم يتاهب
وقيها يصف الزالات
وزرق على مرتقل الذاهوت
تلاحظ أعقاب الشهاب المذنب
ترفعن عن طيش الرماح وزلة السهام وتقصير الحسام المجرب
يحزن ظباة البيض ثم وصلنها
اليمين من سمر الرماح با كعب
فقلن منال السهم من متبعد
وقس مقام السيف من متقرب
فتى مالاقت همتاه بصدره
ولا يشهد الجلى برأى مشعب
له الهمة العلياء والمنصب الذى
تتيه الجوزاء ألحاظ منصب
اذا بعض أطراف الرجال تقاصرت
عن المجد الفوه كريم التقلب
ويذهب من عزوجد ومفخر
ا ثار مس داويج فى كل مذهب
يراسهم من وشكم ينكب
ومن سالف الاصبهذين كوكب
وما خلصت للمرء سماة والد
اذا لم يقابله بخال مهذب
كلا طرفيه يرتبح الطرف
ناسئا
اذا رامه عن كل عرق مجيب
يعوزمه الى اله شيرجنانه
ويعلو الربا عن تاويسائه
بالاب

(ذكر وفاة الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة)

كانت الجزيرة لأتابك زنكي فلما قتل سنة احدى وأربعين اقطعها ابنه سيف الدين غازي للأمير أبي بكر الدبيسي وكان من أكابر أمراء والده فبقيت بيده الى الآن وتمكن منها وصار يعصي ثم تعذر على قطب الدين أخذها منه فمات في ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين ولم يخلف ولدا فاستولى عليها مملوك له اسمه غلبك وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة أشهر ثم تسلمها من غلبك في صفر من سنة ثلاث وخمسين وأعطاه عوضها اقطاعا كثيرة

(ذكر وفاة السلطان سنجر)

في هذه السنة في ربيع الأول توفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان أبو الحرث أصابه قولنج ثم بعده اسهال فمات منه ومولده بسنجار من ديار الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وسكن خراسان واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد الى محمد بالسلطنة وجعل سنجرا ولي عهده فلما مات محمد خوطب سنجر بالسلطان واستقام أمره وأطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وجده متراقيا الى أن أسره الغز على ما ذكرناه ثم انه خلص بعد مدة وجمع اليه أطرافه وكان يعود اليه ملكه فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد في زمانه آمنة ولما مات دفن في قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة ولما وصل خبر موته الى بغداد قطعت خطبته ولم يجلس له في الديوان للعزاء ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود ابن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر فأقام بها خائفا من الغز فقصد جرجان يستظهر بها وعاد الغز الى مرو وخراسان واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أي أبه المؤيد فاستولى على طرف من خراسان وبقيت خراسان على هذا الاختلال الى سنة أربع وخمسين وراسل الغز الملك محمودا على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين وسألوه أن يحضر عندهم ليملكوه عليهم فلم يثق اليهم وخافهم على نفسه فأرسل ابنه اليهم فأطاعوه مدة ثم لحق بهم الملك محمود على ما نذكره سنة ثلاث وخمسين

(ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملثمين بالأندلس)

في هذه السنة انقرضت دولة الملثمين بالأندلس وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المرية من الفرنج وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر الى مالقة واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني صاحب غرناطة أن يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة بأهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه الى مراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم الا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهي بأيدي الفرنج أخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا وجاء الفرنج الى حصنها فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سورا

تعرفك هذا الدهر قارمة
يعترم
فلن يوقظ القرام الا المطالب
وأنت ابن عم السيف بل أنت عمه
وكيف تخاف الاقربين الاقارب
أليس أبوكم وشمكير وجده
زياد ومرداويج عم مناسب
تحركتنا أمالوا ومنبر
وأما حسام كالعقيقة قاضب
وللقاضي أبي الحسين علي
ابن عبد العزيز الجرجاني
فيه من قصيدة أولها
أسرى خيال الهاجر المتجنب
ويجري دموع الزائر المتطرب
سألتك بالدهر الذي صرت بعده
فذي ناظري من بعد أن كنت ناعبي
أعف على عين اذا ما وعدتها
يقرب غالت الدموع تأهبي
ولما تداعت للغروب شموسهم
وقفنا لتوديع الفريق المغرب
تلقين أطراف السجوف بمشرق
لهن وأعطاف الخدور بمغرب
فما سرت الا بين دمع مضيع
ولا ثبت الا فوق قلب معذب
كأن فؤادي قرن قابوس راعه
تلاعبه بالقنا المتأشب
همام يراه المال أسرع حادث

احمد بن بختيار بن علي الماندائي الواسطي قاضيها وكان فقيها عالما وتوفي في ربيع الآخر توفي القاضي برهان الدين ابو القاسم منصور بن أبي سعد محمد بن أبي نصر احمد الصاعدي قاضي نيسابور وكان من أئمة الفقهاء الحنفية

(ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين سنقر وارغش)

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين سنقر الهمذاني وارغش المسترشدي وسبب ذلك ان سنقر الهمذاني كان قد نهب سواد بغداد وطريق خراسان وكثر عبثه فخرج الخليفة المقتفي لامر الله في جمادى الاولى بنفسه يطلبه فلما وصل الى بلد اللحف قال له الامير خطلوبرس انا اكفيك هذا المهم وكان بينه وبين سنقر مودة فركب اليه وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لاجل خروجه عن طاعة الخليفة فاجاب سنقر الى الطاعة وعاد خطلوبرس واصلح حاله فاقطعه بلد اللحف والامير ارغش المسترشدي فلما توجها الى اللحف جرى بينهما منازعة فاراد سنقر قبض ارغش فرآه محترزا فصار باوا قتتلا قتالا شديدا وغدر بارغش اصحابه فعاد منهزما الى بغداد وانفرد سنقر ببلد اللحف وخطب فيه للملك محمد فسير من بغداد عسكر الخليفة مقدمهم خطلوبرس فجرت بينهما حرب شديدة انهزم في آخرها سنقر وقتلت رجاله ونهبت امواله التي في العسكر وسار هو الى قلعة الماهكي وأخذ ما كان له فيها واستخلف بها بعض غلمانه وسار هو الى همذان فلم يلتفت اليه الملك محمد شاه فعاد الى قلعة الماهكي

(ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطاني)

في هذه السنة أيضا كان قتال بين شملة صاحب خوزستان ومعه ابن مكلبة وبين قايماز السلطاني في ناحية بادرايا جمعا عسكرهما وسارا اليه فاتاه الخبر بذلك وهو يشرب فلم يحفل بذلك وركب اليهم في نحو ثلثمائة فارس وكان معجبا بنفسه فحمل عليهم واختلط بهم فاستدوا به وقاتل اشد قتال فانهزم اصحابه وأخذ هو أسيرا فتسلمه انسان تركماني كان له عليه دم لانه قتل ابا التركماني فقتله بابيه وارسل براسه الى محمد شاه وأرسل الخليفة عسكرا لقتال شملة ومن معه فانهزموا من بين أيديهم ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد

(ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان)

كان الاتراك الغزية قد أقاموا ببلخ واستوطنوها وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان وكان المتولي لامور دولته المؤيد اى أبه وعن رأيه يصدر محمود فلما كان هذه السنة في شعبان سار الغز من بلخ الى مرو وكان السلطان محمود بسرخس في العساكر فسار المؤيد في طائفة من العسكر اليهم فاوقع بطائفة منهم وظفر بهم ولم يزل يتبعهم الى أن دخلوا الى مرو أوائل رمضان وغنم من أموالهم وقتل كثيرا وعاد الى سرخس فاتفق هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم فجمعا العساكر وحشدا وسارا الى سرقانة سادس شوال من هذه السنة وجرت بينهم حرب طال مداها فبقوا يقتتلون من يوم الاثنين سابع شوال الى نصف الليل من ليلة الاربعاء الحادي عشر من الشهر تواقعوا واقعة ووقعات متتابعة ولم يكن بينهما راحة ولا نزول الا لما لا بد منه انهزم الغز

نجم الدولة وبيته لو صادفت منه حكمها في الاشفاق على دولته * والانتداب لنصرته * لكان أحق الناس بسياسة أجناده * وزعامة ممالكه وبلاده * وانه الآن قد سلك طريق الخدمه * وبات جانب التهمه * وحافظ على حرمة العصمه * لم يعدم ما يراه من ترتيب وترحيب وتنويل وتخويل وتفخيم وتقديم وأذن له في الانتقال الى قومس الى ان يدبر أمره بمقتضاه فارتاح لما شامه من تلك الحقيقه * ووثق به على الحقيقه * وسار نحو سارية ثم قرض الجادة ذات اليسار وركب ذات اليمين على طراشك وأبادان حتى اذا حاذى رقعة قومس أذاع في أصحابه رأيه في طاعة أبي طالب وانه ما عاش رقيق خدمته * ونسيم دعوته * فاختلفت عليه كلمتهم حين أصحر تدبيره * وباح بسر ضميره * ففريق رجع الى الاستنداريه وفريق الى جرجان * في طلب الامان * ورحل أصرفي الباقين حتى اناخ بقومس وسال أبا علي بن حمويه تمكينه من بعض القلاع ليحصن فيه عياله وأثقاله فمكنه من حصار سمنان فاستوطنه واودعه ماله ومن معه

قوى رستم فلما وصل ايناق الى مازندران قتل عليا وحمل رأسه الى أخيه رستم فعظم ذلك على رستم واشتد واستشاط غضبا وقال آكل لحمى ولا أطعمه غيرى ولم يزل ايناق يتردد فى خراسان بالنهب والغارة لاسيما مدينة اسفراين فانه أكثر من قصدها حتى خربت فراسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد يدعوانه الى الموافقة فامتنع فسارا اليه فى العساكر فلما قارباه أتاهما كثير من عسكره فهرب من بين أيديهما الى طبرستان فى صفر سنة ثلاث وخمسين فتبعاه فى عساكرهما فارسل شاه مازندران يطلب الصلح فأجاباه واصطلحوا وحمل شاه مازندران أموالا جليلة وهدايا نفيسة وسير ايناق ابنه رهينة عما ادعته

(ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزى)

كان سنقر العزيزى من امراء السلطان سنجر وممن يناوى أيضا المؤيد اى ابه فلما اشتغل المؤيد بحرب ايناق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد الى هراة ودخلها وبها جماعة من الاتراك فتحصن بهم فاشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغورية فلم يفعل واستبد بنفسه منفردا لانه رأى اختلاف الامراء على السلطان محمود بن محمد فطمع وحدثت نفسه بالقوة فقصده المؤيد الى هراة فلما وصل اليها قاتل من بها شيأ من قتال ثم ان الاتراك مالوا الى المؤيد وأطاعوه وانقطع خبر سنقر العزيزى من ذلك الوقت ولم يعلم ما كان منه فقيل انه سقط عن فرسه فمات وقيل بل اغتاله الاتراك فقتلوه وتقدم السلطان محمود الى ولاية هراة فى عساكره وجنوده والتحق بجماعة من عسكر سنقر بالامير ايناق وأغاروا على طوس وقراها فبطلت الزروع والحرث واستولى الخراب على البلاد وعمت الفتن أطراف خراسان وأصابهم العين فانهم كانوا أيام السلطان سنجر فى أرغد عيش وامنه وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر وشوائب وآفات وقلما يخلص شرها من خير فنسأل الله أن يحسن لنا العون والعقبى بمحمد وآله

(ذكر ملك نور الدين بعلبك)

فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها وكانت بيد انسان يقال له ضحاك البقاعى منسوب الى بقاع بعلبك وكان قد ولاه اياها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف الحال معه الى الآن فملكها واستولى عليها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قلع الخليفة المقتفى لامر الله باب الكعبة وعمل عوضه بابا مصفحا بالفضة المذهبة وعمل لنفسه من الباب الاول تابوتا يدفن فيه اذا مات وفيها توفى محمد بن عبد اللطيف بن محمد ابن ثابت أبو بكر الخجندى رئيس أصحاب الشافعى باصفهان وسمع الحديث بها من أبى على الحداد وكان صدرا مقدما عند السلاطين وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض ووقعت لموته فتنة عظيمة باصفهان وقتل فيها خلق كثير وفيها كان بخراسان غلاء شديد أكلت فيه سائر الدواب حتى الناس وكان بنيسابور طباخ وذبح انسانا علويا وطبخه وباعه فى الطبيخ ثم ظهر عليه انه فعل ذلك فقتل وأسفر الغلاء وصلحت أحوال الناس وفيها توفى القاضى أبو العباس

ولما انجلت الهزيمة بالقوم الى الرى على حالة الانكسار * وذلة الافتسار * ونسبة الذل والاسار * قطع عليهم سياط العذل والتعنيف * ومالت عيونهم من افتنان التعيير والتشوير * وكان أبو على الحسن بن أحمد بن حمويه على الوزارة فاختار عشرة آلاف رجل من جلة الديلم وقتالة الاتراك ونخب العرب وافراد الاكراد وسار بهم فى منوجهر بن قابوس وبيستون بن بيجاسب وكاكى بن فيروزان وشاموج ابن أخت عظيم الديلم وموسى الحاجب وشابور ابن كردويه وأبى العباس ابن ساقى وعبد الملك بن ماكان وهؤلاء زنوت الجيل والديلم حتى أطل شهريار وبلغ شمس المعالى قابوس اقباله فاستضم أطرافه واستظهر بشهريار بن شروين استعدادا لمواقعته * وتنجز الوعد الله فى نصرته * وتثبيت وطأته * واستتمام ما أعاده الله اليه من نعمته * وحاذر أبو على بن حمويه مالاقاه نصر بن الحسن ابن فيروزان شمس المعالى قابوس بن وشمكير وانقطاعه الى جانبه فواصله بكتبه فانثاق عقدته * فاتلا فى ذروته * ناخلا بصره فى عمره * وملقيا اليه أن القرابة الواشجة بين أبى طالب بن

ذنب بارهو والعزي فوصلا الى جدار قرية فيها بستانين وقد نقال للفارس المال فيها واصعد
الجدار ونزل من ظهره ومضى هاربا فرأى الفرقد فامن الارض فدخل قرية فعرفه طحان فيها
فاعلم زعيم القرية به وطلب منه مركبا فاتاه بما اراد واعانه على الوصول الى نيسابور فوصل اليها
واجتمعت العساكر وقوي امره وعاد الى حاله وأحسن الى الطحان وبالغ في الاحسان اليه

(ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم الى نيسابور)

لما عاد الغز مع الملك محمد بن محمود الخان الى نسا وابيورد كما ذكرناه خرج والده السلطان محمود الخان وكان مع الذين معه من العساكر الخراسانية فاجتمع بهم واتفقت الكلمة على طاعته وأراد عمارة البلاد وحفظها فلم يقدر على ذلك فلما اجتمعوا ساروا الى نيسابور وبها المؤيد اي ابه في شعبان فلما سمع بقربهم منه رحل عنها الى خواف في سادس عشره ووصلوا اليها في الحادي والعشرين منه ونزلوا بها وخافهم الناس خوفا عظيما فلم يفعلوا بهم شيئا وساروا عنها في السادس والعشرين منه الى سرخس ومرو وكان بها الفقيه المؤيد ابن الحسين الموفق رئيس الشافعية وله بيت قديم وهو من أحفاد الامام أبي سهل الصعلوكي وله مصاهرة الى بيت أبي المعالي الجويني وهو المقدم في البلد والمشار اليه وله من الاتباع ما لا يحصى فاتفق ان بعض اصحابه قتل انسانا من الشافعية اسمه ابو الفتوح الفستقاني خطأ وهذا ابو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد ابن الحسن الحسيني وكان هذا النقيب هو الحاكم في هذه المدينة نيسابور فغضب من ذلك وأرسل الى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه ويتهدده ان لم يفعل فامتنع المؤيد من تسليمه وقال لا مدخل للشحنة مع أصحابنا انما حكمك على الطائفة العلويين فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعية فاجتمعوا له وقاتلوه فقتل منهم جماعة ثم ان النقيب أحرق سوق العطارين وأحرقوا سكة معاذ أيضا وسكة باغ طاهر ودار امام الحرمين ابي المعالي الجويني وكان الفقيه المؤيد الشافعي بها الصهر الذي بينهم وعظمت المصيبة على كافة الناس وجمع بعد ذلك المؤيد الفقيه جموعا من طوس واسفراين وجوين وغيرهم وقتلوا واحدا من اتباع النقيب زيد يعرف بابن الحاجي الاشناني فاهم العلوية ومن معهم فاقتتلوا ثامن عشر شوال من سنة اربع وخمسين وقامت الحرب على ساق وأحرقت المدارس والاسواق والمساجد وكثر القتل في الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعي في شرذمة الى قلعة فرخك وقصر باع الشافعية عن القتال ثم انتقل المؤيد الى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد وكثر القتل فيه

(ذكر حصر صاحب ستلان ترمذ وعوده عنه)

في هذه السنة في رجب سار الملك أبو شجاع فرخشاه وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور وقد تقدم ذكره أيام كسرى ابرويز الى ترمذ وحصرها وكان سبب ذلك انه كان في طاعة السلطان سنجر فلما خرج عليه الغز طلبه ليحضر معه حربهم فخرج بعسكره واظهر انه واصل فبقي عنده من العساكر اليه وأقام ينتظر ما يكون منهم فان ظفر سنجر قال له يلتحق بالحرب وان كان الظفر للغز قال لهم انما تأخرت شفقة وارادة نصرتكم فلما انهزم سنجر وكان ما ذكرناه دق الى

بالخفقه مؤثرين شرف المقام على شبع الطعام * ورد الشهادة على سد الجاعة * وأصاب الآخرين تلك الشدة فانقلبوا من القتال يقسو الداعي الى جانب محمد آباد الساعة في الاوقات من جهة جنانك قد ادركت عليهم الامطار حتى أعوزهم الاستبار * وماجت عليهم الارض بالطوفان فتساقطت الخيام * وساخت القوائم والاقدام * فعندها برز انصار أصحاب شمس المعالي اهل الحقائق من وراء الخنادق * وأججوا نار الوغى كضاربة القشاعم * وداهية الاراقم * وثبت بعضهم لبعض جلادا من مطلع الفلق * الى مسقط الشفق * فكم من متون الصوارم * في شؤون الجماجم * وذوابل الصعاد * في مناهل الاكباد * وورق الرايات * في سود المهجات * حتى اذا رأت قدم العصر * وأتى أمر الله بالنصر * حمل الجيل على الديلم حملة لم تستبق منهم طالب ثار * ولا نافخ نار * وأسر من عظمائهم اسفهسالار ابن كوتكيج وزرهسوا وبستان بن اشكاي وأخوه سيد بن سالار ومحمد بن رهودان واشتملت المعركة على ألف وثمانمائة

فيها ثلاث دفعات وعادوا الى الحرب فلما أسفر الصبح يوم الاربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة
عساكر خراسان وتفرقهم في البلاد وظفر الغز بهم وقتلوا فأكثروا فيهم وأما الجرحى والاسرى
فأكثر من ذلك وعاد المؤيد ومن سلم معه الى طوس فاستولى الغز على مرو وأحسنوا السيرة
وأكرموا العلماء والائمة مثل تاج الدين أبي سعد السمعاني وشيخ الاسلام علي البلخي وغيرهما
وأغاروا على سرخس وخربت القرى وجلى أهلها وقتل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف
قتيل ونهبوا طوس أيضا وقتلوا أهلها الا القليل وعادوا الى مرو وأما السلطان محمود
ابن محمد الخان والعساكر التي معه فلم يقدروا على المقام بخراسان من الغز فساروا الى جرجان
ينتظرون ما يكون من الغز فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغز الى
السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم فلم يثق بهم وخافهم على نفسه فأرسلوا
يطلبون منه ابنه جلال الدين محمدا ليملكوه أمرهم ويصدروا عن أمره ونهيه في قليل الامور
وكثيرها وترددت الرسل واستحلف السلطان محمود لولده بالعهود والمواثيق وتقرير القواعد
ثم سيره من جرجان الى خراسان فلما سمع الامراء الغزية بقدومه ساروا من مرو الى طريقه
فالتقوه بنيسابور وأكرموه وعظموه ودخل نيسابور واتصلت به العساكر الغزية واجتمعوا
عنده في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثم ان السلطان
محمودا سار من جرجان الى خراسان في الجيوش التي معه من الامراء السنجرية وتخلف عنه
المؤيد أي أبه فوصل الى حدود نسا وابيورد وأقطع نسا الامير اسمه عمر بن حمزة النسوي فقام
في حفظها المقام المرضي ومنع عنها أيدي المفسدين وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ
جمادى الآخرة من السنة ولما كان الغز بنيسابور هذه السنة أرسلوا الى طوس يدعونهم الى
الطاعة والموافقة فامتنع أهل راذكان من اجابتهم الى ذلك واغتروا بسور بلدهم وبما عندهم
من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة فقصدها طائفة من الغز وحصروهم
وملكوا البلد وقتلوا فيه ونهبوا وأكثروا ثم عادوا الى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد
ابن السلطان محمود الخان الى بيهق وحصروا سابزوار رابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع
وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين علي بن محمد بن يحيى
العلوي الحسيني نقيب العلويين واجتمعوا معه ورجعوا الى أمره ونهيه ووقفوا عند اشارته
وامتنعوا على الغز وحفظوا البلد منهم وصبروا على القتال فلما رأى الغز امتناعهم عليهم
وقوتهم أرسلوا اليهم يطلبون الصلح فاصطلحوا ولم يقتل من أهل سابزوار في تلك الحروب
غير رجل واحد ورحل الملك جلال الدين والغز عن سابزوار في السابع والعشرين من جمادى
الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة وساروا الى نسا وابيورد

(ذكر أسر المؤيد وخلاصه)

قد ذكرنا ان المؤيد أي أبه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان فلما كان
الآن سار من جرجان الى خراسان فنزل بقرية من قرى خبوشان اسمها زانك وبها حصن فسمع
الغز بوصوله الى زانك فساروا اليه وحصروه فيه فخرج منه هاربا فرآه واحد من الغز فأخذه
وعده بمال جزيل ان أطلقه فقال الغزي وأين المال فقال هو مودع في بعض هذه الجبال

وسار

ذلك من أبي علي شرة وعادية
وتسليه مجو ستارية فلما
اطلعا على أسرى منوجهر
ابن شمس المعالي قابوس
الى أبيه عائذا بالله من عقوقه
وكفران ما فرض الله عليه
من حقوقه * فارتاع أبو علي
من بيستون بن بيجاسب
لاشتراكهما في نسبة الجبل
وأرومة ذلك القبيل * واشفق
من صفوه القديم في خدمة
شمس المعالي وحشمه اياه على
معاودة سدته * واهتبال
العزة في مراجعة بجلته
واخذ بالحيطة في اعتقاله
ورده الى الري في وثاقه
وامتد الى ظاهر جرجان مما
يلي نهر الداعي فعسكر به
وتواصى أهل الحفاظ والحمية
والأنفة الابية من أصحاب
شمس المعالي قابوس بالترافد
في الجلاد والتساتل على
التقاتل والتماسك عند
التعارك وشدوا احيازيمهم
للقراع * وقرعوا ظنابيبهم
للمصاع * وناصبوهم الحرب
طرفي الصباح والرواح
لا يسأمون وقع الصفاح
ولا يألمون لذع الجراح * حتى
غبر شهران كيوم واحد
في مغامسة الكريهة * بين
تكلف وبديهة * ومس عسكر
جرجان ضيقة لانقطاع
الميرة والمواد عنهم فاستعصموا
بالقوس الشريفة * وتفنوا
طول تلك الايام بالبلاغ

كان بنواحي قهستان طائفة من التركمان فنزل اليهم جمع من الاسماعيلية من قلاعهم وهم ألف وسبعمائة فأوقعوا بالتركمان فلم يجدوا الرجال وكانوا قد فارقوا بيوتهم فنهبوا الاموال وأخذوا النساء والاطفال وأحرقوا مالم يقدروا على حمله وعاد التركمان فرأوا مافعل بهم فتبعوا اثر الاسماعيلية فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة فكبروا وحملوا عليهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا حتى أفنوهم قتلا وأسرا ولم ينج الا تسعة رجال لاغير

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة كثر فساد التركمان أصحاب ترجم الايواقي بالجبل فسير اليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدي فلما قاربهم اجتمع التركمان فالتقوا واقتتلوا هم ومنكبرس فانهزم التركمان أقبح هزيمة وقتل بعضهم وأسر بعض وحملت الرؤس والاسارى الى بغداد وفيها حج الناس فلما وصلوا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وصل اليهم الخبر ان العرب قد اجتمعت لتأخذهم فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب وفيها توفي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحراني ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته أيضا وكان يقرأ القرآن وهو والد ظهير الدين الذي حكم في دولة المستضيء بأمر الله على مانذكره ان شاء الله وفيها توفي أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب السجزي ببغداد وهو سجزي الاصل هروي المنشا وكان قدم الى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج فسمع الناس بها عليه صحيح البخاري وكان عالي الاسناد فتأخر لذلك عن الحج فلما كان هذه السنة عزم على الحج فمات وفيها توفي يحيى بن سلامة ابن الحسن بن محمد أبو الفضل الحصكفي الاديب بميافارقين وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة وكان يتشيع ومولده بطنزة فمن شعره

وخليع بت أعذله * ويرى عذلي من العبث
قلت ان الخمر مخبثة * قال حاشاها من الخبث
قلت فالارفاث تتبعها * قال طيب العيش في الرفث
قلت منها القيء قال أجل * شرفت عن مخرج الحدث
وسألوها فقلت متى * قال عند الكون في الجدث

(ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة)

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع افريقية قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة المهدية من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذكرنا أيضا سنة احدى وخمسين مافعله الفرنج بالمسلمين في زويلة المجاورة للمهدية من القتل والنهب فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وانه ليس في ملوك الاسلام من يقصدونه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال ابشروا لانصرنكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وأطلق لهم ألفي دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب ومايحتاج اليه العساكر في السفر وكتب الى

هو الغمام الذي تخشى صواعقه
قهرا ويرجو نداه العرب والعجم
هو الغيم وقد سارت مآثره
كأنه علياء من دنياه تنتظم
والارض من جوده والريح من يده
والروض من خلقه للخلق يبتسم
الله جارك يامن جار حضرته
يلقى السعود عليه الدهر تزدحم
ابشر فقد جاء نصر الله مؤتنفا
ومانثر الفتح منشور له علم
يامن اذا اعتصمت سبل الملوك به
تمسي وأصبح بالرحمن يعتصم
أبل الجديدين بالعمر الجديد ودم
للملك يخدمك التوفيق والقسم

وأنشدني الامير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي لنفسه

لاتعصين شمس العلا قابوسا
فمن عصى قابوس لاقى بوسا

نعم* ولما بلغ أبو علي بن حمويه قومس منهزما عن قتال المعركة أرسل الى نصر بن الحسن بن فيروزان يسأله تعجيل اللحاق به ليتعاضدا على لم شعث الهزيمة* وسد ماجاش من خطر تلك الكشفة الدهياء* ثم أقبلا

الا ان فسار الى ترمذ ايحصرها فجمع صاحبها فيروزشاه أحمد بن أبي بكر بن قايماز عسكره ولقيه ليمنعه فاقتتلوا فانهزم فيروزشاه ومضى منهزما لا يلوى على شئ فاصابه فى الطريق قولنج فمات منه *

(ذكر عود المؤيد الى نيسابور وتخريب ما بقى منها)

فى هذه السنة عاد المؤيد أى ابه الى نيسابور فى عساكره ومعه الامام المؤيد الموفق الشافعى الذى تقدم ذكر الفتنة بينه وبين فخر الدين نقيب العلويين وخروجه من نيسابور فلما خرج منها صار مع المؤيد وحضر مع المؤيد وحضر معه حصار نيسابور وتحصن النقيب العلوى بشارستان واشتد الخطب وطال الحرب وسفكت الدماء وهتكت الاستار وخربوا ما بقى من نيسابور من الدور وغيرها و بالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام فخربوا المدرسة الصندلية لاصحاب أبى حنيفة وخربوا غيرها وحصروا قهندز وهذه الفتنة استأصلت نيسابور ثم رحل المؤيد اى أبه عنها الى بيهق فى شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغى أن تكون هذه الحوادث العزيزة الواقعة فى سنة أربع وخمسين مذكورة فى سنتها وانما ذكرناها ههنا ليتلو بعضها بعضا فيكون أحسن لسياقتها

(ذكر ملك ملكشاه خوزستان)

فى هذه السنة ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلد خوزستان وأخذه من شملة التركمانى وسبب ذلك أن الملك محمد ابن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد كما ذكرناه مرض وبقى مريضا بهمذان ومضى أخوه ملكشاه الى قم وقاشان وما والاها فنهبها جميعها وصادر أهلها وجمع أموالا كثيرة فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولى عهده فى الملك فلم يفعل ومضى الى اصفهان فلما قاربها أرسل رسولا الى ابن الخجندى وأعيان البلد فى تسليم البلد اليه فامتنعوا من ذلك وقالوا الاخيك فى رقابنا يمين ولا نغدر به حينئذ شرع ملكشاه فى الفساد والمصادرة لاهل القرى فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان وعلى مقدمته كردبازو الخادم فتفرقت جموع ملكشاه عند فرسين فلحق به قويدان وكان قد فارق المقتفى لامر الله واتفق مع سنقر الهمذانى فلحقا كلاهما به وحسنا له قصد بغداد فسار عن بلد خوزستان الى واسط ونزل بالجانب الشرقى وهم على غاية الضر من الجوع فنهبوا القرى نهبا فاحشا فقطع بثق بتلك الناحية فغرق منهم كثير ونجا ملكشاه ومن سلم معه وسار والى خوزستان فمنعه شملة من العبور فراسله ليمكنه من العبور الى أخيه الملك محمد شاه فلم يجبه الى ذلك وكاتب حينئذ الاكراد الذين هناك واستدعاهم اليه فقربوا به ونزل اليه من تلك الجبال خلق كثير فاطاعوه فرحل ونزل على كرخايا وطلب من شملة الحرب فألان له شملة القول وقال انا احطب لك وأكون معك فلم يقبل منه فاضطر شملة الى الحرب فجمع عسكره وقصده فلقيه ملكشاه ومعه سنقر الهمذانى وقويدان وغيرهما من الامراء فاقتتلوا فانهزم شملة وقتل كثير من أصحابه وصعد الى قلعة دزدرين وملك ملكشاه البلاد وجبى الاموال الكثيرة واظهر العدل وتوجه الى أرض فارس

(ذكر الحرب بين التركمانى والاسماعيلية بخراسان)

وبدل من الجمع ثم الالوف * وسلطهم على الأرض السيوف * وأفاء الله على الجيل غنائم لا يستوعبها بيان * ولا تستقيها بنان * ثم رأى شمس المعالى أن يوعز بمداواة الجرحى * والفك عن الاسرى * وصرفهم وراءهم بالخلع والكرامات والاخبية والصلات * شكرا لنعمة الله فيما أولاه * واكبارا لقدر منته فى تحقيق ما رجاه * وأنشدنى أبو منصور الثعالبى أبياتا له فى ذكر هذا الفتح الذى نظمه الله فى سلك أيامه * والحق الذى أقره الله منه فى نصابه

الفتح منتظم والدهر مبتسم
وملك شمس المعالى كله نعم
والعدل منبسط والحق مرتجع
والشعب ملتئم والجور منصرم
ألقت مقاليدها الدنيا الى ملك
ما زال وقفا عليه الجود والكرم
شمس المعالى وغيث المشرقين ومن
به يتيمه العلا والملك والشيم
هو الامام هو القرم الهمام هو
السيد القمقام هو
الصمصام والقلم

المؤمن ومدينة طرابلس وجبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه أبا محمد عبد الله في جيش ففتح بلادا ثم ان أهل مدينة قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة الى طاعته وتسليم المدينة اليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبد المؤمن قد اشتبه عليك ليس هؤلاء أهل قفصة فقال له لم يشتبه علي قال له عبد المؤمن كيف يكون ذلك والمهدي يقول ان أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها ومع هذا فنقبل منهم ونكف عنهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا فأرسل اليهم طائفة من أصحابه ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها

ماهز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فوصله بألف دينار ولما كان في الثاني والعشرين من شعبان من السنة جاء اسطول صاحب صقلية في مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجيء الى المهدية فقدموا في التاريخ فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقي عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر فانهزمت شواني الفرنج وأعادوا القلوع وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني ولو كان معهم شواني لاخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد اسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر الى آخر شهر ذي الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياما بالكلام اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة ملكهم المهدية اثنتي عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسماها عبد المؤمن سنة الاخماس وأقام بالمهدية عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهدية أول صفر من السنة الى بلاد الغرب

(ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب)

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية وأراد العود الى الغرب جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بافريقية وقال لهم قد وجبت علينا نصرة الاسلام فان المشركين قد استفحل

حاله * وبلاء علية صفقة البائه * وأنهض عند ذلك رستم بن المرزبان خال مجد الدولة أبي طالب في ثلاثة آلاف رجل مدد النصر وعقدت له الاصبهبذية على جبل شهريار فنفذ لنصر الى دنباوند وساعده على صعوده * وامتلاك سدوده * وبدا الاصبهبذ شهريار الى سارية وبها منو جهر بن شمس المعالي معتصرا بعقوته * ومعتصما بمروته * فأصاب أهل قريم غلاء عم بلاؤه * وشمل الكافة داؤه * وسببه بسط الايدي بالغارات * وانتهاب ما أوعته الرعايا للارماق من الاقوات * فاضطر نصر الى الانصراف عن رستم بن المرزبان للقحط الشامل * والبلاء النازل * ولم ينهنه الاصبهبذ عند انقلابه أن ركض على رستم فأجلاه عنها الى حد الري مغلوبا * منكوبا * ومخذولا * مفلولا * فضفت له ناحيته * وانحسمت عنه شذاة نصر وعاديته * وكان ابو نصر محمود الحاجب قد ألجأه بعض المحن التي دهته الى خدمة شمس المعالي فهدله كنفه * وحكم في اصطناعه شرفه * ووالى الصنائع والرغائب اليه * وملأ من الاموال يديه * وسهل ركوب المطالب عليه * ثم

جميع نوابه في الغرب وكان قد ملك الى قريب تونس يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من
الغلات وان يترك في سنبله ويخزن في مواضعه وان يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع
ما أمرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل وطينوا عليها فصارت كأنها
تلال فلما كان في صفر من هذه السنة سار عن مراكش وكان أكثر أسفاره في صفر فسار
يطلب افريقية واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وبلغ
من حفظه العساكر انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلوا جميعهم
مع امام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن علي
ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وكان صاحب المهدية وافريقية وقد ذكرنا سبب
مصيره عند عبد المؤمن فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس في الرابع والعشرين من
جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل اسطوله في البحر في سبعين
شينيا وطريدة وشلندى فلما نازلها أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من
الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين
من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من
أعيان أهلها الى عبد المؤمن يسألونه الامان لاهل بلدهم فأجابهم الى الامان لهم في أنفسهم
وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم
وأهاليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وان يخرج صاحب البلد هو وأهله
فاستقر ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل امناءه ليقاسموا
الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن
أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وسار عبد
المؤمن منها الى المهدية والاسطول يحاذيه في البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان حينئذ
بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غلوة سهم
فدخل عبد المؤمن من زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة
ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد
ما يخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها
وضيق موضع القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر
وكانت الفرنج تخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فتنال منه ويعودون سريعا فأمر عبد
المؤمن أن يبنى سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها في البحر وركب
عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله ما رأى من
حصانتها وعلم انها لا تفتح بقتال برا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن
مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر
وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين
من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال
فيقال لهم هي حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفي مدته أطاع سفاقس عبد

الطالب عن التوقف والتلوم
فأوجف نحو الري وأتاه
نصر فلم يلحقه فاستوطن
سمنان وتابع كتبه الى أبي
طالب مجد الدولة رستم بن
فخر الدولة مستمدا * وشمر
اتلافي الخلل الواقع مجدا *
فتراخت المدة على استئناف
امداده * واقتبال معونته
واسعاده * ثم أمده بابن بكتكين
الحاجب في زهاء ستمائة
من شجعان الغلمان فقوى
بهم * وتمكن بمكانهم * ورماه
شمس المعالي بباي بن سعيد
في رجال من الجيل وكتب
الى الاصبهبذ شهريار بن
رستم لمعونته * وازاحة علته
* فصمد نصر مرخيا
عنان التحفظ * ومغمضا
جفون التيقظ * وقد كان
نصر سد الطرق على أبنائها
سترا لخبره * وسحبا لذيل
الكتمان على أثره * فاتفقت
الاناة بباي بن سعيد عليه على
حين تقطع من رجاله * وتفرق
من أكثر أصحابه * فتناوشا
الحرب ونصر مستعد *
وأمره في القراع جد *
ثم اضطر باي الى الانقلاب
على بارح الخيبة وفشت
الهزيمة فيمن تلاحق به
وتراخى عنه من ذنابى
عسكره وجرى عليهم من
القتل والأسر ما اعتد به
نصر في مساعيه عند أبي
طالب فقبل به نصر وجهه

المد الى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا انها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح ظفر والاجمة والمختارة والمقتدية ودرب القبار وخرابة ابن جردة والريان وقراح القاضي وبعض القطيعة وبعض باب الازج وبعض المأمونية وقراح أبي الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربي فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور يدب فى المحال التى لم يركبها الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وانما هى تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين وأما الجانب الغربى فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس الماء وكذلك المشهد والحربية وكان أمرا عظيما

(ذكر عود سنقر الهمذانى الى اللحف وانهزامه)

فى هذه السنة عاد سنقر الهمذانى الى اقطاعه وهو قلعة الماهكى وبلد اللحف وكان الخليفة قد أقطعه للامير قايماز العميدى ومعه أربعمائة فارس فأرسل اليه سنقر يقول له ارحل عن بلادى فامتنع فسار اليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدى ورجع الى بغداد بأسوا حال فبرز الخليفة وسار فى عساكره الى سنقر فوصل الى النعمانية وسير العساكر مع ترشك ورجع الى بغداد ومضى ترشك نحو سنقر الهمذانى فتوغل سنقر فى الجبال هاربا ونهب ترشك ماوجده له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ونزل على الماهكى وحصرها أياما ثم عاد الى البندنيجين وأرسل الى بغداد بالبشارة وأما سنقر فانه لحق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هناك وأفسد أصحابه فى البلاد وأرسل ترشك الى بغداد يطلب نجدة لجاءته فأراد سنقر أن يكبس ترشك فعرف ذلك فاحترز فعدل سنقر الى المخادعة فأرسل رسولا الى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خف من أصحابه فكبس سنقر ليلا فانهزم هو وأصحابه وكثر القتل فيهم وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل مالهم ونجا سنقر جريحا

(ذكر الفتنة بين عامة استراباذ)

فى هذه السنة وقع فى استراباذ فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعية ومن معهم وكان سببها ان الامام محمدا الهروى وصل الى استراباذ فعقد مجلس الوعظ وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمد بن اسمعيل النعيمى شافعى المذهب أيضا فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون فقتل من الشافعية جماعة وضرب القاضى ونهبت داره ودور من معه وجرى عليهم من الامور الشنيعة ما لا حد عليه فسمع شاه مازندران الخبر فاستعظمه وأنكر على العلويين فعلهم وبالغ فى الانكار مع انه شديد التشيع وقطع عنهم جرايات كانت لهم ووضع الجبايات والمصادرات على العامة فتفرق كثير منهم وعاد القاضى الى منصبه وسكنت الفتنة

والافاضة * وواصل أمير الرى يكتبه فى الاستنفار والاستنهاض من سرعة المشار * فدافع طول التطويل * بأنواع التعليل * والتأميل * كما قيل
مواعيد كما شئت
سراب المومه القفر
فمن يوم الى يوم
ومن شهر الى شهر
وبلغه بعد ذلك ان مجد الدولة أبا طالب وشمس المعالى قابوس قد تصالحا على استئصال شأفته والظفر به فساء ظنا * وضاق بالامر ذرعا * ونمى اليه أيضا ان بعض قواد السلطان يمين الدولة وأمين الملة وكان يعرف بارسلان هندو بچه والى قهستان قد أوقع بأبى القاسم السيمجورى وأجلاه عنها الى الجنابذ فأغذ السير اليه على مظاهرته * والتحصين بمرافقته ومضافرته * وجعل يحطب فى حبله * ويفتل فى ذروته بخيله وخيله * ويزين له قصد الرى معه لامتلاكها على أبى طالب مجد الدولة ايهاما لتفسل النيات فى طاعته * ودخن الاهواء فى مشايعته * فاغتر أبو القاسم بتغريره * وانخرط فى جريره * وسار الى خوار الرى فتلقاه من سرعان الكتائب * من غص بهم لهوات تلك

أمرهم بالاندلس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين وما يقاتلهم أحد مثلكم فبكم فتحت البلاد أول الاسلام وبكم يدفع عنها العدو الآن ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله فأجابوا بالسمع والطاعة فحلفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف فحلفوا ومشوا معه الى مضيق جبل زغوان وكان منهم انسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤس القبائل فيهم فجاء الى عبد المؤمن بالليل وقال له سرا ان العرب قد كرهت المسير الى الاندلس وقالوا ما غرضه الا اخراجنا من بلادنا وانهم لا يفون بما حلفوا عليه فقال يأخذ الله عز وجل الغادر فلما كانت الليلة الثانية هربوا الى عشائرهم ودخلوا البر ولم يبق منهم الا يوسف بن مالك فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ولم يحدث عبد المؤمن في أمرهم شيأ وسار مغربا يحث السير حتى قرب من القسطنطينية فنزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء والفصل ربيع والكلأ مستحسن فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة ودام كذلك عشرين يوما فبقي الناس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبرا مع كثرته وعظمه ويقولون ما أزعجه الا خبر وصله من الاندلس فحث لاجله في السير فعادت العرب الذين جفلوا منه من البرية الى البلاد لما أمنوا جانبه وسكنوا البلاد التي ألفوها واستقروا في البلاد فلما علم عبد المؤمن برجوعهم جهز اليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحدين وشجعانهم فجدوا السير وقطعوا المفاوز فما شعر العرب الا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول اليها ان راموا ذلك وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدميهم أبو محفوظ محرز بن زياد ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم فلما أطلت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم فانهزم مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من عشائرهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال فلم يلتفتوا اليه فثبت هو ومن معه من جمهور العرب فناجزهم الموحدون القتال في العشر الاوسط من ربيع الآخر من السنة وثبت الجمعان واشتد العراك فاتفق ان محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والاولاد والاموال وحمل جميع ذلك الى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل فأمر بحفظ نساء العربيات الصرائح وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة الى بلاد الغرب وفعل معهن مثل ما فعل في حريم الاثبج ثم أقبلت اليه وفود رياح مهاجرين في طلب حريمهم كما فعل الاثبج فأجمل الصنيع لهم ورد الحريم اليهم فلم يبق منهم أحد الا صار عنده وتحت حكمه وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الاحسان ثم انه جهزهم الى ثغور الاندلس على الشرط الاول وجمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن فبقيت دهرا طويلا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد وبقيت افريقية مع نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته الا مسعود البلاط بن زمام وطائفته في أطراف البلاد

(ذكر غرق بغداد)

في هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وخرق القورج وغرق بغداد وأقبل

رماه في وجهه نصر بن الحسن من راع الله بقدر الكفاية * ومن ذي الجسالة والنكاية * فلك الله جأش ثبت * ووثبه على أعدائه ثابت * وأحرق عليه الارض حربا بكرا على يده * وعوانا على أيدي أعوانه ومدده * ثم حمل على جموعه حملة شردتهم كل مشرد * وطاردتهم بين أيدي الجند كل مطرد * وعلق في حبالة الاسر جستان بن الداعي وابن هند وغيرهما من أعيان القواد واصطف على جنداله الحرب من القتلى ما شبعت به الضباع * بل سمنت عليه الوحوش والسباع * وانهزم نصر من بين يديه الى جمنان في جمادى الآخر سنة تسعين وثلثمائة وكان نصر على جلالة بيته * ونخامة عشيرته ورهطه * مغرما بالظلم * مغرى بالحيف والغشم * ووافقت ولايته مدرجة الحجيج وزوار البيت العظيم * وزمزم والحطيم * فشملهم عنته في كل سنة بوجوه من المطالبات المختلفة * والمعاملات المجحفة * حتى انتشر عنه سوء الاحدوثة * وحبط عليه جمال تلك الحال الموروثة * ولعل عثار الزمان به عدوى ضجيج الحجيج عنه بالاستغاثة * في مأتى الوقوف

الما

عندهم أسيرا عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الاسماعيلية على بن الحسن وخلص من الاسر وفيها توفى شرف الدين على بن ابى القاسم منصور بن ابى سعد الساعدى قاضى نيسابور فى شهر رمضان وكان موته بالرى ودفن فى مقبرة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب ابى حنيفة رضى الله عنهما وكان القاضى حنفيا ايضا

(ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير سليمان شاه الى همذان)

فى هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ليتولى السلطنة وقد تقدم سبب قبضه وأخذه الى الموصل وسبب مسيره اليها ان الملك محمد ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل اكابر الامراء من همذان الى اتابك قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل يطلبون منه ارسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه اليهم ليولوه السلطنة فاستقرت القاعدة بينهم ان يكون سليمان شاه سلطانا وقطب الدين اتابكه وجمال الدين وزير قطب الدين وزير السلطان سليمان شاه وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه بالاموال الكثيرة والبرك والدواب والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين على وعسكر الموصل الى همذان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر اليهم أرسالا كل يوم يلقاه طائفة وأمير فاجتمع مع سليمان شاه عسكر عظيم فخافهم زين الدين على نفسه لانه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للادب معه ما أوجب الخوف منه فعاد الى الموصل فحين عاد عنه لم ينتظم امره ولم يتم له ما أراده وقبض العسكر عليه بباب همذان فى شوال سنة ست وخمسين وخطبوا لارسلان شاه ابن الملك طغرل وهو الذى زوج ايلدكز بأمه وسنذكر مشروحا ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين)

فى هذه السنة توفى الفائز بنصر الله ابو القاسم عيسى بن اسمعيل الظافر صاحب مصر وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما ولى خمس سنين كما ذكرناه ولما مات دخل الصالح ابن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فامر باحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله ابى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن ابوه خليفة وكان العاضد ذلك الوقت مراهقا قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الامر من العلويين الى الاتراك وتزوجت

(ذكر وفاة الخليفة المقتفى لامر الله وشئ من سيرته)

فى هذه السنة ثانى ربيع الاول توفى أمير المؤمنين المقتفى لامر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ابى العباس احمد بن المقتدى بأمر الله رضى الله عنه بعلة التراقى وكان مولده ثانى عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين واربعمائة وأمه أم ولد تدعى ياعى وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوما ووافق أباه المستظهر بالله فى علة التراقى وماتا جميعا

افتحوا قلعة ومكيدة * ومراعاة لحقوق الاستسلام والتسليم وكيده * فصفت له بحدودها وحواشيها * وقلاعها وصياصيها * وعما أعد من زبد الاحقاب فيها * واتفق بعد ذلك اخلاد الاصبهبذ بجيل شهريار الى جانب الجانبية فى طاعة شمس المعالى قابوس وادعاؤه الامر لنفسه اغترارا بما اجتمع له من الوفر والتف عليه من العدد الدثر * والعسكر المجر * فرمى من جانب الرى بأبى على رستم ابن المرزبان خال أبى طالب فى صناديد الديلم وفيهم بيستون ابن بجاسب المقبوض عليه من قبل فى المعنى بموالاة صاحبه قابوس فنصب له الحرب قراعا * ومصاعا * وثقافا * وثقافا وكانت عاقبة أمره ان كسره فاسره ونادى ابو على رستم ابن اصبهبذ بكتابه بشعار شمس المعالى قابوس لوحشة كان استشعرها من أهل الرى وأقام الخطبة فيها باسمه وكاتبه بذكر طاعته وشرح ما فتح الله على يده وهاجر ابن بيستون ابن بجاسب الى أرضه المقدسة من فناء صاحبه والى نعمته فانشرح صدره * وقرت بالاياب عينه *

(ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه)

فى هذه السنة توفى السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذى حاصر بغداد طالبا السلطنة وعاد عنها فأصابه سل وطال به فمات بباب همذان وكان مولده فى ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فلما حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه ومماليكه فنظر الى الجميع من طيارة تشرف على ما تحتها فلما رآه بكى وقال هذه العساكر والاموال والمماليك والسرارى ما أرى يدفعون عنى مقدار ذرة ولا يزيدون فى أجلى لحظة وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيئا كثيرا وكان عاقلا كريما عاقلا كثير التأنى فى أموره وكان له ولد صغير فسلمه الى آقسنقر الاحمديلى وقال له أنا أعلم أن الناس لا تطيع مثل هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به الى بلادك فرحل الى مراغة فلما مات اختلفت الامراء فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه وهم الاكثر وطائفة طلبوا ارسلان الذى مع ايلدكز فأما ملكشاه فانه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركمانى وغيرهما فوصل الى اصفهان فسلمها اليه ابن الخجندى وجمع له مالا أنفقه عليه وأرسل الى العساكر بهمذان يدعوهم الى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم ولان أكثرهم كان يريد سليمان شاه

(ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها اليه)

فى هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب مرضا شديدا أرجف بموته وكان بقلعة حلب ومعه أخوه الاصغر أميران فجمع الناس وحصر القلعة وكان شيركوه وهو أكبر أمرائه بحمص فبلغه خبر موته فسار الى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه أيوب ذلك وقال أهلكتنا والمصلحة أن تعود الى حلب فان كان نور الدين حيا خدمته فى هذا الوقت وان كان قد مات فانا فى دمشق نفعل ما نريد من ملكها فعاد الى حلب مجدا وصعد القلعة وأجلس نور الدين فى شباك يراه الناس وكلمهم فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أميران فسار الى حران فملكها فلما عوفى نور الدين قصد حران ليخلصها فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران فى القلعة فملكها نور الدين وسلمها الى زين الدين على نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل ثم سار نور الدين بعد أخذ حران الى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الامراء وقد توفى وبقى أولاده فنازلها فشفع جماعة من الامراء فيهم فغضب من ذلك وقال هلا شفعتم فى أولاد أخى لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الاشياء الى فلم يشفعهم وأخذها منهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مرض الخليفة المقتفى لامر الله واشتد مرضه وعوفى فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلق البلد اسبوعا وفيها عاد ترشك الى بغداد ولم يشعر به أحد الا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن وكان قد عصى على الخليفة والتحق بالعجم فعاد الآن فرضى عنه وأذن له فى دخول دار الخلافة وأعطى مالا وفيها فى جمادى الاولى أرسل محمد بن أنز صاحب قهستان عسكرا الى بلد الاسماعيلية من الجبال فقتلوا كثيرا من العسكر وأسروا الامير الذى كان مقدما عليهم اسمه قيبة وهو صهر ابن أنز فبقى

الظالم والمارب * ولما رأى أبو القاسم ان الامر جد * والطريق منسد * خنس وراء عاضا على البنان * متزلزلا عارض الدرمان * وبلغ شمس المعالى قابوس ابن وشمكير انصرافه مع نصر عن وجه الرى فقذفهما بعفاريت الاكراد من كل جانب * ودحرهم عن حدود مملكته بعذاب واصب * ولما رأيا الارض تلفظهم يمينا وشمالا * وتقذفهم جنوبا وشمالا * تواصلا على قصد السلطان يمين الدولة وأمين الملة مستأمنين اليه * ومستعدين على الزمان بالمثول بين يديه * فمالا على حضرته * وتوشحا بحمال خدمته * فأما أبو القاسم فهرب على ما سبق ذكره الى ان أودعه الحبس أسره وأما نصر فأقام على الخدمة مدة الى ان أمر السلطان باقطاعه بيار وجومند طعمة له فنهض اليهما * ورأيت ما بسمهمته القناعة بهما * فلم يزل يضارب فى حباله الى أن خدع من الرى وحمل منها الى قلعة استوناوند فمات عليه حصرا * وساء ذلك صبرا * ووكل شمس المعالى بعد ذلك بجو الى القلاع فيما بين جرجان واستراباد وما وراءها من أسباط بهم احاطة

(ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والاتراك البرزية)

في هذه السنة في ربيع الاول سار طائفة من عسكر خوارزمشاه الى اجنه وهجموا على يغمرخان بن أودك ومن معه من الاتراك البرزية فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فانهزم يغمرخان وقصد السلطان محمود بن محمد الخان والاتراك الغزية الذين معه وتوسل اليهم بالقرابة وظن يغمرخان ان اختيار الدين ايتاق هو الذي هيج الخوارزمية عليه فطلب من الغز انجاده

(ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة)

قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أي أبه الى نيسابور وتمكنه منها وان ذلك كان سنة أربع وخمسين فلما دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة ورأى المؤيد تمكنه في نيسابور وتمكنه في دولته وكثرة جنده وعسكره أحسن السيرة في الرعية لاسيما أهل نيسابور فانه جبرهم وبالغ في الاحسان اليهم وشرع في اصلاح اعمالها واصلاح ولاياتها فسير طائفة من عسكره الى ناحية اسقيل وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا العبث والفساد في البلاد وطال تماديهم في طغيانهم فأرسل اليهم المؤيد يدعوهم الى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والصلاح فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما هم عليه فسير اليهم سرية كثيرة فقاتلوهم وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا فأكثروا القتل فيهم وخربوا حصنهم وسار المؤيد من نيسابور الى بيهق فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة وقصد منها حصن خسروجرد وهو حصن منيع بناه كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل افراسياب وفيه رجال شجعان فامتنعوا على المؤيد فحصرهم ونصب عليهم المجانيق وجد في القتال فصبر أهل الحصن حتى نفد صبرهم ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها ورتب فيها من يحفظها وعاد منها الى نيسابور في الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة ثم سار الى هراة فلم يبلغ منها غرضا فعاد الى نيسابور وقصد مدينة كندر وهي من أعمال طريثيث وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربنده واجتمع معه جماعة من الرنود وقطاع الطريق والمفسدين فخربوا كثيرا من البلاد وقتلوا كثيرا من الخلق وغنموا من الاموال ما لا يحصى وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاء فقصدهم المؤيد فتحصنوا بالحصن الذي لهم فقوتلوا أشد قتال ونصب عليهم العرادات والمنجنيقات فادعى هذا الخربنده أحمد الى طاعة المؤيد والانخراط في سلك أصحابه وأشياعه فقبله أحسن قبول وأحسن اليه وأنعم عليه ثم انه عصى على المؤيد وتحصن بحصنه فأخذه المؤيد منه قهرا وعنوة وقيده واحتاط عليه ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده وقصد المؤيد في شهر رمضان ناحية بيهق عازما على قتالهم لخروجهم عن طاعته فلما قاربها أتاه زاهد من اهلها ودعاه الى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم ووعظه وذكره فأجاب الى ذلك ورحل عنهم وأرسل السلطان محمود بن محمد الخان وهو مع الغز الى المؤيد بندرين نيسابور وطوس واعمالها عليه ورد الحكم فيها اليه فعاد الى نيسابور رابع ذي القعدة من السنة فخرج الناس عامة بين يديه وبين الملك محمود وبين الغز من ابقاء نيسابور عليه ليزول الخلاف والفتن عن الناس

(ذكر الحرب بين شاه مازندران ويغمرخان)

لما قصد يغمرخان الغز وتوسل اليهم لينصروه على ايتاق لظنه انه هو الذي حسن للخوارزمية

والامر بعد ذلك كذلك ولا
وأغذى للنفس بثقافة
الحكمة * وأجزى للبدن
بكفاف الطعمة * وقد فطم
النفس عن رضاع الملاهي *
فلم يعرف اللهو وما هو ولا
البطالة ما هي * علما منه
بأن الملك واللهو ضدان *
وأن ليس لا تقائهما
تدان * ولقد أحسن أبو
الفتح علي بن محمد البستي
الكاتب في نصرة هذا
الرأي بقوله
اذا غدا ملك باللهو مشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل
والحرب
أما ترى الشمس في الميزان
هابطة
لما غدا برج نجم اللهو
والطرب
ثم ولا أحرص على انصاف
الرعية * وآخذ بأطراف
العدل في القضية * وأبرع
في الآداب والحكم *
وأجمع بين ذؤابة السيف
وذلاقة القلم * ورسائله
موجودة في البلاد * عند
الافراد * لكني أكتفي منها
بلمعة من بوارق بيانه *
وزهرة من حدائق احسانه *
اذ كان في تصفحها ما يغني
عن التكثر في هذا المكان
بها فمنها رسالة أنشأها في
الترجيح بين صحابة النبي صلى
الله عليه وسلم عقيب رسائله
القديمة * وقرائنه اليتيمة *

وهي

في ربيع الاول وكان حليما كريما عالما لاحسن السيرة من الرجال ذوي الراي واعقل الكثير
وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من اول أيام الديلم الى الآن واول
خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من
عهد المستنصر الى الآن الا ان يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه
وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ

(ذكر خلافة المستنجد بالله)

وفي هذه السنة بويع المستنجد بالله امير المؤمنين واسمه يوسف وأمه أم ولد تدعى طاوس بعد
موت والده وكان للمقتفي حظية وهي ام ولد ابي علي فلما اشتد مرض المقتفي وأيست منه
أرسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها
على ان يكون ولدها الامير ابو علي خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولي العهد فقالت اذا دخل على
والده قبضت عليه وكان يدخل الى أبيه كل يوم فقالوا لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع
اختيارهم على ابي المعالي بن الكيا الهراسي فدعوه الى ذلك فأجابهم على ان يكون وزيرا
فبذلوا له ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم ابي علي أحضرت عدة من الجواري
وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله وكان له خصي صغير يرسله كل
وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجواري بأيديهن السكاكين ورأى بيد ابي علي وامه سيفين
فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلت هي الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر
ويشاهده فاستدعى استاذ دار عضد الدولة واخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل
الدار وقد لبس الدرع واخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدة منهن
فجرحها وكذلك اخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجواري
وأخذ اخاه ابا علي وامه فسجنهما واخذ الجواري فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه فلما
توفي المقتفي لامر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر
ابن المقتفي وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضي القضاة وارباب الدولة
والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم (حكي عنه) الوزير عون الدين بن هبيرة انه
قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام منذ خمس عشرة سنة وقال لي يبقى ابوك
في الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال صلى الله عليه وسلم قال ثم رأيته قبل موت ابي
المقتفي بأربعة اشهر فدخل بي في باب كبير ثم ارتقى الى رأس جبل وصلى بي ركعتين ثم ألبسني
قميصا ثم قال لي قل اللهم اهدني فيمن هديت وذكر دعاء القنوت ولما ولي الخلافة اقر ابن هبيرة
على وزارته واصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضي
ابن المرخم وكان بئس الحاكم واخذ منه مالا كثيرا واخذت كتبه فأحرق منها في الرحبة
ما كان من علوم الفلاسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما
يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان استاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير
ان يقوم له وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن احمد الدامغاني ورتب مكانه ابا جعفر
عبد الواحد الثقفي وخلع عليه

عينه * ولم يخل عن الحياة حينه * وانضافت مملكة الجبل بأسرها الى ممالك

وطالب بالايثار والاحسان
جرجان وطبرستان فولاها
شمس المعالي منوجهر ابنه
حيّ من لو عاش الى زمانه
لرد عليه عوادي مفاخره *
ورجع اليه حلى آثاره
ومآثره * وانقضت بعدها
عليه الروياث وشالوس وما
وراءها من الحدود
الاستندارية فصارت
ولايته تشرق بنور العدل
والاحسان * وتبسم عن
ثغور الامن والامان *
وواصل شمس المعالي
السلطان يمين الدولة وأمين
الملة بكتبه ورسله في عقد
وثيقة يحصن بها من
صروف النوائب *
ويستظهر بها على وجوه
المطالب * وقدم بين يدي
نجواه من أنواع القرب
والمبار ما خرج عن الحد
والمقدار * حتى تأكدت
العصمة * وتأربت العقدة
* واشتبكت الالفة *
واستحكمت الثقة * وصارت
جرجان وطبرستان الى
سواحل البحر ودار الديلم
بحكم الحال المتشجة كاحدى
ممالكه التي يحكم عليها آمرا
وناهيا * ويتبسط فيها حاضرا
وباديا * فلله شمس المعالي في
همة له بين المجرة مجراها *
وفي بحار الكرم مجراها
ومرساها * فلم يسمع في
شيوخ الملوك بأشرف منه قيمة * وأرطب عوده * واكرم شيمه * وأصدق بارقة عشيه * وأوفر عقلا وتحصيلا * *(ذكر

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة حج أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وشيركوه هذا هو الذي ملك الديار المصرية وسيرد ذكره ان شاء الله تعالى وفيها أرسل زين الدين علي نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا الى المستنجد يعتذر من مساعدة محمد شاه في حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له في الحج فأرسل اليه يوسف الدمشقي مدرس النظامية وسلمان بن قتلمش بطيبات قلبه عن الخليفة وبعرفانه الاذن في الحج فحج ودخل الى الخليفة فأكرمه وخلع عليه وفيها توفي قايماز الارجواني أمير الحاج سقط عن الفرس وهو يلعب بالكرة فسال مخه من مناخيره وأذنيه فمات وفيها في ربيع الآخر توفي محمد بن يحيى بن علي بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي من أهل زبيد مدينة باليمن مشهورة وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان نحويا واعظا وصحبه الوزير ابن هبيرة مدة وكان موته ببغداد

(ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الفتنة ببغداد)

في هذه السنة في ربيع الاول خرج الوزير ابن هبيرة من داره الى الديوان والغلمان يطرقون له وأرادوا أن يردوا باب المدرسة الكمالية بدار الخليفة فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم فمنعهم الوزير ومضى الى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار فمضى استاذ الدار وعاقبهم هناك واختفى مدرسهم الشيخ أبو طالب ثم ان الوزير أعطى كل فقيه دينارا واستحل منهم وأعادهم الى المدرسة وظهر مدرسهم

(ذكر قتل ترشك)

في هذه الايام قصد جمع من التركمان الى البندنيجين فأمر الخليفة بتجهيز عسكر اليهم وان يكون مقدمهم ترشك وكان في اقطاعه بلد اللحف فأرسل اليه الخليفة يستدعيه فامتنع من المجيء الى بغداد وقال يحضر العسكر وأنا أقاتل بهم وكان عازما على الغدر فجهز العسكر وساروا اليه وفيهم جماعة من الامراء فلما اجتمعوا بترشك قتلوه وأرسلوا رأسه الى بغداد وكان قتل مملوكا للخليفة فدعا أولياء المقتول وقيل لهم ان أمير المؤمنين قد اقتص لكم ممن قتله

(ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لارسلان)

في هذه السنة في ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه وسبب ذلك انه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى انه شربه في رمضان نهارا وكان يجمع المساخر ولا يلتفت الى الامراء فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه وكان قد رد جميع الامور الى شرف الدين كردبازو الخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يرجع الى دين وعقل وحسن تدبير فكان الامراء يشكون اليه وهو يسكنهم فاتفق انه شرب يوما بظاهر همذان في الكشك فحضر عنده كردبازو فلامه على فعله فأمر سليمان شاه من عنده من المساخرة فعبثوا بكردبازو حتى ان بعضهم كشف له سوأته فخرج مغضبا فلما صحا سليمان أرسل

المسلمين ولم يرض بأن يسلم بيضة الشريعة ثلم ولا أن يتغير من أحكامها حكم فلقب خليفة رسول الله باتباعه لمخالطة دين الله ثم تحصين حوزة الاسلام من عوارض الفساد ومعاداة الاعداء والاضداد والمجاهدة في استضافة ديار الظالمين الى جانب الاسلام ومجامع المسلمين وهو ما أتاه عمر رضي الله عنه لما آل اليه الامر فانه صرف جهده الى الجهاد وقصر كده وكدته على افتتاح البلاد حتى اتسع نطاق هذه الملة وخضعت الرقاب لاهل هذه القبلة فلقب أمير المؤمنين اذ كان ثم العون لرسول رب العالمين قد فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الامر الاعظم والشأن الافخم وأطد الدين كل مطنب على رغم من أبي لهب والتأم بسعي الشيخين شعث الامرين الآخرين وبلغ من الاحكام مبلغا ليس فيه مستزاد ولا يشين بياض غرته سواد ولم يبق للتابعين سوى التمسك بدين عهده ومراعاة بناء مشيد لم يقدروا على القيام به وانتصبوا وراء حجابه ولما أتت الخلافة عثمان

قصده فأجابوه الى ذلك وسار وامعه على طريق نسا وابيورد ووصلوا الى الامير ايثاق فلم يجد لنفسه بهم قوة فاستنجد شاه مازندران فجاء ومعه من الاكراد والديلم والاتراك والتركمان الذين يسكنون نواحى ابسكون جمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم وانهزم الاتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران خمس مرات ويعودون وكان على ميمنة شاه مازندران الامير ايثاق فحملت الاتراك الغزية عليه لما أيسوا من الظفر بقلب شاه مازندران فانهزم ايثاق وتبعه باقى العسكر ووصل شاه مازندران الى سارية وقتل من عسكره أكثرهم وحكى ان بعض التجار كفن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل واما ايثاق فانه قصد فى هربه خوارزم وأقام بها وسار الغز من المعركة الى دهستان وكان الحرب قريبا منها فنقبوا سورها وأوقعوا بأهلها ونهبوها وهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة بعد ان خربوا جرجان وفرقوا أهلها فى البلاد وعادوا الى خراسان

(ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده)

فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود ابن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وكان عادلا حسن السيرة فى رعيته محبا للخير وأهله مقربا للعلماء محسنا اليهم راجعا الى قولهم وكان ملكه تسع سنين وملك بعده ابنه ملكشاه فلما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور الى غزنة فحصرها وكان الشتاء شديدا والثلج كثيرا فلم يمكنه المقام عليها فعاد الى بلاده فى صفر سنة ست وخمسين

(ذكر الحرب بين ايثاق وبغراتكين)

فى هذه السنة منتصف شعبان كان بين الامير ايثاق والامير بغراتكين برغش الجركانى حرب وكان ايثاق قد سار الى بغراتكين فى آخر أعمال جوين فنهب وأخذ أمواله وكل ماله وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة فانهزم بغراتكين عنها وخلاها فافتتحها ايثاق واستغنى بها وقويت نفسه بسببها وكثرت جموعه وقصده الناس واما بغراتكين فانه أرسل الى المؤيد صاحب نيسابور وسار فى جملته ومعدودا من أصحابه فتلقاه المؤيد بالقبول

(ذكر وفاة ملكشاه بن محمود)

فى هذه السنة توفى ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان باصفهان مسموما وكان سبب ذلك انه لما كثر جمعه باصفهان أرسل الى بغداد وطلب ان يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق الى ما كانت أولا والا قصدهم فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به يقال له اغلبك الكوهرائينى فمضى الى بلاد العجم واشترى جارية من قاضى همذان بألف دينار وباعها من ملكشاه وكان قد وضعها على سمه ووعدها أمورا عظيمة على ذلك وسمته فى لحم مشوى فأصبح ميتا وجاء الطبيب الى دكلا وشملة فعرفهما انه مسموم فعرفوا ان ذلك من فعل الجارية فأخذت وضربت وأقرت وهرب اغلبك ووصل الى بغداد ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ولما مات أخرج أهل اصفهان أصحابه من عندهم وخطبوا لسليمان شاه واستقر ملكه بتلك البلاد وعاد شملة الى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها

بسم الله الرحمن الرحيم
اعلم ان أصعب الامور * وأشرفها بين الجمهور * هو الخروج بالنبوة * والاستعلاء على الخلائق بهذه القوة * لانه تقليب الوجوه عن القبل المعبودة * وادخال الاعناق فى قلادة غير معهودة * ومخاطبة الخلائق من الخالق * بما لا تدركه أبصار الخلائق * وقد اعتلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذروة هذا الشرف * وصار لمن سلف من الانبياء خير الخلف * وفاز عزيه بهذا الذكر العظيم * وأذاق العرب لذة النعيم * ونقلهم الى الثروة والغنى من الفقر والفاقة * وأراحهم من رعاية الجمل والناقة * وليس وراء لابتغاء العلا أمد * فما فوق السماء للسموّ مصعد * ثم ضبط الامر بعد زعيمه على نظامه * واقامه فى قوامه * وهذا ما تولاه أبو بكر رضى الله تعالى عنه حين ودّع عمره * من غير أن يسلم الى أحد أمره * فانه قام به قيام ثابت القلب * مستقل بمقاومة الخطب * غير مفكر فى ردّ رادّ * ولا مبال بمعاداة مضادّ * حتى حمى حريم الدين * وجمع شمل

(ذكر الحرب بين ايلدكز وايناج)

لما مات ملكشاه ابن السلطان محمود كما ذكرناه أخذ طائفة من أصحابه ابنه محمودا وانصرفوا به نحو بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلغري فأخذه منهم وتركه في قلعة اصطخر فلما ملك ايلدكز والسلطان ارسلان شاه الذي معه البلاد وأرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة للسلطان كما ذكرناه شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير الخليفة في اثارة أصحاب الاطراف عليه وراسل الاحمديلي وكان ما ذكرناه وكاتب زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له ان يخطب للملك الذي عنده وهو ابن ملكشاه وله الخطبة ان ظفر بايلدكز فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة وضرب الطبل على بابه خمس نوب وجمع عساكره وكاتب ايناج صاحب الري يطلب منه الموافقة وسمع ايلدكز الخبر فحشد وجمع وكثر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفا وسار الى اصفهان يريد بلاد فارس وأرسل الى زنكي ابن دكلا يطلب منه الموافقة وان يعود يخطب لارسلان شاه فلم يفعل وقال ان الخليفة قد أقطعني بلاده وأنا سائر اليه فرحل ايلدكز وبلغه ان بشيرا الارسلان بوقا وهو أمير من أمراء زنكي وفي اقطاعه ارجان بالقرب منه فأنفذ سرية للغارة عليه فاتفق ان ارسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التي معه فاضعفها وأخذ عوضها من ذلك الخيل فسار في عسكره الى الخيل فصادف العسكر الذي سيره ايلدكز لاخذ دوابه فقاتلهم وأخذهم وقتلهم وأرسل الرؤس الى صاحبه فكتب بذلك الى بغداد وطلب المدد فوعد بذلك وكان الوزير عون الدين بن هبيرة أيضا قد كاتب الامراء الذين مع ايلدكز يوبخهم على طاعته ويضعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة زنكي بن دكلا وايناج وكان ايناج قد برز من الري في عشرة آلاف فارس فأرسل اليه ابن آقسنقر الاحمديلي خمسة آلاف فارس وهرب ابن البازدار صاحب قزوين وابن طغايرك وغيرهما فلحقوا بايناج وهو في صحراء ساوة واما ايلدكز فانه استشار نصحاءه فأشاروا بقصد ايناج لانه أهم فرحل اليه ونهب زنكي سميرم وغيرها فرد ايلدكز اليه أميرا في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد فسار زنكي اليهم فلقيهم وقاتلهم فانهزم عسكر ايلدكز اليه فقصدا ايلدكز وأرسل يطلب عساكر اذربيجان فجاءته مع ولده قزل ارسلان وسير زنكي بن دكلا عسكرا كثيرا الى ايناج واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شملة صاحب خوزستان فسار ايلدكز الى ايناج وتدانى العسكران فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة ايناج فانهزم أقبح هزيمة وقتلت رجاله ونهبت أمواله ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك وحصر ايلدكز الري ثم شرع في الصلح واقترح ايناج اقتراحات فأجابه ايلدكز اليها وأعطاه جرباذقان وغيرها وعاد ايلدكز الى همذان وكان ينبغي أن تتأخر هذه الحادثة والتي قبلها وانما قدمت لتتبع أخواتها

(ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد)

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري ملك الغور بعد انصرافه عن غزنة وكان عادلا من أحسن الملوك سيرة في رعيته ولما مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد وأطاعه الناس واحبوه وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الاسماعيلية وكثر اتباعهم فأخرجهم من تلك الديار جميعها ولم يبق فيها منهم احد وراسل الملوك وهاداهم

حضرته ابثوثي مسيرته)*
تعالى ان نسبت به سنه *
الى قصد من تغلو عنده
قيمته * أن يكون على غيره
عريته * وليبتهن سواه
زيادته ونجته * وأما خطه
فخطة المحاسن فمه ان
شئت وشيا محوكا * او تبرا
مسبوكا * او درا مفصلا *
او سحرا محصلا * وكان
اسمعيل بن عباد اذا قرأ
خطه يقول أهذا خط
قابوس * ام جناح طاوس *
فهو كما قال المتنبي
في خطه من كل قلب شهوة
حتى كأن مداده الاهواء
ولكل عين قرة في قربه
حتى كأن مغيبه الاقذاء

*(ذكر الحال التي
انعقدت بين السلطان يمين
الدولة * وأمين الملة * وبين
ايلك الخان في التواصل
والتصاهر * والتعاقد على
التعاون والتظاهر * الى
ان نشأت نبعة الشر *
وكشرت عن أعصل
الشر)*

قد كان ايلك الخان * لما ملك
السلطان خراسان * على
الغدرة بآل سامان * اغتنم
تطهير ما وراء النهر عن كل
منتسب الى تلك الارومة *
ومتشبث بشعب تلك
الجرثومة * فلم يدع هنالك
ذا ظفر الا قلمه * ولا ذا سن
الا اجتاحه واصطلمه *

اليه يعتذر فقبل عذره الا انه تجنب الحضور عنده فكتب سليمان الى اينانج صاحب الري يطلب منه ان ينجده على كرداز فوصل الرسول واينانج مريض فأعاد الجواب يقول اذا افقت من مرضي حضرت الملك بعسكري فبلغ الخبر كرداز فازداد استيحاشا فأرسل اليه سليمان يوما يطلبه فقال اذا جاء اينانج حضرت وأحضر الامراء واستحلفهم على طاعته وكانوا كارهين لسليمان لسوء فعله فأول ما عمل ان قتل المساخرة الذين لسليمان وقال انما أفعل ذلك للملك ثم اصطلحا وعمل كرداز دعوة عظيمة حضرها السلطان والامراء فلما صار السلطان سليمان شاه في داره قبض عليه كرداز وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي وعلى أصحابه في شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه في قلعة ثم أرسل اليه من خنقه وقيل بل حبسه في دار مجد الدين العلوي رئيس همذان وفيها قتل وقيل بل سقي سما فمات والله أعلم وأرسل الى ايلدكز صاحب أرانية وأكثر بلاد اذربيجان يستدعيه اليه ليخطب للملك ارسلان شاه الذي معه وبلغ الخبر الى اينانج صاحب الري فسار ينهب البلاد الى ان وصل الى همذان فتحصن كرداز وطلب منه اينانج ان يعطيه مصافا فقال أنا لا أحاربك حتى يصل الاتابك الاعظم ايلدكز وسار ايلدكز في عساكره جميعها تزيد على عشرين ألف فارس ومعه ارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه فوصل الى همذان فلقيهم كرداز وأنزله دار المملكة وخطب لارسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد وكان ايلدكز اتابكه والبهلوان حاجبه وهو أخوه لامه وكان ايلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود وأمرائه في أول امره فلما ملك أقطعه اران وبعض اذربيجان واتفق الحروب والاختلاف فلم يحضر عند أحد من السلاطين السلجوقية وعظم شأنه وقوي أمره وتزوج بأم الملك ارسلان شاه فولدت له أولادا منهم البهلوان محمد وقزل ارسلان عثمان وقد ذكرنا سبب انتقال ارسلان شاه اليه وبقي عنده الى الآن فلما خطب له بهمذان أرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة لارسلان شاه أيضا وان تعاد القواعد الى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فأهين رسوله وأعيد اليه على أقبح حالة واما اينانج صاحب الري فان ايلدكز راسله ولاطفه فاصطلحا وتحالفا على الاتفاق وتزوج البهلوان بن ايلدكز بابنة اينانج ونقلت اليه بهمذان

(ذكر الحرب بين ابن آقسنقر وعسكر ايلدكز)

لما استقر الصلح بين ايلدكز واينانج أرسل الى ابن آقسنقر الاحمديلي صاحب مراغة يدعوه الى الحضور في خدمة السلطان ارسلان شاه فامتنع من ذلك وقال ان كففتم عني والا فعندي سلطان وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود كما ذكرناه وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطمعه في الخطبة لولد محمد شاه فجهز ايلدكز عسكرا مع ولده البهلوان فبلغ الخبر الى ابن آقسنقر فأرسل الى شاه ارمن صاحب خلاط وصاهره وصارا يدا واحدة فسير اليه شاه ارمن عسكرا كثيرا واعتذر عن تأخره بنفسه لانه في ثغر لا يمكنه مفارقته فقوي بهم ابن آقسنقر وكثر جمعه وسار نحو البهلوان فالتقيا على نهر اسبيدرود فاشتد القتال بينهم فانهزم البهلوان أقبح هزيمة ووصل هو وعسكره الى همذان على أقبح صورة واستأمن أكثر أصحابه الى ابن آقسنقر وعاد الى بلده منصورا

*(ذكر

ابن عفان * كان منه ما كان * من تبديل ذي النسك * بذي نية الملك * وتغيير سيرة الائمة * حين توسع في النعمة * حتى اجتنى ثمرة ما جنى * وتبوأ بسوء ما أتى * ولما عادت الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه هاجت الرياح واشتاقت الدول من كل جانب وبدت الاوابد * وتبدلت العقائد * وتحول أمر الدين ملك الغالبة * ودول الفتك والجبابرة * ووقعت الخلافة في الخلاف * وبرز الشر من الغلاف * وبقي علي رضي الله عنه على اضطراب لا يهدأ * وفي مداواة داء لا يبرأ * مع شجاعته المشهورة * ومآثره المأثورة * وانتهى أمره الى ما انتهى * حتى جرى عليه وعلى عقبه ما جرى * فلينظر اذا كان الامر كذلك * أهؤلاء أحق بالقدح أم أولئك * قد مضى القوم وآثارهم في الاسلام كالشمس في الاشتهار * والهباء في الانتشار * وصنيعهم ما يحث على الفلاح * وليس بأيدي الخصماء سوى السفاهة والصياح *

*(وقرأت توقيعا له الى بعض الافاضل يستقدمه

دار اله وبلنده وسكنها وهم معه ثم انها دثرت بعد ذلك فلما كان ايام السلطان الب ارسلان ذكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها ثم انها تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ولم يكن حفظها والغز تطرق البلاد وتنهبها امر المؤيد حينئذ بعمل سورها وسدّ ثلمه وسكّانه ففعل ذلك وسكنها هو والناس معه وخربت حينئذ نيسابور وكل خراب ولم يبق فيها اثنان

(ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك)

في هذه السنة في شهر رمضان قتل الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك الارمني وزير العاضد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله انه تحكم في الدولة التحكم العظيم واستبد بالامر والنهي وجباية الاموال اليه لصغر العاضد ولانه هو الذي ولاه ووتر الناس فانه اخرج كثيرا من اعيانهم وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ثم انه زوج ابنته من العاضد فعاداه ايضا الحرم من القصر فأرسلت عمة العاضد الاموال الى امراء المصريين ودعتهم الى قتله وكان اشدهم عليه في ذلك انسان يقال له ابن الداعي فوقفوا له في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة الا انه حمل الى داره وفيه حياة فأرسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع اثره في خلافته فاقسم العاضد انه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريا فسلم عمتك الي حتى انتقم منها فامر باخذها فارسل اليها فاخذها قهرا واحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل فانتقل الامر اليه بعد وفاة ابيه وللصالح اشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها في الافتخار

ابى الله الا ان يدوم لنا الدهر * ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى الوفه * ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة * قرانا ومن اضيافنا الذئب والنسر
كما انّنا في السلم نبذل جودنا * ويرتع في انعامنا العبد والحر

وكان الصالح كريما فيه ادب له شعر جيد وكان لاهل العلم عنده انفاق ويرسل اليهم العطاء الكثير بلغه ان الشيخ ابا محمد بن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره وهو هذا

تجنب سمعي ما يقول العواذل * واصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز اليه هدية سنية ليرسلها اليه فقتل قبل ارسالها وبلغه ايضا ان انسانا من اعيان الموصل قد اثنى عليه بمكة فأرسل اليه كتابا يشكره ومعه هدية وكان الصالح اماميا لم يكن على مذهب العلويين المصريين ولما ولي العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل انهم يفرحون بالخليفة فقال كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الاول حتى استخلف هذا وما علموا انني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم قال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة ايام فناولني قرطاسا فيه بيتان من شعره وهما

نحن في غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعري متى يكون الحمام

وعقائل الدر والمرجان * وفضوت الوشي والحبر * ونوادر البدو والحضر * وصواني الذهب مملوءة من بياضات العنبر * واواني الفضة منضودة بشمامات الكافور وغير ذلك من شارات الهنود * وقطاع العود * وذكور الخيول * واناث الفيول * التحت سروج مغشاة بذوات التعاريج * من الوان الديابيج * منطقة بعصائب تخطف العيون بريقها * وتصطحب على الاقتاب معاليقها * وعتاق ضوامر كالقداح * يخدود كمتون الصفاح * وغرر كنجوم الصباح * وقوائم كمخرق الرياح * وسنابك كفلاق الصفاح * في مراكب كأنما جلي بعضها من قطع عقيق * اوشعل حريق * وحلي سائرها بنجوم الثريا والنثرة * وبنات نعش من وراء المجرة * وقرن ذلك كله بأموال تملي سيل الالطاف * تفرد ذوائب الاوصاف * فسار الامام ابو الطيب سهل بن محمد الى ايلك الخان كريما يتقبل كريمه * ويحمل من بحر الترك الى ايران درة يتيمه * فطلع على ايلك واهل بيته طلوع الجبر طالب اباه *

واستمال المؤيد اي ابه صاحب نيسابور وطلب موافقته

(ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها)

كان اهل العبث والفساد بنيسابور قد طمعوا في نهب الاموال وتخريب البيوت وفعل ما أرادوا فاذا انهوا لم ينتهوا فلما كان الآن تقدم المؤيد اي ابه بقبض أعيان نيسابور منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وغيره وحبسهم في ربيع الآخر سنة ست وخمسين وقال أنتم الذين أطمعتم الرنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال ولو أردتم منعهم لامتنعوا وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالكلية ومن جملة ما خرب مسجد عقيل وكان مجمعا لاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة وكان من أعظم منافع نيسابور وخرب أيضا من مدارس الحنفية ثمان مدارس ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة وأحرق خمس خزائن للكتب ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الاثمان هذا ما أمكن احصاؤه سوى ما لم يذكر

(ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان)

في هذه السنة في جمادى الآخرة قصد السلطان محمود بن محمد الخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وقد ذكرنا انه ملك خراسان بعده ففي هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشاذياخ وكان الغز مع السلطان محمود فدامت الحرب الى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم ان محمودا أظهر انه يريد دخول الحمام فدخل الى شهرستان آخر شعبان كالهارب من الغز وأقاموا على نيسابور الى آخر شوال ثم عادوا راجعين فعاثوا في القرى ونهبوها ونهبوا طوس نهبا فاحشا وحضروا المشهد الذي لعلي بن موسى وقتلوا كثيرا ممن فيه ونهبوهم ولم يعرضوا القبة التي فيها القبر فلما دخل السلطان محمود الى نيسابور امهله المؤيد الى ان دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة واخذه وكحله واعماه واخذ ما كان معه من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة وكان يخفيها خوفا عليها من الغز لما كان معهم وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها مما هو في تصرفه وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله واخذ ابنه جلال الدين محمدا الذي كان قد ملكه الغز امرهم قبل ابيه وقد ذكرنا ذلك وكحله ايضا وسجنهما ومعهما جواريهما وحشمهما وبقيا فيه فلم تطل ايامهما ومات السلطان محمود ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت ابيه والله اعلم

(ذكر عمارة شاذياخ نيسابور)

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان اميرا على خراسان للمأمون وسبب عمارتها انه رأى امرأة جميلة تقود فرسا تريد سقيه فسألها عن زوجها فأخبرته به فاحضره وقال له خدمة الخيل بالرجال اشبه فلم تقعد انت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك فبكى الرجل وقال له ظلمك يحملنا على ذلك فقال وكيف قال لانك تنزل الجند معنا في دورنا فان خرجت انا وزوجتي بقي البيت فارغا فيأخذ الجندي ما لنا فيه وان سقيت انا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجندي فرأيت ان اقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس فعظم الامر عليه وخرج من البلد لوقته ونزل في الخيام وامر الجند فخرجوا من دور الناس وبنى شاذياخ

ثم كاتب ايلك الخان السلطان يمين الدولة مهنئا له بما ذخر الله له من خالصة الملك * وصافية الملك * وظاهر اليه من ظاهرة العز وباطنة الصنع ومهتدا لنفسه بما قطفه من عقد وده وريحانه * ملاوة على صفقة اقباله * وعلاوة على جماله وجلاله * وتردد السفراء بينهما في وصلة تبل رحم الحال * وتؤكد اسباب المودة والوصال * وتحمي حريم الثقة في الجانبين * وترفع ستر الحشمة في ذات البين * وتؤدي رتبة الاختلاط الى الامتزاج * وقربة الاشتباك الى الاشتباج * فتصير النفوس واحدة * والسواعد على وجوه مصالحها متساعدة * فانهض السلطان عند المامه كان بنيسابور في طلب ابي ابراهيم المنتصر الساماني ابا الطيب سهل ابن محمد بن سليمان الصعلوكي امام اهل الحديث بها رسولا الى ايلك الخان وضم اليه طغانجق والي سرخس في خطبة كريمته عليه * ونقلها في صحبته اليه * واصحبه ما عدا المنتزالعند من سبائك العقيان * ويواقيت البهرمان *

(ذكر ملك الكرج مدينة آني)

في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج مع ملكهم وساروا الى مدينة آني من بلاد اران وملكوها وقتلوا فيها خلقا كثيرا فانتدب لهم شاه أرمن بن ابرهيم بن سكمان صاحب خلاط وجمع العساكر واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير وساروا اليهم فلقوه وقاتلوه فانهزم المسلمون وقتل اكثرهم وأسر كثير منهم وعاد شاه ارمن منهزما ولم يرجع معه غير أربعمائة فارس من عسكره

(ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى)

كان أمير مكة هذه السنة قاسم بن فليتة بن قاسم بن ابى هاشم العلوى الحسنى فلما سمع بقرب الحاج من مكة صادر المجاورين وأعيان اهل مكة وأخذ كثيرا من أموالهم وهرب من مكة خوفا من أمير الحاج أرغش وكان قد حج هذه السنة زين الدين على بن بكتكين صاحب جيش الموصل ومعه طائفة صالحة من العسكر فلما وصل أمير الحاج الى مكة رتب مكان قاسم بن فليتة عمه عيسى بن قاسم بن ابى هاشم فبقى كذلك الى شهر رمضان ثم ان قاسم بن فليتة جمع جمعا كثيرا من العرب اطمعهم فى مال له بمكة فاتبعوه فسار بهم اليها فلما سمع عمه عيسى فارقها ودخلها قاسم فاقام بها أميرا أياما ولم يكن له مال يوصله الى العرب ثم انه قتل قائدا كان معه حسن السيرة فتغيرت نيات أصحابه عليه وكاتبوا عمه عيسى فقدم عليهم فهرب وصعد جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم عليه قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليتة واستقر الامر بعده لعيسى والله أعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة سار عبد المؤمن بن على الى جبل طارق وهو على ساحل الخليج مما يلى الاندلس فعبر المجاز اليه وبنى عليه مدينة حصينة وأقام بها عدة شهور وعاد الى مراكش وفيها فى المحرم ورد نيسابور جمع كثير من تركمان بلاد فارس ومعهم اغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن ونزلوا على مرحلتين من طابس كيلكى وباتوا هناك فنزل اليهم الاسماعيلية وكبسوهم ليلا ووضعوا السيف فيهم فقتلوا اكثرهم ولم ينج منهم الا الشريد وغنم الاسماعيلية جميع ما معهم من مال وعروض وعادوا الى قلاعهم وفيها كثرت الامطار فى اكثر البلاد ولاسيما خراسان فان الامطار توالت فيها من العشرين من المحرم الى منتصف صفر لم تنقطع ولا رأى الناس فيها شمسا وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن على صاحب ارزن الروم قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره وأسر هو وكانت اخته شاه بانوار قد تزوجها شاه ارمن ابن سكمان بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط فارسلت الى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت منه ان يفاديها باخيها فاطلقه فعاد الى ملكه وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود صاحب الشام ملتجئا اليه فامنه وسير معه عسكرا يمنعه من الفرنج ايضا فظهر عليهم فى الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم الباقون وفيها ملك قرا ارسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان وكانت لطائفة من الاكراد يقال لهم الجوبية فلما ملكها خربها وأضاف ولايتها الى حصن طالب وفيها توفى الكمال حمزة بن على بن طلحة

ترتيبات خراسان * من أعيان
رعايا السلطان * عين الدولة
وأمين الملة * رو سوء الفضل
من أوليائه * فمن منثور
كلامه قوله من تصدر قبل
أوانه * فقد تصدى لهوانه *
يشير الى قول منصور الفقيه
الكلب أعلى همة
وهو النهاية فى الخساسه
ممن ينافس فى الريا
سة قبل أوقات الرياسة
وقوله العقل أطيب عيش *
والعدل أغلب جيش * وقوله
اذا كان رضا الخلق معسورا
لا يدرك * فان ميسوره لا يترك *
وقوله انما يحتاج الى اخوان
العشرة * لامكان العسرة *
وقوله من تغافل عنك مع علمه
بحاجتك الى عونه وتوفيره *
طالب عليك عليه اداء تبعته
على تقديره * كأنه ألم فيه بقول
القائل
توق الناس يا ابن أبى وأمى
هم تبع المخافة والرجاء
ألم تر مظهرين على عتبا
وكانوا أمس اخوان الصفاء
بليت بنكبة فغدوا وراحوا
على أشد أسباب البلاء
ابت اقدارهم ان ينصرونى
بمال او بجاه أو براء
وخافوا أن يقال لهم خذلتم
صديقا فادعوا قدم اعتداء
ولبعض أهل العصر فيه
كلام الامام امام الكلام
وقوه ينوء بحر النظام
غرائب معانيه فى نظمها

فكان آخر عهدي به وقال عمارة ايضا ومن عجيب الاتفاق انى انشدت ابنه قصيدة اقول فيها

ابوك الذى تسطو الليالى بحده * وانت يمين ان سطا وشمال

لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومئال

تخالسك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

فانتقل الامر اليه بعد ثلاثة أيام

(ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد)

فى هذه السنة فى شهر رمضان اجتمعت خفاجة الى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك فمنعهم أمير الحاج ارغش وهو مقطع الكوفة ووافقه على منعه الامير قيصر شحنة الحلة وهما من مماليك الخليفة فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والحلة فأسرى اليهم الامير قيصر شحنة الحلة فى ماتين وخمسين فارسا وخرج اليه ارغش فى عسكر وسلاح فانتزحت خفاجة من بين أيديهم وتبعهم العسكر الى رحبة الشام فأرسل خفاجة يعتذرون و يقولون قد قنعنا بلبن الابل وخبز الشعير وانتم تمنعونا رسومنا وطلبوا الصلح فلم يجبهم ارغش وقيصر وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وارسلت العرب طائفة الى خيام العسكر ورحالهم فحالوا بينهم وبينها وحمل العرب حملة منكرة فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الامير قيصر وأسرت جماعة أخرى وجرح أمير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شيخها واخذ له الامان وسيره الى بغداد ومن نجا مات عطشا فى البرية وكان اماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى فاذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه فخرج فى طلب خفاجة فدخلوا البرية وخرجوا الى البصرة ولما دخلوا البر عاد الوزير الى بغداد وارسل بنو خفاجة يعتذرون و يقولون بغى علينا وفارقنا البلاد فتبعونا واضطررنا الى القتال وسألوا العفو عنهم فأجيبوا الى ذلك

(ذكر حصر المؤيد شارستان)

فى هذه السنة حصر المؤيد اى ابه مدينة شارستان قريب نيسابور وقاتله اهلها ونصب المجانيق والعرادات فصبر اهلها خوفا على انفسهم من المؤيد وكان مع المؤيد جلال الدين الموفق الفقيه الشافعى فبينما هو راكب اذ وصل اليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة وتعدى الحجر منه الى شيخ من شيوخ بيهق فقتله فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على اهل العلم خصوصا أهل السنة والجماعة وكان فى عنفوان شبابه رحمه الله لما قتل ودام الحصار الى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجكى صاحبها بعدما كثر القتل ودام الحصر وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم ارباب النهى والامر وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها احدهم خواجكى هذا والثانى داعى بن محمد ابن اخى حرب العلوى والثالث الحسين بن ابى طالب العلوى الفارسى فنزلوا كلهم ايضا الى المؤيد اى ابه فيمن معهم من اشياعهم واتباعهم فاما خواجكى فانه اثبت عليه انه قتل زوجته ظلما وعدوانا واخذ مالها فقتل بها وملك المؤيد شارستان وصفت له فنهبها عسكره الا أنهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوها

بعد ان طال اغترابه * والحبيب الطف اعتابه * بعد ان تقدم هجره واجتنابه * اعظاما منهم لقدر وفادته عن باب السلطان * فى ذلك المهم من الشان * ثم افضله فى نفسه فهو الامام المقدم * والصدر المتشم * ومن لا يقرب الى ربابته ضريب له فى ابواب الفضائل * وخصوصا فى حلال ابيات المسائل * واقام باوزجند الى ان فرغ من امر الزفاف * وازمعت عليه فى الانصراف * فعاد على جناح النجاح مصحوبا بحمولات الترك من نفيس المعادن ونوافج المسك وقود المراكب * وعيس الركائب * وورود الوصفاء والوصائف وبيض البزاة وسود الاوبار ونصب الختو واحجار اليشب وطرائف الصين وانعقدت الحال بين السلطان * وبين ايلك الخان * اتحادا اشتركا فيه المرائع والنعم * واستحكم فيه الصنائع والخدم * وبقيت على جملتها فى التأكد والتأكد الى أن نزغ الشيطان بينهما فنغلت الضمائر * واتفقت القوى والمرائر * وتولى السيف تدبير ذلك الوصال فحل معقوده * وفصل مسروده * وسيأتى الشرح على الوقائع التى جرت بينهما على الاثر فأما الآن فانى أشير الى نبذ من محاسن هذا الشيخ السفير * والكافل فى الامر بالتدبير * واتبعه بذكر

*(ذكر

اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم ابو سعيد واقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والابطال حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ ابو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر وكان قد سار الى مدينة سلا فسير في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين بجدوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذى أمر به ابن همشك اولا وهم الفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فاقاموا في سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذى بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جهاتهم فما لحقوا يركبون فقتلوهم عن آخرهم واقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك انهم لا طاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة في باقى السنة المذكورة وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا الى مراكش

(ذكر حصر نور الدين حارم)

في هذه السنة جمع نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الشام العساكر بحلب وسار الى قلعة حارم وهي للفرنج غربي حلب فحصرها وجد في قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه اليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه فلما رأى انه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه الى المصاف عاد الى بلاده وممن كان معه في هذه الغزوة مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ الكنانى وكان من الشجاعة في الغاية فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد شيزر وكان قد دخله في العام الماضي سائرا الى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه

لك الحمد يا مولاى كم لك منة * علىّ وفضل لا يحيط به شكرى

نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزو موفور النصيب من الاجر

ومنه رحلت العيس في عامى الذى * مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فاديت مفروضى واسقطت ثقل ما * تحملت من وزر الشبيبة عن ظهرى

(ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكى)

في هذه السنة في رجب ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكى وسبب ذلك ان سنقر الهمدانى صاحبها سلمها الى أسعد مملوكه ومضى الى همذان فضعف هذا المملوك عن مقاومة ما حولها من التركمان والاكراد فاشير عليه ببيعها من الخليفة فراسل في ذلك فاستقرت على خمسة عشر الف دينار وسلاح وغير ذلك من الامتعة وعدة من القرى فسلمها وتسلم ما استقر له واقام ببغداد وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بايدى التركمان والاكراد الى الآن

(ذكر الحرب بين المسلمين والكرج)

فاما كتابته فالسحر الحلال * والعذب الزلال * فهي تحكى بما تحتوى به من لطف العباره * وحسن الاستعاره * ومعسول الاشارة والشاره * رياض مشتاه الى قرارة * ومن منثور كلامه رسائل منها ما كتب به الى شمس المعالى قابوس بن وشمكير اقرأتيه كاتبه بسم الله الرحمن الرحيم كتب العبد وحاله فيما يبديه مولاه * من شرف اقباله ورضاه * ويفيضه عليه من ملابس فضله ونعماه * حال من تقبل عليه دنياه * ويسعد في ظل دولته باولاه واخراه * والحمد لله رب العالمين وصل كتاب الامير موشحا بدرر خطابه * وغرر ايجابه * وبدائع بره وافضاله * وروائع انعامه واشباله * فيما آكرمنى به من عز العباده * والبسنيه من حلل الفوز والسعاده * وشرفنى به على الهيئة على العافية المستفاده * فاوصل ترايق على الايام أثره * ولا يحاق على مر الزمان ذكره ومفخره * وفهمه العبد فهم من آنس منه رشدا * واقتبس من اثنائه قوة وأيدا * وحمد لله شكرا على ما افاض عليه من جمال السلامه * ومد عليه من ظلال الفضل والكرامه * ورغب اليه في اسباغ العوارف عليه * وصرف المحاذر عنه فاما ما أهل الامير العبد له من

صاحب المخزن كان جليل القدر أيام المسترشد بالله وولي المقتفي وبنى مدرسة لاصحاب الشافعي بالقرب من داره ثم حج وعاد وقد لبس الفوط وزي الصوفية وترك الاعمال فقال بعض الشعراء فيه

يا عضد الاسلام يا من سمت * الى العلا همته الفاخره
كانت لك الدنيا فلم ترضها * ملكا فاخلدت الى الآخره

وبقي منقطعا في بيته عشرين سنة ولم يزل محترما يغشاه الناس كافة

(ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها)

في هذه السنة في السابع والعشرين من صفر نازل المؤيد أي ابه ابا بكر جاندار بقلعة وسكرة نخوى من طوس وكان قد تحصن بها وهي حصينة منيعة لاترام فقاتله واعانه اهل طوس على أبي بكر لسوء سيرته كانت فيهم وظلمه فلما رأى ابو بكر ملازمة المؤيد ومواصلة القتال عليه خضع وذل ونزل من القلعة بالامان في العشرين من ربيع الاول من السنة فلما نزل منها حبسه المؤيد وامر بتقييده ثم سار منها الى كرستان وصاحبها ابو بكر فاخر فنزل من قلعته وهي من أمنع الحصون على رأس جبل عال وصار في طاعة المؤيد ودان له ووافقه وسير جيشا في جمادى الآخرة منها الى اسفراين فحصن رئيسها عبد الرحمن بن محمد بن على الحاج بالقلعة وكان أبوه كريم خراسان على الاطلاق ولكن كان عبد الرحمن هذا بئس الخلف فلما تحصن احاط به العسكر المؤيدي واستنزلوه من الحصن وحملوه مقيدا الى الشاذياخ وحبس بها وقيل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وملك المؤيد أيضا قهندز نيسابور واستدارت عساكر المؤيد حول نيسابور وعادت الى ما كانت عليه قبل الا ان أهلها انتقلوا الى الشاذياخ وخربت المدينة العتيقة وسير المؤيد جيشا الى خواف وبها عسكر مع بعض الامراء اسمه ارغش فكمن ارغش جمعا في تلك المضايق والجبال وتقدم الى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين فانهزم عسكر المؤيد وقتل منهم جمع وعاد الباقون الى المؤيد بنيسابور وسير جيشا الى بوشنج هراة وهي في طاعة الملك محمد بن الحسين الغوري فحصروها واشتد الحصار عليها وقام القتال والزحف فسير الملك محمد الغوري جيشا اليها ليمنع عنها فلما قاربوا هراة فارقها العسكر الذي يحصرها وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغورية

(ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها اليه)

في هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهي لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد وصار من أصحاب عبد المؤمن وفي طاعته ومن يحرضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة سار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الاندلس فارسل اليه الفي فارس من انجاد أصحابه ومن الفرنج الذين يجندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقوا هم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول ابي سعيد

يمزج المدام بماء الغمام

وله فيه

الأيم الشيخ الامام ومن به
تبلج افق الدهر عن فائق البشر
لئن كنت في الدنيا وانت وشاحها
عيانا فان الدر في صدف البحر
ولم تحوك الدنيا لانك دونها
ولكن لب الشيء يحصن بالقشر
وقد صين نصل السيف تحت قرابه
كما صين نور العين بالجفن والشفر

ومن أعيان رعايا السلطان بنيسابور ابو نصر أحمد ابن على بن اسمعيل الميكالي وهو صنيعة السلطان وشيخ مملكته* وجمال حضرته* فضلا وفورا* وأدبا مشهورا* وعزائم مقودا* ومالا ممدودا* ورأيا كالدرى مشارا* وحزما كالدر مغارا* وودها يسلخ الليل البهيم نهارا* ونظرا يستشف أستار المصائر* فيستكشف اسرار الضمائر* وشعرا نقي السبك والجوهر* ذكي المسك والعنبر* رضي المورد والمصدر* فمنه قوله

باني العلا والمجد والاحسان
والفضل والمعروف اكرم باني
ليس البناء مشيدا لك شيده
مثل البناء يشاد بالاحسان
البر اكرم ما حوته حقيبة
والشكر اكرم ما حوته يدان
واذا الكريم مضى وولى عمره
كفل الثناء له بعمر ثاني

التى تليه مقابله الى سوق الصفرة الحديد والخان الذى فى الرحبة ودكاكين البزوريين وغيرها

وفيها توفى الكيا الصباحى صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية وقام ابنه مقامه فاظهر التوبة وأعاد هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان وأرسلوا الى قزوين يطلبون من يصلى بهم ويعلمهم حدود الاسلام فارسلوا اليهم وفيها فى رمضان درس شرف الدين يوسف الدمشقى فى المدرسة النظامية ببغداد وكان مدرسا بمدرسة أبى حنيفة وكان موته فى ذى القعدة وفيها توفى صدقة بن وزير الواعظ وفيها فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل وهو من الشام من بلد بعلبك فانتقل الى الموصل وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحى وأطاعوه وحسنوا الظن فيه وهو مشهور جدا

(ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة)

(ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده)

فى هذه السنة فى صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوى صاحب مصر وكان ابتداء أمره ووزارته انه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فاقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال بعد الوزارة فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل انه لا يغير على شاور فانى انا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنى عزله فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون فلما توفى الصالح من جراحته وولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فارسل اليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فأخذ وقتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهرا وأياما وصار شاور وزيرا وتلقب بامير الجيوش وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم وأخذ منه أيضا طى والكامل ابنا شاور شيأ كثيرا وتفرق كثير منها وجحد وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ثم ان الضرغام جمع جموعا كثيرة ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وظهر أمره وانهزم شاور منه الى الشام على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصار ضرغام وزيرا كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك وشاور وضرغام فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين لتخلوله البلاد من منازع فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم

(ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف)

فى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة توفى عبد المؤمن بن على صاحب بلاد المغرب وافريقية والاندلس وكان قد سار من مراكش الى سلا فمرض بها ومات ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم قد جربت ابنى محمدا فلم أره يصلح لهذا الامر وانما يصلح له ابنى يوسف وهو أولى بها فقدموه ووصاهم به وبايعوه ودعى بامير المؤمنين وكتموا موت عبد المؤمن وحمل من سلا فى محفة بصورة مريض الى ان وصل الى مراكش وكان ابنه

قليل منك يكفينى ولكن
قليلك لا يقال له قليل
ولقد اكثر الشعراء فى مدحه
لكنى اثبت أبياتا لابى بكر
الخوارزمى من قصيدة فيه
اولها
زف المنام الى طيف خياله
لوأن طيفا كان من ابداله
لوأن هذا الدهر يشكر لم يدع
شكر الامير وقد غدا من آله
لا يعرف الاسلاح نائله ولا
يول امرئ يثنيه عن اسآله
الوفر عند نواله والنيل
عند
سؤاله والموت عند صياله
والخلق من سؤاله والجود من
عماله والدهر من عماله
وفعاله كمقاله وشماله
كيمينه ويمينه كشماله
تجمع الآمال فى أمواله
فيفرق الاموال فى آماله
لا عز الاعز فى عزه
لاسر الاساء من ساله
وله علوم لو قسمن على الورى
ما زاد عاقله على جهاله
وشمائل لوانهن كواكب
اضحى السها فى الضوء مثل
هلاله
وفصول قول هن اعذب موردا
من راحة المشغول من أشغاله
سمح البديهة ليس يمسك لفظه
فكأنما الفاظه من ماله
وكأنما عزماته وسيوفه
من حدهن خلقن من اقباله
متبسم فى الخطب تحسب انه
من حسنه متلذذ بفعاله

في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج في خلق كثير يزيدون على ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الاسلام وقصدوا مدينة دوين من اذربيجان فملكوها ونهبوها وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا الى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين وقلن لهم قد أحوجتم المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم وكسونهن ولما بلغ الخبر الى شمس الدين ايلدكز صاحب اذربيجان والجبل واصفهان جمع عساكره وحشدها وانضاف اليه شاه أرمن بن سكمان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة وغيرهما فاجتمعوا في عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل وساروا الى بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين ونهبوها وسبوا النساء والصبيان وأسروا الرجال ولقيهم الكرج واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر وكان الظفر للمسلمين فانهزم الكرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك وكان سبب الهزيمة ان بعض الكرج حضر عند ايلدكز فاسلم على يديه وقال له تعطيني عسكرا حتى أسير بهم في طريق أعرفها واجيء الى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون فاستوثق منه وسير معه عسكرا وواعده يوما يصل فيه الى الكرج فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبيناهم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم فانهزموا وكثر القتل فيهم والاسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الاحصاء لكثرته فانهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم فخيب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها وعاد المسلمون منصورين قاهرين

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصل الحجاج الى منى ولم يتم الحج لاكثر الناس لصدهم عن دخول مكة والطواف والسعي فمن دخل يوم النحر مكة طاف وسعى وكمل ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة كان سببها ان جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم الى مكة وجمعوا جمعا وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريبا من ألف جمل فنادى أمير الحاج في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم فقتل جماعة ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد وعاد كثير من الناس رجالة لقلة الجمال ولقوا شدة وممن حج هذه السنة جدتنا أم أبينا ففاتها الطواف والسعي فاستفتت لها الشيخ الامام أبو القاسم بن البرزي فقال تدوم على ما بقي عليها من احرامها وان أحبت تفدي وتحل من احرامها الى قابل وتعود الى مكة فتطوف وتسعى فتكمل الحجة الاولى ثم تحرم احراما ثانيا وتعود الى عرفات فتقف وترمي الجمار وتطوف وتسعى فتصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها الى قابل وحجت وفعلت كما قال فتم حجها الاول والثاني وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار واشتد نيسان وكان أكثره بجوين ونيسابور وما والاهما فاهلك الغلات ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام وفيها في جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد احترق سوق الطيوريين والدور

شريف كتابه * ولطيف خطابه * ورقاه اليه من درجة العبادة اولا * ومنزلة التهنئة ثانيا * وانفاذ القاصد به ثالثا * فان ذلك من نتائج همته العاليه * ودواعي شيمته الزاكيه * التي تحنوه على اوليائه وخدمه * وتعطفه على اغذياء نعمه * فليس له في مقابلة ما اولاه * ومعارضة ما كساه * الا الشكر بيديه والنشر بفيه * والرغبة الى الله تعالى بخلوصها في اطالة بقائه * وادامة عزه وعلائه * والنهوض بواجب خدمته * ومعرفة قدر نعمته عنده ورحمته * هذا ولو ملك العبد في مقابلة هذه النعمة على جلالة قدرها * ونباهة خطرها وذكرها * غير بذل المهجة والتروية في الطاعة * واستنفاد الوسع والطاقة * غاية ابلغها اتقربا الى حقوقه بما يقتضيها * ويؤدي شرط العبودية فيها * وحكم على نفسه بالعجز والتقصير معها واذ قد حرم المراد فانه يتمسك الابالرغبة الى الله تعالى في أن يتولى من مكافاته بما لا يسمح به الا يده * ولا يفي به الا مجده * فهذا هو الكلام الذي ليس به عثار * ولا عليه غبار * قد ولي الفضل تحبيره * وولي العقل وضعه وتصويره * والقليل منه على الكثير دليل * وكلام الجليل كقدره جليل * كما قيل

أموال المسلمين وتسخطوا الله تعالى فان الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم ولما قتل عاد الغز الى بلخ ومرو وقد غنموا شيئا كثيرا من العسكر الغوري لان اهله تركوه ونجوا

(ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج)

في هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكي من الفرنج تحت حصن الاكراد وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة تحت حصن الاكراد محاصرا له وعازما على قصد طرابلس ومحاصرتها فبينما الناس يوما في خيامهم وسط النهار لم يرعهم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الاكراد وذلك ان الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا فانهم يكونون آمنين فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون الا وقد قربوا منهم فارادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فارسلوا الى نور الدين يعرفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج في ظهورهم فوصلوا معا الى العسكر النوري فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم فاكثروا القتل والاسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي فانه كان قد خرج من بلاده الى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رجله فنزل انسان كردي قطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي فاحسن نور الدين الى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة قدس بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربع فراسخ وتلاحق به من سلم من العسكر وقال له بعضهم ليس من الرأي ان تقيم ههنا فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء الينا فنؤخذ ونحن على هذا الحال فوبخه وأسكته وقال اذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا ابالي بهم ووالله لا استظل بسقف حتى آخذ بثاري وثار الاسلام ثم أرسل الى حلب ودمشق واحضر الاموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فاعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة وكل من قتل أعطى اقطاعه لاولاده واما الفرنج فانهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لانها أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا لم يفعل هذا الا وعنده قوة يمنعنا بها ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خرجه قال له بعضهم ان لك في بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال والله اني لا ارجو النصر الا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي ان أعطيه غيرهم ثم ان الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم

(ذكر اجلاء بني أسد من العراق)

في هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله باهلاك بني أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم ولما كان في نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمدا لما حصر بغداد فامر

نجوم سماء كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوي اليه كواكبه
اضاءت لهم احسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
وما زال منا حيث كان مسود
تسير المنايا حيث سارت كتائبه

(ومما يعتد من مفاخره) ابنان له ابو الفضل وابو ابراهيم عبيد الله واسمعيل ابنا اسعد كل منهما بدر في ضيائه وعلائه * وبحر في تياره وغنائه * غير ان ابا الفضل ابرع في لطائف الادب * وانظم لقلائد شعر العرب * وقد سار له من النظم والنثر ما يزري بحبره وشي صنعاء * وزهره بروض صنعاء * (فمن فصول كلامه قوله) وصل كتاب الشيخ فأذعنت القلوب لفضله بالاعتراف * واتفقت الالسن في وصفه ببدائع الاوصاف * فمن مدع انه رقة الوصل * ورقة العذل * ومفصل انه عقد السحر * وعقد السحر * وسمط الدر * وقائل هو سلاف العنقود * ونظم العقود * فأما انا فتركت التمثيل * وسلكت التحصيل * وقلت هو سماء فضل جاد بصوب الحكم * ووشي طرح ما كسته القلم * ونسيم خلق تنفس عنه روض الكرم * (وأيضا له) وصل كتابك فكان احسن من روض

أبو حفص في تلك المدة حاجباً لابيه فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ويوسف يقعد مقعد أبيه الى ان كانت المبايعة له في جميع البلاد واستقرت قواعد الامور له ثم أظهر موت أبيه عبد المؤمن فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهوراً وكان عاقلاً حازماً سديد الرأي حسن السياسة للامور كثير البذل للاموال الا انه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس في سائر بلاده بالصلاة ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الاشعري في الاصول وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين المرجع اليهم والكلام معهم ولهم

(ذكر ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان ارسلان بخراسان)

في هذه السنة سار المؤيد أي ابه صاحب نيسابور الى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان واستناب بقومس مملوكه تنكز فاقام تنكز بمدينة بسطام فجرى بين تنكز وبين شاه مازندران اختلاف أدى الى الحرب فجمع كل منهما عسكره والتقوا أوائل ذي الحجة في هذه السنة واقتتلوا فانهزم عسكر مازندران وأخذت اسلابهم وقتل منهم طائفة كبيرة ولما ملك المؤيد بلاد قومس أرسل اليه السلطان ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعاً نفيسة وألوية معه مودة وهدية جليلة وامره ان يتم باشغال بلاد خراسان ويتولى ذلك اجمع وان يخطب له فلبس المؤيد الخلع فخطب له في البلاد التي هي بيده وكان السبب في هذا اتابك شمس الدين ايلدكز فانه كان هو الذي يحكم في مملكة ارسلان وليس لارسلان غير الاسم وكان بين ايلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما اطاع المؤيد السلطان ارسلان خطب له ببلاده وهي قومس ونيسابور وطوس واعمال نيسابور جميعها ومن نسا الى طبس كنكلي وكان يخطب لنفسه بعد ارسلان وكانت الخطبة في جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن ارسلان بن اتسز وبعده للامير ايثاق وكانت الخطبة في مرو وبلخ وهراة وسرخس وهذه البلاد بيد الغز الا هراة فانها بيد الامير ايتكين وهو مسالم للغز فكانوا يخطبون للسلطان سنجر فيقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد المبارك سنجر وبعده للامير الذي هو الحاكم في تلك البلاد

(ذكر قتل الغز ملك الغور)

في هذه السنة في رجب قتل سيف الدين محمد بن الحسين الغوري ملك الغور قتله الغز وسبب ذلك انه جمع عساكره وحشد فاكثر وسار من جبال الغور يريد الغز وهم ببلخ واجتمعوا وتقدموا اليه فاتفق ان ملك الغور خرج من معسكره في جماعة من خاصته جريدة فسمع به امراء الغز فساروا يطلبونه مجدين قبل ان يعود الى معسكره فاوقعوا به فقاتلهم اشد قتال رآه الناس فقتل ومعه نفر ممن كان معه واسر طائفة وهربت طائفة فلحقوا بعسكرهم وعادوا الى بلادهم منهزمين لا يقف الاب على ابيه ولا الاخ على أخيه وتركوا كل ما معهم بحاله ونجوا بنفوسهم فكان عمر ملك الغور لما قتل نحو عشرين سنة وكان عادلاً حسن السيرة فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم انه حاصر أهل هراة فلما ملكها أراد عسكره ان ينهبوها فنزل على درب المدينة واحضر الاموال والثياب فاعطى جميع عسكره منها وقال هذا خير من ان تنهبوا

اموال

هنى وفيت بحمده عن فضله
من ذا يفي بالشكر عن أفضاله
(وله أيضاً من قصيدة أولها)
تلك الديار فريسة الاحقاب
صنعت بهن صنيع ساكنها بي
والى الامير ابن الامير تواهقت
رزحى الركاب برازحى الركاب
لبسوا الدجى لبس الغراب
لريشه
وغدوا الحاجم غدو غراب
والنجم يطرف والظلام كأنه
فضلات عتب في خلال عتاب
طلب واهي أفعاله محسوبة
ونواله فوضى بغير حساب
غذت المدائح وهي أسماؤه
ولغيره أضحين كالالقاب
والمكرمات كثيرة الخطاب
الا انها تأبى على الخطاب
متبسم الجلباب مكتئب العدى
مثرى النديم مجازف الحساب
شيم أرق من الهوى وألذ من
خطأ العدو ورددته بصواب
وعزائم لو كن يوماً أسهما
انفذن في الايام غير نوابي
لمانعة الحركات الا انها
تاريه الاقدام والالباب
يخطرن بين سياسة ورياسة
ويقعن بين مثوبة وعقاب
قد اصبحت الفاظه صور النهى
وقوالب الاسماع والالباب
واذا سألت له سمياً واحداً
حل المؤمل منك اقسى جناب
وما آل ميكال الا كما قال
أبو الطمحان القيني
واني من القوم الذين هم هم
اذا مات منا سيد قام صاحبه

علاها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى بمخافة فتجهز
وسار واجتمعا وشاور فى صحبتهم فى جمادى الاولى من سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين
الى شيركوه أن يعيد شاورا الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف
بلاد الفرنج مما يلى دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه فكان
قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين بالعساكر معه الى مدينة بلبيس
فخرج اليهم ناصر الدين اخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد الى القاهرة ووصل
أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل
عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن فى القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع
على شاور مستهل رجب وأعيد الى الوزارة وتمكن منها وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به
شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا وأرسل اليه يأمره
بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور اليه فلما
رأى ذلك أرسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فأرسل شاور الى
الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد ايقنوا بالهلاك ان تم
ملكه لها فلما ارسل شاور يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرج
لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم
مالا على المسير اليه وتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم
ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر أشد فتركوا
فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع
كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فاعانوهم فسار
بعضهم معهم واقام بعضهم فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد
مدينة بلبيس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية
والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها مع ان
سورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا
منه غرضا ولا نالوا منه شيأ فبينما هم كذلك اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نور
الدين حارم ومسيره الى بانياس على ما نذكره ان شاء الله تعالى فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا
العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر
وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان
الاقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة فحدثنى من رأى اسد الدين حين
خرج من بلبيس قال اخرج اصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم
والمسلمون والفرنج ينظرون اليه قال فاتاه فرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له
أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وباصحابك ولا يبقى لكم
بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما افعله كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا
رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم

النعمة * عروس مهرها
الشكر * ونور صوانه
الشمر * النعمة عنده من
اوجه تكتسى أطمارا *
وتشكى غربة واسارا *
ولى المغرور يسعف من
الرعب فى حلق * ويجرى
مع الريح فى طلق * دارت
رحا الحرب بين أعمار تباح *
ودماء تستباح * وأجسام
تطاح * وأرواح تسفى بها
الرياح * فالسيوف للهامات
دامغه * والرماح فى الاكباد
والغه * ومن نظمه قوله

لقد راعنى بدر الدجى بصدوده
ووكل أجفانى برعى كواكبه
فيا جزعى مهلا عساه يعود لى
ويا كبدى صبرا على ما كوالك
به

وقوله أيضا

ضاق صدرى فى هوى قمر
قمر القلب وما شعرا
ليت أجفانى به سعدت
فترى الجفن الذى فترا

وقوله أيضا

تفرق قلبى فى هواه فعنده
فريق وعندى شعبة وفريق
اذا ظمئت نفسى أقول له
اسقنى
فان لم يكن راح لديك فريق

وقوله

أنكرت من أدمعى تترى
سواكبها
سلى جفونى هل أبكى سوالك
بها

يزدن بن قماج بقتالهم واجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين فى البطائح والاوير فلا يقدر عليهم فتوجه يزدن اليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل وارسل الى ابن معروف مقدم المنتفق وهو بارض البصرة فجاء فى خلق كثير وحصرهم وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فارسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه الى موافقته فى التشيع وكان يزدن يتشيع فجد هو وابن معروف فى قتالهم والتضييق عليهم وسدّ مسالكهم فى الماء فاستسلموا حينئذ فقتل منهم أربعة آلاف قتيل ونودى فيمن بقى من وجد بعد هذا فى الحلة المزيدية فقد حل دمه فتفرقوا فى البلاد ولم يبق منهم بالعراق من يعرف وسلمت بطائحهم الى ابن معروف وبلادهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة وقع فى بغداد حريق فى باب درب فراشا الى مشرعة الصباغين من الجانبين وفيها فى رجب توفى سديد الدولة أبو عبد الله بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم المعروف بابن الانبارى كاتب الانشاء بديوان الخلافة وكان فاضلا أديبا ذا تقدم كثير عند الخلفاء والسلاطين وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة الى الآن فى ديوان الخلافة وعاش حتى قارب تسعين سنة وتوفى فى رمضان هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز بن محمد المتوثى وسمع الحديث وهو من الشعراء المشهورين الا انه كثير الهجو ومن شعره

يامن هجرت ولا تبالى * هل ترجع دولة الوصال
هل اطمع ياعذاب قلبى * ان ينعم فى هواك بالى
الطرف كما عهدت باك * والجسم كما ترين بال
ماضرك ان تعلليني * فى الوصل بموعد المحال
اهواك وأنت حظ غيرى * ياقاتلتى فما احتيالى

وهى اكثر من هذا

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين الى ديار مصر وعودهم عنها)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرا كثيرا الى مصر وجعل عليهم الامير أسد الدين شيركوه بن شاذى وهو مقدم عسكره وأكبر امراء دولته واشجعهم وسنذكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده ان شاء الله تعالى وكان سبب ارسال هذا الجيش ان شاور وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر نازعه فى الوزارة ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه الى الشام ملتجئا الى نور الدين ومستجيرا به فاكرم مثواه واحسن اليه وانعم عليه وكان وصوله فى ربيع الاول من السنة وطلب منه ارسال العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقيما بعساكره فى مصر ويتصرف هو بامر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنج فيه ويتخوف ان شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفى ثم قوى عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة

بالربيع * وزينة الوشى الصنيع *
فالقيته بجلبة الاحسان والابداع * وحلية النواظر والاسماع * وبستان الخواطر والطباع * وصيقل الافكار والالباب * ومعيار المعارف والآداب * واجتليت منه ثمرة فضل و يتيمة مجد * وثمرة عقد * ولطيمة خلق وعنبر يجلو صفيحة العهد * ويجيل قدح الانس ويحل من قدر الشكر * كلام أعذب من قرات المطر * وأعبق من فتات المسك والعنبر * يزرى بنور الخمائل * وقد عطرته انفاس الشمائل (ومن منثور الفاظه) اخلاقك قد أخذت من الورد عرفه * ومن النار عبقه * اخلاق هى المسك لولا فارته * والورد لولا مرارته * والماء لولا راجعه الى الكدر * والروض لولا حاجته الى المطر * ووجه البدر لولا محاقه * والمشترى لولا احتراقه * وعارض العوراء * كامن العلاء * وله الشرف اليفاع * والامر المطاع * والعرض المصون والمال المضاع * والنوال السكب * والرأى العضب * وفيه الاباء المر * والكرم العذب وهو واسد البشر * وثانى المطر * وثالث الشمس والقمر * اهنى على دهر اسلمه انه اذ غصن شبابى غض وريق * ويقلى شبرا بى غض وريق *

دبروه وهو ان يتهزم الفرنج فيبعد وا عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين بالسيوف فاذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلا يلجؤن اليه ولا وزرا يعتمدون عليه ويعود المنهزمون فى آثارهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم ومن أيمانهم ومن شمائلهم فكان الامر على ما دبروه فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف عليهم زين الدين على فى عسكر الموصل على راجل الفرنج فافناهم قتلا واسرا وعادت خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على راجلهم فعاد المنهزمون فى آثارهم فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى واسرى فسقط فى ايديهم ورأوا أنهم قد هلكوا وبقوا فى الوسط قد احدق بهم المسلمون من كل جانب فاشتدت الحرب وقامت على ساق وكثر القتل فى الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الاسر فاسروا ما لا يحد وفى جملة الاسرى صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج واشدهم شكيمة على المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل واشار المسلمون على نور الدين بالمسير الى انطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يذب عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فامرها سهل واما القلعة فمنيعة وربما سلموها الى ملك الروم لان صاحبها ابن أخيه ومجاورة بيمند احب الى من مجاورة صاحب قسطنطينية وبث السرايا فى تلك الاعمال فنهبوها واسروا أهلها وقتلوهم ثم انه فادى برنس بيمند صاحب انطاكية واشترى من المسلمين خلقا كثيرا فاطلقهم

(ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا)

فى ذى الحجة من هذه السنة فتح نور الدين محمود قلعة بانياس وهى بالقرب من دمشق وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود الى بلادهم واظهر انه يريد طبرية فجعل من بقى من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها فسار محمود الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين امير أميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الاجر الذى اعد لك لتمنيت ذهاب الاخرى وجد فى حصارها فسمع الفرنج فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الفرنج فى أعمال طبرية وقرروا له على الاعمال التى لم يشاطرهم عليها مالا فى كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصر بانياس الى الفرنج بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا الا وقد ملكها ولما عاد منها الى دمشق كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجواهر وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه فسقط من يده فى شعراء بانياس وهى كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد عن المكان الذى ضاع فيه علم به فأعاد اصحابه فى طلبه ودلهم على المكان الذى كان آخر عهده به فيه وقال أظنه هناك سقط فعادوا اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت

ان يمتر الشك فيك بأنك المهدى مطفى جمرة الدجال

فاعودة الجبل الذى اضللته * بالامس بين غياطل وجبال

زانها الصدور والترائب * فمن ذاته فضل له أحسب أن تكون مكانتى للامير أنها لم ترتع * وبكرا لم تفترع وسابقة لا تركب ولا تحلب فلا أشوبها بأرب * ولا أتسبب اليها بسبب * فهل من لا يشين ولا يطمع * ولا يشوب دعواه عنت ولا طبع * على أن الاضطرار * يقهر فى وجهه الاختيار * والعذر فيه مقبول عند ذوى الاخطار والاحرار * وفلان يمت بحق الجوار * والقد انتشر بوائد شكره * وأظهر بحسن النشر خبايا بره * فلا الارض ثناء * والسماء دعاء * وعادة الامير أن يحيى الآمال * ويسترق الاحرار بالاموال * فليجعل مشكوره هذا الامل محظوظا ولا يجعله محظوظا ان شاء الله تعالى (وله أيضا) رقعتى هذه وأنا عائد معود * وقاصد بالزيارة مقصود * انا طب أصدقائى بما اخاطب * وا كاتب اخوانى بما أكاتب * معانى وقده * وأرضى رعده * تتنابى الجوى * ولا تفارقنى الشكوى * نفسى نفسان ونفسى نفسان * كأن الدول شاطرنى فصوله * فنلت غرته وحجوله * فالربيع بين عينى وشيبوى * والصيف كامن فى صدرى وضلوعى *

فملكت بلادهم ومهلك من بقي والله لو أطاعني هؤلاء لما خرجت اليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال كذا يجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه الى الشام فوصل سالما وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصدا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة

أخذتم عن الافرنج كل ثنية * وقلتم لأيدي الخيل مري على مري
لئن نصبوا في البر جسرا فانكم * عبرتم ببحر من حديد على الجسر

واللفظة مري في آخر البيت الاول اسم ملك الفرنج

(ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم)

في هذه السنة في شهر رمضان فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم من الفرنج وسبب ذلك ان نور الدين لما عاد منهزما من البقيعة تحت حصن الاكراد كما ذكرناه قبل فرق الاموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ما تقدم فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا واخذ في الاستعداد للجهاد والاخذ بثاره واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم الى مصر كما ذكرناه فأراد ان يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر فارسل الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة والى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا والى نجم الدين البي صاحب ماردين وغيرهم من اصحاب الاطراف يستنجدهم فاما قطب الدين فانه جمع عسكره وسار مجدا وفي مقدمته زين الدين علي أمير جيشه واما فخر الدين صاحب الحصن فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه على أي شيء عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقي نفسه في المهالك فكلهم وافقه على هذا الرأي فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ما عدا مما بدا فارقناك امس على حالة فنرى اليوم على ضدها فقال ان نور الدين قد سلك معي طريقا ان لم انجده خرج أهل بلادي عن طاعتي واخرجوا البلاد عن يدي فانه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والاسر ويستمدهم الدعاء ويطلب ان يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من اولئك ومعه اصحابه واتباعه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون علي فلا بد من المسير اليه ثم تجهز وسار بنفسه واما نجم الدين فانه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج فجاؤا في حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم واقبلوا اليه من كل حدب ينسلون وكان المقدم عليهم البرنس بيمند صاحب انطاكية وقمص صاحب طرابلس واعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه رحل عن حارم الى ارتاح طمعا ان يتبعوه فيتمكن منهم لبعدهم عن بلادهم اذا لقوه فساروا فنزلوا على عم ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا الى حارم فلما عادوا تبعهم نور الدين في ابطال المسلمين على تعبية الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي

دبروه

وقوله
ان لي في الهوى لسانا كتوما
وفؤادا يخفي سريق جواه
غير اني أخاف دمعي عليه
ستراه يفشي الذي ستراه
وقوله
انا صديق ان رأى
صهوة فالاطانه
فان يكن في دهرنا
ذو أبنة لاطنهو
وقوله
لا تعجبن بالملياة ذائقه
فكل نفس للمنون ذائقه
وقوله
وكل غنى يتيه به غني
فرتجع لموت أو زوال
فهب جدي زوى لي الارض طرا
أليس الموت يزوي ما زوى لي
ومن أفاضل العلوية ابو البركات علي بن الحسين بن علي بن جعفر بن محمد وهو الملقب بجود بن الحسين ابن علي وهو الملقب بالديباج المدفون بجرجان ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن امير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين
نسب تواتر كابرا عن كابر
كالرمح انبوبا على انبوب
قد جمع الله له بين ديباجتي النظم والنثر فنثره منثور الرياض جادتها السحائب ونظمه منظوم العقود

فلم نر باكيا اكثر من ذلك اليوم فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم الشريف وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا وأما سيرته فكان رحمه الله أسخى الناس واكثرهم بذلا للمال رحيما بالخلق متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة انه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة جسيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وذهبها وعملها بالرخام ولما اراد ذلك ارسل الى المقتفي لامر الله هدية جليلة وطلب منه ذلك وأرسل الى الامير عيسى امير مكة هدية كبيرة وخلعا سنية منها عمامة شراها بثلثمائة دينار حتى مكنه من ذلك وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات والدرج التي يصعد فيها اليه وكان الناس يلقون شدة في صعودهم وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء واجرى الماء اليها من نعمان في طرق معمولة تحت الارض فخرج عليها مال كثير وكان يجرى الماء في المصانع كل سنة أيام عرفات وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى فيد وبنى بها أيضا مسيلا وكان يخرج على باب داره كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار اميري هذا سوى الادرارات والتعهدات للائمة والصالحين وارباب البيوت ومن ابنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس فقبض قبل ان يفرغ وبنى عندها أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالارباد وبنى الربط وقصده الناس من اقطار الارض ويكفيه ان ابن الخجندى رئيس اصحاب الشافعي باصفهان قصده وابن الكافي قاضي همذان فاخرج عليهما مالا عظيما وكانت صدقاته وصلاته من اقاصي خراسان الى حدود اليمن وكان يشترى الاسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام حسب سوى ما يشترى من الكرج حكى لى والدى عنه قال كثيرا ما كنت أرى جمال الدين اذا قدم اليه الطعام يأخذ منه ومن الحلاوى ويتركه في خبز بين يديه فكنت انا ومن يراه نظن انه يحمله الى ام ولده قال فاتفق انه في بعض السنين جاء الى الجزيرة مع قطب الدين وكنت اتولى ديوانها وحل جاريته ام ولده الى دارى لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياما فبينما انا عنده في الطعام وقد اكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس فقمت فقال اقعد فقعدت فلما خلا المكان قال لى قد آثرتك اليوم على نفسي فانى في الطعام ما يمكننى ان افعل ما كنت أفعله فخذ هذا الخبز واجعله انت في كمك في هذا المنديل واترك الجاقة من رأسك وعد الى بيتك فاذا رأيت في طريقك فقيرا يقع في نفسك انه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام قال ففعلت ذلك وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يرونى أفعل ذلك وبقيت في غلماني فرأيت في موضع انسانا أعمى وعنده اولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد فنزلت عن دابتي اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم اياه وقلت للرجل تجيء غدا بكرة الى دار فلان أعنى دارى ولم أعرفه نفسي فانى آخذ لك من صدقة جمال الدين شيأ ثم ركبت اليه العصر فلما رآنى قال ما الذى فعلت في الذى قلت لك أخذت أذكر له شيأ يتعلق بدواتهم فقال ليس عن هذا أسألك انما أسألك عن الطعام الذى حملته اليك فذكرت له الحال ففرح ثم قال بقى أنك لو قلت للرجل يجيء اليك هو واهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجرى لهم كل شهر دنانير قال فقلت له قد قلت للرجل حتى يجيء الى قال فاراد رحاوفعلت بالرجل ما قال ولم يزل يصل اليه رسمه حتى قبض ولهم هذا كثير في ذلك انه تصدق

ترى أنجم الجوزاء والنجم فوقها
كباسط كفيه ليقطف عنقودا

وكتب الى أبي بكر الخوارزمي
لئن كان ذنبي أنى اعتللت
فذلك ذنب صغير صغير
وان كان هجرى من أجله
فذلك ظلم كبير كبير
حسودك عن صدره المصطفى
وصدرك والظن والشر يسير
فزرنى قليلا تجد شاكرا
لديه القليل كثير كثير

(وله في وصف النقانق)
فان كنت تهوى اليوم اكل النقانق
فبادر الى أمثال جيد الفرانق
لى جامع اللذات طيبا وجودة
فسر حقه طاه بصنعة حاذق
تراه على السفود عند صلائه
كرغبة زينت بحلى المخانق
فبعض تدلى كالوشاح وبعضه
منوط عليه في محل المناطق
فانجع اقيت الخير في حاجة امرئ
وفي بشرط الود غير ماذق

(ومن افاضل اضرابهم القاضي ابو القاسم على بن الحسين الداودى برياه)
وهو عندى ممن يستحق أن يقال فيه ما قاله الصاحب لبعض من كان يواليه *
لولا أن قدرة الله عندى جنس واحد لقلت ليس في القدرة وجود مثلك *
في ... كما هو في ذلك ...

لم يعطها الاسلام وقد * نبت الربا وبثت الاعمال

وحوى لسرير ملكاته * كسرى عن كل معالى

فلو الجبال الراسية استهوينه * وأمرتهن قذفنه فى الحال

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنر الذى سلم بانياس الى الفرنج فقال له المسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذلك قال لان اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم

(ذكر اخذ الاتراك غزنة من ملكشاه وعوده اليها)

فى هذه السنة قصد بلاد غزنة الاتراك المعروفون بالغز ونهبوها وخربوها وقصدوا غزنة وصاحبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودى فعلم انه لا طاقة له بهم ففارقها وسار الى مدينة لهاوور وملك الغز مدينة غزنة وكان المقيم بامرهم أميرا اسمه زنكى بن على بن خليفة الشيبانى ثم ان صاحبها ملكشاه جمع وعاد الى غزنة ففارقها زنكى وعاد ملكها ملكشاه ودخلها فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة وتمكن فى دار ملكه

(ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشىء من سيرته)

فى هذه السنة توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن ابى منصور الاصفهانى وزير قطب الدين صاحب الموصل فى شعبان مقبوضا وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين فبقى فى الحبس نحو سنة حكى لى انسان صوفى يقال له ابو القاسم كان مختصا بخدمته فى الحبس قال لم يزل مشغولا فى محبسه بأمر آخرته وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست الى القبر فلما اتفق أن مرض قال لى فى بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أبيض الى الدار فعرفنى قال فقلت فى نفسى قد اختلط عقله فلما كان الغد أكثر السؤال عنه واذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق واقبل على الشهادة وذكر الله تعالى الى ان توفى فلما توفى طار ذلك الطائر فعلمت انه راى شيأ فى معناه ودفن بالموصل عند فتح الكراعى رحمة الله عليهما نحو سنة ثم نقل الى المدينة فدفن بالقرب من حرم النبى صلى الله عليه وسلم فى رباط بناه لنفسه وقال لابى القاسم بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله الى المدينة فدفنه بها فى التربة التى عملها فاذا انا مت فامض اليه وذكره فلما توفى سار أبو القاسم الى شيركوه فى المعنى فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد اجرة جمل يحمله وجمل يحملنى وزادى فانتهره وقال مثل جمال الدين يحمل هكذا الى مكة واعطاه مالا صالحا يحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرؤن عليه بين يدى تابوته اذا حمل واذا نزل عن الجمل واذا وصل الى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلى عليه فى كل بلدة يجتازبها واعطاه أيضا مالا للصدقة عنه فصلى عليه فى تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة وكان يجتمع له فى كل بلد من الخلق ما لا يحصى ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وانشد باعلى صوته

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادى فتثنى رماله * عليه وبالنادى فتثنى أرامله

وما عرفت لهذه العلة سببا الا انى رأيت نفس الحرية متشكية فشاركتها فى شكواها * ووجدت عين الكرم والكمال متأذية فاحتملت عنها أذاها * وقلت محتملا لا متمللا

وانى وان لم تشتك كان بالفؤاد

ثم ذكرت ما أعد الله تعالى للعباد من ثواب العلة فى المعاد * فاستصغرت عند ذلك ما استعظمته * وسهل مسلكى وان استوعرته * وقلت منح الله تلك النعمة من العلة * واعطى الشيخ بها امانا من القلة * واعمى عنه ناظر الزمان * ولا طرق الى فنائه طوارق الحدثان * وتمنيت أنى واصلت غدوى برواحى فى زيارة الشيخ مشاهدا للحال * واقبال نحو البرء والابلال * ولكن حيل بين العير والنزوان وعلى سائق هذه فانى أستريح الى خبر سلامته وأسهل انفسى منه * وله أيده الله باهدائه الى يد ومنه * ورأيه فى اتحافى به موفق ان شاء الله تعالى

ومن نظمه قوله

وأغيد معطار بألحاظ عينه

سكرى بتثنيه من البان املودا

خلعت بذكراه عن الصبح ليله

أسامره والكاس والناى والعودا

على تلك البلاد وعاد تنكز الى المؤيد صاحب نيسابور واشتغل بالغارة على بسطام وبلاد قومس

(ذكر عصيان غمارة بالمغرب)

لما تحقق الناس موت عبد المؤمن سنة تسع وخمسين ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو وكان مقدما كبيرا فيهم وتبعوه بأجمعهم وامتنعوا في جبالهم وهي معاقل مانعة وهم أمم كثيرة فجهز اليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومعه أخواه عمرو وعثمان في جيش كبير من الموحدين والعرب وتقدموا اليهم فاقتتلوا سنة احدى وستين وخمسمائة فانهزمت غمارة وقتل منهم كثير وفيمن قتل مفتاح بن عمرو مقدمهم وجماعة من اعيانهم ومقدميهم وملكوا بلادهم عنوة وكان هناك قبائل كثيرة يريدون الفتنة فانتظروا ما يكون من غمارة فلما ذلت تلك القبائل وانقادوا للطاعة ولم يبق محرك لفتنة ومعصية فسكنت الدهماء في جميع المغرب

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة أغار الامير محمد بن أنز على بلد الاسماعيلية بخراسان وأهلها غافلون فقتل منهم وغنم وأسر وسبى وأكثر وملأ أصحابه أيديهم من ذلك وفيها توفي ابو الفضل نصر بن خلف ملك سجستان وعمره أكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة وملك بعده ابنه شمس الدين ابو الفتح احمد بن نصر وكان ابو الفضل ملكا عادلا عفيفا عن رعيته وله آثار حسنة في نصرة السلطان سنجر في غير موقف وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية في عساكر لا تحصى وقصد بلاد الاسلام التي بيد قلج أرسلان وابن دانشمند فاجتمع التركمان في تلك البلاد في جمع كبير فكانوا يغيرون على اطراف عسكره ليلا فاذا اصبح لا يرى أحدا وكثر القتل في الروم حتى بلغت عدة القتلى عشرات ألوف فعاد الى القسطنطينية ولما عاد ملك المسلمون منه عدة حصون وفيها توفي الامام عمر الخوارزمي خطيب بلخ ومفتيها والقاضي أبو بكر المحمودي صاحب التصانيف والاشعار وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريري بالعربية

(ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده)

في هذه السنة ثامن ربيع الاول توفي شاه مازندران رستم بن علي بن شهريار بن قارن ولما توفي كتم ابنه علاء الدين الحسن موته اياما حتى استولى على سائر الحصون والبلاد ثم أظهره فلما ظهر خبر وفاته أظهر اينانج صاحب جرجان ودهستان المنازعة لولده في الملك ولم يرع حق أبيه عليه فانه لم يزل يذب عنه ويحميه اذا التجأ اليه ولكن الملك عقيم ولم يحصل من منازعته على شئ غير سوء السمعة وقبح الاحدوثة

(ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها)

كان المؤيد قد سير جيشا الى مدينة نسا فحصروها الى جمادى الاولى في هذه السنة فسير خوارزمشاه بن أرسلان بن اتسز جيشا الى نسا فلما قاربوها رحل عنها عسكر المؤيد وعادوا الى نيسابور اواخر جمادى الاولى وسار عسكر المؤيد الى عسكر خوارزم لانهم توجهوا الى نيسابور فتقدم العسكر المؤيدي ليردوهم عنها فلما سمع العسكر الخوارزمي بهم عاد عنهم وصار صاحب نسا في طاعة خوارزمشاه والخطبة له فيها وسار عسكر خوارزم الى دهستان

فجالسه للانس من وقتها
والازديار مشوقا * فكان
صبورا مقلقا * موقدا
مطفئا * ومما انشدت له
من قلائد شعره وان كانت
كالحصى تمثيلا * فهي عن
الاستحالة وتفصيلا *
قوله

ربما اعسر الصديق المقل
عن حقوق من لا يستقل
وان قل نائل فصفاه
في وداد وخلة لا يقل
أرخ سترا على حقارة ما
هتك ستر الصديق ليس يحل

وقوله

قالوا ترفق في الامور فانه
شيمة وجرى الحد بالايناس
وانسد رب فاصلت
بالناس
ما ينفع الايناس بالايناس

وقوله

واخلاق كاطراف الرياح
رقت من رقتك بالرياح
الى ان عدت في زبدا بشهد
كذلك تكون عاقبة العلاج

وقوله في مرثية أبي سليمان
الخطابي

انظروا كيف تخمد الانوار
انظروا كيف تسقط الاقمار
هكذا هكذا تزول الرواسي
هكذا في الثرى تغيض البحار
أحمد الدين والمروءة
والنبل
رحمة ليس يهوها الاقدار
مات من لم يكن لنا منه قطعا
عوض ولا عليه اقتدار

بثباته من على يديه في بعض السنين التي تعذرت الاقوات فيها

(ذكر اجلاء القارغلية من وراء النهر)

كان خان خانان الصيني ملك الخطا قد فوض ولاية سمرقند وبخارا الى الخان جغري خان بن حسن تكين واستعمله عليهما وهو من بيت الملك قديم الابوة فبقي فيهما مدبرا لامورها فلما كان الآن أرسل اليه ملك الخطا باجلاء الاتراك القارغلية من أعمال بخارا وسمرقند الى كاشغر وأن يتركوا حمل السلاح ويشتغلوا بالزراعة وغيرها من الاعمال فتقدم جغري خان اليهم بذلك فامتنعوا فألزمهم وألح عليهم بالانتقال فاجتمعوا وصارت كلمتهم واحدة فكثروا وساروا الى بخارا فأرسل الفقيه محمد بن عمر بن برهان الدين عبد العزيز بن مازة رئيس بخارا الى جغري خان يعلمه ذلك ويحثه على الوصول اليهم بعساكره قبل ان يعظم شرهم وينهبوا البلاد وارسل اليهم ابن مازة يقول لهم ان الكفار بالامس لما طرقوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب والقتل وأنتم مسلمون غزاة يقبح بكم مد الايدي الى الاموال والدماء وانا أبذل لكم من الاموال ما ترضون به لتكفوا عن النهب والغارة فترددت الرسل بينهم في تقرير القاعدة وابن مازة يطاولهم ويمادي الايام الى ان وصل جغري خان فلم يشعر الاتراك القارغلية الا وقد دهمهم جغري خان في جيوشه وجموعه بغتة ووضع السيف فيهم فانهزموا وتفرقوا وكثر القتل فيهم والنهب واختفى طائفة منهم في الغياض والآجام ثم ظفر بهم أصحاب جغري خان فقطعوا دابرهم ودفعوا عن بخارا ونواحيها ضررهم وخلت الارض منهم

(ذكر استيلاء سنقر على الطالقان وغرشستان)

في هذه السنة استولى الامير صلاح الدين سنقر وهو من مماليك السنجرية على بلاد الطالقان واغار على مرو ودغرشستان وتابع الغارات عليها حتى ملكها فصارا الولايتان له وبحكمه وله فيها حصون منيعة وقلاع حصينة وصالح الامراء الغزية وحمل اليهم الاتاوة كل سنة

(ذكر قتل صاحب هراة)

كان صاحب هراة ايتكين بينه وبين الغز مهادنة فلما توفي ملك الغور محمد طمع في بلادهم فغزاهم غير مرة ونهب وأغار فلما كان في شهر رمضان من هذه السنة جمع ايتكين جموعه وسار الى بلاد الغور وساروا الى باميان والى ولاية بست والرخج فقاتله صاحبها طغرل تكين برنقش العلكي من قبل الغورية فظهر والى باميان واستولى على بست والرخج فسلمها الى بعض أولاد ملوك الغور وأما ايتكين فانه توغل في بلاد الغور فاتاه أهلها وقاتلوه وصدوه وصدقوه القتال فانهزم عسكره وقتل هو في المعركة

(ذكر ملك شاه مازندران قومس وبسطام)

قد ذكرنا استيلاء المؤيد صاحب نيسابور على قومس وبسطام وتلك البلاد وأنه استناب بها مملوكه تنكز فلما كان هذه السنة جهز شاه مازندران جيشا واستعمل عليهم أميرا له يعرف بسابق الدين القزويني فسار الى دامغان فملكها فجمع تنكز من عنده من العساكر وسار اليه الى دامغان فخرج اليه القزويني فوصل الى تنكز على غرة منه فلم يشعر هو وعسكره الا وقد كبسهم القزويني ووضع السيف فيهم فتفرقوا وولوا منهزمين واستولى على عسكر شاه مازندران

السبعين * ونادر الثمانين * واحد الأنام منثورا ومنظوما * وثاني الغمام معقولا ومعلوما * شب للعلم خادما وشاب على العلا مخدوما * فن منثور كلامه فصل له من كتاب وصلت ملاطفة الشيخ فالطفت الغليل بردته * ووجهه بسبغ الارتياح وردته * بخبر سلامته التي نسيها عندي نسيم الجنان والوسيلة الى السلوان (وله) فصل كيف لا أعتقد بصنع الله في تخيله وقده * وعقله عهده * وقد قلبلي في الله أخا سبق عز الاخاء * وعدم بين الاوداء الوفاء * وكاد لا يصدق في وجودهما رائد ولا يظفر بهما مضل ولا ناشد واصبحت المصافاة مخالة ومخاتره * والخالصة مكاثرة ومناجره * وقد كان المتحابون في الله اقل من القليل والاسلام عليه رونق الشبيبه * وهو في بردته القشيبه * (وله) فصل من كتاب كلامي في مخاطبة الشيخ مماثل لانعكاس شعاع الناظر ورد الفوارة ماء الغمام الماطر * على المذهب الذي ذكره علي بن الجهم في صفة الفواره

ترد على المزن ما أسبلت على الارض من صوب أمطارها

(وله) فصل كان كل مجلس من

تعالوا فعل الله ينصر دينه * اذا ما نصرنا الدين نحن وانتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة * بامثالها تحوى البلاد وتقسم

وهى اطول من هذا هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وان الصالح ارسل بهذا الشعر فان كان الشعر للصالح فينبغى أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ويحتمل أن يكون هذا التنافر كان ايام الصالح فكتب الابيات ثم امتد الى الآن

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى صفر وقع باصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف ابن الخجندى وغيره من اصحاب المذاهب بسبب التعصب للمذاهب فدام القتال بين الطائفتين ثمانية ايام متتابعة قتل فيها خلق كثير واحترق وهدم كثير من الدور والاسواق ثم افترقوا على أقبح صورة وفيها بنى الاسماعيلية قلعة بالقرب من قزوين فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها فلم يكن له انكار لهذه الحال خوفا من شرهم وغائلتهم فتقدموا بعد ذلك الى قزوين فحصروها وقاتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس وحكى لى بعض اصدقائنا بل مشايخنا من الائمة الفضلاء قال كنت بقزوين اشتغل بالعلم وكان بها انسان يقود جمعا كبيرا وكان موصوفا بالشجاعة وله عصابة حمراء اذا قاتل عصب بها رأسه قال فكنت احبه واشتهى الجلوس معه قال فبينما انا عنده يوما و ذا هو يقول كأنى بالملاحدة وقد قصدوا البلد غدا فخرجنا اليهم وقاتلناهم فكنت اول الناس واني معصب بهذه العصابة فقاتلناهم فلم يقتل غيرى ثم ترجع الملاحدة ويرجع اهل البلد قال فوالله لما كان الغد ارتفع وقع الصوت بوصول الملاحدة فخرج الناس قال فذكرت قول الرجل فخرجت والله ليس لى همة الا انى انظر هل يصح ما قال ام لا قال فلم يكن الا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على ايديهم قتيلا بعصابته الحمراء وذكروا انه لم يقتل بينهم غيره فبقيت متعجبا من قوله كيف صح ولم يتغير منه شئ ومن اين له هذا اليقين ولما حكى لى هذه الحكاية لم اسأله عن تاريخها وانما كان فى هذه المدة فى تلك البلاد فلهذا اثبتها هذه السنة على الظن والتخمين وفيها قبض المؤيد اى ابه صاحب نيسابور على وزيره ضياء الملك محمد بن أبى طالب سعد بن أبى القاسم محمود الرازى وحبسه واستوزر بعده نصير الدين ابا بكر محمد بن ابى نصر محمد المستوفى وهو من اعيان الدولة السنجرية وفى هذه السنة وردت الاخبار ان الناس حجوا سنة تسع وخمسين ولقوا شدة وانقطع منهم خلق كثير فى فيد والثعلبية وواقصة وغيرها وهلك كثير ولم يمض الحجاج الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الاسباب واشتد الغلاء فيها وعدم ما يقتات ووقع الوباء فى البادية وهلك منهم عالم لا يحصون وهلكت مواشيهم وكانت الاسعار بمكة غالية وفيها فى صفر قبض المستنجد بالله على الامير توبة بن العقيلى وكان قد قرب منه قربا عظيما بحيث يخلو معه واحبه المستنجد محبة كثيرة فحسده الوزير ابن هبيرة فوضع كتبا من العجم مع قوم وامرهم ان يتعرضوا ليؤخذوا ففعلوا ذلك واخذوا واحضروا عند الخليفة فاظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج الى نهر الملك يتصيد وكانت حلل توبة على الفرات فحضر عنده فامر بالقبض عليه فقبض وادخل بغداد ليلا وحبس فكان آخر العهد به فلم يمتع الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة اشهر وكان توبة من اكمل العرب مروءة وعقلا وسخاء واجازة واجتمع فيه

وبدوانع الكلام الفصل فلم تبق بثية خطاب * ولا كربة صواب * ولا غرة حكمه * ولا درة نكتة * ولا طرفة حكاية * ولا نقرة رواية * الا وهى عرضة خاطره ونهزة هاجسه * وانصب تذكره * ومثال تصوره ولا تصدأ صفحة حفظه * ولا تدرس صحيفة ذكره * ولا يكسف بدر معارفه * ولا ينزف بحر اطلاعه * ثم هو واحد خراسان من بين الاشراف العلوية فى قوة الحال * وسعة المجال * واتساع رقعة الضياع * وارتفاع قدر الارتفاع * واشتداد باع العز وامتداد شعاع الجاه والقدر وقد كتبت عنه من نوادر الاخبار والاشعار ما سكبت بعضه فى كتابى الموسوم بلطائف الكتاب وما ورد الآن نكتا مما قاله وقيل فيه * ابانة عن غرر معاليه * فمن شعره قوله

وشادن وجهه بالحسن مخطوط
وخده بعذار الخال منقوط
تراه قد جمع الضدين فى قرن
فالخصر مختصر والردف مبسوط
لو كان أدرك لوط النبى لما
نهى الورى أبدا عن مثل لوط

فالتجأ صاحبها الامير ايناق الى المؤيد صاحب نيسابور بعد تمكن الوحشة بينهما فقبله المؤيد أحسن قبول وسير اليه جيشا كثيفا فاقام واعتضد حتى دفع الضرر عن نفسه و بلده من جهة طبرستان وأما دهستان فان عسكر خوارزم غلبوا عليها وصارا لهم فيها شحنة

(ذكر استيلاء المؤيد على هراة)

قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين فلما قتل تجهز الامراء الغزية وساروا الى هراة وحصروها وقد تولى أمرها انسان يلقب أثير الدين وكان له ميل الى الغز وهو يحاربهم ظاهرا ويراسلهم باطنا فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هراة فاجتمع اليها أهلها فقتلوه وقام مقامه أبو الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي فارسل أهلها الى المؤيد أي أبه صاحب نيسابور بالطاعة والانقياد اليه فسير اليهم مملوكه سيف الدين تنكز في جيش وسير جيشا آخر أغاروا على سرخس ومرو فأخذوا دواب الغز وعادوا سالمين فلما سمع الغز بذلك رحلوا عن هراة الى مرو

(ذكر الحرب بين قلج ارسلان و بين ابن الدانشمند)

في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وما يجاورها من بلد الروم وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها ان قلج أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق بن علي بن أبي القاسم فسيرت الزوجة الى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره وأغار ياغي صاحب ملطية عليه وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند فأمرها بالردة عن الاسلام فزوجها من ابن اخيه فجمع قلج أرسلان عسكره وسار الى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهزم قلج أرسلان والتجأ الى ملك الروم واستنصره فأرسل اليه جيشا كثيرا فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الايام وملك قلج ارسلان بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد بن دانشمند لانه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان واستولى ذو النون ابن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم واتفقوا

(ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان)

في هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وبين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب الروم أدت الى الحرب والتضاغن فلما بلغ خبرها الى مصر كتب الصالح بن رزيك وزير صاحب مصر الى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقته وكتب فيه شعرا

نقول ولكن اين من يتفهم * ويعلم وجه الرأي والرأي مبهم
وما كل من قاس الامور وساسها * يوفق للامر الذي هو أحزم
وما احد في الملك يبقى مخلدا * وما احد مما قضى الله يسلم
امن بعد ماذاق العدا طعم حربكم * بفيهم وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم * وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده * أما في رعاياكم من الناس مسلم

هي مفسرة عليه شذاذا * أبا القاسم استعبدت ودي بنائله
تلاه بلا من لديك طارف
واضعفت شكري حين ضاعفت آلاءه
وقد يضعف النبت الذي المتضاعف
أتاني كتاب منك فيه طرائف
تقبل من اطرافهن الطرائف
صحيفة احسان تحرسلنها
نصودا اذا ما لاسفلتها الصحائف
فواصلني منها اسباب مساعد
وطالعني منه ازمان مساعف
وأصبح دهري عادلا وهو عاسف
وعادت رخاء ريحه وهو عاصف
ومن أعيان رعايا السلطان بناحية طوس وان كانت نيسابور دار قراره * ومعتقد ضياعه وعقاره * أبو جعفر محمد بن موسى بن أحمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضوان الله تعالى عليهم اجمعين
نسب كأن عليه من شمس الضحى
نورا ومن فلق الصباح عمودا
وقد خدم ملوك آل سامان وعاشر وزراءهم وكتابهم والتقط محاسنهم وآدابهم
وهو دون اقرارها فرار (وقد وصف) أبو الفتح البستي فضله في أبيات له
فألفاظه ينابيع العلوم * وأقر له صرايح العقول * ويجالسه حداق الجد والهزل

الرسقي الشيخ الصالح وهو مشهور يروي عن أحمد بن خلف وغيره وفيها في ربيع الآخر توفي الشيخ عبد القادر بن ابي صالح أبو محمد الجيلي المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين واربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلي المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد

(ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة)

(ذكر عود اسد الدين شيركوه الى مصر)

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير اسد الدين شيركوه الى مصر وما كان منه وعوده الى الشام فلما وصل الى الشام أقام على حاله في خدمة نور الدين الى الآن وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها وبقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الآخر في جيش قوي وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم الفي فارس وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين في المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربي ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف في البلاد الغربية وحكم عليها واقام نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجيء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الفرنج يستنجدهم فاتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها وخوفا ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربي وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فادركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم في طلبه فعزم على قتالهم الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه اقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعود الى الشام وقالوا ان نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن فالى اين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا وقال من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن ما لنا من اقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقول تأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال اسد الدين هذا الرأي وبه اعمل وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فاقام بمكانه حتى ادركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وجعل الاثقال في القلب يتكثر بها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد وجعل صلاح الدين في القلب وقال له ولمن معه ان المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم اني فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا انفسكم واندفعوا امامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم

يا عقد منتظم النبوة
بيت تختلف الملائك
يا ابن الفواطم والعواتك
والترائك والارائك
أنا حائك ان لم أكن
عبد العبيد وابن حائك
(ولبعض أهل العصر فيه)
عيد الربة عيد المهرجان أتى
أهلا بعيد أتى عيد ابن نبيه
العيد لا الأثر يبقى الى الامد
وعيدنا دائم الآلاء باقيه
لا زال سيدنا في ظل دولته
وظله دائما تجري مواليه
شكا الى رقاب الارض قدرته
يجني له ثمر الاقبال جانيه
أعشاره الحمد والبشرى
جلائبه
خرائبه الدهر والدنيا
جواليه
وبنى بنيسابور دارا افتنافس
أهل العصر في ذكرها
ووصف شرفها وسناها
فمن ذلك قول البديع
الهمذاني
دار قسمت مرافقها
تحكي الاباطح والرصافه
بين المروءة والنبوة
والخلافة والضيافه
فيها المصاحف والمعازف
والسوالف والسلافه
لا زلت يا دار الكرامه
مصونة عن كل آفه
(وفيها لابي عبد الله الغواص)
يا دار سعد قد علت شرفاتها
بنيت شبيهة قبلة للناس

من خلال الكمال ما تفرق في الناس وفيها في ربيع الاول توفي الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدي الهروي وزير السلطان ارسلان ووزير اتابك شمس الدين ايلدكز وفيها توفي عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحيى بن محمد بن المظفر وزير الخليفة وكان موته في جمادى الاولى ومولده سنة تسعين واربعمائة ودفن بالمدرسة التي بناها الحنابلة بباب البصرة وكان حنبلي المذهب دينا خيرا عالما يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم وله فيه التصانيف الحسنة وكان ذا رأي سديد ونافق على المقتفي نفاقا عظيما حتى ان المقتفي كان يقول لم يزر لبني العباس مثله ولما مات قبض على اولاده واهله وتوفي بهذه السنة محمد بن سعيد البغدادي بالموصل وله شعر حسن فمن قوله

اقدى الذي وكاني حبسه * بطول اعلالي وامراضي

ولست ادري بعد ذا كله * اساخط مولاي ام راضي

وفيها توفي الشيخ الامام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزي الشافعي تفقه على الفقيه الكيا الهراسي وكان واحد عصره في الفقه تاتيه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد وهو من جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة)

(ذكر فتح المنيطرة من الفرنج)

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره وانما سار اليه جريدة على غرة منهم وعلم انه ان جمع العساكر حذروا فسار اليه جريدة وانتهز الفرصة وحصره وجد في قتاله فاخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة فان الذين به كانوا آمنين فاخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يجتمع الفرنج لدفعه الا وقد ملكه ولو علموا انه جريدة في قلة من العساكر لاسرعوا اليه وانما ظنوه انه في جمع كثير فلما ملكه تفرقوا وايسوا من رده

(ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط)

في هذه السنة قتل خطلوبرس مقطع واسط قتله ابن اخي شملة صاحب خوزستان وسبب ذلك ان ابن شنكا وهو ابن أخي شملة كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة فاتفق ان المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما قتل قصد ابن شنكا البصرة ونهب قراها فارسل من بغداد الى كمشتكين صاحب البصرة بمحاربة ابن شنكا فقال انا عامل لست بصاحب جيش يعني انه ضامن لا يقدر على اقامة عسكر فطمع ابن شنكا واصعد الى واسط ونهب سوادها فجمع خطلوبرس مقطعها جمعا وخرج الى قتاله وكاتب ابن شنكا الامراء الذين مع خطلوبرس فاستمالهم ثم قاتلهم فانهزم عسكره فقتله واخذ ابن شنكا علم خطلوبرس فنصبه فلما رآه اصحابه ظنوه باقيا فجعلوا يعودون اليه وكل من رجع اخذه ابن شنكا فقتله او اسره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة خرج الكرج في جمع كثير واغاروا على بلدان حتى بلغوا كنجة فقتلوا واسروا وسبوا كثيرا ونهبوا ما لا يحصى وفيها توفي الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الاصفهاني

وقوله
فديت غزالي فهو ملكي حقيقة
يلذ به عيشي اذا ناب في هم
بجميل محياه وكالدعص ردفه
لطيف حاياه وليس له خصم
(وسمعته) يقول حال الجاهل في التدبير * كحال الحيرة * مالها همة غير اعتلاف التبن * واتيان الاتن *
(وجرى) حديث الوقود والشمس في الشتاء فقال مرعى ولا كالسعدان هيهات ان تقع الأم الرابة من الام البارة * يعني ان الوقود يلفح ما يقابل البدن بشرره * ويدع سائره على خصره * وأما الشمس فانها تقسم الدفء على البدن بالسواء * ليشترك فيه ظاهر الاعضاء * وباطن الاحشاء * وقد أكثر الشعراء والادباء فيه فمن ذلك قول ابي الفتح البستي
أنا السيد الشريف غلام
حيثما كان فليبلغ سلامي
واذا كنت للشريف غلاما
فانا الحر والزمان غلامي
(ولابي الفضل) أحمد بن الحسين الهمذاني المعروف ببديع الزمان
أنا في اعتقادي للتسنن
رافضي في ولائك
وان اشتغلت بهم فلا
فلست أغفل عن اولئك

الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلاف او سبب التفرق وعاد قطب الدين الى الموصل واعطاء نور الدين مدينة الرقة على الفرات كانت له فاخذها فى طريقه وعاد الى الموصل

(ذكر قصد ابن شنكا البصرة)

فى هذه السنة عاود ابن شنكا قصد البصرة ونهب بلادها وخرب من الجهة الشرقية وسار الى مطارا فخرج اليه كمشتكين صاحب البصرة وواقعه فاجتمع بشرف الدين ابى جعفر بن البلدى الناظر فيها ومعهما مقطعهما ارغش واتصلت الاخبار بان ابن شنكا واصل الى واسط فخاف الناس منه خوفا شديدا فلم يصل اليها

(ذكر قصد شملة العراق)

فى هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان الى قلعة الماهكى من اعمال بغداد وارسل الى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيأ من البلاد ويشتط فى الطلب فسير الخليفة اكثر عساكره اليه ليمنعوه وارسل اليه يوسف الدمشقى يلومه ويحذره عاقبة فعله فاعتذر بان ايلدكز والسلطان ارسلان شاه اقطعا الملك الذى عنده وهو ولد ملكشاه البصرة وواسط وعرض التوقيع بذلك وقال انا اقنع بثلث ذلك فعاد الدمشقى بذلك فامر الخليفة بلعنه واباحه من الخوارج وبعث العساكر وسيرت الى ارغش المسترشدى وكان بالنعمانية هو وشرف الدين ابو جعفر ابن البلدى ناظر واسط مقابل شملة ثم ان شملة ارسل قلج ابن اخيه فى طائفة من العسكر لقتال طائفة من الاكراد فركب ارغش فى بعض العسكر الذى عنده وسار الى قلج فحاربه فاسر قلج وبعض اصحابه وسيرهم الى بغداد وبلغ شملة وطلب الصلح فلم تقع الاجابة اليه ثم ان ارغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقى شملة مقيما مقابل عسكر الخليفة فلما علم انه لا قدرة له عليهم رحل وعاد الى بلاده وكانت مدة سفره اربعة اشهر

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة عصى غازى ابن حسان المنبجى على نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وكان نور الدين قد اقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فسير اليه عسكرا فحصروه واخذوها منه وأقطعها نور الدين اخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عادلا خيرا محسنا الى الرعية جميل السيرة فبقى فيها الى ان اخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وفيها توفى فخر الدين ارسلان بن داود بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا واكثر ديار بكر ولما اشتد مرضه ارسل الى نور الدين محمود صاحب الشام يقول له بيننا صحبة فى جهاد الكفار اريد ان ترعى بها اولادى ثم توفى وملك بعده ولده محمد فقام نور الدين الشامى بنصرته والذب عنه بحيث ان اخاه قطب الدين مودودا صاحب الموصل اراد قصد بلاده فارسل اليه اخوه نور الدين يمنعه ويقول له ان قصدته او تعرضت الى بلاده منعتك قهرا فامتنع من قصده وفيها توفى أبو المعالى محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوسا وفيها توفى قايماز المسترشدى ولد الامير يزدن وهو من اكابر الامراء ببغداد

(ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة)

(ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين فى البلاد)

(فمما يلفى عنه قوله)
بحسام دولته وصاحب جيشه وحاجب سدته أبى العباس وارادالله سعادة هذا الفاضل فهداه نهج أبيه وعداه موقف التشبيه فنما نو الاشاء على طيب التربة والماء ليس نمو القامة والضخامة لكن نموه ذل الظلم وشبوب النار فوق العلم وصفاء الجوهر شوما على القدم واختص بخدمة الامير الجليل أبى سعد التونتاش خوارزم شاه اذ هو تاج الحجاب وناظر عين الباب فاعتداه عنه حتى لبس الملك فضفاضا وغض عن السواد وان كان عليه بياضا وانتقل بانتقاله عن سمت الكتابة الى رتبة الوزارة وحسن خفض الخدمة الى بقاع الشركة فى الامارة فلم يشركه من أبناء جنسه فى البلاغة اثنان وسادحتى أعيان عبد المدان ودان فما وقع الى من سحر قلمه وسرطه من كتاب خاطب به بعض اخوانه لعمل الدهقان يلفى أو ترع مساعدة الزمان مباعدة الاخوان وادنتنى من صدر الوزارة بقلب كالحجارة فلم يزل ينيل المراتب

فاربعوا في أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره من يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فاثخن واكثر القتل والاسر فلما عاد الفرنج من اثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والارض منهم قفرا فانهزموا ايضا وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان الفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

(ذكر ملك اسد الدين الاسكندرية وعوده الى الشام)

لما انهزم المصريون والفرنج من اسد الدين بالبابين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما في القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من اهلها سلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين ابن اخيه وعاد الى الصعيد فملكه وجبى امواله واقام به حتى صام رمضان واما المصريون والفرنج فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصلحوا حال عساكرهم وجمعوا وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر أهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما اخذه من البلاد فاجاب الى ذلك وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فاجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذي القعدة واما الفرنج فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله استقر مع شاور فان العاضد لم يكن له معه حكم لانه قد حجر عليه وحجبه عن الامور كلها وعاد الفرنج الى بلادهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد ارسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهي محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا ويبذل مالا يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلا فبقي الامر على ذلك الى ان قصد الفرنج مصر سنة اربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين صافيثا وعريمة)

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار اليه اخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة واخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريمة وصافيثا وعادوا الى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج ايضا من امنع حصونهم ومعاقلهم فانهزم الفرنج عنه واحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه واراد

بورود وفد أو لكشف ملمة او بذل مال او ادارة كاس (ومن أعيان نجوم الدولة أبو نصر) أحمد بن محمد بن عبد الصمد الشيرازي الكاتب ابن الكاتب والنقاب ابن المناقب * والبحر ابن السحاب * والبدر ابن الشهاب * والنار التي لا يخمد ها الماء ذكاء * والسيف الذي لا يألف القراب مضاء * والسعد الذي يلي وتد السماء زكاء * فعطارد تلميذ افادته * والمشتري مشتري سعادته * وثاقب النجم عبد دهائه * وشارق الشمس خادم سنائه ورونقه * خدم أبوه أبو طاهر حسام الدولة أبا العباس تاشا على ديوان أسراره بارعا في الصناعه * صنعا في البراعه * مجاوزا الفصل القول * مرموقا بعين الطول * يناضل الصاحب اسمعيل بن عباد فيخرق عليه قرطاس الادب ويساجله فيملأ الدلو الى عقد الكرب * مصعب لا الصعبي يضاهيه * ولا الموصلي يباهيه * ولا الفارسي يدانيه * ولا اليسعي يسعى بعض مساعيه * يجانس انجم النسرة نثره * ويثاقب شعري العبرة شعره

فلان بما وراء النهر وهذا بارد جدا فان الرجل سافر الى ما وراء النهر حقا وسمع فى عامة بلاده من عامة شيوخه فاى حاجة به الى هذا التدليس البارد وانما ذنبه عند ابن الجوزى انه شافعى وله اسوة بغيره فان ابن الجوزى لم يبق على احد الا مكسرى الحنابلة وفيها توفى قاضى القضاة ابو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفى فى جمادى الآخرة وفيها توفى يوسف الدمشقى مدرس النظامية بخوزستان وكان قد سار رسولا الى شملة وفيها توفى الشيخ ابو النجيب الشهرزورى الصوفى الفقيه وكان من الصالحين المشهورين ودفن ببغداد

(ثم دخلت سنة اربع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر)

فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكى قلعة جعبر اخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن على بن مالك العقيلى وكانت بيده وبيد آبائه من قبله من ايام السلطان ملكشاه وقد تقدم ذكر ذلك وهى من أمنع القلاع واحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقى واما سبب ملكها فان صاحبها نزل منها يتصيد فاخذه بنو كلاب وحملوه الى نور الدين فى رجب سنة ثلاث وستين فاعتقله واحسن اليه ورغبه فى الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل الى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل فسير اليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن على الزعفرانى فحصرها مدة فلم يظفر منها بشئ فامدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير مجد الدين ابا بكر المعروف بابن الداية وهو رضيع نور الدين واكبر امرائه فحصرها ايضا فلم ير له فيها مطمعا فسلك مع صاحبها طريق اللين واشار عليه ان يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر فى حفظها بنفسه فقبل قوله وسلمها فاخذ عوضا عنها سروج واعمالها والملاحة التى بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة وهذا اقطاع عظيم جدا الا انه لاحصن فيه وهذا آخر امر بنى مالك بالقلعة والكل امر امد والكل ولاية نهاية بلغنى انه قيل لصاحبها ايما أحب اليك واحسن مقاما سروج والشام أم القلعة فقال هذا اكثر مالا واما العز ففارقناه بالقلعة

(ذكر ملك اسد الدين مصر وقتل شاور)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه بن شاذى الى ديار مصر فملكها ومعه العساكر النورية وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وانهم جعلوا لهم فى القاهرة شحنة وتسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى العظيم فلما رأوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردهم ارسلوا الى ملك الفرنج بالشام وهو مرى ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهونوا امرها عليه فلم يجبهم فاجتمع اليه فرسان الفرنج وذوو الرأى منهم واشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم الرأى عندى اننا لا نقصدها ولا طمعة لنا فيها واموالها تساق الينا نتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلون دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين وان صار له فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام فلم يقبلوا قوله وقالوا له انه لا مانع فيها ولا حامى والى ان يجهز

فى ارتفاع المراتب * واتساع الحظوظ والرغائب * واضطراب الصيت فى الآفاق * وصوغ الايادى قلائد الاعناق * (وسنورد) الى ذكر السلطان يمين الدولة وأمين الملة ورقاته التى رضيتها حدود الطبات * وانت حفظتها نفوس العداة * فنحكى كل وقعة الى وقتها ويومها * ونلحق شرح حالها بقومها * الى ان نوفى الكلام حقه من الاشباع فى ذكر الحروب التى جرت بين السلطان يمين الدولة وامين الملة وبين ايلك الخان والله المستعان *

(ذكر غزوة بهاطية)

لما فرغ السلطان يمين الدولة وامين الملة من امر سجستان وسكن له بابنها * وانجاب عنه عارضها * ارتاح لغزوة بهاطية فجر اليها الجحافل سوقا بشعار الهداة التقاة * ورايات الغزاة الكماة * حتى عبر سيحون ونهر ويها الملتان الى مدينة بهاطية فالفاها ذات سور * ترل عن موازاته الاجنحة النسور * قد احاط بها خندق كالبحر المحيط فى الغور البعيد والعرض البسيط وهى مشحونة بل بالوهم من عدة وعديد * ومعمول من

في هذه السنة فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار الى اربل وكان هو الحاكم في الدولة واكثر البلاد بيده منها اربل وفيه بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها وجميع بلد الهكارية وقلاعه منه العمادية وغيرها وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل هو بها وكان قد اصابه طرش وعمي أيضا فلما عزم على مفارقة الموصل الى بيته باربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود وبقي معه اربل حسب وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة لم ينهزم من حرب قط وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدة فلما أراد ان ينشد قال أنا لا أعرف ما يقول ولكني اعلم انه يريد شيئا فامر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة مجموع ذلك ألف دينار ولم يزل باربل الى ان مات بها هذه السنة ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين الى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد فعمر القلعة وكانت خرابا لان زين الدين كان قليل الالتفات الى العمارة وسار عبد المسيح سيرة سديدة وسياسة عظيمة وهو خصي أبيض من مماليك زنكي اتابك عماد الدين

(ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة)

في هذه السنة ارسل آقسنقر الاحمديلي صاحب مراغة الى بغداد يسأل ان يخطب للملك الذي هو عنده وهو ولد السلطان محمد شاه و يبذل انه لا يطأ ارض العراق ولا يطلب شيأ غير ذلك وبذل مالا يحمله اذا اجيب الى ما التمسه فاجيب بتطييب قلبه وبلغ الخبر ايلدكز صاحب البلاد فساءه ذلك وجهز عسكرا كثيفا وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان وسيرهم الى آقسنقر فوقعت بينهم حرب اجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيق عليه ثم ترددت الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان الى ابيه بهمدان

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين ابا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف ابن البلدي وكان ناظرا بواسط ابان في ولايتها عن كفاية عظيمة فاحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحكم تحكما عظيما فتقدم الخليفة الى ابن البلدي بكف يده وايدي أهله واصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخي استاذ الدار وطالبه بحساب نهر الملك لانه كان يتولاه من ايام المقتفي وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك اموال جمة وخافه استاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا وفي هذه السنة توفي عبد الكريم بن محمد بن منصور ابو سعد بن ابي المظفر السمعاني المروزي الفقيه الشافعي وكان مكثرا من سماع الحديث سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره ورحل الى ما وراء النهر وخراسان دفعات ودخل الى بلد الجبل واصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد وله التصانيف المشهورة منها ذيل تاريخ بغداد وتاريخ مدينة مرو وكتاب النسب وغير ذلك احسن فيها ما شاء وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على اربعة آلاف شيخ وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي فقطعه فمن جملة قوله فيه انه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به الى فوق نهر عيسى فيقول حدثني

سلا لا للعقود * قطاعا للاواصر والعهود * كلا اني ما أزداد ارتفاعا * الا ازددت للصديق اتضاعا * ولا أنال على الايام رتبه * الا ازددت الى الاخوان قربه * فمن يصله الزمان * ويبدله السلطان * ويدم عهد الاخوان * على أني مهما نسيت عهدا وتناسيت * وقلمت اخية الوفاء دون من آخيت * فلست أنسى عهده * ولا أرتضي قطيعته وهجره * اني وقد قيدني بأياديه الزهر * واسترقني بمعاليه الغر * فما ارى له بديلا * ولا املك عنه تحويلا * اعاذني الله مما بقيت من صدوده * ولا سلبني طيب الانس بعهده وجوده * وهذا القدر على مبلغ القدرة دال * وللمميز البارع متى قصد الانصاف في المدح والتقريظ مجال * فهؤلاء اعيان رعايا السلطان في الفضل الواسع * والادب الجامع * ووراءهم من اعلام البراعه * واحداث الصناعه * من يرغب ذكرهم عن الغرض المقصود بهذا الكتاب ولم استقرأ اسامي المذكورين الا انهم بالاضافة الى سائر اعيان البلاد * افراد

فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى راس الماء واعطى نور
الدين كل فارس ممن مع اسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته واضاف
الى اسد الدين جماعة اخرى من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وعز الدين قلج وشرف
الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وصلاح الدين يوسف
ابن ايوب اخي شيركوه على كره منه وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا
وهو شر لكم احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه
سعادته وملكه وسيرد ذلك مفصلا ان شاء الله تعالى وسار اسد الدين شيركوه من راس
الماء مجدا منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنج الى بلادهم بخفي حنين خائبين
مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وامر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق
مبشرين بذلك فانه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لبلاد الشام وغيرها واما اسد الدين فانه وصل
الى القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله وخلع عليه وعاد الى
خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة
والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع من ذلك لانه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى
العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه وشرع يماطل اسد الدين في تقرير ما كان بذل
لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد
الدين ويسير معه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الا غرورا ثم انه عزم على ان يعمل دعوة
يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع
بهم البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه
فقال له ابوه والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد
اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فانه ليس بينك وبين عود الفرنج الا ان يسمعوا
بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون
البلاد فترك ما كان عزم عليه ولما رأى العسكر النوري مطال شاور خافوا شره فاتفق صلاح
الدين يوسف بن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور فنهاهم اسد الدين فسكتوا وهم
على ذلك العزم من قتله فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام كان
قد مضى يزور قبر الشافعي رضي الله تعالى عنه فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من
العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي فقال نمضي اليه فساروا جميعا
فسايره صلاح الدين وجرديك وألقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذ اسيرا فلم
يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا أعلموا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام
ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه رأس شاور
وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل رأسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر ودخل
اسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم امير المؤمنين يعني
العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس عنه اليها فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع
عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان

بسماء الكفر من كؤوس
المنايا * وملك عليهم في تلك
الشدة الواحدة عدة من
القلاع التي كان يعتمدها
الكفار سهول القلوب *
ويعتمدها سكون القلوب *
وغاوح الفريقان في عماد
تلك الحدود بين نقف يسعر
أدمغة الهام * وطعن
يترف حشاشة الاجسام *
وأعلى الله راية السلطان *
إلى راية الدين والايمان *
وأهب ريح النصر رخاء *
وأعاد شدة العيش رخاء *
وولى المشركون عن
المدينة اعقابا وانقلبوا *
وانحسارا في دورها *
فأطلع الطالب عن الاستيفاء
وملك عليهم مداخل الحصار
وتعاون ابناء العسكر على
هدم شرافاته * وهدم ونالته
تضافروا على تشييع مصافقه
وتتبع معالقه * وقد كان
جهور اسس على مراجل
الحرب * واستقلت مراجل
الطعن والضرب * اسس
بالهون والعطب * وشام
برق الويل والحرب * عائد من
في مصابه من رجالة ورجالة
للاستغاثة ببعض العياض
والاستناد الى شعف بعض
تلك الجبال قسرب السلطان
كوكبة من خواصه في

عسكر نور الدين ويسير اليها لتكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ يلقى نور الدين
منا ما سلامته فسادمهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص
فلما سمع نور الدين شرع ايضا يجمع عساكره وامرهم بالقدوم عليه وجدّ الفرنج في السير الى
مصر فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها واسروا
وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور منهم
ابن الخياط وابن فرجلة فقوى جنان الفرنج وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة
عاشر صفر وحصروها فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس فحملهم الخوف
منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه فلو ان الفرنج احسنوا
السيرة في بلبيس ملكوا مصر والقاهرة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك اى ما فعلوا ليقضى الله
امرا كان مفعولا وامر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وامر اهلها بالانتقال منها الى
القاهرة وان ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم
ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خوفا ان يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها اربعة
وخمسين يوما وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع
الفرنج وارسل في الكتب شعور النساء وقال هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك
لتنقذهن من الفرنج فشرع في تسيير الجيوش واما الفرنج فانهم اشتدوا في حصار القاهرة
وضيقوا على اهلها وشاور هو المتولى للامر والعساكر والقتال فضاق به الامر وضعف عن
ردهم فاخلد الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته له قديما وان هواه
معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح
وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين فاجابه الى ذلك على ان يعطوه ألف ألف دينار مصرية
يعجل البعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج ان البلاد قد امتنعت
عليهم وربما سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد
بقوة لا نبالى معها بنور الدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فعجل لهم شاور مائة الف
دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من
اهل القاهرة ومصر فلم يتحصل له الا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار وسببه ان أهل مصر كانوا
قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الاقوات فضلا عن الاقساط واما اهل
القاهرة فالاغلب على أهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الاموال وهم في خلال هذا
يراسلون نور الدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيما عندهم
في عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضا خارجا عن الثلث الذى لهم وكان نور الدين لما وصله
كتب العاضد بحلب ارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد في طلبه فلقيه على باب
حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته أيضا
في المعنى فسار ايضا الى نور الدين واجتمع به وتعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك
وتفاءل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير
ذلك وحكمه في العسكر والخزائن واختار من العسكر الفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف

فارس

حديد * وكل فيل كشيطان
مريد * وعظيمهم يومئذ
المعروف بجمهرا فاستخفته
العزة والغرور * بما سوّلته
يده للبروز من وراء السور
مهولا باعداد رجاله *
واشخاص افياله * ومتطاولا
بباع الاقتدار في قتاله *
وحضأ السلطان عليه نار
الحرب ثلاثة أيام بلياليها
يرميه بالصواعق * من ظبا
السيوف البوارق *
ويقذفه بالشهب اللوامع *
من شبا الرماح الشوارع *
وواصلها عليهم صبيحة
الرابع * بضرب يطير
الحواجب عن العيون *
ويزيل القبائل عن الشؤن
ورشق يدع الاجساد مناخر
بل مناخر * فسدا انفجرت
عروقها * وأعيت على السكر
بثوقها * حتى اذا توسطت
الشمس هام النهار * أهاب
بالشد على الكفار لفجار *
فتجاوبت نغم التكبير
استنزالا لنصر الله * وتنجزا
لصادق وعد الله * وحمل
أولياء الله * على ذوى
الافك والشرك حملة
كشفت صفوفهم * وارغمت
بالذل أنوفهم * واقبل
السلطان كالفحل العتيق
يضرب باليدين * ويقد
الدراع بنصفين * ويسق

فقالت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه ابدا فقال لنور الدين لا بد من مسيره معي فتأمر به فامر نور الدين وانا استقيل وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير قال لي نور الدين لا بد من مسيرك مع عمك فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكانما اساق الى الموت فسرت معه وملكها ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه ليغالب عليها فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذي حمله على ذلك ان اصحابه قالوا له ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سنا من يوسف والرأى أن يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما ثم قصد الحارمي وقال هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك فمال اليه ايضا ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يعملون كذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك واخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها اهله والامراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة قد اعتبرت التواريخ ورأيت كثيرا من التواريخ الاسلامية التي يمكن ضبطها ورأيت كثيرا ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه الى بعض اهله واقاربه منهم اول الاسلام معاوية بن ابي سفيان اول من ملك من اهل بيته فنقل الملك من اعقابه الى بني مروان من بني عمه ثم من بعده السفاح اول من ملك من بني العباس انتقل الملك من اعقابه الى اخيه المنصور ثم السامانية اول من استبد منهم نصر بن احمد فانتقل الملك عنه الى اخيه اسمعيل بن احمد واعقابه ثم يعقوب الصفار وهو اول من ملك من اهل بيته فانتقل الملك الى اخيه عمرو واعقابه ثم عماد الدولة ابن بويه اول من ملك من اهله انتقل الملك عنه الى اخويه ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في اعقاب ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في اعقاب ركن الدولة ثم الدولة السلجوقية اول من ملك منهم طغرلبك انتقل الملك الى اولاد اخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك الى اعقاب

التفرقة من رسالة * ووقاه الله تعالى آدمه * ثلاث المسافة * ومهالك * ثلاث المسالك * وهو يتولى السالفين ولقد كان ابو الفتح علي بن محمد البستي يشكر حركات السلطان في نفسه في ثلاث المقاصد * برأى يسقيه من عطارده * وحقا لقد كان يقول * ما اشهد به المعقول * والسكون اذا جاء بهرام * والسيف الحسام * والبطش والاقدام * وشد سقط الكلام * وبطلت الصحائف والاقلام * وانشد ابو الفتح البستي في هذا الباب لنفسه قوله

الا ابلغ السلطان عني نصيحة
يشبهها وتدرأى عنك
تجاوزت اوج الشمس عزا ورفعة
وذلت قسرا كل من قد تملكوا
دامت حركات متعبات تديمها
تأنّ فأوج الشمس لا يتحرك

وهذه مسئلة تتنازعها الاوائل فمنهم من يجعل لاوج الشمس حركة كسائر حركات الاوجات فاما المحققون فقد انكروه ببراهين هندسية * واشكال برهانية

فيه اشاور فلم يريها ما يقصد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاء لصنيعه

(ذكر وفاة اسد الدين شيركوه)

لما ثبت قدم اسد الدين وظن انه لم يبق له منازع اتاه اجله حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة اربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة ايام واما ابتداء امره وسبب اتصاله بنور الدين فانه كان هو واخوه نجم الدين ايوب ابنا شاذي من بلد دوين من اذربيجان واصلهما من الاكراد الروادية وهذا القبيل هم اشرف الاكراد فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فرأى من نجم الدين عقلا وافرا وحسن سيرة وكان اكبر من شيركوه فجعله مستحفظا لقلعة تكريت وهي له فسار اليها ومعه اخوه شيركوه فلما انهزم أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجا الساقي على ما ذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل منهزما الى تكريت فخدمه نجم الدين واقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه اصحابه فاحسن ايوب صحبتهم وسيرهم ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت لملاحة جرت بينهما فاخرجهما بهروز من القلعة فسارا الى الشهيد زنكي فاحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعهما اقطاعا حسنا فلما ملك قلعة بعلبك جعل ايوب مستحفظا بها فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها فضاق عليه الامر وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولا عنه باصلاح البلاد فاضطر الى تسليمها اليهم فسلمها على اقطاع ذكره فاجيب الى ذلك وصار من اكبر الامراء بدمشق واتصل اخوه اسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي وكان يخدمه في ايام والده فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره فلما اراد نور الدين ملك دمشق امره فراسل اخاه ايوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها فاجاب الى ذلك على ما يريد منه على اقطاع ذكره ولاخيه وقرى بتلكاما فاعطاهما ما طلبا وفتح دمشق على ما ذكرناه ووفى لهما وصارا اعظم امراء دولته فلما اراد ان يرسل العساكر الى مصر لم ير لهذا الامر العظيم والمقام الخطر غيره فارسله ففعل ما ذكرناه اولا وآخرا والله اعلم

(ذكر ملك صلاح الدين مصر)

لما توفي اسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن اخيه ايوب بن شاذي قد سار معه على كره منه للمسير حكى لي عنه بعض اصدقائنا ممن كان قريبا اليه خصيصا به قال لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ويطلب ارسال العساكر احضرني واعلمني الحال وقال تمضي الى عمك اسد الدين بحمص مع رسولي اليه لحضر وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير ففعلت وخرجنا من حلب فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادما في هذا المعنى فامره نور الدين بالمسير فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي الي فقال لي تجهز يا يوسف

فقلت

طالبهم * فاسطوا بهم * اساطة الازرار بالاعناق * وحكموا فيهم حدود البواتر الرقاق * فلما رأى جمهرا ماء مائه حمدا الى خضر في خضره * فهتك به حجاب صدره * وانتقل الى نار الله الموقده * التي تطلع على الافئده * جزاء لمن كان كفر وتولى * وجحد الاولى ولا صام ولا صلى * ولا سبح ربه الاعلى * ثم واقبل عسكر السلطان فقتلوا الجماعة المقاتله * وغنموا الاموال الحاصله * وخص السلطان مائة وعشرون رأسا من الفيله * عما يضاهيها من ذخائر الاموال والاسلحة مما كاثر على غيره مناله * وما كاد انطذل على حلاوة حلاله * وقام بهم ساطية الى ان طاهر هامس العباس أولئك الارجاس * وادناس أولئك الانكاس * ونصب بهم امن دعائم حولة الدين سنن الاسلام ثم كر الى غزنة موفور العلا * منصور اللواء * عالي الرأي سائر ابدا على خط الاستواء * الا انه وافق منصرفه هوامي امطار * وطوامي انهار * وذوارع جبال * وقوارع اضداد واقتال * فاستغرق الغرق جل اثقاله * وشمل

ما جاوره صاحبها واستدعى ضيافته ونزل شملة ببلاد فارس فملكها فاساء السيرة الى اهلها ونهب ابن اخيه ابن شنكا البلاد فتغيرت بواطن اهلها عليه واجتمع الى زنكي بعض العسكر الذين كانوا عليها فاداروا من سوء سيرة شملة واستعاد زنكي بلاده ورجع الى ملكه وعاد شملة الى بلاد خوزستان

(ذكر ملك ايلدكز الري)

في هذه السنة ملك ايلدكز مدينة الري والبلاد التي كانت بيد اينانج وسبب ذلك ان ايلدكز كان قد استقر الامر بينه وبين اينانج على مال يؤديه الى ايلدكز فمنعه سنتين فارسل ايلدكز يطالب بالمال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته فجهز ايلدكز وقصد الري فالتقاه اينانج وحاربه حربا عظيما فانهزم اينانج ومضى منهزما فتحصن بقلعة طبرك فحصره ايلدكز فيها وراسل جماعة من مماليكه واطمعهم في الاقطاعات والاموال والاحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه وكانوا جماعة كثيرة وسلموا البلاد الى ايلدكز فرتب فيه عمر بن علي ياغ وعاد الى همذان ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج وسلموا البلد اليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغي ان لا يستخدموا وأبعدهم عنه فتفرقوا في البلاد فسار بعضهم وهو الذي تولى قتله الى خوارزمشاه فصلبه خوارزمشاه نكالا لما فعل بصاحبه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة رؤي في دار الخليفة رجل غريب في الطريق التي يركب فيه وفي يده سكين صغيرة وفي يده الاخرى سكين كبيرة فاخذوه وقرروه فقال انا من حلب فحبس وعوقب العواقب ولم يعلم من اين دخل وفيها قبض ابن البلدي وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السوى وعلى اخيه الاصغر وكانا بني عمة عضد الدين استاذ الدار وكان الاصغر عامل البيمارستان وقطعت يده ورجله قيل كان عنده صبي يقبض لها ويحمل الى الديوان باسم الصحة وقيل غير ذلك وحمل الى البيمارستان فمات به وكان شاعرا حسن شعره ومن شعره هذه الابيات

سلام على اهلي وصحبي وجلاسي * ومن في فؤادي ذكرهم راسخ راسي
اعالج فيكم كل هم ولا أرى * لداء هواي غير رؤيتكم آسي
لقد ابدت الايام لي كل شدة * تشيب لها الا كاد مفلاع الراس
فيا ابنة عبد الله صبرا على الذي * لقيت فهذا الحكم من مالك الناس
فلو ابصرت عيناك ذلي بكيت لي * بدمع سوى بالمدامع رجاس
اقول اقاسي والهموم تنوشه * وقد حدثته النفس بالضر والباس
فاوهم طيف من خيالي يزوركم * لمانعه دون الفاتق مواسي
وما حذري الا على النفس لا على * سواها الا في حلف فقر وافلاس

وفيها توفي المعمر بن عبد الواحد بن رجاء ابو احمد الاصبهاني الحافظ يروي عن اصحاب ابي نعيم وكان موته بالبادية ذاهبا الى الحج في ذي القعدة وفي رجب منها توفي الشيخ ابو محمد الفارقي المتكلم على الناس وكان احد الزهاد له كرامات كثيرة وكان يتكلم على الخاطر وكلامه مجموع مشهور وفيها مات جمية الرقاص من ندماء دار الخلافة وفي شوال منها توفي القاضي ابو

وسمع ذلك الخطيب ان
يدا ابيه على عزة جانبه *
فبذل مليفه * ويبيح
غريفه * ويحرق اهله واقاربه
جامعا بين خروقين *
وقاطعا بين البلتين *
فبسط عليه ايدي القتل
والايثاق * والنهب
والارهاق * والهدم
والاحراق * يلجئه من
مضيق الى مضيق * ويلقيه
من طريق الى طريق *
طاويا اليه البلاد على الفصار
بحضرموت رودا الى ان
ضجرت القضاة من هشك
ساق الدروع * وسكوت
الطماس وشفعاء الاشياء
والسلوع * وركب اثره
في اعوانه ياره * واعاق
رباعه * يخلص دماث
السهول وقصص الاماعر *
ويقري عليه وحوش البلق
بين مضيق المداخل ورحب
المساور حتى اصمرته قشعه
ولما سمع ابو الفتوح الى
المقاتل بما جرى من امر
عظيم الهمسد وهو الوديه
الرفيع * والسيد المنيع *
والسيف الصنيع * قام
باعه بشبره * وذراعه بقدره *

اخيه ايوب ثم ان صلاح الدين لما انشأ الدولة وعظمها وصار كانه اول لها نقل الملك الى اعقاب اخيه العادل ولم يبق بيد اعقابه غير حلب وهذه اعظم الدول الاسلامية ولولا خوف التطويل لذكرنا كثيرا من هذا والذى اظنه السبب فى ذلك ان الذى يكون اول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله اعقابه ومن يفعل ذلك من اجلهم عقوبة له

(ذكر وقعة السودان بمصر)

فى هذه السنة فى اوائل ذى القعدة قتل مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم الى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضاء فلقيه انسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهنثة وارتاب به وبهما فاتى بهما صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه وكان مقصود مؤتمن الخلافة ان يتحرك الفرنج الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج صلاح الدين فى العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على مخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون باجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه ولا يبقى لهم باقية فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودى فاحضر فامر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم واخبره الخبر واخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الخلافة فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا واذا خرج لم يبعد وصلاح الدين لا يظهر له شيأ من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية له تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قواقوش وهو خصى ابيض وكان لا يجرى فى القصر صغير ولا كبير الا بامره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فازدادت عدتهم على خمسين الفا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضا وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل فى الفريقين فارسل صلاح الدين الى محلتهم المعروفة بالمنصورة فاحرقها على اموالهم واولادهم فلما اتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين وركبهم السيف واخذت عليهم افواه السكك فطلبوا الامان بعد ان كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك فاخرجوا من مصر الى الجيزة فعبر اليهم شمس الدولة اخو صلاح الدين الاكبر فى طائفة من العسكر فابادهم بالسيف ولم يبق منهم الا القليل الشريد وكفى الله تعالى شرهم والله اعلم

(ذكر ملك شملة فارس واخراجه عنها)

فى هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس واخرج عنها وسبب ذلك ان زنكى بن دكلا صاحبها اساء السيرة مع عسكره فارسلوا الى شملة بخوزستان وحسنوا له قصد فارس فجمع عساكره وتجهز وسار اليها فخرج اليه زنكى بن دكلا ووقعت بينهم حرب فخامر فيها اصحاب زنكى عليه فانهزم فى شرذمة من عسكره وتجابنفسه وقصد الاكراد الشوانكارة والتجأ اليهم

(ذكر غزوة الملتان)
قد كان بلغ السلطان يمين الدولة وامين الملة حال والى الملتان ابى الفتوح من خبث اعتقاده وقبح دخلته ودس اعتقاده وقبح الحاده ودعائه الى مثل رأيه اهل بلاده فأنف للدين من مقارنته على القبيح شرته وشناعة امره واستخار الله تعالى الخائر فى قصده لاستتابته وتقديم حكم الله تعالى فى الايقاع به وامر بضم الاطراف وكفت الذيول وجمع الخيول الى الخيول وضوى اليه من مطوعة المسلمين من ختم الله لهم بصالح العمل واكرمهم باحدى الحسنيين فى الازل وثار بهم نحو الملتان عند موج الربيع بسيول الانواء وسيح الانهار بفضول الانداء وامتناع سيحون واخواتها على ركابها واستصعاب متونها على اصحابها فطلب السلطان الى اندبال ملك الهند ان يطرق له فى مملكته الى مقصده فمنع وتمرد واخذته العزة بالاثم فابى وتشدد ورأى السلطان غرة الرأى فى

واما نجم الدين ايوب فانه وصل الى مصر سالما هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة للقائه اكراما له

(ذكر غزوة لسرية نورية)

كان شهاب الدين الياس بن ايلغازي بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهو في مائتي فارس الى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل الى قرية اللبوة وهي من عمل بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للاغارة على بلاد الاسلام سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان لاسيما المسلمون فان الف فارس لا يصبرون لحملة ثلثمائة فارس افرنجية وكثر القتلى بين الطائفتين فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر فلم يفلت منهم الا من لا يعتد به وسار شهاب الدين برؤس القتلى وبالاسرى الى نور الدين فركب نور الدين والعسكر فلقوهم فرأى نور الدين في الرؤس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وكان شجى في حلوق المسلمين

(ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام)

في هذه السنة ايضا ثاني عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها وعمت اكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد واشدها كان بالشام فخربت كثيرا من دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وحلب وغيرها وتهدمت اسوارها وقلاعها وسقطت الدور على اهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد فلما اتاه الخبر سار الى بعلبك ليعمر ما انهدم من سورها وقلعتها فلما وصلها اتاه خبر باقي البلاد وخراب اسوارها وقلاعها وخلوها من اهلها فجعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك ثم الى حماة ثم الى بعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ثم اتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد اتت عليها وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ وكانوا لا يقدرون يأوون مساكنهم خوفا من الزلزلة فاقام بظاهرها وباشر عمارتها بنفسه فلم يزل كذلك حتى احكم اسوار البلاد وجوامعها واما بلاد الفرنج فان الزلازل ايضا عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفا من نور الدين عليها فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر

(ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي وملك ابنه سيف الدين غازي)

في هذه السنة في ذي الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وكان مرضه حمى حادة ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الاكبر عماد الدين زنكي وعدل عنه الى ابنه الآخر سيف الدين غازي وانما صرف الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود لان القيم بامور دولته والمقدم فيها كان خادما له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لانه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولانه زوج ابنته وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازي وهي والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين الى سيف الدين فدخل عماد الدين الى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على اخذ الملك لنفسه وتوفي قطب الدين وعمره نحو اربعين سنة وكان ملكه

الشوى من امر السعدين فارة مدت فرائص السنة واخواتها حذار بطشه وانتقامه وخففت بهما نجوى الالحاد وطمست صوى الغي والعناد فلله ابو تمام حيث يقول

كرمت غزوتك بالاسر والمثقل
دفاق والمطب غير رقيق
حين لا حلبة السماء بجمرا
ء ولا وجه شمسها بطليق
ان ايامك الحسان من الرو
م لمحو الصبوح غير الغبوق
معلمات كانها بالدماء
راق ايام النحر والتشريق

(ذكر عبور عسكر ايلك الخان نحو خراسان)

قد كانت الحال في الالفة قائمة بين السلطان يمين الدولة وامين الملة وبين ايلك الخان الى ان دب

الحسن علي بن يحيى القرشي الدمشقي وفي ذي الحجة توفي نجم الدين بن محمد بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل وولي ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء

(ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة)

(ذكر حصر الفرنج دمياط)

في هذه السنة في صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك اسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وايقنوا بالهلاك وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والاندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الاتراك مصر وانهم خائفون على البيت المقدس منهم فارسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فامدوهم بالاموال والرجال والسلاح واتعدوا النزول على دمياط ظنا منهم انهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به الديار المصرية فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا فالى ان دخلوا كان اسد الدين قد مات وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فارسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالاموال والسلاح والذخائر وارسل الى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول اني ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وان سرت اليها خلفني المصريون في اهلها بالشر وخرجوا عن طاعتي وساروا في اثري والفرنج امامي فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العساكر اليه ارسالا يتلو بعضها بعضا ثم سار هو بنفسه الى بلاد الفرنج الشامية فنهبها واغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع فلما رأى الفرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء ووجدوا بلادهم خرابا واهلها بين قتيل واسير فكانوا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا اذنين وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما اخرج فيها صلاح الدين اموالا لا تحصى حكي انه قال ما رأيت اكرم من العاضد ارسل الي مدة مقام الفرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها

(ذكر حصر نور الدين الكرك)

في هذه السنة في جمادى الآخرة سار نور الدين الى بلد الفرنج فحصر الكرك وهو من امنع المعاقل على طرف البر وكان سبب ذلك ان صلاح الدين ارسل الى نور الدين يطلب ان يرسل اليه والده نجم الدين ايوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكرا واجتمع معه من التجار خلق كثير وانضاف اليهم من كان له مع صلاح الدين انس وصحبة فخاف نور الدين عليهم من الفرنج فسار في عساكره الى الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المجانيق فاتاه الخبر ان الفرنج قد جمعوا له وساروا اليه وقد جعلوا في مقدمتهم ابن هنفري وفليب بن الرفيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل ان يلتحق بهما باقي الفرنج فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى الى ان وصل الى بلاد الاسلام فنزل على عشترا واقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم فاقام هو حتى اتاه خبر الزلزلة الحادثة فرحل

واما

وايقن ان من الجبال لاقطالهم ضبات القود * وفرق البزاة لا تنال بغاث الطيور * فحمل ثقل امواله على ظهر وزفافه الى سرنديب واخلى المكان للسلطان يفعل فيها ما يشاء فثنى العنان اليها * وتوجه اليها * مستعينا بالله على من احدث في دينه * وحدث بتوهينه * فاذا اهلها في ضلالهم يخبطون * وفي طغيانهم يعمهون * يريدون ليطفؤا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * فضرب عليهم جران المحاصرة وكلكل المناجزة والمناحرة حز الغلاصم * وبتكا للايدي من المعاصم * وارصاد الهم بالفاقرات القواصم * حتى افتضها عنوة * وتضمنها عقابا وسطوة والزمهم عشرين الف الف درهم يرحضون بها دنس استعمالهم * ويدرؤن عن انفسهم هجنة استشرائهم وابائهم * وعبر ذكره بما آتاه الله من نصرة الدين * وانارة معالم اليقين عرض البحر الى ديارات مصر حتى درست بها مقاماته التي لم يرو مثالها عن ذي القرنين * الى حيث

(ذكر وفاة صاحب كرمان والخلاف بين اولاده)

فى هذه السنة توفى الملك طغرل بن قاورت صاحب كرمان واختلف أولاده بهرام شاه وارسلان شاه وهو الاكبر وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه الى خراسان فدخل على المؤيد صاحب نيسابور واستنجده فانجده بعساكر سار بهم الى كرمان فجرى بين الاخوين حرب ظفر فيها بهرام شاه وهرب ارسلان شاه فقصد اصفهان مستجيرا بايلدكز فانفذ معه عسكرا واستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها الى اخيه ارسلان شاه فعاد بهرام شاه الى نيسابور مستجيرا بالمؤيد صاحبها فاقام عنده فاتفق أن اخاه ارسلان شاه مات فسار الى كرمان فملكها واقام بها بغير منازع

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثرت الاذية من عبد الملك بن محمد بن عطاء وتطرق الى بلاد حلوان ونهب وأفسد وأخذ من الحجاج فانفذ اليه من بغداد عسكر فنازلوه فى قلاعه وضايقوه ونهبوا امواله واموال اهله حتى أذعن بالطاعة ولا يعاود اذى الحجاج ولا غيرهم فعاد عنهم العسكر وفيها توفى مجد الدين أبو بكر بن الداية وهو رضيع نور الدين وكان أعظم الامراء منزلة عنده وله فى اقطاعه حلب وحارم وقلعة جعبر فلما توفى رد نور الدين ما كان له الى أخيه شمس الدين على بن الداية وفيها فى شعبان توفى أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلى وهو من مشهورى المحدثين (الجيلى) بالجيم والياء تحتها نقطتان

(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة المستنجد بالله)

فى هذه السنة تاسع ربيع الآخر توفى المستنجد بالله ابو المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله وقد تقدم باقى النسب فى غير موضع وأمه ام ولد اسمها طاوس وقيل نرجس رومية ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوى وهو حينئذ اكبر امير ببغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووضعا الطبيب على ان يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ثم انه دخل واغلق عليه بابه فمات وهكذا سمعت عن غير واحد ممن يعلم الحال وقيل ان الخليفة كتب الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على استاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية باستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول انى أوصلت الخط الى الوزير ففعل ذلك وحضر استاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فدخل اليه يزدن وقايماز الحميدى فحملاه الى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح الى ان مات رحمه الله وكان وزيره أبا جعفر بن البلدى وبينه وبين استاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة لان المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها وكانا يظنان انه هو الذى يسعى بهما فلما مرض المستنجد وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهم بالعدد فلم يتحقق عنده خبر

وتربها بالحل غاية القصال
وورد سباشى تكين هراة
فاستوطنها وندب الحسين
ابن نصر لصحابة الديوان
بنيسابور فقرتب الاعمال
وواصل الاستخراج وما يلهم
كثير من اعيان خراسان
لاستقفاء خبر السلطان*
من جانب الملتان* وتناقل
الالسنة أهواء القلوب
ونوازع النفوس أخبار زور*
وأراجيف غرور* وأمر
الوزير أبو العباس الفضل
ابن أحمد بالاحتياط على
الطرق بين غزنة وحدود
باميان وبنجهير وسدها
بحماة الرجال على مسافة
مداخلها* وصعوبة
مراكبها* وطير البريد الى
السلطان بما انبث فى
أطراف البلاد من حيات
العداء* وعقارب الغوغاء*
فاعجلته بديهة البلاغ عن
استتمامه* وأزعجته غلبة
الحمية عن مقامه* فركب
ركوب الريح العاصف
كالف الجهام البارق* يطوى
الارض طى المهارق* بين
ايضاع وايجاف* واغذاذ
واعتساف* وبين سهول
وظراب* وسهوب وشعاب*
حتى ألقى عصا القرار بغزنة
وأقام العطاء لاجناد دولته*
وانشاء حيلته* وملأ ايديهم
بالعطايا* والرغائب* وأزاح
عللهم فى المطايا* والركائب*

احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفا وكان فخر الدين هو المدبر للامور والحاكم في الدولة وكان قطب الدين من احسن الملوك سيرة واعفهم عن اموال رعيته محسنا اليهم كثير الانعام عليهم محبوبا الى كبيرهم وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضيعهم كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم فكأن القائل اراده بقوله

خلق كماء المزن طيب مذاقة * والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع * عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث الا أن وابل جوده * ابدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر الا أنه ذو رحمة * والدهر قاسي القلب غير رحيم

وكان سريع الانفعال للخير بطيئا عن الشر جم المناقب قليل المعايب رحمه الله ورضي عنه وعن جميع المسلمين بمنه وكرمه انه جواد كريم

(ذكر حالة ينبغي للملوك ان يحذروا من مثلها)

حدثني والدي رحمه الله قال كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم فلما كان قبل موته يسيرا أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة منها دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شيء معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع قال وكان لي فيها املاك كثيرة فكنت اقول ان المصلحة ان لا يغير على الناس شيء وما اقول هذا الاجل ملكي فانني انا امسح ملكي وانما اريد ان يدوم الدعاء من الناس للدولة فجاءني كتاب النائب يقول لا بد من المساحة قال فأظهرت الامر وكان بها اقوام صالحون لي بهم انس وبيننا مودة فجاءني الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فاعلمتهم اني راجعت وما اجبت الى ذلك فجاءني منهم رجلان اعرف صلاحهما وطلبا مني المعاودة ومخاطبة ثانية ففعلت فاصروا على المساحة فعرفتهما الحال قال فمضى الا عدة ايام واذ قد جاءني الرجلان فلما رأيتهما ظننت انهما جاءا يطلبان المعاودة فجئت منهما واخذت أعتذر اليهما فقالا ما جئنا اليك في هذا وانما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت قال فظننت انهما قد ارسلا الى الموصل الى من يشفع لهما فقلت من الذي خاطب في هذا بالموصل فقالا ان حاجتنا قد قضيت من السماء ولكافة اهل العقيمة قال فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما ثم قاما عني فلم يمض غير عشرة ايام واذا قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون باطلاق المساجين والمحبوسين والمكوس ويأمرون بالصدقة ويقال ان السلطان يعني قطب الدين مريض يعني على حالة شديدة ثم بعد يومين او ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته فعجبت من قولهما واعتقدته كرامة لهما فصار والدي بعد ذلك يكثر اكرامهما واحترامهما ويزورهما

(ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش)

كان محمد بن سعد بن مردنيش ملك شرق الاندلس قد اتفق هو والفرنج وامتنع على عبد المؤمن وابنه بعده فاستفحل امره لاسيما بعد وفاة عبد المؤمن فلما كان هذه السنة جهز اليه يوسف بن عبد المؤمن جيشا فاسوا بلاده وخربوها واخذوا مدينتين من بلاده وانضاف اليهم عساكره وجنوده واقاموا ببلاده مدة يتنقلون فيها ويجبون اموالها

فقارب الفساد في ذات البين واضطرب الحبل الساكن واشتهر في الجو الهامد وراعى اياك فرصة المهاجرة * بسر المكاشرة * حتى اذا صحا السلطان * عمد الملتان * وغارت خيول البلاد واياته * وخفت عن اعيان رجاله ولاياته * سرب سباشي تكين صاحب جيشه واحد قراباته * الى كور خراسان في معظم اجناده * وشحن بلخ بجعفر تكين وعدة من قواده * وكان والي طوس ارسلان الجاذب مقيما براه مأمورا بالاصحاب الى غزنة في جم ناجم عتاد * ودعق ناعق بفساد * فأسرع الانقلاب اليها اخذا وثقة بالحزم في ترك القتال

أتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وبلد الجبل واذربيجان واصفهان والري وتلك الاعمال يستنجده على عمه نور الدين فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض الى الموصل ويقول له ان هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها فلم يلتفت اليه وقال للرسول قل لصاحبك انا أصلح لاولاد اخي منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة واهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا وليس لي مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولا يحل لي السكوت عنك فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وازالة الظلم عن المسلمين فاقام نور الدين على الموصل فعزم من بها من الامراء على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد الى نور الدين فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين في تسليم البلد اليه على ان يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الامان ولماله فأجابه الى ذلك وشرط ان فخر الدين يأخذه معه الى الشام ويعطيه عنده اقطاعا يرضيه فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الاولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السر لانه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه حلف ان لا يدخلها الا من احصن موضع فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من ابواب المظالم وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصر ووصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله فلبسها ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه وأمر وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري وركب هو بنفسه الى موضعه فرآه وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع فأمر أن يضاف الى الارض التي شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه وولى الشيخ عمر الملا عمارته وكان من الصالحين الاخيار فاشترى الاملاك من اصحابها بأوفر الاثمان وعمره فخرج عليه أموال كثيرة وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة وأما نور الدين فانه عاد الى الشام واستناب في قلعة الموصل خصيا كان له اسمه كمشتكين ولقبه سعد الدين وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الامور ولا بكثير وسلمه واقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين فلما فعل ذلك قال كمال الدين ابن الشهرزوري هذا طريق الى أذى يحصل لبيت أتابك لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف وتطمع الاعداء فكان كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح وغير اسمه فسماه عبد الله وأقطعه اقطاعا كبيرا

(ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح ايلة)

وفي هذه السنة سار صلاح الدين ايضا عن مصر الى بلاد الفرنج فاغار على اعمال عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن اشرف ان يؤخذ أسيرا وعاد الى مصر وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال في البر وقصد ايلة فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر وحصر ايلة برا وبحرا وفتحها في العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها

وسوء الجبال والمضارب * فانه ما قدر ثم ظفر به * سباشي تكين * فقتله بنصفين بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة من الجانبين * وأجل ارتداف أرسلان الجاذب اياه عن فضل المقام * وروح الاستجمام * فارتحل الى أبيورد ومنها الى نسا وبينهما مرحلة واحدة كلما صدر عن هذا ورد ذلك ولم يخل من ذلك أناخ هذا يتقاعسان امداد الطلب والهرب جميعا * ولا يردان المياه الا لماما * وقد كان سباشي تكين قد حصل صدرا من المال والاسلحة من نواحي هراة وغيرها فسارت عقلته دون الخفوق في وجه الغاة فهو يتيامن مرة ويتياسر أخرى منكوسا على رأسه لا يرقه خوف العارين اسلام ما بردت به يداه وأعياه الخلاص بحشاشة النفس آخريا الا باقراره وتفريغ الخاطر عن الشغل به ولما قرب ارسلان الجاذب من أسار حمل متوجها الى سابور وأنهبه الطلب فخوجر سيان فركب قال تلك الجبال بين الاسنام المتنفه * والغياض المتفه * والطارق الضيقة * والمخارم المضطربة * وتساقط البكرا كابرة على اثقاله *

مرة فأرسل اليه عضد الدين يقول ان امير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد الى داره وتفرق الناس عنه وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد اغلق استاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبا محمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضىء بأمر الله وشرطا عليه شروطا ان يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين استاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك ولم يل الخلافة من اسمه الحسن الا الحسن بن على بن ابى طالب والمستضىء بأمر الله واتفقا فى الكنية والكرم فبايعه اهل بيته البيعة الخاصة يوم توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرق أموالا جليلة المقدار وعلم الوزير ابن البلدى فسقط فى يده وقرع سنه ندما على ما فرط فى عوده حيث لا ينفعه وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضىء فمضى الى دار الخلافة فلما دخلها صرف الى موضع وقتل وقطع قطعا وألقى فى دجلة رحمه الله وأخذ جميع ما فى داره فرأوا فيها خطوط المستنجد بالله بأمره فيها بالقبض عليهما وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كانا يظنان فيه فندما حيث فرطا فى قتله وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيأ وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس (بلغنى) انه قبض على انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى انسانا آخر مثله لا كف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الاموال على أصحابها أيضا وقبض على القاضى ابن المرخم وأخذ منه مالا كثيرا فأعاده على أصحابه ايضا وكان ابن المرخم ظالما جائرا فى أحكامه

(ذكر ملك نور الدين الموصل واقرار سيف الدين عليها)

لما بلغ نور الدين محمودا وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازى الموصل والبلاد التى كانت لابيه بعد وفاته وقيام فخر الدين عبد المسيح بالامر معه وتحكمه عليه وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته فقال أنا أولى بتدبير أولاد أخى وملكهم وسار عند انقضاء العزاء بجريدة فى قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل المحرم من هذه السنة وقصد الرقة فحصرها وأخذها ثم سار الى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين واقام بها يجمع العساكر فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وكثر جمعه وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول اليهم فسار الى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة عندها مخاضة الى الجانب الشرقى وسار فنزل شرقى الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل ومن العجب ان يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان سيف الدين غازى قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى

واستنفر الاتراك الخلجية أحلاس الظهور وأبناء الصوارم الذكور فنفر منهم جمع على جمع وان كانوا بتر كأنما خيطوا عليها بالابر وجاش نحو بلخ وبها جعفر تكين فأسرع السكر الى ترمذ اشفاقا من صدمة الضيغم الخادر واحترازا من وثبة الارقم الثائر واستقر السلطان ببلخ موفور الانس والجذل كما تجلى صفحة الشمس من برج الحمل وأمر باتباع سباشى تكين بارسلان الجاذب فاتبعه فى زهاء عشرة آلاف من أبناء الكفاح ومصة الارواح بأشطان الرماح وسارع سباشى تكين نحو الوادى للعبور فلم تره الا العاديات ضوابح والموريات قوادح فكر على أدراجه عاثرا عاثرا وعطف الى مرو على أن ينسرح منها الى الشط على سمت المفازة فاذا الآبار مردومه والمناهل مطمومه ووديقة الصيف مسجوره وأذيال السوافى على المعالم مجروره فانثنى الى سرخس وبها المختمر بن طاق رئيس الاتراك الغزية فأحدقا به احداقا سد عليه باب الهرب وضيق دونه

نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم رأيته انا بالموصل فلما رأى
ماهم فيه من الاحجام وان أحدا لا يتجاسر يخطب للعباسي قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان اول
جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان وكتب
بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من اهله وأصحابه
بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته
فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر
الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتبه قبل موت العاضد فحمل
الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة
والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل
الياقوت وزنه سبعة عشر درهما او سبعة عشر مثقالا انا لا أشك فاني رأيته ووزنته واللؤلؤ
الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع اصابع في عرض عقد كبير ووجد
فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لاجل اللعب
به فسخروا من العاضد فأخذه انسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان
كل من ضرب به ضرط فألقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل لاجل القولنج فندموا على كسره لما
قيل لهم ذلك وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه ونقل أهل
العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد
فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كأن لم يغن بالامس فسبحان
الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض
العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه
فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده
وكان في نسبه تسع خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز
والمعز والمنصور والقائم والمهدي ومنهم من لم يخطب له بالخلافة أبوه يوسف بن الحافظ
وجد أبيه وهو الامير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقي من خطب له بالخلافة وليس من آبائه
المستعلي والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة
منهم بافريقية المهدي والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز
المذكور وهو أول من خرج اليها من افريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر
والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وجميع مدة ملكهم من حين
ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين الى ان توفي العاضد مائتان
واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمررت
ولم تصف الا وتكدرت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله
تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا في الآخرة انه
سميع الدعاء قريب من الاجابة ولما وصلت البشارة الى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة
أيام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه وسيرت الخلع مع عماد الدين

ابن حسان
فريت من مصر بالاسه
الى اليزيدية اى واقاله
فكنت كالساعي الى مثعب
موائل من سبل الراعد
وأحاطت به السيوف حيث
لا ماء الا الصابغ الاسواه
وهي عاصبه * ولا مرعى الا
شكائم اللجم وهي عاضبه *
وأسر أخو سباشي تكين
في زهاء سبعمائة من
وجوه الافراد * ورؤسا
القواد * واسر السلطان
بقراجه وليا تم سم أفرغت
قيود الكعا بهم * وجوامع
رقابهم * وحملهم الى غزنة
ليرى أهلها حسن صنع الله
تعالى فيمن شاقه * ونقض
عهده وميثاقه * وبقي سباشي
تكين في نفر من الصدد
بجريعة الذقن فعبر جيحون
الى ايلك الخان وقد كان
ايلك الخان عبر بجعفر تكين
أخاه في زهاء ستة آلاف
رجل الى بلخ ثانيا الاستفساد
عزيمة السلطان في قصد
سباشي تكين واخراجه
ثانيا فتراوث بهم حتى فرغ
الخاطر من أمره * ووضع
ما أنقضه من الشغل به عن
ظهره * ثم ثنى العنان اليهم
شد العصى الهواء بغباره *
واستغرق أوقات ليله
ونهاره * فلم يرعهم الا راياته
بأجنحة الصباح طائره *
وخيوله في سبيل المراح

وعاد الى مصر

(ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة)

كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام قاضيا شافعيا في مصر فاستناب القضاة الشافعية في جميع البلاد في العشرين من جمادى الآخرة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اشترى تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر وبناها مدرسة للشافعية وفيها أغار شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين على الاعراب الذين بالصعيد وكانوا قد أفسدوا في البلاد ومدوا أيديهم فكفوا عما كانوا يفعلونه وفيها مات القاضي ابن الخلال من اعيان الكتاب المصريين وفضلائهم وكان صاحب ديوان الانشاء بها وفيها وقع حريق ببغداد في درب المطبخ وفي خرابة ابن جردة وفيها توفي الامير نصر بن المستظهر بالله عم المستنجد بالله وجده وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله وكان موته في ذي القعدة ودفن في الترب بالرصافة وفيها اجمل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد ولقب ظهير الدين وفيها حج بالناس الامير طاشتكين المستنجدي وكان نعم الامير رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة)

(ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية)

في هذه السنة في ثاني جمعة من المحرم قطعت خطبة العاضد لدين الله ابي محمد الامام عبد الله بن يوسف ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن ابي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله ابي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور بن العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الطاهر اسمعيل بن القائم بامر الله أبي القاسم محمد بن المهدي بالله ابي محمد عبيد الله وهو اول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بامرة المؤمنين وكان سبب الخطبة العباسية بمصر ان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة بها العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصي كان من اعيان الامراء الاسدية كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين فانه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاما لا فسحة له في مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض هذا الوقت مرضا شديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر في المصريين ومنهم من خافه الا انه ما يمكنه الا امتثال أمر

وانثناء دنياه * حتى فشت نكايتهم فيه واستأمن الى شمس المعالي قابوس ابن وشمكير طوائف من اهل جملته لعدم المراكب * وذهاب الرواتب * وانفل هو على سمت دهستان حتى عاد الى نسا وجمع ما بقي عليه من تلك الاثقال فاصدرها الى خوارزمشاه أبي الحسين علي بن مأمون وكتب اليه يستودعه اياها امانة لايلك الخان وحذره أن يمد اليها بغير الصيانة يده واصحبها رجالة عسكره والعجزة منهم عن صحبته واقتحم المفازة متوجها نحو مرو وكان السلطان قد انحدر الى طوس مراعيا ما يصدر عنه ركض ارسلان الجاذب على اثره واماقه الطالب الحثيث به فلما بلغه ركوبه سباشي تيكين عرض المفازة اسرى على طريق مرو معارضا له في مسيره * وناقضا عليه قوى تدبيره * فوصل اليه بخلاصه عن وعثاء * تلك البيداء * ورماه بأبي عبد الله محمد بن ابراهيم الطائي زعيم العرب وسائر قواده رجال يرون الملاحم * ولائم * والوقائع * نقائع * وسيوف الضراب عرائس * وصفوف الكماة فرائس * فكان كما قال سعيد

واشتغل بغيره فكان الامر كما ظنه أيوب فتوفي نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها

(ذكر غزوة الى الفرنج بالشام)

وفي هذه السنة خرج مركبان من مصر الى الشام فارستا بمدينة لاذقية فاخذهما الفرنج وهما مملوآن من الامتعة والتجارة وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فارسل نور الدين اليهم في المعنى واعادة ما أخذوه من أموال التجار فغالطوه واحتجوا بامور منها ان المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء وكان الشرط ان كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه فلم يقبل مغالطتهم وجمع العساكر وبث السرايا في بلادهم بعضها نحو انطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيثا وعريمة فاخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا اليه وهو بعرقة فسار في العساكر جميعها الى ان قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وأما الذين ساروا الى انطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابلس فراسله الفرنج وبذلوا اعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم فأجابهم الى ذلك وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم

(ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده)

في هذه السنة توفي الامير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الاندلس وهي مرسية وبلنسية وغيرهما ووصى أولاده ان يقصدوا بعد موته الامير أبا يعقوب وكان قد اجتاز الى الاندلس في مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه

(ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه)

في هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسمع صاحبها خوارزمشاه ايل ارسلان ابن اتسز فجمع عساكره وسار الى امويه ليقاتلهم ويصدهم فمرض وأقام بها وسير بعض جيشه مع أمير كبير اليهم فلقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ورجع به الخطا الى ماوراء النهر وعاد خوارزمشاه الى خوارزم مريضا

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة اتخذ نور الدين بالشام الحمام الهوادي وهي التي يقال لها المناسيب وهي تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها وجعلها في جميع بلاده وسبب ذلك انه لما اتسعت بلاده وطالت مملكته وبعدت أكنافها وتباعدت أوائلها عن أواخرها ثم انها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نازلوا بعض ثغوره فالى ان يصل الخبر ويصل اليهم قد بلغوا غرضهم منه فأمر بالحمام ليصل الخبر اليه في يومه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها واقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين وفيها عزل الخليفة المستضيء بامر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء لان قطب الدين قايماز الزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته وفيها مات ابو محمد

عراض الوجوه غرز العيون فطس الانوف * شقاق الشعور حداد السيوف * سود الثياب من ساق الدروع يحملون حماليا كخراطيم الفيول * محشوة بنبال كأنياب الغول * ولما سمع السلطان بعبوره * في جمهور ره * وكان اذ ذاك بطخيرستان سبقه الى بلخ فاستوطنها قاطعا عنها طمعه * ومالكا عليه عثارة ومنجعه * واستعد للحرب فخرج السلطان في عساكر الترك والهند والخلج والافغانية والغزنوية آساد الجد والصدق * وأبناء الشق والرشق * الى معسكر له على أربعة فراسخ من البلد يعرف بقنطرة خرشيان وسيح الجبال على الرجال * رحب الفضاء * على الدهماء * وزحف ايلك الى محاذاته في عدد الدهم وعسكره الجمر فتطارد الفرسان * وتجالد الشجعان * سحابة يومهم على رسم الطلائع * أمام الوقائع * الى أن تقوم حاجز الليل وأصبح الناس على ميعاد الحرب فعبى السلطان رجاله صفوفا كالجبال الراسيات * والصلاد الراسخات * ورتب في القلب أخاه صاحب الجيش نصرا ووالي الجوزجان اباه

صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار
صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التي لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية
والاعلام السود ثم ان هذا صندلا صار استاذدار الخليفة المستضيء بامر الله ببغداد وكان
يدري الفقه على مذهب الشافعي وسمع الحديث ورواه ويعرف أشياء حسنة وفيه دين
وله معروف كثير وهو من محاسن بغداد

(ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا)

في هذه السنة جرت أمور أوجبت ان تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه ان
صلاح الدين يوسف بن ايوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة الى بلاد الفرنج غازيا ونازل
حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيق على من به من الفرنج وادام القتال
وطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام فاجابهم الى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين
سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل اليها من جهة أخرى فقيل لصلاح الدين ان
دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها
ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين
اليك وأنت ههنا فلا بد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء
تركك أولا فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فرحل عن الشوبك عائدا
الى مصر ولم يأخذه من الفرنج وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لامور
بلغته عن بعض شيعته العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها وانه يخاف عليها من البعد عنها
ان يقوم اهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلم يقبلها نور الدين
منه وتغير عليه وعزم على قصد مصر واخراجه عنها وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع
اهله وفيهم أبوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه
من عزم نور الدين وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقي الدين عمر ابن
أخي صلاح الدين فقال اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم
الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وشتم تقي الدين واقعده وقال لصلاح الدين انا أبوك وهذا
خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين
لم يمكننا الا ان نقبل بين يديه ولو أمرنا ان نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما
ظنك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على
سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فان أراد عزلنا سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب
كتابا مع نجاب تقول فيه بلغني أنك تريد الحركة لاجل البلاد فأي حاجة الى هذا يرسل المولى
نجابا يضع في رقبتي منديلا ويأخذني اليك وما ههنا من يمتنع وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا
على هذا فلما خلا به ايوب قال له بأي عقل فعلت هذا أما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على
منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لا تقوى عليه وأما الآن اذا بلغه ما جرى
وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب
السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به فتركه نور الدين وقصده

واشتغل

سائره * وكن اسم السلطان
فلما رأوا الكمين * انثالوا
منهزمين * يخنسون دعوة
الخلاص بآمين آمين *
وتبعهم صاحب الجيش أبو
المظفر نصر بن ناصر الدين
سبكتكين على ساحل جيحون
كاسعا لأدبارهم * ومختطفا
ثمارهم * الى ان عبروه فسالت
شراة من عيث سوادهم *
وخلت من مبثوث جرادهم
فاضطرب ايلك حنقا لما
جرى على عسكره من
الضغطة الكبيرة * والصدمة
المبيرة * فاستعان بقدرخان
ابن بغراخان لقرابة بينهما
ولحمة ونسبة وشيجة *
واستجره بحقوق مستلقة
الى أخذ ثاره * مستظهرا
بنصرته واظهاره * فاستجاش
أحياء الترك من مكانها *
وحشر فتاقان من أقصى
بلدانها * واستنفر دهاقين
ما وراء النهر * في جيوش
تجل عن الحد والحصر *
وسار في خمسين ألفا أو
يزيدون * حتى عبر جيحون *
مدلا بعسكره المائج *
وبجأشه الهائج * ومعتضدا
بقدرخان ملك الختن ذي
العدة والعديد * والبأس
الشديد * والايد المتين *
والبسطة في المال *
والرجال * والتمكين في
رجال كالحدائق الفوايح *
فوق الجرد المرائج *

وتحصن بها وسار سلطان شاه الى مرو فملكها وعاد الخطا الى ما وراء النهر وجعل سلطان شاه دأبه
قتال الغز والقتل فيهم والنهب منهم فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل الى نيسابور الى طغان شاه
ابن المؤيد يقول له ليرسل اليه من يسلم اليه قلعة سرخس فأرسل اليه جيشا مع أمير اسمه
قراقوش فسلم اليه دينار القلعة ولحق بطغان شاه فقصد سلطان شاه سرخس وحصر قلعتها وبلغ
ذلك طغان شاه فجمع جيوشه وقصد سرخس فلما التقى هو وسلطان شاه فر طغان شاه الى نيسابور
وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة فأخلى قراقوش قلعة سرخس ولحق بصاحبه وملكها
سلطان شاه ثم اخذ طوس والزام وضيق الامر على طغان شاه بعلو همته وقلة قراره وحرصه
على طلب الملك وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر فلم يزل الحال كذلك الى أن مات
طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في المحرم وملك ابنه سنجر شاه فغلب عليه مملوك جده
المؤيد اسمه منكلي تكين فتفرق الامراء أنفة من تحكمه واتصل أكثرهم بسلطان شاه وسار
الملك دينار الى كرمان ومعه الغز فملكها واما منكلي تكين فانه أساء السيرة في الرعية واخذ
أموالهم وقتل بعض الامراء فسمع خوارزم شاه بذلك فسار اليه فحصره بنيسابور في ربيع
الاول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد الى خوارزم ثم رجع
سنة ثلاث وثمانين الى نيسابور فحصرها وطلبوا منه الامان فأمنهم فسلموا البلد اليه فقتل
منكلي تكين واخذ سنجر شاه وأكرمه وأنزله بخوارزم وأحسن اليه فارسل الى نيسابور يستميل
أهلها ليعودوا اليه فسمع به خوارزم شاه فأخذ سنجر شاه فسمله وكان قد تزوج بأمه وزوجه بابنته
فماتت فزوجه بأخته وبقي عنده الى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ذكر هذا ابو الحسن
ابن ابي القاسم البيهقي في كتاب مشارب التجارب وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه
الحوادث مخالفة لهذا في بعض الامور مع تقديم وتأخير ونحن نوردها فقال ان تكش
خوارزم شاه بن ارسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وكان قد ملكها بعد موت ابيه
فجاء الى مرو فملكها وأزاح الغز عنها فخرجوا أياما ثم عادوا عليه فأخرجوه منها وانتهبوا
خزانته وقتلوا أكثر رجاله فسار الى الخطا فاستنجدهم وضمن لهم مالا وجاء بجيش منهم فأخرج
الغز عن مرو وسرخس ونسا وابيورد وملكها ورد الخطا فلما أبعدوا كاتب غياث الدين
الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وباذغيس وما والاها ويتوعده ان هو لم ينزل عن
ذلك فأجابه غياث الدين يطلب منه اقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان
فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات على باذغيس وبيوار وما والاها وحصر بوشنج
ونهب الرساتيق وصادر الرعايا فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرض لنفسه أن يسير هو بل سير ملك
سجستان وكاتب ابن اخته بهاء الدين سام صاحب باميان باللحاق به لان أخاه شهاب الدين كان
بالهند والزمان شتاء فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملك سجستان ومن معهما من
العساكر ووافق ذلك وصول سلطان شاه الى هراة فلما علم بوصولهم عاد الى مرو من غير أن
يقاتلها وأحرق كل ما مر به من البلاد ونهب وأقام بمرو الى الربيع وأعاد مراسلة غياث الدين
في المعنى وأرسل الى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال فنادى في عساكره الرحيل لساعته وعاد
الى خراسان واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر وقصدوا

الاعقاب اعداء فانشكروا
بالنبال * فجاءهم القبول *
وشقوا بالنصال * سرابيل
الطبول * واستبانت الاهوال *
واستقر البحر * واستعمل
الدماء * واستهل الاعداء *
وزخر وادي القطب بأهله *
وكاد يخرج بادي الشر عن
حده * نزل السلطان الى
صعيد ربوة كان اشرف بها
السرير صفات الحرب *
وتلافي ترقات ذلك المركب
الصعب * فوضع لله خده
وعفر شعره * وأرسل دمعه
* وقدم نذره * ودعا الله
تعالى أن يحرس ملكه *
ويحسن قلبه ونصره * ثم
وثب الى قصدته من فيلته
المغتالة فحمل بها وبسائر
خاصته * على قلب ايلك أهوى
الفيل الى صاحب رايته *
فاستقله من امام سرجه *
ورمى به في الهواء من فوقه
* وتقال الآخرين حطها
بخرطومه وشكا بأنيابه *
ودوسا بأظلافه * واشال
أولياء السلطان على
الآخرين سيوف تلغ في
الدماء * وترشف اسماء
الاحشاء * فطارت قلوبهم
هواء * واستحالت قواهم
هباء * وولوا على أعقابهم
ناكصين * وتبعهم الطالب
بظبات القسر والقهر *
الى أن اظلتهم خراسان
الى ماوراء النهر * واقصد

عبد الله بن أحمد الخشاب النحوي وكان قيما بالعربية وسمع الحديث وفيها مات البوري الفقيه الشافعي تفقه على محمد بن يحيى وقدم بغداد ووعظ وكان يذم الحنابلة وكثرت أتباعه فأصابه اسهال فمات هو وجماعة من أصحابه فقيل ان الحنابلة أهدوا له حلواء فأكل منها فمات وكل من أكل منها وفيها مات القرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الازدي الاندلسي وكان اماما في القراءة والنحو وغيره من العلوم زاهدا عابدا انتفع به الناس في كثير من البلاد ولاسيما أهل الموصل فانه أقام بها وفيها توفي رحمه الله

(ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة)

*(ذكر وفاة خوارزمشاه ايل ارسلان وملك ولده سلطانشاه

وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه)*

في هذه السنة توفي خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين قد عاد من قتال الخطا مريضا فتوفي وملك بعده سلطانشاه محمود ودبرت والدته المملكة والعساكر وكان ابنه الاكبر علاء الدين تكش مقيما في الجند قد اقطعه ابوه اياها فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير انف من ذلك وقصد ملك الخطا واستمده على أخيه وأطمعه في الاموال وذخائر خوارزم فسير معه جيشا كثيفا مقدمهم قرما فساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطانشاه وأمه الى المؤيد وأهدى له هدية جليلة المقدار ووعده أموال خوارزم وذخائرها فاغتر بقوله وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سوبرلي بلدة على عشرين فرسخا من خوارزم وكان تكش قد عسكر بالقرب منها فتقدم اليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد وكسر المؤيد وأخذ أسيرا وجيء به الى خوارزمشاه تكش فأمر بقتله فقتل بين يديه صبرا وهرب سلطانشاه وأخذ الى دهستان فقصده خوارزمشاه تكش فافتتح المدينة عنوة فهرب سلطانشاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد الى خوارزم ولما عاد المنهزمون الى نيسابور ملكوا طغانشاه أبا بكر ابن المؤيد واتصل به سلطانشاه ثم سار من هناك الى غياث الدين ملك الغورية فأكرمه وعظمه وأحسن ضيافته وأما علاء الدين تكش فانه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم فأخذته حمية الملك والدين وقتل أحد أقارب الملك وكان قد ورد اليه ومعه جماعة أرسلهم ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال فأمر خوارزمشاه اعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا فلم يسلم منهم أحد ونبذوا الى ملك الخطا عهده وبلغ ذلك سلطانشاه فسار الى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه علاء الدين تكش وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ولو رأوه لسلموا البلد اليه فسير معه جيشا كثيرا من الخطا مع قرما أيضا فوصلوا الى خوارزم فحصروها فأمر خوارزمشاه علاء الدين باجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يغرقون فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضا ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ولاموا سلطانشاه وعنفوه فقال القرما لو أرسلت معي جيشا الى مرو فاستخلصتها من يد دينار الغزي وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز الى الآن فسير معه جيشا فنزل على سرخس على غرة من أهلها وهجم على الغز فقتل مقتلة عظيمة لم يترك بها أحدا منهم وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة فأخرج منه ودخل القلعة

أحمد بن محمد الفريفوقي وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم الطائي في كماة الاكراد والعرب وسائر جماهير الهنود * ومساعير الجنود * ورتب في الميمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش فيمن برسمه من اعيان الرجال * وفرسان الزحف والنزال * ورتب بالميسرة أرسلان الجاذب فيمن تحت قيادته من نجوم الابطال * ورجوم القتال * وحصن الصفوف بزهاء خمسمائة من فيلته التي تمد الجبال من اثقالها * وترجح الارض بزلزالها * وأقبل ايلك قد حشي قلبه بخواص غلمانه * وأعلام فرسانه وولى قدرخان ميمنته في أتراك الختن * بين آجام العوامل والجنن * وشحن بجعفرتكين ميسرته بكل اليس كالشجاع المحرج والحسام المرهف بين وقايات الزغف والجنف وتحامل بعضهم على بعض تجليات المعركة سماء غمامها مثار القسطل * وبروقها بريق البيض والاسل * ورعودها صليل السلاح * ورشاشها صبيب الجراح * واستنزل ايلك عن صهوات الخيول الى صعيد الارض زهاء الف غلام يلتقون الشعور اتصافا ينصبون وسائط

اعلمه بالحال وأحضر الرسول وقال له يقول لعلاء الدين أما قولك ان سلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها فلعمري انه ملك وابن ملك وله همة عالية واذا أراد الملك شيئا اراده ولامر ومدبر بوصلها الى مستحقها وقد اتصلت الى وينبغي ان تنزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ومن الاملاك التي خلف والاموال وأحلف لكما جميعا على المودة والمصافاة وتخطب لي بخوارزم وتزوج اخي شهاب الدين بأختك فلما سمع خوارزمشاه الرسالة امتعض لذلك وكتب الى غياث الدين كتابا يتهدده بقصد بلاده فجهز غياث الدين العساكر مع ابن اخت الب غازي وصاحب سجستان وسيرهما مع سلطان شاه الى خوارزم وكتب الى المؤيد صاحب نيسابور يستنجده وكان قد صار بينهما مصاهرة تزوج المؤيد ابنه طغان شاه بابنة غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم الى لقاء عسكر الغورية الذين مع اخيه سلطان شاه وقد نزلوا بطرف الرمل فبينما هو في مسيره اتاه خبر المؤيد انه قد جمع عساكره وانه على قصد خوارزم اذا فارقها فوقع في قلبه وعاد الى خوارزم وأخذ امواله وذخائره وعبر جيحون الى الخطا وأخلى خوارزم فوقع بها خبط عظيم فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازي وسألوه ارسال امير معهم يضبط البلد فخاف أن تكون مكيدة فلم يفعل فبينما هم على ذلك توفي سلطان شاه سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكتب الب غازي الى غياث الدين يعلمه الخبر فكتب اليه يأمره بالعود اليه فرجع ومعه اصحاب سلطان شاه فأمر غياث الدين بأن يستخدموا وأقطع الاجناد الاقطاعات الجيدة وكلهم قابل احسانه بكفران وسنذكر باقي اخبارهم ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة اخيه عاد الى خوارزم وأرسل الى سرخس ومرو وشحنا فجهز اليهم أمير هراة عمر المرغني جيشا فأخرجوهم وقال حتى نستأذن السلطان غياث الدين وأرسل خوارزمشاه رسولا الى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود وهو الذي جعل غياث الدين شافعيا وكان له عنده منزلة كبيرة فوعظوه وخوفوه الله تعالى واعلموه ان خوارزمشاه يراسلهم يتهددهم بأنه يجيء بالاتراك والخطا ويستبيح حريمهم واموالهم وقالوا اما ان تحضر أنت بنفسك وتجعل مرو دار ملكك حتى ينقطع طمع الكافرين وييأس اهلها واما ان تصالح خوارزمشاه فاجاب الى الصلح وترك معارضة البلاد فلما سمع من بخراسان من الغز بذلك طمعوا في البلاد فعاودوا النهب والاحراق والتخريب وسمع خوارزمشاه فجمع عساكره وحضر بخراسان ودخل مرو وسرخس ونسا وابيورد وغيرها وأصلح البلاد وتطرق الى طوس وهي للمؤيد صاحب نيسابور فجمع المؤيد جيوشه وسار اليه فلما سمع خوارزمشاه بمسيره اليه عاد الى خوارزم فلما وصل الى الرمل أقام بطرفه فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه وتبعه فلما سمع خوارزمشاه بذلك ارسل الى المناهل التي في البرية فألقى فيها الجيف والتراب بحيث لم يمكن الانتفاع بها فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده فجاء خوارزمشاه اليه وهو على تلك الحال ومعه الماء على الجمال فأحاط به فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم وجيء بالمؤيد أسيرا الى خوارزمشاه فأمر بضرب عنقه فقال له يا مخنث هذا فعال الناس فلم يلتفت اليه وقتله وحمل رأسه الى خوارزم فلما قتل ملك نيسابور ولي ما كان له ابنه

من مناويه نهزة المنايا
غرض للحتوف والاحزان
ملك صار من مضى من ملوك
الارض لفظا وجاء عين
المعاني
نشر المشرقان بالحظ منه
فاستطالا فاشتاقه المغربان
جمع الله فيه وهو قدير
ما للكمال في جثمان
سيفه والندى طرفا رهان
فهو سابق الهدى يتبدران
خدعوني بأن سيشفع سيفا
للهدى كل مرهف يماني
لو عصا فرعون تسمى الهندية
قالت تحكمت في السندان
اغا ابيه شبيه عصا موسى
ابن عمران صاحب الثعبان
وقراجوا ايتكم كيد سحر
فاداسيات العصاة وفان
ملك وهو في الحقيقة عندي
ملك صيغ صيغة الانسان
ملك عادل قادر في ضعيف
وأخوه في حكمه سيان
أخذ الهند باليماني ويحوي
يمنا ان أراد بالهندواني
غاب عن غابة الهزبر لغزو
الشرك مستنزلا رضا
الرحمن
فسبى واستباح واجتاح منهم
وأحل النكال بالاوثان
وأتى قافلا وقد ملا
الايشدى
فيا وفاز بالرضوان
فسطا بأسه بطاغية الترك
وأهل الشقاق والعصيان
طلعت راية له فتولوا

سلطان شاه فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه من الغز والمفسدين وقطاع الطريق ومن
عنده طمع خلق كثير فنزل غياث الدين ومن معه في الطالقان ونزل سلطان شاه بمرو الروذ
وتقدم عسكر الغورية اليه وتواعدوا المصاف وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث
الدين وبين سلطان شاه وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الاذن في الحرب فلا يتركه
وتقرر الامر على أن يسلم غياث الدين الى سلطان شاه بوشنج وباذغيس وقلاع بوار وكره ذلك
شهاب الدين وبهاء الدين صاحب باميان الا انهما لم يخالفا غياث الدين وفي آخر الامر حضر
رسول سلطان شاه عند غياث الدين وحضر الامراء لكتب العهد فقال الرسول ان سلطان شاه
يطلب ان يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الامر فأرسل غياث الدين اليهما فأعادا الجواب
انا مماليكك ومهما تفعله لا يمكننا خلافك فبينما الناس مجتمعون في تحرير الامر واذ قد
اقبل مجد الدين العلوي الهروي اليه وكان مختصا بغياث الدين بحيث يفعل في ملكه ما يختار
فلا يخالف فجاء العلوي ويده في يد ألب غازي ابن أخت غياث الدين وقد كتبوا الكتاب وقد
احضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان فجاء العلوي كأنه يسارر
غياث الدين ووقف في وسط الحلقة وقال للرسول يا فلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من
جانب السلطان الاعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين ويقول لك العلوي خصمك انا ومولانا
ألب غازي بيننا وبينك السيف ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأقبل
على غياث الدين وقال له هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريدا وحيدا لم تترك له مملكة
باسيافنا من الغز والاتراك والسنجرية فاذا سمع هذا عنا يجيء أخوه ويطلب منازعته والهند
وجميع ما بيدك فحرك غياث الدين رأسه ولم يفه بكلمة فقال ملك سجستان للعلوي اترك الامر
ينصلح فلما لم يتكلم غياث الدين بمنع العلوي قال شهاب الدين للعلوي وشيته نادوا في العسكر
بالتجهز للحرب والتقدم الى مرو الروذ وقام وأنشد العلوي بيتا من الشعر عجميا معناه ان الموت
تحت السيوف أسهل من الرضا بالدنية فرجع الرسول الى سلطان شاه وأعلمه الحال فرتب
عساكره للمصاف والتقى الفريقان واقتتلوا فصبروا للحرب فانهزم سلطان شاه وعسكره
وأخذ أكثر أصحابه اسارى فأطلقهم غياث الدين ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارسا
ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لأخيه سار
من خوارزم في ألفي فارس وأرسل الى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه
ان أراد الخطا ويحدق السير ليقبض على أخيه قبل ان يقوى فأتت الاخبار سلطان شاه بذلك
فلم يقدر على عبور جيحون الى الخطا فسار الى غياث الدين وكتب اليه يعلمه قصده اليه فكتب
الى هراة وغيرها من بلاده باكرامه واحترامه وحمل الاقامات اليه ففعل به ذلك وقدم على غياث
الدين والتقاه واكرمه وأنزله معه في داره وأنزل أصحاب سلطان شاه كل انسان منهم عند من
هو في طبقته فأنزل الوزير عند وزيره والعارض عند عارضه وكذلك غيره وأقام عنده حتى انسلخ
الشتاء فأرسل علاء الدين بن خوارزمشاه الى غياث الدين يذكر ما صنعه أخوه سلطان شاه
من تخريب بلاده وجمع العساكر عليه ويشير بالقبض عليه ورده اليه فأنزل الرسول واذا قد
اتى كتاب نائبه بهراة يخبره ان كتاب خوارزمشاه جاءه يتهدده فأجابه انه لا يظهر لخوارزمشاه انه

احسن السلامي في قوله
فكأنما وصف حاله *
ومدح آثاره وأفعاله *
يا سيف دين الله ما أرضى العدا
لو ان سيفك مثل عدلك يعدل
ما ان سننت لهم سنانا في الوغى
الا أطل عليه منهم أيطل
والروض من زهر الحصور مضرج
والماء من ماء الترائب أشكل
والنقع ثوب بالنسور مطرز
والارض فرش بالجياد مخمل
تهفو العقاب على العقاب ويلتقي
بين الفوارس أجدل ومجدل
وسطور خيلك انما ألفاتها
سمر تنقط بالدماء وتشكل
وامتدح عند ذلك السلطان
يمين الدولة * وأمين الملة *
أبو القاسم الحسن بن عبد الله المستوفي بقصيدة أولها
ظهر الحق ثابت الاركان
صاعد النجم عالي البنيان
وهوى للردى ذوو النكث والبغي*
وأهل الضلال والطغيان
ما الذي غركم بمحمود المحمود*
أضاءوه بكل مكان
بأبي القاسم المعظم ظل الله
في الارض صفوة المنان

الاقطاع في بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكري تكون بازائه تمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح ايضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الارمن والروم وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم لانها تجاور بلاده فسير اليه ملك الروم جيشا كثيفا وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال وصابرهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والاسر وقوي بتشوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد وأرسل مليح الى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الاسرى ثلاثين رجلا من مشهوريهم وأعيانهم فسير نور الدين بعض ذلك الى الخليفة المستضيء بأمر الله وكتب يعتد بهذا الفتح لان بعض جنده فعله

(ذكر وفاة [illegible] ايلدكز)

في هذه السنة توفي اتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد وكان ايلدكز هذا مملوكا للكمال السميرمي وزير السلطان محمود فلما قتل الكمال كما ذكرناه سار ايلدكز الى السلطان محمود فلما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى اليها ولم يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ثم ملك أكثر اذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها واصفهان والري وما والاها من البلاد وخطب بالسلطنة لابن امرأته ارسلانشاه بن طغرل وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان ارسلان معه حكم انما كان له جراية تصل اليه وبلغ من تحكمه عليه انه شرب ليلة فوهب ما في خزانته وكان كثيرا فلما سمع ايلدكز بذلك استعاده جميعا وقال له متى أخرجت المال في غير وجهه أخذته أيضا من غير وجهه وظلمت الرعية وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم وينصف بعضهم من بعض

(ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها)

في هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب الى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجا عن طاعة عبد المؤمن فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيرا من بلاد افريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جبلت عليه من التخريب والنهب والافساد بقطع الاشجار والثمار وغير ذلك فجمع منها أموالا عظيمة وجعلها بمدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع افريقية لبعد ابي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها وكان ما سنذكره ان شاء الله

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس)

في هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من اشبيلية الى الغرب فقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة وندي وهي بالقرب من طليطلة شرقا منها وحصرها

ولا تصلح بعدها الملك * لقد كايس السلطان اذ عقر لله شعره * وعرض على الله فقره * وفوض الى الله أمره * وأخلص لله نذره * وناهض بالله شخصه * وسأل الله حوله * ولم يعجبه كثرة الا حوله * فشد الله بذلك ازره * وقوى أمره * وأعز نصره * وأقطعه مصره * وأطعمه ملكه * وأورثه أرضه * ان الظفر بأسبابه * والموفق يأتي الامر من بابه

(وله فصل منه) انه البلاد ثم البلاد مساكنكم لا يحط منكم ساعات كتب الله ليغلبن السلطان وراءك ان السيف أمامك وخلفك فان الموت قدامك وأرضك أرضك ان تأتنا تنم نومة ليس في احلم ان المغازي * قد عادت شازي * ألا رب ركض نادم * ورب شوط طالم * ورب عبور الى ثبور * ورب طمع يهدي الى طبع * ألا ان هذا الفتح فتح حفظ على الشريعة ماءها * وعلى السنة دماءها * وعلى النفوس ذماءها * وعلى الاموال غناءها * وعلى الحرم غطاءها * اعاد الله به البلاد شبابا جديدا * وأنشأ الناس نشأ سديدا * وعقد الملك عقدا طريفا * فأولى يومه أن يتخذ عيدا * ويجعل في المقدمات تاريخا جديدا * وليس

طغان شاه فلما كان من قابل جمع خوارزمشاه عساكره وسار الى نيسابور فحاصرها وقاتلها فتبعه طغان شاه واخذه وزوجه اخته وحمله معه الى خوارزم وملك نيسابور وما كان لطغان شاه وقوي امره هذا الذي ذكره في هذه الرواية يخالف لما تقدم ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت فان أحدهما قد قدم ما أخره الآخر فلهذا أوردنا جميع ما قالاه ولبعد البلاد عنا لم نعلم أي القولين أصح لنذكره ونترك الآخر وانما أوردتها في موضع واحد لان أيام سلطان شاه لم تطل له ولا عقابه حتى تتفرق على السنين فلهذا أوردتها متتابعة

(ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج)

وفي هذه السنة في ربيع الاول اجتمعت الفرنج وساروا الى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه وبلغ الخبر الى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة فسار اليهم مجدا وقدم جموعه اليهم فلما علموا بقربه منهم دخلوا الى السواد وهو من أعمال دمشق أيضا ولحقهم المسلمون فتخطفوا من ساقتهم ونالوا منهم وسار نور الدين فنزل في عشترا وسير منها سرية الى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا واحرقوا وخربوا فسمع الفرنج ذلك فرحلوا اليهم ليمنعوا عن بلادهم فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الفرنج فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم فاشتد القتال وصبر الفريقان الفرنج يرومون ان يلحقوا الغنيمة فيردوها والمسلمون يريدون ان يمنعوهم عنها ليمضي بها من قد سار معها فلما طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا أن يستردوا منها شيأ

(ذكر مسير شمس الدولة الى بلد النوبة)

في هذه السنة في جمادى الاولى سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلد النوبة فوصل الى أول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك ان صلاح الدين واهله كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأي بينهم أنهم يتملكون اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد فان قووا على منعه اقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتله أهلها فلم يكن لهم بقتال العسكر الاسلامي قوة لانهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فسلموها فملكها واقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه وتحتمل المشقة لاجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجواري

(ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم)

في هذه السنة في جمادى الاولى هزم مليح بن ليون الارمني صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية وسبب ذلك ان نور الدين كان قد استخدم مليحا المذكور وأقطعه اقطاعا سنيا وكان ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهدا حروبه مع الفرنج ومباشرا لها وكان هذا من جيد الرأي وصائبه فان نور الدين لما قيل له في معنى استخدامه واعطائه

الاقطاع

كم بادية له من ضان
كم قتيل وكم جريح وغرق
واسير في القد ذي رسفان
ظار أيدي سباع عسكر ظنوا
انهم ملكوا على البلدان
شغلوا الملك فاعترتهم خطوب
جرعتهم مرارة الحدثان
بخوارزم في السجون ألوف
وألوف تهيم في جرجان
ونيسابور وفي القفار الى
سجستون
قتلى ما كل الحيتان
جزر السباع في كل فج
طعم للنسور والعقبان
باركت الله ربنا في خميس
ردعنا خمسين ألف عنان
شربوا السم عام أول لما
عبثوا الشقاء بالاخوان
ثم عادوا في العام بالعسكر
الجرار بالحور والملاح
الحسان
فأتى المرد فوق جرد المذاكي
من خذاذيذ أو من الغلمان
بوجوه مضيئة كبدور
طلعت جنح ليلها الاضحيان
صادموا الصخر بالزجاج
وظنوا
ان يصيدوا الاسود بالغزلان
قد امري يكون ذلك ولكن
ليس في كل موقف ومكان
هو شمس النهار فوق سرير
الملك
في صدره من الايوان
وكتب ابو الفضل الهمداني
البديع الى الشيخ الوزير ابي
العباس بمذاورب الكعبة

عبد الله بن الشهرزوري من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وباربل وخلاط والشام وبلاد قلج ارسلان وديار مصر

(ذكر رحيل صلاح الدين من مصر الى الكرك وعوده عنها)

في هذه السنة في شوال رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها الى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك والاجتماع مع نور الدين عليه والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما في جهة بعسكره وسبب ذلك ان نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه أرسل يعتذر ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما ان صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر لان طريقه أبعد وأشق ووصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل اليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لانهم علموا انهما ان اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلا فلما عاد أرسل الفقيه عيسى الى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وانه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود الا انه لم يظهر للرسول تأثرا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وسار صلاح الدين الى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه وكذا تقول القالة هادعى وكان سبب موت نجم الدين انه ركب يوما فرسا بمصر فنفر به الفرس نفرة شديدة فسقط عنه فحمل الى قصره وقيذا وبقي أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة وكان خيرا عاقلا حسن السيرة كريما جوادا كثير الاحسان الى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم وقد تقدم من ذكره وابتداء امره وأمر أخيه شيركوه ما لا حاجة الى اعادته

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق في شعبان وسدوا أبواب الدروب ووصل الماء الى قبة أحمد بن حنبل ووصل الى النظامية ورباط شيخ الشيوخ واشتغل الناس بالعمل في القورج ثم نقص وكفى الناس شره وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز الى باب جامع القصر ومن الجانب الآخر من حجر النحاس الى دار أم الخليفة وفيها أغارت بنو حزن من خفاجة على سواد العراق وسبب ذلك ان الحماية كانت لهم بسواد العراق فلما ملك يزدن من البلاد وتسلم الحلة أخذها منهم وجعلها لبني كعب من خفاجة وأغارت بنو حزن على السواد فسار يزدن في عسكر ومعه الغضبان الخفاجي وهو من بني كعب لقتال بني حزن فبينما هم سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساد كان في السواد فلما قتل عاد العسكر

البقاع بهيبة ملكه وسلطانه * ووحد نجوم الشرك عنها بجهدى سيفه وسنانه * فذلك برهان من ربك في اعلاء دولته * واشاعة دعوته * واعزاز نصرته * واذلاج حجته * ويسر الله له الانقلاب الى غزنة * مظاهرا بين نصرين يتضاءلان فخامة وجلالة * ويتباريان نباهة وجزالة * وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(ذكر فتح قلعة بهيم نغر)

قد كان السلطان يمين الدولة * وأمين الملة بعد أن فتح الفتحين * واقتدح النجحين * عرج على غزنة للاستراحة * والتفرغ لشكر الله على النعم المتناسقة * فأقام بها شاحذا عزيمته لغزوة أخرى ترتفع بها حدود الاسلام * وتنخفض لها خدود الاصنام * وتنتكس عندها رايات الشيطان في رحل الغواية شده * وحبل الضلالة مده * اذ كانت بعد همته يسومه خلاف الطبائع البشرية في استخفاف المضجع الوثير * واستصعاب الدولة على الوتير * واستشعار قرع الاسنة والعوالي على تقويم

واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ملك طليطلة فى جمع كثير فلم يقدموا على لقاء المسلمين فاتفق ان الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات عندهم وهم فى جمع كثير فاضطروا الى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وأقام يعقوب بها الى سنة احدى وسبعين وخمسمائة وهو على ذلك يجهز العساكر ويسيرها الى غزو بلاد الفرنج فى كل وقت فكان له فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة ما لا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد أبو يعقوب الى مراكش

(ذكر نهب نهاوند)

فى هذه السنة نهب عسكر شملة نهاوند وسبب ذلك ان شملة كان أيام ايلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة بلاده ويبذل فيها الاموال فلا يجيبه الى ذلك فلما مات ايلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان وسار الى اذربيجان لاصلاحها انفذ شملة ابن أخيه ابن شنكا الى نهاوند وبلغ أهل البلد الخبر فجمعوا وحصروهم وقاتلوهم وقاتلوه وأفحشوا فى سبه فلما علم انه لا طاقة له بهم رجع الى تستر وهى قريبة منها وأرسل أهل نهاوند الى البهلوان يطلبون منه نجدة فتأخرت عنهم فلما أبطأ أخرج ابن شنكا من تستر فى خمسمائة فارس وسار يوما وليلة فقطع أربعين فرسخا حتى وصل الى نهاوند وضرب البوق وأظهر انه من أصحاب البهلوان لانه جاءهم من ناحيته ففتح أهل البلد له الابواب فدخله فلما توسط قبض على القاضى والرؤساء وصلبوهم ونهب البلد وقطع أنف الوالى وأطلقه وتوجه نحو ماسبذان قاصدا العراق

(ذكر قصد نور الدين بلاد قلج ارسلان)

فى هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى الى مملكة عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهى ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج ارسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا فصار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا اليه فأكرم نزله وأحسن اليه وحمل له ما يليق أن يحمل الى الملوك ووعده النصرة والسعى فى رد ملكه اليه ثم انه أرسل الى قلج ارسلان يتشفع فى اعادة ملكه فلم يجبه الى ذلك فسار نور الدين اليه فابتدأ بكيسون وبهنسى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها وكان ملكه لمرعش أوائل ذى القعدة والباقى بعدها فلما ملكها سير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما سار نور الدين الى بلاده قد سار من طرفها التى تلى الشام الى وسطها وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقف نور الدين عن قصده رجاء ان ينصلح الامر بغير حرب فأتاه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه الى الصلح وشرط عليه ان ينجده بعساكر الى الغزاة وقال له أنت مجاور الروم ولا تغزوهم وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام ولا بد من الغزاة معى فأجابه الى ذلك وبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهى لذى النون فبقى العسكر فى خدمة ذى النون الى ان مات نور الدين فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلج ارسلان وملكها وهى بيد أولاده الى الآن سنة نيف وعشرين وستمائة ولما كان نور الدين فى هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبى الفضل محمد بن

العقد مع الله بأشرطة * فأوفوا الله عهده * كما صدقكم وعده * وانما عهده عند السلطان أن يحسن النظر * وعهده عند الشيخ الجليل أن يحسن المحضر * وهراة من البلاد شيعة هذه الدولة ومحبتها فان حط عن سواها العلاوه * وأزيل عن عيرتها الاتاوه * فلله هذا النظر ما أحلى ثماره * وأكرم آثاره * ولما وضعت هذه الحرب أوزارها * وأفاضت غرة النصر أنوارها * سنح للسلطان أن يكبح أعنته الى جانب الهند للايقاع بالمعروف بنواسه شاه أحد أولاد ملوك الهند كان نصبه ببعض ما افتتحه من ممالكهم لكلائته على سد ثغورها * وتحصين أطرافها وحدودها * اذ كان * قد استحوذ عليه الشيطان * فارتد فى حافرة الشرك وانسلخ عن جلدة الاسلام * وراطن زعماء الكفار على خلع ربقة الدين والانفصام * عن عروة الحبل المتين فعن من فوره اليه * وصب سيوفا تقطر من دماء مخالفيه عليه * ركضا بادر أمواج الرياح * واختصر أوقات الاظلام والاصباح * حتى نفاه عن مثواه * وملك عليه حياة ما حواه * وأعاد الى ثالث

الدولة عبد النبي وسلم شمس الدولة عبد النبي الى بعض امرائه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني منقذ أصحاب شيزر وامره ان يستخرج منه الاموال فاعطاه منها شيئا كثيرا ثم انه دلهم على قبر كان قد صنعه لوالدته وبنى عليه بنية عظيمة وله هناك دفائن كثيرة فاعلمهم بها فاستخرجت الاموال من هنالك وكانت جليلة المقدار وأما الحرة فانها أيضا كانت تدلهم على ودائع لها فأخذ منها مالا كثيرا ولما ملكوا زبيد واستقر الامر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية أصلحوا حالها وساروا الى عدن وهي على البحر ولها مرسى عظيم وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها انسان اسمه ياسر فلو اقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين ولكن حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج اليهم ومباشرة قتالهم فسار اليهم وقاتلهم فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه وأخذوا صاحبها ياسرا أسيرا وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة وقال ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيئا فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره ولما مضى الى عدن كان معه عبد النبي صاحب زبيد مأسورا فلما دخل الى عدن قال سبحان الله كنت قد علمت انى أدخل الى عدن فى موكب كبير فأنا انتظر ذلك وأسر به ولم أكن أعلم انى أدخلها على هذا الحال ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد الى زبيد وحصر ما فى الجبل من الحصون فملك قلعة تعز وهي من أحصن القلاع وبها كانت خزائن صاحب زبيد وملك أيضا قلعة التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجيلي وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل فى كل قلعة نائبا من أصحابه والقى ملكهم باليمن جرانه ودام وأحسن شمس الدولة الى أهل البلاد واستصفى طاعتهم بالعدل والاحسان وعادت زبيد الى أحسن أحوالها من العمارة والامن بعد خرابها

(ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين)

فى هذه السنة ثانى رمضان صلب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر وافقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شئ بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا البلاد فان خرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر واعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به وأخذوه أخذا باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه الى اليمن خوفا ان يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنج بصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن عجبة ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعى

أدبارهم * وبحثت عن مقاسم آثارهم * وأغنت الالين قيلا كأشخاص القصور * بل كأمواج البحور * وأقبل أولياؤه يسوقونهم الى يتقفونهم من بطون الاودية والشعاب * وظهور الفيافى والهضاب * والآن فى السلطان نفسه أثره بين تلك المهاوى * منحيزا وعبد الله فى نصرة دينه * وقتل كل ذى نفاق وشقاق بيمينه * فأفضى به الطلب اليهم ثم حبس دلعة بنيت على حرف طود رفيع * خلال ماء منيع * وقد كان ملوك الهند وأعيان أهلها وجماعات القسالك من ذوى الاملاك بها يتحرزونها خزينة للصنم الاعظم به فأودعوه اليها قربانا فوقرت من أنواع الذخائر * وأعلاق الجواهر * ما تعب أوزانه * ويثقل عند السوم قيمته وأثمانه * عبادة بزعمهم لما يفيدهم الحسنى * ويقربهم الى الله زلفى * فصادف السلطان منها عرة العرائب * وزبدة الاحقاب * ما لا تقله ظهور الابال * ولا تسعه أوعية الاجمال * ولا تحصيه أيدى الكتاب * ولا تدركه فكر الحساب * فحشر عليها جنوده * وضرب حواليها بنوده * وانبرى لقتال مستقطنيها بقلب جرى *

الى بغداد وأعيدت خفارة السواد الى بنى حزن وفيها خرج ترجم الايوائى فى جمع من التركمان
فى حياة ايلدكز وطرق أعمال همذان ونهب الدينور واستباح الحريم وسمع ايلدكز الخبر وهو
بنقجوان فسار مجدا فيمن خف من عسكره فقصده فهرب ترجم الى أن قارب بغداد وتبعه
ايلدكز فظن الخليفة انها حيلة ليصل الى بغداد بغتة فشرع فى جمع العساكر وعمل السور
فأرسل الى ايلدكز الخلع والالقاب الكبيرة فاعتذر انه لم يقصد الا كف الامير يزدن وهو من
أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع فوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة بواسط لان الشيعة
جلسوا له للعزاء وأظهر السنية الشماتة به فآل الامر الى القتال فقتل بينهم جماعة ولما مات
أقطع أخوه تنامش ما كان لاخيه وهى مدينة واسط ولقب علاء الدين وفيها أرسل نور الدين
محمود بن زنكى رسولا الى الخليفة وكان الرسول القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله
الشهرزورى قاضى بلاده جميعها مع الوقوف والديوان وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان
وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ويطلب تقليدا بما بيده من البلاد مصر والشام
والجزيرة والموصل وبما فى طاعته كديار بكر وما يجاور ذلك كخلاط وبلاد قلج ارسلان وان
يعطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لابيه زنكى وهو صريفين ودرب هرون والتمس
أرضا على شاطئ دجلة يبنيها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هرون فأكرم
كمال الدين اكراما لم يكرمه رسول قبله وأجيب الى ما التمسه فمات نور الدين قبل الشروع فى
بناء المدرسة رحمه الله

(ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن)

قد ذكرنا قبل ان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر وأهله كانوا يخافون من نور الدين
محمود أن يدخل الى مصر فيأخذها منهم فشرعوا فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها
تكون عدة لهم ان أخرجهم نور الدين من مصر ساروا اليها وأقاموا بها فسيروا شمس الدولة
توران شاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الاكبر الى بلد النوبة فكان ما ذكرناه فلما عاد الى
مصر استأذنوا نور الدين فى أن يسير الى اليمن لقصد عبد النبى صاحب زبيد لاجل قطع الخطبة
العباسية فأذن فى ذلك وكان بمصر شاعر اسمه عمارة من أهل اليمن فكان يحسن لشمس الدولة
قصد اليمن ويصف البلاد له ويعظم ذلك فى عينه فزاده قوله رغبة فيها فشرع يتجهز ويعد
الازواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الاجناد فجمع وحشد وسار عن مصر
مستهل رجب فوصل الى مكة أعزها الله تعالى ومنها الى زبيد وفيها صاحبها المتغلب عليها
المعروف بعبد النبى فلما قرب منها رآه أهلها فاستقلوا من معه فقال لهم عبد النبى كأنكم
بهؤلاء وقد حمى عليهم الحر فهلكوا الا أكلة راس فخرج اليهم بعسكره فقاتلهم شمس الدولة
ومن معه فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ووصل المصريون الى سور زبيد فلم يجدوا عليه من
يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا
عبد النبى أسيرا وزوجته المدعوة بالحرة وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لا سيما اذا جاءت
فان فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة وخيرا كثيرا ومعروفا عظيما فلما أسر شمس

المثالث والمثانى * وترجيع
حدود البيض القواضب
* على خدود البيض
الكواعب * كل ذلك لجد
يتلقيه * وصيت يتقيه *
وعز يحويه * وسعى يتقرب
الى الله به وفيه * حتى اذا
انسلخ ربيع الآخر من
السنة المذكورة استخار
الله فى اتمام ما رامه *
واسراج ما نوى الجامه *
متوكلا على الله الذى طالما
أطاعه نصره * وعززه
صنعه * حتى اذا انتهى
السير به الى شط ويهند لاقاه
ابرهمن بال بن انديال *
فى جيوش تغيض بسود
الرجال فى بيض الصفاح *
وزرق الاسنة وسمر
الرماح * وزهر الدروع
ودكن القيول وانفرت
الحرب عن أنيابها العصل
ونوات الحلاك كأنها اوى
لوامع الشهب * وتراحى
نوازع السحب * ودارت
رحا الطعان والضراب
طاحنة كل ندب شجاع
وقرم مطاع * وامتدت
الوقعة من طفولة النهار
الى كهولة الطفل حتى
اكتست الارض لون
الشقائق * من دماء العلق
والعواتق * وكادت تدور
للكفار دائرة لولا أن الله
اعان السلطان على حملة فى
نواصى علمائه كسمعت

هذا اختياري فوافق إن رضيت به * أو لا فدعني وما أهوى وأختار

وله ديوان شعر مشهور في غاية الحسن والرقة والملاحة

(ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله)

في هذه السنة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الأربعاء حادي عشر شوال بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين ومن عجيب الاتفاق أنه ركب ثاني شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار فقال له الأمير سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل أم لا فقال نور الدين لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا فمات نور الدين رحمه الله بعد أحد عشر يوما ومات الأمير قبل الحول فأخذ كل منهما بما قاله وكان قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب فإنه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته وكان يعلم أنما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به فإنه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل بالشام ويسير هو بعساكره إلى مصر فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له حكى لي طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الأطباء قال استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلت له كان ينبغي أن لا تؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع إلى مكان فسيح مضيء فله أثر في هذا المرض وشرعنا في علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن ستين لا يفتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضي عنه وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة ابن أيوب وملكها وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من أخبار دولتهم ولنذكر ههنا نبذة لعله يقف عليها من له حكم فيقتدي به فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينارا فلما استقلتها قال ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله فيه أوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث وأسمعه

الجواهر فنقل ما أمكنه ظهوره برسالة واستعمل سائر الأعيان برجاله فكان مبلغ المنقول من الورق سبعين ألف ألف درهم شامية ومن الذهبيات والفضيات ستمائة ألف ألف وأربعمائة مما رزنا ومن أصناف الثياب السترية والديباج السوسية ما ألحق مشايخ الزمان وأطاعني في الأسمات أنه لا عهد لهم بأمثالها صنعة وتفويفا وترتيبا وتأليفا وفي جملة الموجودات من الفضة البيضاء كما سموت الأعداء طوله ثلاثون ذراعا في عرض خمس عشرة ذراعا صفائح مصروبة مهيأة للطي والنشر والنصب والحط وشراع من ديباج الروم أربعون ذراعا في عرض عشرين ذراعا بقائمتين من ذهب وأخريين من سبيكة فضة ووكل السلطان تلك القلعة من ثقاته من يراعيها وقدمت أمامه الأستضاف طيبا وكرما ثلا إلى غربة في ضمان النصر والإظهار وقران اليسر واليسار ولما صارت عصاه بجانب القرار ناحية داره فنثرت تلك الجواهر من درر كالنجوم الثواقب فسلمت على الأيدي

والقضاة لا ان يحزن بك قالوا يكون الوزير منا وبنى شاور والقاضى قالوا يكون الولى منهم فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الامر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو فى الظاهر اليه والباطن الى اولئك الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم وقيل فى كشف امرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا لقى القاضى الفاضل الصلاحى يخدمه ويتقرب اليه بجهده وطاقته فلقيه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضى الفاضل ما هذا الا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجا الواعظ واخبره الحال وقال أريد تكشف لى الامر فسعى فى كشفه فلم يره من جانب صلاح الدين شيأ فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال اليه فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع فذكر له الحال فقام واخذ الجماعة وقررهم فاقروا فأمر بصلبهم وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يا مولانا لا تسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك فندم ثم اخرج عمارة ليصلب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصى الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله وأما الذين تآمروا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم انه علم بحالهم وأما الفرنج فان فرنج صقلية قصدوا الاسكندرية على ما نذكره ان شاء الله تعالى لانهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين وأما فرنج الساحل الشامى فانهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال وكان عمارة شاعرا مفلقا فمن شعره

لو ان قلبى يوم كاظمة معى * لملكته وكظمت فيض الادمع
قلب كفاك من الصبابة انه * لبى نداء الظاعنين وما دعى
ما القلب أول غادر فألومه * هى شيمة الايام مذ خلقت معى
ومن الظنون الفاسدات توهمى * بعد اليقين بقاءه فى اضلعى

وله أيضا

لى فى هوى الرشا العذرى اعذار * لم يبق لى مذ أقر الدمع انكار
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى * ضم النهود لبانات واوطار

وأنفسهم * وهم ذكى * وبطش قوى * ورأى بالصواب ورى * ولما رأى القوم غصص تلك الشعاب * بعساكر الجنود * وتطاير النبال صعدا كشرر الوقود * استفزهم الرعب والوجل * وألوى بأحلامهم الخوف والوهل * فغمات أبصارهم تلك البروق فتوقفا وهاتيك الرعود فروجا والسكون بنوقا * وحرمتهم دولة السلطان فهرتهم كلاب الادبار والخذلان * وأعيتهم وجوه الامن الامن جانب الاستئمان * فتنادوا بجمعها بشعار السلطان * وفتحوا باب القلعة وجعلوا يتساقطون الى الارض للامان * كالعصافير أخرجتها البواشق * والعيون جادتها الغيوم البوارق * وفتح الله تلك القلعة على السلطان فتحا يسيرا * وآتاه من لدنه نصرا كبيرا * واغتنم مل مقترح النفوس من بنات المعادن والصدور * وزايلات القمم والصدور * ودخلها فى والى الجوزجان أبى نصر احمد ابن محمد الفريغونى وسائر خاصته وحل حاجبيه الكبيرين التونتاش وآسغ تكين بخزائن العين والورق وسائر ذوات الاخطار والقيم وتوكل بنفسه بخزانة

الصالح ولم يرسلوه الى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية فانه كان اكبر الامراء النورية وانما منعهم من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه وكان هو واخوته بحلب وأمرها اليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه قطب الدين فلم يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال الى حلب لما ذكرناه

(ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية)

كان نور الدين قبل ان يمرض قد أرسل الى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعي العساكر منها لحجة الغزاة والمراد غيرها وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل في عساكره وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذى كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين فلما كانوا ببعض الطريق وصلت الاخبار بوفاة نور الدين فاما سعد الدين فانه كان في المقدمة فهرب جريدة وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره وعاد الى نصيبين فملكها وأرسل الشحن الى الخابور فاستولوا عليه وأقطعه وسار هو الى حران فحصرها عدة أيام وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحراني فامتنع بها وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له ونزل الى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه وسار الى الرها فحصرها وملكها وكان بها خادم خصي اسود لنور الدين فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأعطيها ثم أخذت منه ثم صار الى ان يستعطي ما يقوم به ويقوته وسير سيف الدين الى الرقة فملكها وكذلك سروج واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فانها كانت منيعة وسوى رأس عين فانها كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرض اليها وكان شمس الدين على بن الداية وهو اكبر الامراء النورية بحلب مع عساكرها فلم يقدر على العبور الى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به فأرسل الى دمشق يطلب الملك الصالح فلم يرسل اليه لما ذكرناه ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل اليه من سيواس بعد موت نور الدين وهو الذى اقره الملك بعد أبيه فظن ان سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الامراء قال له الرأى ان تعبر الى الشام فليس به مانع فقال له اكبر امرائه وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار قد ملكت اكثر ما كان لابيك والمصلحة ان تعود فرجع الى قوله وعاد الى الموصل ليقضي الله أمرا كان مفعولا

(ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها)

لما مات نور الدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا الى قلعة بانياس من اعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العسكر عنده بدمشق فخرج عنها وراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم في القول وقال لهم ان انتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه والا فنرسل الى سيف الدين صاحب الموصل ونصالحه ونستنجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولا تقومون لنا وأنتم تعلمون ان

اعتنائه سلطانهم * ومن كسير جبروا انسابهم * ومن حسير انعشوه بعطفهم والطافهم وكان الامير ابو الحرث اسد بن محمد غرة تلك الدولة * ولسان تلك المقلة * وجمال تلك الحلة * وطراز تلك الحلة * بما أوتي من كرم نصيب * وكنف رحيب * وشرف رغيب * وهمة بعيدة ومستقى نائل قريب * وكان الامير سبكتكين خطب اليه كريمته على السلطان يمين الدولة وامين الملة * ثم اوجب لولده ابي نصر احمد ابن محمد كريمة له فالتحمت اللحمة * واشتبكت العصمة * والتصقت الوثائق * واستحكمت الاواصر والعلائق * ولما مضى ابو الحرث لسبيله ورثه ابو نصر ابنه فأوجب السلطان اقراره على ولايته ايثارا له بفضل رعايته وعنايته * الى ان قضى نحبه في شهور سنة احدى واربعمائة وأقرأني ابو الفضل احمد بن الحسين الهمذاني المعروف بالبديع كتابا له اليه * جعله مقدمة الوفود عليه * فسال به من رغائب الايادي ما ملا به يديه * وهو كتاب والحيوان لم اره فقد سمعت شيئه

للاجير وأما عدله فانه لم يترك في بلاده على جميعها مكسا ولا عشرا بل أطلقها جميعها في مصر
والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها واحضره انسان الى
مجلس الحكم فمضى معه اليه وأرسل الى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول قد جئت
محاكما فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي احضره وقال اردت
ان اترك له ما يدعيه انما خفت ان يكون الباعث لي على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى
مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته ما يدعيه وبنى دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي
فيها ينصف المظلوم ولو انه يهودي من الظالم ولو انه ولده او اكبر أمير عنده واما شجاعته فاليها
النهاية وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه بالله
عليك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان اصبت في معركة لا يبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف
فقال له نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله
الذي لا اله الا هو وأما ما فعله من المصالح فانه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها منها دمشق
وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى
الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق وبنى الخانكاهات في جميع
البلاد واوقف على الجميع الوقوف الكثيرة سمعت ان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار
صوري وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجالسهم معه وينبسط معهم
ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقورا مهيبا مع تواضعه وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه
غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب

(ذكر ملك ولده الملك الصالح)

لما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسمعيل بالملك بعده وكان عمره احدى عشرة سنة وحلف
له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له
بها وضرب السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم
وصار مدبر دولته فقال له كمال الدين صاحب مصر هو من أصحاب نور الدين والمصلحة أن
نشاوره في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو
اقوى منا لانه قد انفرد اليوم بملك مصر فلم يوافق هذا القول اغراضهم وخافوا ان يدخل صلاح
الدين ويخرجهم فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزيه
ويهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه
فلما سار سيف الدين غازي صاحب الموصل وملك البلاد الجزرية على ما نذكره فارسل صلاح
الدين أيضا الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده واخذها ليحضر في خدمته
ويكف سيف الدين وكتب الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من
يقوم مقامي او يثق اليه مثل ثقته الي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل
عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري وأراكم قد تفردتم بمولاي
وابن مولاي دوني وسوف أصل الى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازي
كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده وعسك ابن المقدم وجماعة الامراء بالملك

الثواقب * ومن يواقيت
كالجمر قبل الخمود * او الجمر
بعد الجمود * ومن زبرجد
كأطراف الآس نضارة
او ورق الاقحوان غضارة
ومن قطع الماس كتماثيل
الرمان * في المقادير والاوزان
واجتمعت وفود الاطراف
على ادرار ما لم يرو في كتب
الاوائل اجتماع مثله لاحد
من صناديد القروم * وملوك
العجم والروم * وحضر ذلك
المشهد رسل طمغاج خان
ملك الترك اخي ايلك فرأوا
ما لم تره العيون * ولم يملكه
قارون * صنع الله الذي
امره اذا اراد شيئا ان يقول
له كن فيكون

(ذكر آل فريغون)

قد كانت ولاية الجوزجان
لآل فريغون ايام آل
سامان يتوارثها كابر
عن كابر ويوصي بها
اول الى آخر وهم اشراف
النفوس والهمم * كرام
الاخلاق والشيم * وطاء
الاكناف * امراء الاطراف
خصاب الرحال * لوفود
الآمال * دابهم اجلال قدر
الآداب * ورفع درجات
الكتاب * واقتراض حقوق
الاحرار * واغلاء اسعار
الاشعار * فكم من غريب
آواه احسانهم * ومن أديب

كان بالفرنج بكسر الأعضاد هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه والعهدة عليه وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد صاحب نيسابور وبين شاه مازندران قتل فيها كثير من الطائفتين فانهزم شاه مازندران ودخل المؤيد بلاده فنهبها وخربها وقتل بأهلها وعاد عنها وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها أن ابن المبارك عسكر أهل باب الكرخ سكر ابن المبارك عندهم فغرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح أهل الكرخ انقلعت الشجرة التي الله المشيرة فقامت الفتنة فتقدم الخليفة الى علاء الدين تنامش فقال على أهل باب البصرة لانه كان شيعيا وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها وأغلقوا الابواب ووقفوا على السور وأراد احراق الابواب فبلغ ذلك الخليفة فأنكره أشد انكار وأمر باعادة تنامش فعاد ودامت الفتنة أسبوعا ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج ارسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم ذلك عاد الى بلاده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة وفيها في جمادى الاولى مات أحمد بن علي بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوي الحسيني نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الطاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد وفيها توفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد ابن محمد العطار الهمداني سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من أعيان المحدثين وكان له قبول عظيم بهمذان عند العامة والخاصة

(ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة)

(ذكر وصول أسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامهم منها)

في هذه السنة ظفر أهل الاسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقلية وكان سبب ذلك ما ذكرناه من ارسال أهل مصر الى ملك الفرنج بساحل الشام والى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر فجهز صاحب صقلية أسطولا كثيرا عدته مائتا شيني تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وستة مراكب كبارا تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الأزواد وفيها من الراجل خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلي وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وسيرهم الى الاسكندرية من ديار مصر فوصلوا اليها السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج الى البر مما يلي البحر والمنارة وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم وسيرت الكتب بالحال الى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان في اقطاعه وهو قريب من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون

او بدرة أحمدها * او ربيعة
أسرعها * ثم أخرج قطعة
الدولة المليكة أفسها *
أو ولاية الصبا * او كريمة
أغلاها * أو دولة العليا * فأما
الدرهم والدينار فدفعهما
الى * ويزهد من يدي
سواه أدى * لا أشكر
واهبهما * ولا أشكر
سالبهما * أنا في القناعة
وقنا * وفي الصناعة عتقا *
لا يعدم المال اذا أردته
ولا يعوج في الجد كرب
العقاب * وسلولة أسباب
مهما قصدته * بل حيثني
فيضا * ويتطفل علي أيضا
وهذه الحضرة حرسها الله
تعالى وان احتاج اليها
المأمون * ولم يستغن عنها
قارون * فان الاسباب الى
أن أقصدها قصد سؤال
لا قصد سؤال * والرجوع
عنها بجمال * أحب الي
من الرجوع عنها بمال *
قدمت العريب * وأنا
أنتظر الجواب الشريب *
فان نشط الغضب طلبه
ستنصف * وقال الذي بعده
والسير له بالاستقبال
طائر الاقبال * والسلام *
ولهذا ما صدر عن فلانه *
مثقلا بنعمائه * قال
ألم ترأني في سفرتي
اقمت الفتى والمي والأميرا

صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع نور الدين والآن فقد زال ذلك الخوف واذا طلبنا الى بلادكم فلا يمتنع علينا وصدقه فصالحوه على شئ من المال أخذوه وأسرى اطلقوه والهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب الى الملك الصالح والامراء الذين معه يقبح لهم ما فعلوه ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وازعاجهم عن قصد شئ من بلاد الملك الصالح وكان قصده أن يصير له طريق الى بلاد الشام ليملك البلاد والامراء الشاميون انما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل فانه كان قد اخذ البلاد الجزرية وخافوا منه أن يعبر الى الشام فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في المحرم وقع الحريق ليلا ببغداد فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها ودام الحريق الى بكرة وطفئت النار وفيها في شعبان بنى ابن شنكا وهو ابن أخى شملة صاحب خوزستان قلعة بالقرب من الماهكى ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الاعمال فسير اليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه فالتقوا فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها واقتتل الناس قتالا عظيما وأسر ابن أخى شملة وحمل رأسه الى بغداد فعلق بباب النوبي وهدمت القلعة وفيها في رمضان وكان الزمان ربيعا توالت الامطار في ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يوما ما رأينا الشمس فيها غير مرتين كل مرة مقدار لحظة وخربت المساكن وغيرها وكثر الهدم ومات تحته كثير من الناس وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد فانها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطئ دجلة خوفا من انفتاح القورج وغيره وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده ونبع الماء في البلاليع وخرب كثيرا من الدور ودخل الماء الى البيمارستان العضدى ودخلت السفن من الشبابيك التي له فانها كانت قد تقادمت فمن الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد ان أشرفوا على الغرق وفيها في جمادى الاولى كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة وسببها ان الخليفة أمر باعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء الى الوزارة فمنع منه قطب الدين وأغلق باب النوبي وباب العامة وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة فأجاب الخليفة الى ترك وزارته وقال قطب الدين لا أقنع الا باخراج عضد الدين من بغداد وأمر بالخروج منها فالتجأ الى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل فأخذه الى رباطه وأجاره ونقله الى دار الوزير بقطفتا فأقام بها ثم عاد الى بيته في جمادى الآخرة وفيها سقط الامير أبو العباس احمد بن الخليفة وهو الذي صار خليفة من قبة عالية الى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجا فقيل لنجاح لم ألقيت نفسك فقال ما كنت أريد البقاء بعد مولاى فرعى له الامير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابيا وصارت الدولة جميعها بحكمه ولقبه الملك الرحيم عز الدين وبالغ في الاحسان اليه والتقديم له وخدمه جميع الامراء بالعراق والوزراء وغيرهم وفيها في رمضان وقع ببغداد برد كبار ما رأى الناس مثله فهدم الدور وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المواشي فوزنت بردة منها فكانت سبعة أرطال وكان عامته

والبيت وان لم القه * فقد تصورت خلقه * والملك العادل وان لم أكن لقيته * فقد لقيت صيته * ومن رأى من السيف اثره * فقد رأى أكثره * ومازالت أيد الله الامير أسمع بهذا البيت القديم بناؤه * الفسيح فناؤه * الرحيب أرجاؤه * الكريم أبناؤه * وأنشد من هذه الحضرة ضالتي * والعوائق تقعدني * وتسره * وترنى حسره * والزمن العثور يقعد تارة ويثور * فكم من عام عزمت وأبت المقادير * ونويت وعرضت معاذير * والآن لما وقفت لهذه الزورة استافت على أخبار الملك العادل في مستقره واشتاقت باشتغاله بمسامرة في قوس الطريق ومرة في وتره * على اقتفاء أثره * حتى بلغت مناى هذا ثم وسوس الى الشيطان تقدير مقدار أن اقصد هذه الحضرة طامعا في مال * او طامعا الى نوال * وعظم سلطان هذا الوسوسة حتى كاد يثنيني عن دولة الحط من طاعته ولم أبعد ما ألقاه الشيطان في خلدي أن يكون * ولا ناشدت الله الظنون * أن تنصرف في قصدي الا الى معرفة أرقعها او خدمة أودعها

لما أخذ الملك الصالح جهرة وسره * وعلى نفسه ابراقش تجني * ثم سار الى دمشق في المحرم من هذه
السنة واخذ الملك الصالح وعاد الى حلب فلما وصلوا اليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن
الداية واخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الاحداث بها ولولا مرض شمس
الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره
من الامراء الذين بدمشق وقالوا ان استقر امر حلب اخذ الملك الصالح وسار به الينا وفعل
مثل ما فعل بحلب وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات اليهم ليسلموا اليه
دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها
ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك اشار عليه بهذا الاشارة عز الدين والجبان
يقدر البعيد من الشر قريبا ويرى الجبن حزما كما قال

يرى الجبناء ان الجبن حزم * وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما اشار عليه بهذا الرأي قبله وامتنع من قصد دمشق وراسل سعد الدين والملك
الصالح وصالحهما على ما اخذه من البلاد فلما امتنع عن العبور الى دمشق عظم خوفهم وقالوا
حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير الينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف
ابن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم
ومن أشبه أباه فما ظلم وقد ذكرنا مخامرة أبيه في تسليم سنجار سنة اربع واربعين وخمسمائة فلما
وصلت الرسل الى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة في سبعمائة فارس والفرنج في طريقه
فلم يبال بهم فلما وطئ ارض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه
فخرج ولقيه فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال ما أرى معكم
عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار اخذكم اهل
السواد فان كان معكم مال سهل الامر فقالوا معنا مال كثير يكون خمسين الف دينار فضرب
صاحب بصرى على راسه وقال هلكتم واهلكتمونا بجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار
ثم سار صلاح الدين الى دمشق فخرج كل من بها من العسكر اليه فلقوه وخدموه ودخل البلد
ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان فاحضر صلاح
الدين كمال الدين بن الشهرزوري وهو قاضي البلد والحاكم في جميع اموره من الديوان
والوقف وغير ذلك وارسله الى ريحان ليسلم القلعة اليه وقال انا مملوك الملك الصالح وما جئت
الا لانصره واخدمه واعيد البلاد التي اخذت منه اليه وكان يخطب له في بلاده كلها فصعد
كمال الدين الى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها واخذ ما فيها من
الاموال واخرجها واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك
الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه

(ذكر ملك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة)

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق وقرر امرها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن
أيوب وسار الى مدينة حمص مستهل جمادى الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل
خالد والرها من بلد الجزيرة في اقطاع الامير فخر الدين مسعود الزعفراني فلما مات نور الدين لم

(ذكر أمير المؤمنين القادر بالله واقتفائه مذهب آبائه الراشدين بدار السلام واستقرار الامامة عليه وانعقاد البيعة له بعد الطائع لله وما اتصل من الحال بين السلطان يمين الدولة وأمين الملة وبين بهاء الدولة وضياء الملة أبي نصر ابن عضد الدولة في زمانه)

قد كان بهاء الدولة وضياء الملة نقم من الطائع لله أمورا الصدور فيها من غير رفاقه * وعدوله بها عن حكم استحقاقه * فدعاه ما تولى عامه من خلاف رضاه الى مراعاة مصلحة الدين باستبدال من يركب حق الامامة * ويتولى سياسة الخاصة والعامة * ويعزل هوى النفس في اتباع الحق واستشعاره * ونصرة الحق واظهاره * وأخذ يتلطف في التدبير عليه الى أن تمكن منه تقاعه *

وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدبابات فاحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت اماراته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل اهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح في رجالتهم وأما صلاح الدين فانه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير اليها كالة ومعه ثلاثة جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها فسار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال مابهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسقط في أيديهم وازدادوا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتجملات العظيمة وكثر القتل في رجالة الفرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان اضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل واسير وكفى الله المسلمين شرهم

(ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر)

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع اليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وكان هنالك أمير من الصلاحية في اقطاعه وهو أخو الامير أبي الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الامراء وكثيرا من العسكر ووصلوا الى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد العز وقهروا واستكانوا ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود الى الكنز وهو في طغيانه يعمه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الاعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها

(ذكر ملك صلاح الدين دمشق)

في هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وسبب ذلك ان نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي الى حلب كما ذكرناه فأقام بها عند شمس الدين علي بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يعبر الى حلب فيملكها فأرسل سعد الدين الى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر الى حلب فلما قارب دمشق سير اليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا فنهبوه وعاد منهزما الى حلب فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم ان الامراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعلموا ان مسيره الى حلب اصلح للدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا الى ابن الداية يطلبون ارسال سعد الدين

وياثرا آى شممت التراب
وكنت امرأ لا اشم العبيرا
لقيت امرأ مل عين الزمان
يعلو بهابا ويرنو نميرا
لآل فريغون في المكرمات
يدا أولا واعتذار أخيرا
اذا ماسألت تغناهم
رأيت نعيما وملكا كبيرا
ولا يعدم الملك ذو روعة
يهون الملق ويسر العسيرا
ولابي الفتح السمى فيهم
بنو فريغون قوم في وجوههم
سيما الهدى وسناء السودد
العالي
كأنما خلقوا من سودد وعلا
وسائر الناس من طين
وصلصال
من تلق منهم تقل هذا أجلهم
قدرا وأسخاهم بالنفس
والمال
ياسائلي ما الذي حصلت
عندهم
دع السؤال وقم فانظر الى حالي
أماترى أن حالي كيف قد
حليت
بهم ألم ترحالي عند ترحالي
فان اكن ساكتا عن شكر
أنعمهم
فان ذاك لعجزي لا لاعقالي

لما سعد

البلاد التي بيد صلاح الدين ابرحل عنهم فسار الى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها
سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل الى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على
حمص بيوم ثم رحل الى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها
فحصر القلعة الى ان ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة فصار اكثر الشام
بيده ولما ملك حمص سار منها الى بعلبك وبها خادم اسمه يمن وهو الوالي عليها من ايام نور الدين
فحصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الامان له ولمن عنده فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة
رابع عشر رمضان من السنة المذكورة

(ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار)

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين الى ابن عمه
سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب ان يعبر اليه
ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد
الدين زنكي صاحب سنجار ويأمره ان ينزل اليه بعساكره ليجتمعوا على المسير الى الشام
فامتنع من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لانه هو الكبير فحمله
الطمع على الامتناع على أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في
عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره الى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له
عز الدين محمود ويلقب أيضا زلفندار وجعله المدبر للامر وسار سيف الدين الى سنجار فحصرها
في شهر رمضان وقاتلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام
الحصار عليها فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من
صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل الى الموصل وثبت قدم
صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في
الصلح فلم يستقر حال

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب)

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعز الدين زلفندار الى حلب واجتمع
معهما عساكر حلب وساروا كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف
الدين يبذل تسليم حمص وحماة وان يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم
يجب الى ذلك وقال لا بد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح
الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب فلما امتنع سيف الدين من اجابته الى ما بذل سار في
عساكره الى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة
بموضع يقال له قرون حماة وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه
الا انه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي
وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه وثبت عز الدين اخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى
صلاح الدين ثباته قال اما ان هذا أشجع الناس أو انه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه
فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم

حماه * وأوزر أناه * وأصلب قناه * وأصدق ثقاه * وأرشى سيره * وأذكى بصرا وبصيرة * وأزكى علانية وسريرة * وأتم جلالة وبراعة * وأعم سياسة وحراسة * لم ولا أقوى منه بنانا * وأندى بنانا * وأعدل عقابا واحسانا * وعطفته عاطفة القربى على الطائع لله فاستخصه لمنادمته * واجتباه لصاحبته * والحقه بجناح رعايته وحمايته * تفاديا من غضاضة تلحقه في زمانه * او نكبة ترهقه في خال سلطانه وجانب امانه * الى ان فرق بينهما الدهر المولع بالتفريق * وانتزع الرفيق من الرفيق * ورثاه ابو الحسن محمد بن الحسين بن موسى العلوي المعروف بالرضي الموسوي بقصيدة منها

ان كان ذاك الطود خر
فبعدما استعلى طويلا
مرسى على الثقال الذوا
هب في العلا عرضا وطولا
قرم يسد طلابه
فيرى القروم له مثولا

يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم انما فيها ولاة لنور الدين وكان بقلعة حمص وال يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص حادي عشر الشهر المذكور راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فملك البلد وأمن أهله وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة الى ان عاد من حلب على ما نذكره ان شاء الله وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وان تصعد اليهم ميرة وسار الى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لا يظهر الا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وانه انما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية فلما وصل الى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وانما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي اطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

(ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك)

لما ملك صلاح الدين حماة سار الى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبي اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثيرا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الاموال والانفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها حيث كان الفرنج بالقرب منهم فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن فلا يقدر على القرب من البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فارسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقبيس فعرفهم لانه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ما الذي أقدمكم وفي أي شيء جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا وبقي صلاح الدين محاصرا لحلب الى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب وسبب رحيله ان القومص الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبقي في الحبس الى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير فلما وصل الى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنونه بالسلامة وكان عظيما فيهم من أعيان شياطينهم فاتفق ان مرى ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القمص ريمند تدبير الملك والحل والعقد عن أمره يصدرون فأرسل اليه من حلب يطلبون منه ان يقصد بعض

واحتوى عليه وعلى ما كان
معه * وذلك في شعبان سنة
احدى وثمانين وثلثمائة
وأرسل الى الطائع ربها
القادر بالله أبو العباس
أحمد بن اسحق بن المقتدر
بالله فاستقدمه دار السلام
لعقد البيعة له بها لشانه *
وتقلد الامامة * وارتهانا
للالته * واجلالا بالمملكة
الجليلة * فقدمها في شهر
رمضان من هذه السنة
وتسارع الناس الى
مبايعته * واتفقوا على
طاعته * وتراضوا عن
طيب النفوس بامامته *
وتناهبوا شكرا لله على
ما آتاحه لهم من بركات
خلافته * فقيها اشترف
الآفاق من مناقبه الغر *
وضرائبه الزهر * وفضائله
المسطورة على صفحات
الدهر * فقام بما قلده الله
من طوق الامامة مفوضا
اليه أمره * ومتوكلا عليه
وحده * فلم يرفي مقره من
سرير الخلافة أورقه منه

واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتتامش وتحكمهما عليه فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفاتت الصلاة أكثر الناس فأنكر الخليفة ما جرى فلم يلتفت قطب الدين وتتامش الى ما فعل واستحقروه فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاستحقارهم الدماء وازدرائهم أهله فلما كان خامس ذي القعدة قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار وكان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة في صاحبه فأرسل اليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب فأحرق قطب الدين داره وحالف الامراء على المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصد دار الخليفة ليطلب ابن العطار فيها فلما سمع الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعد الى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لي فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحه في ظهرها لكثرة الخلق على بابها وخرج من بغداد ونهبت داره وأخذ منها من الاموال ما لا يحد ولا يحصى فرؤي فيها من النعم ما ليس لاحد مثله فمن جملة ذلك أن بيت الطهارة الذي كان له فيه سلسلة ذهب من السقف الى محاذي وجه القاعد على الخلاء وفي أسفلها كرة كبيرة ذهب مخرمة محشوة بالمسك والعنبر ليشمها اذا قعد فتشبث انسان وقطعها ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير وكان الاقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس فلما أخذ ذلك الصعلوك الاكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طبيخا وألقى الاكياس فيها وجعلها على رأسه والناس يضحكون منه فيقول أنا أريد شيئا أطعمه عيالي اليوم فخلصها منه فاستغنى بعد ذلك فظهر المال ولم يبق من نعمة قطب الدين في ساعة واحدة قليل ولا كثير ولما خرج من البلد تبعه تتامش وجماعة من الامراء فنهبت دورهم أيضا وأخذت أموالهم وأحرق أكثرها وسار قطب الدين الى الحلة ومعه الامراء فسير الخليفة اليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة الى الموصل على البرية ومن معه فلحقهم عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ومات قطب الدين قبل وصوله الى الموصل فحمل ودفن بظاهر باب العمادي وقبره مشهور هناك وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الاحسان والظلم وسوء التدبير فانه ظلم أهل العراق وكفر احسان الخليفة الذي كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الامور كلها كما كانت عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قوي بلا [illegible] على البلاد فأطاعوه ولما مات في ذي الحجة وصل علاء الدين تتامش الى الموصل فأقام مديدة ثم أمره الخليفة بالقدوم الى بغداد فعاد اليها وبقي بها الى أن مات بغير اقطاع وكان هذا آخر أمرهم ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاج من السفر فتأخروا الى أن رحل عنها فدخلوا من الكوفة في ثمانية عشر يوما وهذا ما لم يسمع بمثله وفات كثيرا منهم الحج ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير وأعيد الى الوزارة قال بعض الشعراء في قطب الدين وتتامش هذه الابيات

ان كنت معتبرا بالنوازل * وحوادث عقبى الادلاج
فدع العجائب والتواريخ الاولى * وانظر الى قيماز وابن قماج

من يردد الشعر الطوالا *
لو يكشف الخطب الجليلا
وتراه يمنع دونها
* وادي النوائب أن يسيلا
فقاد ألوية الملوك *
لتعلي العلا سبيلا جليلا
واتفاقات شعراء العراق
وشعراء الآفاق
اطباقهم على شعار الخلافة
في امتداح القادر بالله أمير
المؤمنين * وذكر مآثر
أيامه ومآثر أسلافه *
مصابيح الكرم * وينابيع
الحكم * ومصابيح الظلم *
وشاديخ الامم * وليوث
البهم * وغيوث النعم *
ويلفى انتقاماتهم مدونة
بالعراق من بين منظوم
ومنثور * ومتروك ومذكور *
فلا حاجة بنا الى تتبع
ذكرها مع اشتهارها *
وحكى أبو محمد عبد السلام
ابن محمد بن الهيصم أحد
أعيان الكرامية بنيسابور
قال كنت في مجلس القادر
بالله أمير المؤمنين جالسا
بحضرة بني هاشم ومشايخ
بغداد وأعيان الخ
فقال الحمد لله ذي العزة
الباهرة والحجة الباهرة *
والنعم المتظاهرة * الذي عم
احسانه * ودام سلطانه *
وعظم شانه * فلا راد لقضائه
* ولا مانع لعطائه * ولا
معقب لحكمه ...
محمدا صلى الله عليه وسلم

وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحا وظهرا ودواب فارهة وعادوا بعد طول السكار مستريحين وعاد الملك زموك الى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها وحاصرها وقاتلها وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه عن السكة فى بلاده ودام حاصرا لهم فلما طال الامر عليهم راسلوه فى الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم الى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب فى العشر الاول من شوال ووصل الى حماة ووصلت اليها بها خلع الخليفة مع رسوله

(ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين)

فى هذه السنة فى العشر الاخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام وكان صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وهو من اكابر الامراء النورية فلما راى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن ان صلاح الدين يكرمه ويشاركه فى ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم ير من ذلك شيأ ففارقه ولم يكن بقى له من اقطاعه التى كانت له فى الايام النورية غير بعرين ونائبه بها فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد الى حماة وسار منها الى بعرين وهى قريبة منها فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وادام قتالها فسلمها واليها بالامان فلما ملكها عاد الى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى وأقطع حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وسار منها الى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة

(ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز)

فى هذه السنة ملك البهلوان بن ايلدكز مدينة تبريز وهى من جملة بلاد آقسنقر الاحمديلى وسبب ذلك ان البهلوان سار الى مراغة وحصرها وكان ابن آقسنقر الاحمديلى قد مات ووصى بالملك لابنه فلك الدين فقصده البهلوان ونزل على قلعة روئيندز وحصرها فامتنعت عليه فتركها وحصر مراغة وسير أخاه قزل ارسلان فى جيش الى مدينة تبريز فحصرها أيضا وكان البهلوان يقاتل أهل مراغة فظفروا بطائفة من عسكره فخلع عليهم صدر الدين قاضى مراغة وأطلقهم فحسن ذلك عند البهلوان وشرع القاضى فى الصلح على ان يسلموا تبريز الى البهلوان فأجيب الى ذلك واستقرت القاعدة عليه وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز وأعطاها أخاه قزل ارسلان ورحل عن مراغة بعسكره

(ذكر وفاة شملة)

فى هذه السنة مات شملة التركمانى صاحب خوزستان وكان قد كثرت ولايته وعظم شأنه وبنى عدة حصون وبقى كذلك زيادة على عشرين سنة وكان سبب موته انه قصد بعض التركمان فعلموا بذلك فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب عراق العجم فسير اليهم جيشا فاقتتلوا فأصاب شملة سهم ثم أخذ أسيرا وولده وابن أخيه وتوفى بعد يومين وهو من التركمان الافشرية ولما مات ملك ابنه بعده

(ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد)

فى هذه السنة فى شوال سير علاء الدين تامش وهو من أكابر الامراء ببغداد وكان قطب الدين قايماز زوج اخته عسكرا الى العراق فنهبوا الهلة وبالغوا فى أذاهم فجاء منهم جماعة الى بغداد

واستعانوا

ويرى عزيزا حيث حل
ولا يرى الا ذليلا
كالليث الا انه اتخذ
العلا والعز غيلا
وعلا على الاقران لا
مثلا يعد ولا عديلا
من معشر ركبوا العلا
وابوا عن الكرم النزولا
فاذا انتسبوا نالوا الشـ*
ـعرى العواء والجولا
كرموا فروعا بعد ما
طابوا وقد عظموا اصولا
فسبب غدا رواده
يستعجبون لها النحولا
يا ناصر الدين الذى
رجع الزمان به كليلا
يا صارم المجد الذى
ملئت مضاربه فلولا
يا كوكب الاحسان اعـ*
ـجلك الدجى عنا افولا
يا غارب الهم العظا*
م غدوت مغمولا بجديلا
اهفى على ماضى مضى
ان لا نرى منه بديلا
وزوال ملك لم يكن
يوما قدر ان يزولا
ومنازل سطر الزما*
ن على معالمها الحؤولا
من بعد ما كانت على
الايام مرباة نكولا
والاسد ترتكز القنا
فيها وترتبط الخيولا
من يسبغ المنن الجسا*
م ويصطفى الحمد الجزيلا
من ينتج الآمال يو*
م تعود بالايام حولا

الدين ارأيت ان ملكت الموصل على اتقدر ان تمتنع ببعض ابراج الفصيل فقال لا فقال برج في الفصيل خير من العقر ومازال الملوك يهزمون ويعاودون الحرب واتفق هو والوزير على شد ازره وتقوية قلبه فثبت ثم اعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على امارة الجيوش مجاهد الدين قايماز على ما نذكره ان شاء الله وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس ولم يكن كذلك انما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس اقل من خمسمائة فانني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية وغير ذلك وكان المتولي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين ابا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله وانما قصد العماد ان يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا والحق احق ان يتبع ثم ياليت شعري كم هي الموصل واعمالها الى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون الف فارس

(ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين)*

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا الى حلب عاد سيف الدين الى الموصل كما ذكرناه وترك بحلب أخاه عز الدين مسعودا في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح وأما صلاح الدين فانه لما استولى على اثقال العسكر الموصلي هو وعسكره وغنموها واستراحوا وقووا سار الى بزاعة فحصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها وجعل فيها من يحفظها وسار الى مدينة منبج فحصرها آخر شوال وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والاطماع فيه والطعن فيه فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فاما المدينة فملكها ولم تمتنع عليه وبقي القلعة وبها صاحبها فجمع اليها الرجال والسلاح والذخائر فحصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف الى القلعة فوصل النقابون الى السور فنقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحي كل ما فيها وأخذ صاحبها أسيرا فأخذ صلاح الدين كل ماله واصبح فقيرا لا يملك نقيرا ثم اطلقه صلاح الدين فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار الى قلعة اعزاز فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة وهي من احصن القلاع وامنعها فنازلها وحصرها وأحاط بها وضيق على من فيها ونصب عليها المنجنيقات وقتل عليها كثير من العسكر فبينما صلاح الدين يوما في خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولي وهو مقدم الطائفة الاسدية اذ وثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه ولولا ان المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله فامسك صلاح الدين يد الباطني بيده الا انه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية انما يضرب ضربا ضعيفا فبقي الباطني يضرب بالسكين في رقبته وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند فتقطعه والزرد يمنعها من الوصول الى رقبته لبعد اجله فجاء امير من امرائه اسمه يازكش فامسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده الى ان قتل الباطني وجاء آخر من الاسماعيلية فقتل أيضا وثالث فقتل وركب صلاح الدين الى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته ثم اعتبر جنده فمن انكره أبعده ومن عرفه اقره على خدمته ولازم حصار اعزاز ثمانية وثلاثين يوما كل يوم أشد قتالا مما قبله

ابن الفضل الموصلي عن المبرد أن العباس بن أبي عبيد بن حدثه ان سعيد الخطيب قال لما بايع الفضل بن مروان المعتصم بالله امير المؤمنين قام فحمد الله وأثنى عليه وقال

يا بيعة منبسطا ولم تنبسط
كفي لبيعته فطمت بنانها
من ذا اليه لا يديم يمينه
قطع الاله يمينه فابانها

ولوالدي في خدمة امير المؤمنين ما يقارب هذا او يشاكله * وذلك انه أظهر بيعته لورود كتابه على سير التوامين التوري بناحية ... وقال فيها

سبقت يميني في بيعة قادر
بالله لما طالعته يد القدر
ماضر بيعته التوامين التوري
والله يعرف ما يكون الزبر
واتيت أراما حق من وطئ الهوى

وراثة الشيم الهالك البدر
فان شئت القلب مني ان أبي
ولا تقلق العين ان زاغ البصر
وها انا قد ساعدني توفيق الله حتى وطئت بساط أمير المؤمنين ... اما أمر الله علمناه لى أمير المؤمنين محمود بن سبكتكين فانه في ربعه ... والله نسأل أن يديم سلامة أمير المؤمنين* وان يبايعه أهل الى الامير أبي الفضل ولي عهد المسلمين

عداف الزمان عليهما فسقاهما * من كاسه صرفا بغير مزاج
فتبدلوا بعد القصور وظلها * ونعيمها ببهامه وفجاج
فليحذر الباقون من امثالها * نكبات دهر خائن مزعاج

وكان قطب الدين كريما طلق الوجه حسن العدل والاحسان كثير البذل للمال والذى كان يجرى منه انما كان يحمله عليه تامش ولم يكن بارادته

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن واسمه يحيى بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل وحج بالناس عدة سنين واليه الحكم فى الطريق وناب عن الوزارة وتنقل فى هذه الاعمال أكثر من عشرين سنة وكان يحفظ القرآن

(ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين)

فى هذه السنة عاشر شوال كان المصاف بين سيف الدين غازى بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتل السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماة وانهزم سيف الدين وسبب ذلك انه لما انهزم اخوه عز الدين مسعود من صلاح الدين فى العام الماضى وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار عاد الى الموصل وجمع عساكره وفرق فيهم الاموال واستنجد صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس فسار الى نصيبين فى ربيع الاول من هذه السنة واقام بها فاطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم وصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ثم سار الى حلب فنزل اليه سعد الدين كمشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح ومعه عساكر حلب وكان صلاح الدين فى قلة من العساكر لانه كان صالح الفرنج فى المحرم من هذه السنة على ما نذكره ان شاء الله وقد سير عساكره الى مصر وأرسل يستدعيها فلو عاجلوه لبلغوا غرضهم منه لكنهم تريثوا وتأخروا وعنت سيفا عنه عساكره وسار من دمشق الى ناحية حلب ليلقى سيف الدين فالتقى العسكران بتل السلطان وكان سيف الدين قد سبقه فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فالقوا نفوسهم الى الارض ليس فيهم حركة فاشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال فقال زلفندار ما بنا هذه الحاجة الى قتال هذا الخارجى فى هذه الساعة غدا بكرة نأخذهم كلهم فترك القتال الى الغد فلما اصبحوا اصطفوا للقتال فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السنجق اعلامهم فى وهدة من الارض لا يراها الا من هو بالقرب منها فلما لم يرها الناس ظنوا ان السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهزموا ولم يلوا على أخيه ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد ووصل سيف الدين الى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعود الى جمع من العسكر ولم يعم هو وعبر الفرات وسار الى الموصل وهو لا يصدق انه ينجو وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية فقال له مجاهد

ذروة أرومة العرب مولدا * وأفضل بريتها محتدا * وأطولها نجادا * وأرحبها فى المكرمات وتادا * فأيده أحسن تأييد * وأكد أمره أفضل تأكيد * حتى استقل الدين ناهضا * واضمحل الشرك داحضا * وظهر أمر الله والمشركون كارهون فعليه صلوات الله عدد الرمل والحصا * ما طلعت عليه شمس الضحى * وعلى آله الطيبين * ثم قيض الله من بعده الخلفاء الراشدين * لتمهيد الدين * وتوهين كيد الملحدين * فبسطوا للاسلام بساطه * ونهجوا لاهل الآفاق صراطه * الى أن تأدى الامر الى ذويه * من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى صنو أبيه * فأقاموا الاسلام عن أوده * وأسندوا الامر الى مستنده * معتصمين بنصر الله * صادعين بأمر الله * معظمين حرمات الله * وهلم جرا الى أن تأكدت بيعة الخلافة بأمير المؤمنين * القادر بالله فبهر نوره العالمين وشق ذكره على المنابر صدور قوم مؤمنين * من بعد التواء من أظهر العناد * وانزواء من قصد الفساد * وأبى الله الا نصرة الحق وادالته * وقمع الباطل وازالته * وقد حدثنى محمد

الدين

الناقد وكان يلقب في صغره قنبر أفصار واليصيحون به ذلك اذا ركب فأمر الخليفة ان يركب معه
جماعة من الاتراك ويمنعون الناس من ذلك فامتنعوا فلما كان قبل العيد شنع عليه لم يركب في
الموكب فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيأ كثيرا وعزموا على ارسالها في الموكب
اذا رأوا ابن الناقد فأنهى ذلك الى الخليفة وقيل له ان سير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن العوج
وفيها في ذي الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الاتراك بسبب أخذ جمال النحر
فقتل بينهم جماعة ونهب شئ كثير من الاموال ففرق الخليفة أموالا جليلة فيمن نهب ماله وفيها
زلزلت بلاد العجم من جهة العراق الى ماوراء الري وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة
واكثر ذلك كان بالري وقزوين وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين غازي صاحب
الموصل جلال الدين ابا الحسن ابن جمال الدين محمد بن علي وكان جمال الدين وزير البيت
الاتابكي وقد تقدمت اخباره وهو المشهور بالجود والافضال ولما ولي جلال الدين الوزارة ظهرت
منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة
وكان جوادا فاضلا خيرا وكان عمره لما ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة وفيها في ذي الحجة استناب
سيف الدين أيضا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض اليه الامور وكان قبل ذلك
اليه الامر بمدينة اربل واعمالها وكان رحمه الله من صالحي الامراء وارباب المعروف
بنى كثيرا من الجوامع والخانات في الطرق والقناطر على الانهار والربط وغير ذلك من ابواب
البر وكان دائم الصدقة كثير الاحسان عادل السيرة رحمه الله وفيها قبض الخليفة على سنجر
المقتفوي استاذ الدار ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب وفيها في
رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الذي ملك اليمن الى دمشق ولما سمع ان أخاه صلاح
الدين ملكها حن الى الوطن والاتراب ففارق اليمن وسار الى الشام وأرسل من الطريق الى
أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله وكتب في الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصري

والى صلاح الدين اشكو أنني * من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن * لولا هواه لبعد دار اجزع
فلاركبن اليه متن عزائمي * ويخب بي ركب الغرام ويوضع
ولاقطعن من النهار هواجرا * قلب الصفاد بحرها يتقطع
ولاسرين الليل لا يسري به * طيف الخيال ولا البروق اللمع
واقدمن اليه قلبي مخبرا * اني بجسمي من قريب أتبع
حتى أشاهد منه اسعد طلعة * من أفقها صبح السعادة يطلع

وفي هذه السنة في المحرم برز صلاح الدين من دمشق وقد عظم شأنه بملكه من بلاد الشام
وبكسره عسكر الموصل فخافه الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلادهم ونهبها والاغارة عليها
فارسلوا اليه يطلبون الهدنة معه فأجابهم اليها وصالحهم فأمر العساكر المصرية بالعود الى مصر
والاستراحة الى ان يعاود طلبهم وشرط عليهم انه متى أراد ان يستدعيهم لا يتأخرون فساروا اليها
واقاموا بها الى ان استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما ذكرناه وفيها مات أبو الحسن علي بن
عساكر البطائحي المقرى وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه وكان نحويا [illegible] ذا ثقة

الأمر اليه واستقر الملك
عليه وفيما نطق به كتاب
الصابي المعروف بالتاجي
من وقائع عضد الدولة
مع بختيار الى ان أظفره الله
به وقضى عليه بعد حسامة
وجرعه كأس حمامه
واحتياله على أبي تغلب
ناصر بعد انهزامه والى
ان أمكنه التدبير عليه
بابن الجراح أحد المتغلبين
من الاعراب على حدود
الشام فقبض لاقتناصه
بما رآه داعيا اليه واطماع
أكدها له حتى تمكن وقتله
وحمل اليه علاوته بما يستغنى
عن تجديد ذكره ولما مضى
عضد الدولة لسبيله وذلك في
شهر رمضان سنة اثنتين
وسبعين وثلثمائة عند
اشتغال أخيه مؤيد الدولة
بويه بمحاربة حسام الدولة
تاش وبعدها فائق في
عساكر خراسان اجتمع
أبناء دولته على ابنه
صمصام الدولة وشمس
الملة فبايعوه متوازرين
وتوافقوا على طاعته
متظاهرين وأتاه الطائع
لله أمير المؤمنين في
حراقة على ظهر دجلة

وكثرت الحروب فيها فاذعن من بها وسألوا الاقامة اليه فتسلمها حادي عشر ذي الحجة

(ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها)

لما ملك صلاح الدين قلعة اعزاز رحل الى حلب فنازلها منتصف ذي الحجة وحصرها وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر وقد قام العامة في حفظ البلد القيام المرضي بحيث انهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد لانه كان اذا تقدم للقتال خرجوا وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد فترك القتال واخلد الى المطاولة وانقضت سنة احدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصر لها ثم ترددت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرم فوقعت الاجابة اليه من الجانبين لان أهل حلب خافوا من طول الحصار فانهم ربما ضجروا وضعفوا وصلاح الدين رأى انه لا يقدر على الدنو من البلد ولا على قتال من به فأجاب أيضا وتقررت القاعدة في الصلح للجميع للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين وتحالفوا واستقرت القاعدة ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر فلما انفصل الامر رحل عن حلب بعد ان اعاد قلعة اعزاز الى الملك الصالح فانه اخرج الى صلاح الدين أختا له صغيرة طفلة فاكرمها صلاح الدين وحمل لها شيأ كثيرا وقال لها ما تريدين قالت أريد قلعة اعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها اليهم ورحل الى بلد الاسماعيلية

(ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها واقامة غيره)

في هذه السنة في ذي الحجة كان بمكة حرب شديدة بين امير الحاج طاشتكين وبين الامير مكثر ابن عيسى امير مكة وكان الخليفة قد أمر امير الحاج بعزل مكثر واقامة أخيه داود مقامه وسبب ذلك انه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قبيس فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة وانما اجتازوا بها فلم يرموا الجمار انما بعضهم رمى بعضها وهو سائر ونزلوا الابطح فخرج اليهم ناس من اهل مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة وصاح الناس الغزاة الى مكة فهجموا عليها فهرب أمير مكة مكثر فصعد الى القلعة التي بناها على جبل أبي قبيس فحصروه بها ففارقها وسار عن مكة وولي أخوه داود الامارة ونهب كثير من الحاج وأخذوا من اموال التجار المقيمين بها شيأ كثيرا واحرقوا دورا كثيرة ومن اعجب ما جرى فيها ان انسانا زراقا ضرب دارا بقارورة نفط فاحرقها وكانت لايتام فاحرقت ما فيها ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانا آخر فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها فبقي ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها واظلمت الارض حتى بقي الوقت كانه ليل مظلم وظهرت الكواكب وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه وكنت حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء اقرأ عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفا شديدا وتمسكت به فقوي قلبي وكان عالما بالنجوم ايضا وقال لي الا ترى هذا جميعه انصرف فانصرف سريعا وفيها ولى الخليفة المستضيء بأمر الله حجبة الباب أبا طالب نصر بن علي

الغالب بالله ابن أمير المؤمنين ويلحقه بسعادة آبائه الراشدين * وأسلافه الطيبين الطاهرين * والحمد لله رب العالمين * وصلى الله على نبيه محمد وآله اجمعين * قال فأمر القادر بالله أمير المؤمنين بأن تنسخ الخطبة في جملة أشواتها المسطورة المخزونة ولما ارجت منابر خراسان بذكر القادر بالله أمير المؤمنين على ما أوجبته طاعة السلطان يمين الدولة وأمين الملة لامر الله في اقتفار محجته * واقتفاء شاكلته ومحبته * كاتبه عارفه من الافضاء الى ابنه أبي الفضل بعهده * في ولاية امير المؤمنين من بعده * وتلقيبه بالغالب بالله ورسم توفيته واجب حقه * والحاق ذكره على المنابر باسمه * وطبع النقود على ذكر تلقيبه * فأوجب السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * مطاوعته فيما أمر ومتابعته في جميع ما رسم بقارن ذكراهما في الخطب * وترافق اسماهما على صفحات الفضة والذهب * وسنعود الى ذكر بهاء الدولة * وضياء الملة * من لدن استأثر الله بعضد الدولة * وتاج الملة * ابي شجاع فناخسرو الى ان أفضى

طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك ان مجاهد الدين قايماز كان متوليا مدينة اربل وكان بينه وبين ابن بزان عداوة محكمة فلما استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن بزان ان يناله منه أذى فأظهر الامتناع من النزول الى الخدمة وأرسل اليه جلال الدين وزير سيف الدين كتابا يأمره بمعاودة الطاعة ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسن الكتب وأبلغها في هذا المعنى ولولا خوف التطويل لذكرته فقد طلب من كتابته فلما وصل اليه الكتاب والرسول بادر الى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلاف

(ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ)

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فنك وهو على رأس جبل عال وهو للاكراد البشنوية بأيديهم نحو ثلثمائة سنة وكان صاحبه هذه السنة أميرا منهم اسمه ابراهيم وله أخ اسمه عيسى قد اخرجه منه وهو لا يزال يسعى في اخذه من أخيه ابراهيم فأطاعه بعض بطانة ابراهيم وفتح باب السر ليلا واصعد منه الى رأس القلعة نيفا وعشرين رجلا فقبضوا على ابراهيم ومن عنده ولم يكن عنده الا نفر من خواصه وهذه القلة على صخرة كبيرة هي تنقطع عن سائر القلعة ارتفاعا كثيرا وبها يسكن الامير واهله وخواصه وباقي الجند في القلعة تحت القلة فلما قبضوا ابراهيم جعلوه في خزانة وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه فلم يصنع شيئا فلما جعل في الخزانة وكل به رجلان وصعد الباقون الى سطح القلة ولا يشكون ان القلعة لهم لا مانع عنها ووصل من الغد بكرة الامير عيسى ليتسلم القلعة ويتم ما دبره وكانت امرأة الامير ابراهيم في خزانة أخرى وفيها شباك حديد ثقيل يشرف الى القلعة فجذبته بيدها فانقلع وجند زوجها في القلعة لا يقدرون على شيء فلما قلعت الشباك ارادت ان تدلي حبلا ترتفع به الرجال اليها فلم يكن عندها غير ثياب خام فوصلت بعضها ببعض ودلتها الى القلعة وشدت طرفها عندها في عمود وأصعدت اليها عشرة رجال ولم يكن يراهم الذين على السطح ورأى الامير عيسى وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه الى اولئك الذين على السطح ليحذروا وكان كلما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الاصوات فلا يفهم الذين على السطح فيزلون ويعودون من ذلك فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها الى زوجها قدح شراب وأمرته ان يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويعرفه الحال ففعل ذلك وجلس بين يديه ليسقيه وعرفه الحال فقال ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلا وخرجوا من عندها فمد ابراهيم يده الى الرجلين الموكلين به فأخذ شعورهما وأمر الخادم بقتلهما وكان عنده فقتلهما بسلاحهما فخرج واجتمع باصحابه وأراد فتح القلعة ليصعد اليه أصحابه من القلة فلم يجد المفاتيح وكانت مع اولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا الى الصعود الى سطح القلعة لما اخذوا اصحاب عيسى فعلموا الحال فجاءوا ووقفوا على رأس المرقى فلم يقدر أحد يصعد فأخذ بعض أصحاب ابراهيم ترسا وجعله على رأسه ووصل في الدرجة وصعد وقاتل القوم على رأس المرقى حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقي منهم رجل القى نفسه من السطح فنزل الى أسفل الجبل فتقطع فلما رأى عيسى ما حل باصحابه عاد خائبا مما أمله واستقر الامير ابراهيم في قلعته على حاله

ومقاربة تفاديا من ضرر استيحاشه وعدوى مسافته ثم عالج بان عهد الى فرد الايسع سبقين ووترا واسد الايضم سهمين فلقيه ابو الفوارس ووقع عليه ثم خلعه وكحله وامر به الى قلعة كوستان من ارض عمان واستولى على المملكة ولقبه الطائع لله بشرف الدولة وزين الملة فبقي على جملته سنتين وبعض سنة ثم قبضه الله تعالى في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وثلثمائة فقام اخوه شاهنشاه بهاء الدولة وضياء الملة ابو نصر بن عضد الدولة مقامه وتجرد لضبط الامور السائرة وتلافي الاحوال الحائلة وكفل بالملك كفالة خبير بالعواقب بصير باعقاب المراقب وقلما الا ترانا بفارس على صمصام الدولة فابرزوه من معتقله وحمله غلامه المعروف بسعادة على عاتقه منحدرا به فملك فارس وما والاها وتتبع اموالها بجبايتها ثم تعسكروا له وقدموا ابا علي بن ابي الفوارس وعقدوا له الرياسة عليهم ولقبوه بشمس الدولة وفخر الملة وتجردوا للدفاع عنه والدعاء اليه فاستدعى مراقعتهم الى ان هزمهم اقبح هزيمة وشتتهم ابدا شتية فتقدوا الى بغداد

ثم توفى أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع الحديث ورواه وله شعر جيد فمن ذلك انه كتب اليه بعض اصدقائه مكاتبة وضمنها شعرا فاجابه

يا من أياديه تعيى من يعددها * وليس يحصى مداها من لها يصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم * وصرت عبدا ولى فى ذلك الشرف
أهديت منظوم شعر كله درر * فكل ناظم عقد عنده يقف
اذا أتيت ببيت منه كان لنا * قصرا ودر المعانى فوقه شرف
وان أتيت أنا بيتا يناقضه * أتيت لكن ببيت سقفه يكف
ما كنت منه ولا من أهله أبدا * وانما حين أدنو منه اقتطف

(ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة)

(ذكر نهب صلاح الدين بلد الاسماعيلية)

لما رحل صلاح الدين من حلب على ما ذكرناه قصد بلاد الاسماعيلية فى المحرم ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه وارادة قتله فنهب بلدهم وخربه واحرقه وحصر قلعة مصياث وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها ولم يزل كذلك فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى شهاب الدين الحارمى صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فاجابه الى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وكان عسكره قد ملوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ونهب بلد الاسماعيلية فطلبوا العود الى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو الى مصر مع عسكرها لانه كان قد طال عهده عنها ولم يمكنه المضى اليها فيما تقدم خوفا على بلاد الشأم فلما انهزم سيف الدين وحصر هو حلب وملك بلادها واصطلحوا أمن على البلاد فسار الى مصر وأمر ببناء سور على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمى ولم يزل العمل فيه الى ان مات صلاح الدين

(ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين)

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك فأتاه خبر ان جمعا من الفرنج قد قصدوا البقاع من اعمال بعلبك وأغاروا عليها فسار اليهم وكمن لهم فى الشعراء والغياض وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر واسر نحو مائتى رجل منهم وسيرهم الى صلاح الدين وكان شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين وهو الذى ملك اليمن قد وصل الى دمشق كما ذكرناه وهو فيها فسمع ان طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم الى اعمال دمشق فسار اليهم ولقيهم عند عين الجر فى تلك المروج فلم يثبت لهم وانهزم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار وهو من اعيان الجند الدمشقيين واجترأ الفرنج بعدها وانبسطوا فى تلك الولاية وجبروا الكسر الذى ناله منهم ابن المقدم

(ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده الى طاعته)

فى هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن بزان صاحب شهرزور على سيف الدين غازى وكان فى

طاعته

يعزيه عن أبيه وقد ثار عوام الناس لطاعته حتى اذا قرب منه برز اليه صمصام الدولة بغير سيف ورسم الطاعة وحق الخلافة وقال له الطائع لله نصر الله وحسن الماضى وملك الخلف الباقى وصبرا لتعزيه بعده لك لابل واتلف عاسك لاسنك فأذرى على خديه دموع عينيه وبادر الى الصمد شكر المامن الله به عليه ثم انتصب منصب أبيه فأجرى الامور على استقامة وتدبرها بسياسة عامة وكان أخوه الأكبر أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة غائبا الى مدينة واشير من أرض كرمان فلما بلغه نعى أبيه كر راجعا الى فارس وقبض بها على نصر ابن هرون النصرانى فاستوفى عليه حواصل أموالها وبقايا اعمالها وامتد الى الاهواز فملكها على اخيه ابى الحسين احمد ابن عضد الدولة وغلب على البصرة معها وذلك فى رجب سنة خمس وسبعين وثلثمائة ثم استعد لقصد بغداد طلبا لمكانة ابيه واستضافة لما فى يد اخيه الى سائر ما يليه حتى اذا وافاها تلقاه صمصام الدولة بما اوجبه حق سنه عليه اجلالا ومهابة ومداراة

بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل اليه فقتل الفرنجى بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف ليلحقه العسكر الى ان دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى فى نفر يسير الى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذى كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فان اكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير وكان من جملة من اسر الفقيه عيسى الهكارى وهو من اعيان الاسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة واسر ايضا اخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من اصحابهما وبقوا سنين فى الاسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين الف دينار وجماعة كثيرة من الاسرى ووصل صلاح الدين الى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتابا كتبه صلاح الدين بخط يده الى اخيه شمس الدولة توران شاه وهو بدمشق يذكر الوقعة وفى أوله

ذكرتك والخطى يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما انجانا الله سبحانه منه الا لامر يريده سبحانه

* وماثبتت الا وفى نفسها أمر *

(ذكر حصر الفرنج مدينة حماة)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة وسبب ذلك انه وصل من البحر الى الساحل الشامى كند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزما فاغتنم خلو البلاد لان شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر وكان أيضا كثير الانهماك فى اللذات مائلا الى الراحات فجمع ذلك الكند الفرنجى من بالشام من الفرنج وفرق فيهم الاموال وساروا الى مدينة حماة فحصروها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا اليها واعانوا من بها وقاتل الفرنج على البلد قتالا شديدا وهجموا بعض الايام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهرا وقسرا فاجتمع أهل البلد مع العسكر الى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقتل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد الى ظاهره ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهارا وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم فساروا الى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمى وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام

(ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم)

فى هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشتكين وكان المتولى لامر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه انه كان بحلب انسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجمى وكان مقدما عند نور الدين محمود فلما مات نور الدين تقدم أيضا فى دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة اتباعه بحلب وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضم الى

فقلبوه * ووصلوا اليه فقتلوه وحمل غلام منهم رأسه الى بهاء الدولة فاستمض للرسم الدائمه * واللحمة الحانيه * من تشبهه على ملاقاته * فأمر بالغلام فسلخ جلده من قرنه الى قدمه * عبرة لمن اقدم على ملك بسفك دمه * وبعث بعميد الجيوش الملقب بالصاحب الى بغداد لمراعاة تلك الاعمال * واستيفاء حقوق بيت المال * فاستقامت سيرته * وصدقت فى العدل بصيرته * وعم رفقه حجيج بيت الله الحرام * بالمنائح العظام * فانطلقت بشكره السنة الخاص والعام * من الناس الى ان قبضه الله اليه فسد مكانه بوزير الوزراء زيادة فى النظر للرعية فأربى على عميد الجيوش فى الاحسان الى الكافة اصلاحا لهم ورفقا بهم وطرحا عنهم وصفت نواحى فارس وكرمان لبهاء الدولة مضافة الى سائر أعماله وقعدت الفتن القائمة من سوقها فى زمانه فعم الامن والسكون * وشمل الرفق والهدون * واستراح عباد الله مما كان يشدههم من وطأة الجيوش ويلحقهم من معرة اختلاف السيوف وقد كان أبو على بن الياس ملك كرمان أيام عضد الدولة لآل سامان وأقام بها مدة

(ذكر نهب البندنيجين)

في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شملة وهو ابن ملكشاه بن محمود الى البندنيجين فخربها ونهبها وقتل في الناس وسبى حريمهم وفعل كل قبيح ووصل الخبر الى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاشتكين امير الحاج وغيره على وساروا نحو العدو فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد وكان معه من التركمان جمع كثير فنهبوهم عسكر بغداد ورجعوا من غير أمر بالعودة فأنكر عليهم ذلك وأمروا بالعود الى مواقفهم فعادوا لاوائل شهر رمضان وقد رجع الملك فنهب من البندنيجين ما كان سلم في الاول ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثم افترقوا ومضى الملك وفارق ولاية العراق

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى أقيمت الصلاة في الجامع الذي بناه فخر الدولة ابن المطلب بقصر المأمون غربي بغداد وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي رضي الله عنه بمصر وعمل بالقاهرة بيمارستان ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ورأسين ورقبتين وظهرين وثماني قوائم كأنهما خروفان ببطن واحد وجه احدهما الى وجه الآخر وهذا من العجائب وفيها انقض كوكب اضاءت له الارض اضاءة كثيرة وسمع له صوت عظيم وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب وفيها توفي تاج الدين أبو علي الحسن بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة وفيها في المحرم توفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري قاضي دمشق وجميع الشام واليه الوقوف بها والديوان وكان جوادا فاضلا رئيسا ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول رحمه الله ورضي عنه

(ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة)

في هذه السنة في جمادى الاولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر الى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج وجمع معه عساكره وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى عسقلان في الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا واحرقوا وتفرقوا في تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا ان الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساروا في الارض آمنين ووصل صلاح الدين الى الرملة عازما على ان يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم الا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وابطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لان أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه محمد بن أخي صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه فقتل من اصحابه جماعة وكذلك من الفرنج وكان لتقي الدين ولد اسمه احمد وهو من احسن الشباب اول ما تكاملت لحيته فأمره ابوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالما قد أثر فيهم اثرا كثيرا فأمره بالعودة اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا رحمه الله ورضي عنه وكان اشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل

بعض

صاغرين * ثامرين * فركب بهاء الدولة * وضياء الملة * لقتال صمصام الدولة * فتناوشا الحرب وصالا كعوب الرماح * ما بين المساء والصباح * حتى خربت البصرة وتلاها في الخراب اكثر كور الاهواز وقد كان اولاد بختيار محتجبين فاستنزلهم طائفة من الاكراد الخسروية عن معاقلهم موججين من نار الفتنة باستنزالهم * وفك عقالهم * فناصبهم الحرب مستكفا شرهم * ومستدفعا بأسهم وضرهم * فاختلفت بهم الوقائع بين تلك الفتن الثائرة * والاحن الفائرة * فكانت عقباها ان اجلت عنه قتيلا وتذمر بهاء الدولة للحادثة عليه فارصد الجناة بطائلته حتى شردهم كل مشرد * وطردهم كل مطرد * وزعيمهم يومئذ سالار بن بختيار الملقب بنور الدولة وكان من امره انه انتبذ عنهم امدحورا مثبورا * فاضطرته الحال الى شفار الصفار في تجاراتهم * واجازتهم على مراصد القطاع بضاعاتهم * على ترح يستعين به من جهتهم على مؤن معاشه * ورياشه * واتبعه بهاء الدولة * جيشا واقفوه * بوشهر

دار المقتفي لامر الله فلما مات ولي هو مكانه فبقي كذلك الى ان مات المقتفي فاقره المستنجد
على ذلك ورفع قدره فلما ولي المستضيء استوزره وكان حافظا للقرآن سمع الحديث وله معروف
كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج وفيها كانت فتنة
ببغداد وسببها انه حضر قوم من مسلمي المدائن الى بغداد فشكوا من يهودها وقالوا ان لنا مسجدا
نؤذن فيه ونصلي وهو مجاور الكنيسة فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بكثرة الاذان فقال المؤذن
ما نبالي بذلك فاختصموا وكانت فتنة استظهر فيها اليهود فجاء المسلمون يشكون منهم فأمر ابن
العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة
الجمعة فخفف الخطيب الخطبة والصلاة فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم فلما
رأى العامة ما فعل بهم غضبوا لنصرة الاسلام فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقلعوا طوابيق
الجامع ورجموا الجند فهربوا ثم قصد العامة دكاكين المخلطين لان أكثرهم يهود فنهبوها
وأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم وانقلب البلد وخربوا الكنيسة التي عند دار
البساسيري وأحرقوا التوراة وأمر الخليفة ان تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجدا
ونصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين فظنها العامة نصبت تخويفا لهم لاجل
ما فعلوا فعلقوا عليها في الليل جرذانا ميتة وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها وفيها
في شعبان قبض سيف الدين غازي صاحب الموصل على وزيره جلال الدين على بن جمال الدين
لغير جرم ولا عجز ولا تقصير بل لعجز سيف الدين فان جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين
قايماز مشاحنة فقال مجاهد الدين لسيف الدين لا بد من قبض الوزير فقبض عليه كارها لذلك ثم
شفع فيه ابن نيسان صاحب آمد لانه صهره بينهما فأخرج وسار الى آمد فمرض بها وعاد الى دنيسر فمات
سنة خمس وسبعين وعمره سبع وعشرون سنة وحمل الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فدفن
عند والده في الرباط الذي بناه بها وكان رحمه الله من محاسن الدنيا جمع كرما وعلما ودينا وعفة
وحسن سيرة واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضي الى صلاح الدين لانه خاف ان يمضي اليه للمودة
التي كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب واسد الدين شيركوه فبلغني ان صلاح الدين
طلبه فلم يقصده لليمين وفيها اجتمع الفرنج طائفة منهم وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا
وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم ووقف على طريقهم
وكمن لهم فلما وصلوا اليه خرج اليهم هو والكمين ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسر
جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ما غنموا وفرقه
على أصحابه وفيها في ربيع الآخر توفي صدقة بن الحسين الحداد الذي ذيل تاريخ ابن الزاغوني
ببغداد وفيها في جمادى الاولى توفي محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفي المعروف بالمشطب
ببغداد

❊ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة❊

❊(ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا)❊

في هذه السنة في ربيع الاول سار جمع كثير من الفرنج بالشام الى مدينة حماة وكثر جمعهم من
الفرسان والرجالة طمعا في النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا

وأقام ثقته بشر بن
المهدي وترمش الحاجب
على خدمة اليسع وكفالة
أمره اذ كانت حداثته
تقتضي استقلال مثلهما
في دعائم وقرار أمرها في
حضانة أموره وتيسير
الرشد في وجوه تدابيره ولما
وصل أبو على الى بخارا بولغ
في تعهده واكرام مورده
واحلاله من الايثار
والاكبار محل مثله الى أن
توفي بها في شوال سنة ست
وخمسين وثلثمائة فاما اليسع
فانه ولي كرمان يحمي
أطرافها ويجبي أموالها
وكان أخوه سليمان مقيما
بسيرجان والياً عليها فأغراه
بشر بن المهدي به وأشار
عليه بمعاجلته قبل انتظام
شمله واستقرار حبله فكتب
اليه يستدعيه انهم لا يستغني
عن مناوضته به فامتنع
عن الاجابة بمال اخترعها
ومعاذير تمحلها وضاق
اليسع ذرعا ولم يجد من
مناجزته بدا فنهض اليه
محاربا حتى هزمه وغنم ماله
فوقع سليمان الى بخارا
وأطمع اليسع نزق شبابه
في مغالبة عضد الدولة أبي
شجاع على بعض حدود
عمله فكان مثله مثل العير
طالب قرنين فضيع الاذنين

صالح وتقووا جنانه وكثروا سواده وكان عنده اقدام وجراءة فصار واحد الدولة بحلب ومن يصدر بالجماعة عن رأيه وأمره فبينما هو في بعض الايام في الجامع وثب به الباطنية فقتلوه ومضى شهيدا وتمكن بعده سعد الدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه الى العجز وانه ليس له حكم وان سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره وابن الوايه حتى قبض عليه وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد اقطعه اياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا فيها فسير سعد الدين اليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها الى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات في العذاب وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان فلما رأى الفرنج ذلك ساروا الى حارم من حماة في جمادى الاولى على ما نذكره ظنا منهم انهم لا ناصر لهم وان الملك الصالح صبي قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها المجانيق والسلالم فلم يزالوا كذلك الى ان بذل لهم الملك الصالح مالا وقال لهم ان صلاح الدين واصل الى الشام وربما يسلم القلعة من بها اليه فأجابوا حينئذ الى الرحيل عنها فلما رحلوا عنها سير اليها الملك الصالح جيشا فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا كانهم طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير فسلموا القلعة الى الملك الصالح فاستناب بها مملوكا كان لابيه اسمه سرخك

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في المحرم خطب للسلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم عند ايلدكز بهمذان وكان أبوه ارسلان قد توفي وفيها سابع شوال هبت ببغداد ريح عظيمة فزلزلت الارض واشتد الامر على الناس حتى ظنوا ان القيامة قد قامت فبقي ذلك ساعة ثم انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة وفيها رابع ذي القعدة قتل عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبي القسم بن المسلمة وزير الخليفة وكان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير وعبر معه أرباب المناصب وهو في موكب عظيم وتقدم الى أصحابه ان لا يمنعوا عنه أحدا فلما وصل الى باب قطيعة القمح كهل فقال انا مظلوم وتقدم ليسمع الوزير كلامه فضربه بسكين في خاصرته فصاح الوزير قتلني ووقع من الدابة وسقطت عمامته فغطى رأسه بكمه وضرب الباطني بسيف وعاد الى الوزير فضربه واقبل حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير فضربه الباطني بسكين وقيل بل ضربه رفيق كان للباطني ثم قتل الباطني ورفيقه وكان لهما رفيق ثالث فصاح وبيده سكين فقتل ولم يعمل شيأ وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير الى دار له هناك وحمل حاجب الباب مجروحا الى بيته فمات هو والوزير وحمل الوزير فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور وكان الوزير قد رأى في المنام انه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه ولده انه اغتسل قبل خروجه وقال هذا غسل الاسلام وأنا مقتول بلا شك وكان مولده في جمادى الاولى سنة اربع عشرة وخمسمائة وكان ابوه استاذ

من الزمان لا ينازعه فيها منازع * ولا يدافعه عنها مدافع * وكان حبس ابنه اليسع في بعض قلاع كرمان اشفاقا من معرته للوثة رآها في رأيه * واضطراب تبينه في وجوه شماله وأفعاله * ولهما عنه مدة * وهو يكابد منه بأسا وضرا وشدة * فاتفق أن أشرف سريه من نساء أبيه وجواريه عليه فرثين له لضيق مكانه ودبرن في وجه خلاصه وعمدن الى خمرهن فوصلن بعضها ببعض وخاصمنه بها حسن معتقله * واسامع أهل العسكر بخلاصه وانحلال عقاله * فتجمعوا عليه وانقطعوا بجملتهم اليه ممالأة له على أبيه بطفوات نقموها منه و بلغ أباه على خبر الحادثة فأرسل الى ذوى التحزب والتألب باعثا عاد عادهم اليه فأظهروا الضجر بمكانه * والتبرم بطول زمانه * وساموه مفارقة كرمان ليستقر الامر على ابنه اليسع بطاعتهم له وتوخيهم موافقته فعرك أبو علي قواهم بجنب المداراة والاحتمال * في عاجل الحال * ثم جمع ما قدر عليه من صنوف الاموال وكر عائدا الى بخارا مخليا بين اليسع وبين تلك الولاية

الباقى ومشى واشتد المطر ودام المطر من ثلاث الليلة

(ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين)

فى هذه السنة فى ذى القعدة اجتمع الفرنج وساروا الى بلد دمشق مع ملكهم فاغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فارسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه فى جمع من العسكر اليهم وأمره انه اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح طائر ليسير اليه وتقدم اليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدى الفرنج فسار فرخشاه فى عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والفرنج قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها الى سواه فانهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفرى وما أدراك ما هنفرى كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فاراح الله من شره وقتل غيره من اضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس وفيها أيضا أغار البرنس صاحب انطاكية ولاذقية على شيزر المسلمين بشيزر وأخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فأخذ أموالهم وكان صلاح الدين على بانياس على ما نذكره ان شاء الله فسير ولد أخيه تقى الدين عمر الى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو دمرهم الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر جميعه وثلث الليل الاخير وغاب منكسفا وفيها أيضا فى التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة وفى هذه السنة فى شعبان توفى الحيص بيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء والسلاطين والأكابر وشعره مشهور فمنه قوله

كلما أوسعت حلمى جاهلا * اوسع الفحش لسفه المقال

واذا شاردة فهت بها * سبقت مر النعامى والشمال

لا تأنى فى شقائى بالعلا * رغد العيش لربات الحجال

سيف عز زانه رونقه * فهو بالطبع غنى عن صقال

وفى المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر الابرى وسمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت حتى قاربت مائة سنة وسمع عليها الخلق الكثير الحديث لعلو اسنادها

(ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة)

(ذكر تخريب الحصن الذى بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان)

كان الفرنج قد بنوا حصنا منيعا يقارب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الاحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار الى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود اليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبى الميرة فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار فى العساكر مجدا حتى

على شئ دون الانفاذ فى السير وطى بساط الارض بجواد التعجيل فلما اتصل خبره به شد الدولة بادر على اثره الى واشعر فلكها واستصفى أموال آل الياس بها ثم استخلف عليها كوركير بن جستان ورجع الى فارس ولما ورد البسع ناحية خوس من حدود قهستان خاف اثقاله وخلاله بها وركب الحازات هو بحار الاستنجاد وطلب الامداد فلما وافاه قرب محله وروى له حقه واستضمر مجلس الانس تحسبا بجريه الاكرام والاثرة فلما قدر عليه سلطان الراجح لم يتمالك ان قال مستنبطا الوجرف قعود الامير آل سامان عن اغاثة الراجين لها والاجبين اليها اطلبت غيرهذه الحضرة ملاذا ومعتصما فخشن من هذا المقال منه وأمر به فنفى الى خوارزم وبلغ ابا على بن سيمجور ساله ومقاله فبعث الى خوس من قبض على غلمانه وأمواله فقادهم واياها اليه عنه خالصة من ايدى الاعتراض والاشتراك وأصاب البسع بخوارزم رمد أقلقه وأكمده واستنفد وسعه وجلده وجعل الضجر بالالم على ان فقأ عينه الرمدة بيده فسالت

وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا اليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والاسر فيهم واستردوا ما غنموه من السواد وكان صلاح الدين قد عاد من مصر الى الشام فى شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليه فأمر بقتل الاسرى فقتلوا

(ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه)

فى هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبك وكانت له قد سلمها اليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له حيث سلم اليه ابن المقدم دمشق على ما سبق ذكره فلم تزل بيده الى الآن فطلب شمس الدولة محمد بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه فى طلبها لانه تربيته ومنشاه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الاكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها الى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب الى ذلك وذكره العهود التى له وما اعتمده معه من تسليم البلاد اليه فلم يصغ اليه وألح فى أخذها وسار ابن المقدم اليها واعتصم بها فوجه اليه صلاح الدين عسكرا وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها وترك عليه عسكرا يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل الى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها اليه فعوضه عنها وسلمها فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة

(ذكر الغلاء والوباء العام)

فى هذه السنة انقطعت الامطار بالكلية فى سائر البلاد الشامية والجزيرة والعراقية والديار البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاما فى سائر البلاد فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق وهى أربعة عشر مكوكا بالموصلى بعشرين دينارا صوريه عتق وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكى بدينار أميرى وفى سائر البلاد ما يناسب ذلك واستسقى الناس فى أقطار الارض فلم يسقوا وتعذرت الاقوات وأكلت الناس الميتة وما ناسبها ودام كذلك الى آخر سنة خمس وسبعين ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضا كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيأ واحدا وهو السرسام وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى الا أن بعض البلاد كان أشد من البعض ثم ان الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الامطار وأرخص الاسعار ومن عجيب ما رأيت انى قصدت رجلا من العلماء الصالحين بالجزيرة لاسمع عليه شيأ من حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس فى أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الامطار وقد توسط الربيع ولم تجئ قطرة واحدة من المطر فبينا انا جالس ومعى جماعة ننتظر الشيخ واذ قد أقبل انسان تركمانى قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكى الجوع فأرسلت من يشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه وهو يبكى ويتمرغ على الارض ويشكو الجوع فلم يبق فينا الا من بكى رحمة له وللناس فتغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز فأكل التركمانى بعضه وأخذ

وذلك انه لما بلغ مفرق الطريقين كرمان وفارس أتاه صاحب طليعته بطائفة من المستأمنة من عسكر عضد الدولة * فأحسن اليهم * وصب الخلع عليهم * ثم هرب نفر منهم راجعين وراءهم فارتاب الجميع برفقائهم وظن ان وراء استئمانهم حيلة أو غيلة فأوقع بهم تنكيلا * وعمهم بالعقاب قطعا وقتلا واستأمن عنه الى عضد الدولة جملة من رجاله فحملهم وحباهم * ووصلهم ومناهم * فلما رأى أصحابه تباعد ما بين الامرين تألبوا عليه وتمروا له وتحزبوا عنه وتسلل من جملتهم صفقة واحدة ألف رجل من وجوه الديلم الى معسكر عضد الدولة وهو بناحية اصطخر وفشا الطرب بين الآخرين فجعلوا يتسللون لواذا ويتفرقون جميعا وأشتاتا حتى انفض عنه عامة عسكره وبقى فى خاصة غلمانه وحاشيته فاضطر الى معاودة وانثور وأسرع منها بعياله وبما خف عليه حمله من أثقاله وأمواله نحو بخارا الايلاى

وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي

أتسكن أوطان النبيين عصبة * تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب * ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

(ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج ارسلان)

في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن ايوب ومقدمهم ابن اخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب وبين عسكر الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب بلاد قونية واقصرا وسببها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر رحمه الله كان قد اخذ قلعة رعبان من قلج ارسلان وكان بيد شمس الدين بن المقدم الى الآن فطمع فيه قلج ارسلان بسبب أن الملك الصالح بجانب بينه وبين صلاح الدين فارسل اليه من يحصره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين الفا فارسل اليهم صلاح الدين تقي الدين في الف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد الى صلاح الدين ولم يحضر معه تقريب من الاحزان فكان يفتخر ويقول هزمت بالف مقاتل عشرين الفا

(ذكر وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله)

في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الامام المستضيء بامر الله امير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه ام ولد ارمنية تدعى غضة وكانت خلافته تسع سنين وسبعة اشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ في اخذ ما جرت العادة باخذه وكان الناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا رضي الله عنه فلقد كانت ايامه كما قيل

كأن ايامه من حسن سيرته * مواسم الحج والاعياد والجمع

ووزراؤه عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء الى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكنا كثيرا فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله امير المؤمنين فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة استاذ الدار مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ووكل عليه في داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطولب بودائعه وأمواله وفي ليلة الاربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتا على رأس حمال سرا فغمز به بعض الناس فثار به العامة فالقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعني انها قلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون وقع لنا يا مولانا الى غير هذا من الافعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم واعراضهم وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همذان وأصفهان والري وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له في القول حتى انه قال لعسكره في حضرته ما لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع امير المؤمنين

والداني قاصيه وشمل الحاضر والبادي والطارف والتالد نفعه وعائدته

(ذكر وقعة نارايين)*

ونشط السلطان يمين الدولة وأمين الملة في سنة أربعمائة للغزوة في ديار الهند يشكو بها فرح نكاياته فيها تقربا الى الله تعالى واحتسابا للمثوبة من عنده فمضى نحوها يحث الخيول * ويخترق الحزون والسهول * الى أن توسط ديار الهند فاستباحها * وأذل اقاحها * ونكس أصنامها * وعرض على السيوف اغتامها * وسار على هيئته نحو مقصده وأوقع بعظيم الملوك وقعة أفاء الله بها عليه أمواله * واغتنم شيوله وأفياله * وحكم فيهم سيوف أوليائه يحصدونهم بها بين كل حدب وفدفد * ويجزرونهم عند كل مهبط ومصعد * ورجع بهم الى غزنة فباتوا من تلك الغنائم الموفورة بالاعدا غانما واقرا * ظافرا * ولما رأى ملك الهند ما صبه الله عليه وعلى أهل مملكته من سوط العذاب بوقائع السلطان يمين الدولة وأمين الملة فيهم * ونكاياته في قاصيهم ودانيهم * وأيقن انه لا قبل له بثقل وطأته وخشونة جانبه ارسل اليه اعيان اقاربه وقرابته صائرا الى هدنة يقتضيها

واقاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم
عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا
ملكهم فريدا وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا
بعد الملك وأسروا أيضا أخا صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية
وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم فاما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة
الف وخمسين الف دينار صورية واطلاق ألف اسير من المسلمين وكان أكثر العمل في هذا اليوم
لعز الدين فرخشاه ابن اخي صلاح الدين وحكي عنه قال ذكرت في تلك الحال بيت المتنبي وهما

فان تكن الدولات قسما فانها * لمن يرد الموت الزؤام تؤول

ومن هونت الدنيا على النفس ساعة * وللبيض في هام الكماة صليل

فهان الموت في عيني فالقيت نفسي اليه وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين الى بانياس
من موضع المعركة وتجهز للدخول الى ذلك الحصن ومحاصرته فسار اليه في ربيع الاول وأحاط
به وقوي طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه وبث العساكر في بلد الفرنج للاغارة ففعلوا ذلك
وجمعوا من الاخشاب والزرجون شيئا كثيرا ليعملوه متارس للمنجنيقات فقال له جاولي
الاسدي وهو مقدم الاسدية ومن أكابر الامراء الرأي اننا نجربهم بالزحف اول مرة ونذوق
قتال من به وننظر الحال معهم فان استضعفناهم والا فنصب المنجنيقات ما يفوت فقبل رأيه
وأمر فنودي بالزحف اليه والجد في قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم الامر فصعد انسان من
العامة بقميص خلق في باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من اضرابه ولحق
بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها الى اسوار الحصن ليحموا نفوسهم
وحصنهم الى أن يأتيهم المدد وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية فقاتل المسلمون في قتال الحصن
خوفا من وصول الفرنج اليهم وازاحتهم عنه وأدركهم الليل فامر صلاح الدين بالمبيت
بالباشورة الى الغد ففعلوا فلما كان الغد اصبحوا ونقبوا الحصن وعمقوا النقب واشعلوا النيران
فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فانه كان تسعة اذرع بالنجاري يكون الذراع ذراعا
ونصفا فانتظروه يومين فلم يسقط فامر صلاح الدين باطفاء النار التي في النقب فحمل الماء والقي
عليها فطفئت وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست
بقين من ربيع الاول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه واطلقوا من كان به من
اسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وادخل الباقين الى دمشق فسجنوا
وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره والحقه بالارض وكان قد بذل للفرنج
ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظنا منهم انه اذا بقي بناؤه تحكموا به من
كثير من بلاد الاسلام وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه
فت في اعضادهم فتفرقوا الى بلادهم وأكثر الشعراء فيه فمن ذلك قول صديقنا النشو بن
نقادة رحمه الله

هلاك الفرنج اتى عاجلا * وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفها * لما عمرت بيت احزانها

على شده * وكان ذلك سبب
هلاكه وحينه ولم يظهر من
الايلياسية بعد وذكرمان
أسد بعده * وازداد باع عضد
الدولة طولا * وعزه وارتفاعا
وعلولا * الى أن ورثه بهاء
الدولة وضياء الملة فاجرى
امورها بتدبيرها المونقة
في حفظ الاطراف * وبسط
العدل والانصاف * واما
ملك السلطان يمين الدولة
وامين الملة خراسان * على
آل سامان * وفتح سجستان *
ووصل بين ولايته وبين تلك
الديار * ذمار الجوار *
فاتحفه بهاء الدولة وضياء
الملة بكتبه * خاطبا المكرمة
وده عن صداق قلبه
المعمور بولائه * المقصور
على طلب مرضاته * ووصل
ذلك بهدايا ومبار لاقت
بحسب صدره * وعلو همته
وقدره * فاجابه السلطان
يمين الدولة وامين الملة الى
ما خطبه * وأوجب له مثل
ما أوجبه * واتحفه بعارض
الوداد * وأكد الاعتضاد *
وقضى حق المكافأة وزاد *
وتشوفت الحال بينهما
الى زيادة عصمة تتجدد بها
البيوت والمرائع وتشترك
فيها الاقارب والاباعد
فسعت مشايخ الدولتين في
تشييد اللحمة * وتوشيح
أسباب القربة * الى ان اتاح
الله من ذلك ما عم القاصي

الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا اماكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا ما بها من خمور وكسروا الظروف وعملوا ما لا يحل فاستغاث اصحاب الدور الى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن فى الذى فعله العامة من النهب وما لا يجوز فعله انما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذى يفعلونه فلم يسمعوا منه فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فارادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا غطيت رأسى حتى ينتقم الله لى ممن ظلمنى فلم يمض غير أيام حتى توفى الزردار الذى تولى اذاه ثم تبعه مرض سيف الدين واستمر الى ان مات وعمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة ابيض اللون وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات اذا ركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه ما ينافى العفة وكان غيورا شديد الغيرة لا يدخل دوره غير الخدم الصغار فاذا كبر أحدهم منعه وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الاموال على شح فيه وجبن ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة فخاف على الدولة من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى امره وامتنع اخوه عز الدين مسعود بن مودود من الاذعان لذلك والاجابة اليه فأشار الامراء الاكابر ومجاهد الدين قايماز بان يجعل الملك بعده فى عز الدين اخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وان يعطى ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما الى عز الدين عمهما والمتولى لامرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل الملك فى أخيه واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد اخوه عز الدين وكان المدبر للدولة مجاهد الدين وهو الحاكم فى الجميع واستقرت الامور ولم يختلف اثنان

(ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج ارسلان)

فى هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام الى بلاد قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهى ملطية وسيواس وما بينهما وقونية لمحاربته وسبب ذلك ان نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلج ارسلان المذكور وبقيت عنده مدة ثم انه أحب مغنية فتزوجها ومال اليها وحكمت فى بلاده وخزائنه واعرض عن ابنة قلج ارسلان وتركها نسيا منسيا فبلغ اباها الخبر فعزم على قصد نور الدين واخذ بلاده فأرسل نور الدين الى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلج ارسلان عنه فارسل صلاح الدين الى قلج ارسلان فى المعنى فاعاد الجواب انى كنت قد سلمت الى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتى فحيث آل الامر معه الى ما يعلمه فانا اريد ان يعيد الى ما أخذه منى وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيما قصداه فهادن صلاح الدين الفرنج وسار فى عساكره وكان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود بحلب فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر الى رعبان فاتاه بها نور الدين محمد واقام عنده فلما سمع قلج ارسلان بقربه منه ارسل اليه اكبر امير عنده وبقول له ان هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل الرسول واجتمع

الغوزية وأهلها وقدمهم
على مظالمهم من سلبة الدين
وثمة الاسلام وحصولهم
فى القلة من حين سورته
والمركز من دائرة مملكته
وتأذى المارة والسابلة
بعيث ارصادهم وعيث
قطاعهم وافسادهم
لاستطالتهم بمناعة جبالهم
الشواهق وجبال
مسالكهم المتضايق فأنفت
الدولة القاهرة من أن يحليها
على عاتق أقفالها وشدة
رتاجها فصمم العزم على
تدويخ ديارهم وتذليل
رقابهم وانتزاع نعرة
الاستطالة من رؤسهم
واستئصال حرة العصيان
من صدورهم واجلب
عليهم بخيله ورجله مولا
صلى صنع الله ونصله
وقدم امامه والى هراة
التونتاش الحاجب ووالى
طوس ارسلان الجاذب
فسارا مقتحمين فى مضايق
تلك المسالك الى أن أفضى
بهما الدؤوب الى مضيق قد
غص بحماة الغورية من
اقتلاعم القرى الناصية
والجبال المتناوحة فتناوشوا
الحرب تارة شابكت فيه
العوامل الا الصوارم
فى الجماجم والاناب فى
المناحر ونصابر الفريقان
على مر المكروهة حتى
سالت النفوس وطارت من

بل يجب عليكم أن تجاهدوه من الامارة وتقاتلوه فاضطر الى البيعة والخطبة وأرسل رضى الدين القزويني مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله في السنة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر الى أن مضى من الليل ربعه وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الانسان يبصر صاحبه وكنت حينئذ بالموصل فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار وظنوا ان القيامة قد قامت فلما مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام والعتمة التي غطت السماء فنظرنا فرأينا النجوم فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لان الظلام لم يزد بدخول الليل وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك وفيها في ذي القعدة نزل شمس الدولة اخو صلاح الدين عن بعلبك وطلب عوضا عنها الاسكندرية فاجابه صلاح الدين الى ذلك واقطع بعلبك عز الدين فرخشاه ابن اخيه فسار اليها وجمع اصحابه واغار على بلاد الفرنج حتى وصل الى قلعة صفد وهي مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم وخرب وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة وأما شمس الدولة فانه سار الى مصر وأقام بالاسكندرية واذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له اليها حاجة فانه أقام بها الى أن مات بها وفيها قارب الجامع الذى بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من احسن الجوامع وفيها توفي أحمد بن عبد الرحمن الصوفي شيخ رباط الزوزني وسمع الحديث وكان يصوم الدهر وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه وهو من بيت الحديث والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي سمع الحديث ورواه وولي قضاء الحريم وعلي بن احمد اليزيدي سمع الحديث الكثير وله وقف كتب كثيرة ببغداد وكان زاهدا خيرا صالحا ومحمد بن علي حمزة بن علي الاقساسي نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيرا

رب قوم في خلائقهم * عرر قد صيروا غررا
ستر المال القبيح لهم * سترى ان زال ما سترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الانباري كاتب الانشاء بعد أبيه وابو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغاني الفقيه كان مناظرا حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبي حنيفة

(ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية اخيه عز الدين بعده)

في هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه في آخره برسام ومات ومن عجيب ما يحكى ان الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين في موكبه فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فاجابهم

عند أمره * ويشيع عماله ووفره * ويتحرد أوقات دعائه اياه لنصره * على أن يقود اليه بادي الامر خمسين فيلا يعد آحادها باضعافها ثقل اجسام * وشدة اقدام * ويحمل معها ما لا عظيم الخطر * كثير القدر * مما يضاهيه من عبار * تلك الديار * ومتاع * تلك البقاع * وعلى أن يناوب كل عام باب الشاه عسكره في خدمة بابه بألفي رجل بادين * وعائدين * الى اتاوة معلومة يلتزمها كل سنة سنة يتمسك بها من يرث مكانه * ويقوم في كفالة الملك مقامه * وأوجب السلطان اجابته الى ما التمسه لعز الاسلام ببذل طاعته واعطائه الجزية عن يده وبعث اليه من طالبه بتصحيح المال * وقود الافيال * فتنقد * ما وعد * وقدم الوفاء بما شرط وبعث بمن ضمن تجهيزهم الى بابه من خواص رجاله على جملة الخدمة واقامة رسم الطاعة فانعقدت تلك الهدنة ودرت تلك الاتاوة وتتابعت القوافل بين ديار خراسان * وبلاد الهند في ضمان الامان * وجوار الحيطة والاحسان

(ذكر غزوة غور)

اتفق للسلطان يمين الدولة وأمين الملة مكر في جبال

وانقياد العرب اليهم طمع ايضا فى الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان فى طاعته ظاهرا فاظهر ما فى نفسه وخالفه واظهر العصيان ووافقه اهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين اصحاب ابى يعقوب وكان ذلك فى شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فارسل والى بجاية الى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب امور البلاد واجتماع كثير من العرب الى قراقوش التركى الذى دخل الى افريقية وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى فى قفصة من قتل الموحدين ومساعدة اهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع فى سد الثغور التى يخافها بعد مسيره فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار الى افريقية سنة خمس وسبعين ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة اشهر وهى بلد حصينة واهلها انجاد وقطع شجرها فلما اشتد الامر على صاحبها واهلها خرج منها مستخفيا لم يشعر به احد من اهل قفصة ولا من عسكره وسار الى خيمة يوسف وعرف حاجبه انه قد حضر الى امير المؤمنين يوسف فدخل الحاجب واعلم يوسف بوصول صاحب قفصة الى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد وامر بادخاله عليه فدخل وقبل يده وقال قد حضرت أطلب عفو امير المؤمنين عنى وعن اهل بلدى وان يفعل ما هو اهله واعتذر فرق له يوسف فعفا عنه وعن اهل البلد وتسلم المدينة اول سنة ست وسبعين وسير على بن المعز صاحبها الى بلاد المغرب فكان فيها مكرما عزيزا واقطعه ولاية كبيرة ورتب يوسف لقفصة طائفة من اصحابه الموحدين وحضر مسعود بن زمام امير العرب عند يوسف ايضا فعفا عنه وسيره الى مراكش وسار يوسف الى المهدية فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنين وكانت بلاد افريقية مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب فسار الى المغرب مسرعا والله اعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شمس الدولة توران شاه بن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية وكان قد اخذها من أخيه اقطاعا فاقام بها فتوفى وكان له أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل وكان أجود الناس واسخاهم كفا يخرج كل ما يحمل اليه من أموال اليمن ودخل الاسكندرية ومكمه فى بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله فافذ ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دين فوفاها اخوه صلاح الدين عنه لما دخل الى مصر فانه لما بلغه خبر وفاته سار الى مصر فى شعبان من السنة واستخلف بالشأم عز الدين فرخشاه ابن اخيه شاهنشاه وكان عاقلا حازما شجاعا وفيها توفى ابو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الاصفهانى بالاسكندرية وكان حافظ الحديث وعالما به سافر فى طلب الكثير وتوفى ايضا فى المحرم على بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللغوى ببغداد وسمع الحديث وكان من اصحاب ابن الجواليق

(ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر غزاة الى بلد الكرك من الشام)

فى هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الى أعمال الكرك ونهبها وسبب ذلك ان البرنس ارناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين

فاغتروا بخدعة الانقلاب واقتصروا عن مواقفهم الى فسحة الفضاء لاغتنام فرصة الانهزام فكرت عليهم الخيول بضربات غنيت بدواتها عن اشواتها * فلم ترتفع منها راسه الاعن دماغ منثور ونياط مبتور * وسرع فى تلك المعركة الواسعة رجال كهشيم المحتظر * واعجاز نخل منقعر * وملك الامر عظيمهم المعروف بابن سورى باقربيه وذويه * وسائر حواشيه * وافاء الله على السلطان ما اشتمل عليه مصاره من ذخائر الاموال والاسلحة التى اقتناها كابرا عن كابر * وتوارثها كافر عن كافر * وأمر السلطان باقامة شعائر الاسلام فيما افتتحه من تلك القلاع والرباع فاصبحت بذكره مناير ها * واشرقت فى عز دعوته باديها وحاضرها * ورجع بعد ذلك عن وجهه على جناح اليمن والنجاح * والظفر المتاح * وحين راى ابن سورى حصوله فى ذل اساره * واستباحة السلطان ودائع حصاره * تجرع سمامه * واستراح الى بردوفاته * فاستخلص ما كان أودعه فص خاتمه لفساد الوقت بنفسه خسر الدنيا والاخرة ذلك هو

بصلاح الدين وادى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول قل له اما سبك والله
الذى لا اله الا هو لئن لم يرجع لاسيرن الى ملطية وبينى وبينها يومان ولا انزل عن فرسي الا في البلد
ثم اقصد جميع بلاده واخذها منه فرأى الرسول امرا شديدا فقام من عنده وكان قد رأى
العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه
فعلم انه ان قصدهم اخذ بلادهم فارسل اليه من الغد يطلب ان يجتمع به فاحضره فقال له اريد ان
اقول شيئا من عندى ليس رسالة عن صاحبي واحب ان تنصفني فقال له قل قال يامولانا ماهو
قبيح بك وانت من أعظم السلاطين واكبرهم شانا ان تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج
وتركت الغزو ومصالح المملكة واعرضت عن كل مافيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة
وجمعت العساكر من اطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت انت وعساكرك
الاموال العظيمة لاجل قحبة مغنية مايكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الاسلام
وكافة العالم واحسب ان احدا ما يواجهك بهذا أما يعلمون ان الامر هكذا ثم احسب ان قلج
ارسلان مات وهذه ابنته قد ارسلتني اليك تستجير بك وتسألك ان تنصفها من زوجها فان فعلت
فهو الظن بك ان لا تردها فقال والله الحق بيدك وان الامر لكما تقول ولكن هذا الرجل دخل
على واستجار بي ويقبح بي تركه لكنك انت اجتمع به واصلح الحال بينكم على ما تحبون وانا
اعينكم عليه واقبح فعله ووعد من نفسه بكل جميل فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد
القول بينهم فاستقر ان صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة وان كان لا يفعل ينزل
صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلج ارسلان عليه واصطلحوا على ذلك وعاد صلاح الدين
عنه الى الشام وعاد نور الدين الى بلاده فلما انقضت المدة اخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت
الى بغداد واقامت بها الى ان ماتت

(ذكر قصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمنى)

وفيها قصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمنى بعد فراغه من امر قلج ارسلان وسبب ذلك ان ابن
ليون الارمنى كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الامان فامرهم ان يرعوا مواشيهم
في بلاده وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول اليها صعب لانها مضايق وجبال وعرة
ثم غدر بهم وسبى حريمهم واخذ اموالهم واسر رجالهم بعد ان قتل منهم من حان اجله ونزل
صلاح الدين على النهر الاسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس
جبل ان يؤخذ فخربه واحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فاسرع السير اليه فادركه قبل ان ينقل
ما فيه من ذخائر واقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فارسل ابن ليون يبذل اطلاق من
عنده من الاسرى والسبي واعادة اموالهم على ان يعودوا عن بلاده فاجابه صلاح الدين
الى ذلك واستقر الحال واطلق الاسرى واعيدت اموالهم وعاد صلاح الدين عنه في جمادى
الآخرة

(ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه)

في هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى افريقية وملك قفصة وكان سبب ذلك
ان صاحبها على بن المعز بن المعتز لما رأى دخول الترك الى افريقية واستيلاءهم على بعضها

وانقياد

الهام رؤوس * وبلغ السلطان
خبر الفريقين فلحقهم في
خواص رجاله وجعل يلجئهم
الى ماوراءهم شيئا فشيئا
ويملك عليهم ملاجئهم
شعبا فشعبا الى أن فرقهم في
عطفات الجبال الشوامخ *
وألحقهم بقلال الراسيات
البواذخ * واستفسح الجبال
الى عظيم الكفرة المعروف
بابن سوري فغزاه في عقر
داره * وأحاط به من جانب
حصاره * وشد عليه الحرب
وبرز الرجل في قرابة عشرة
آلاف رجل ورجال كأنما
خلقت قلوبهم من حديد *
واكبادهم من جلاميد *
يستأنسون بأهوال
الوقائع * استئناس الظماء
بماء الشرائع * فصافوا عسكر
السلطان مسعدين بالبطش
والبأس مبرقين بصوارم
الاسياف وجعلوا يهرون
في وجوههم هرير الكلاب
أعماها الفرار * وأسرجتها
الانجار * فامر السلطان
بمداركة الشد عليهم على
ما وجه حكم الاحتياط
اذ كانوا مستندين الى معاقل
وثيقة * متحصنين بخنادق
عميقة * حتى اذا انتصف
النهار صلى وقاسمهم في
مغامسة الحرب * ومصابرة
الطعن والضرب * اشار
بتوليتهم الظهور على وجه
الاستدراج والاغتيال

عنك ايضا وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ولا حاجة به الى بلدك فقال له ان هذا لم يغب عني ولكن قد علمتم ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومتى سلمت حلب الى عماد الدين يعجز عن حفظها وان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام وان سلمتها الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات وكان حليما كريما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما للدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر أو غيره حسن السيرة في رعيته عادلا فيهم ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى اتابك عز الدين يستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل أحضر الامراء عنده من حلب فحضروا وساروا جميعا الى حلب ودخلها في العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم فلما اجتاز في طريقه اليها من الفرات كان تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا الى حماة وثار أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين فاشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق واطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام وأعلموه محبة اهلها له ولاهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها الى الرقة

(ذكر تسليم حلب الى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها)

لما وصل عز الدين الى الرقة جاءته رسل اخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب ان يسلم اليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك ولج عماد الدين في ذلك وقال ان سلمتم الى حلب والا سلمت انا سنجار الى صلاح الدين فاشار حينئذ جماعة من الامراء بتسليمها اليه وكان اشدهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه في الدولة وكثرة عساكره وبلاده وانما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لانه عظم في نفسه وكثر معه العسكر وكان الامراء الحلبيون لا يلتفتون الى مجاهد الدين ولا يسلكون معه من الادب ما يفعله عسكر الموصل فاستقر الامر على تسليم حلب الى عماد الدين واخذ سنجار عوضا عنها فسار عماد الدين فتسلمها وسلم سنجار الى اخيه وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الامر عليه وخاف ان يسير منها الى دمشق وغيرها ويملك الجميع وأيس من حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار الى الشام وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره ان شاء الله

(ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومصير صاحبها مع صلاح الدين)

كانت قلعة البيرة وهي مطلة على الفرات من ارض الجزيرة لشهاب الدين الارتقي وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين الى عز الدين يطلب منه ان يأذن له في حصر البيرة وأخذها فأذن له في ذلك فسار في عسكره الى قلعة سميساط وهي له ونزل بها وسير العسكر الى البيرة فحصرها فلم يظفر منها بطائل الا انهم لازموا

ثم ترامى الامر الى أن أكلت الام ولدها والاخ أخاه والزوج زوجته وطفل بعضهم يختلس بعضا من شوارع الطرق الى الخرابات فيطبخ منه ما شاء من الباجات * وحرم الاسمان على الناس لكثرة ما ضحى عليها من لحوم البشر فيبيع في الاسواق وقبض على اقوام بلا عدد كانوا يقتالون السابلة * فيصيرونهم على هذه الحالة * ووجد في دورهم ما يقمر العدد من رؤس الناس قد أكلت لحومهم * وصهرت شحومهم وأما الكلاب والسنانير * فلم يبق منها الا العدد اليسير * وهاب اوساط الناس وارباب الحرف أن يخترقوا وقت العشاء شوارع نائية عن واسطة البلد الا في عديد * وسلاح حديد * وذكر أن فقيها وجيها من أصحاب الحديث دخل على الامام أبي الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي نسأله عن تطاول عهده به فقال لما أخذ الامام عني أسدونة غيبة رد الله بها على روحي فضلا منه جسيما * وصنعا كريما * وذلك أني جعلت أمر ببعض العشيات وحيدا في شارع اشار اليه فلم يرعني الا وتر صار في عنقي * وجذبته

فتجهز وجمع عساكره ومن أمكنه الجمع وعزم على المسير الى العراق تهامة ومنها الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة فسمع عز الدين فرخشاه ذلك فجمع العساكر الدمشقية وسار الى بلاده ونهبه وخربه وعاد الى طرف بلادهم وأقام بها ليمنع البرنس من المسلمين فامتنع من مقصده فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس ان المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه وانقطع طمعه من الحركة فعاد فرخشاه الى دمشق وكفى الله المؤمنين شر الكفار

(ذكر تدبير ينبغي أن يحتاط من مثله)

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكناني ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن وتحكم في الاموال والبلاد بعد ان فارقها شمس الدولة كما ذكرنا وكان هواه بالشام لانه وطنه فارسل الى شمس الدولة يطلب الاذن له في المجيء اليه فاذن له في المجيء فاستناب بزبيد اخاه حطان بن كامل بن منقذ الكناني وعاد الى شمس الدولة وكان معه بمصر فمات شمس الدولة وبقي مع صلاح الدين فقيل عنه انه أخذ اموال اليمن وادخرها وسعى به اعداؤه فلم يعارضه صلاح الدين فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاما وعمل دعوة كبيرة ودعا اليها اعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمى العدوية وأرسل اصحابه يتجهزون من البلد ويشترون ما يحتاجون اليه من الاطعمة وغيرها فقيل لصلاح الدين ان ابن منقذ يريد الهرب وأصحابه يتزودون له ومتى دخل اليمن اخرجه عن طاعتك فارسل صلاح الدين فاخذه والناس عنده وحبسه فلما سمع صلاح الدين جلية الحال علم ان الحيلة تمت لاعدائه في قبضه فخفف ما كان عنده وسهل أمره وصالحه على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما طلقها من الحمل لاخوة صلاح الدين وأصحابه واطلقه واعاده الى منزلته وكان أديبا شاعرا

(ذكر ارسال صلاح الدين العساكر الى اليمن)

في هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من امرائه منهم صارم الدين قتلغ أبه والي مصر الى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة وهم عز الدين عثمان بن الزنجيلي والي عدن وحطان بن منقذ والي زبيد وغيرهما فانه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عز الدين عثمان وبين حطان حرب وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده واشتد الامر فخاف صلاح الدين أن يطمع اهل البلاد فارسل هؤلاء الامراء اليها واستولى قتلغ أبه على زبيد وأزال حطان عنها ثم مات قتلغ ابه فعاد حطان الى امارة زبيد واطاعه الناس لجوده وشجاعته

(ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب)

في هذه السنة في رجب توفي الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما اشتد مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر للتداوي فقال لا أفعل حتى استفتي الفقهاء فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية بجواز ذلك فقال له أرأيت ان قدر الله تعالى بقرب الاجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا فقال والله لا القيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه علي ولم يشربه فلما ايس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد ووصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد ابن

(ذكر القحط الواقع بنيسابور)

في سنة احدى وأربعمائة وقع القحط بنيسابور خصوصا وفي سائر بلاد خراسان عموما * فهلك بنيسابور وباطرافها دون غيرها مائة ألف او يزيدون وكم دفن منهم باطمارهم لضيق الاكفان بهم * وعجز غسلة الاموات عنهم * وكان الناس بين غلام وشاب وكهل وشيخ وفتاة وعجوز يتداعون الخبز الخبز ويذوبون على أنفسهم حتى تغور عيونهم * وتجيب الموت جنوبهم * وردوا نباتات الارض حتى استحصم اليأس عن الزروع * وانقطعت الاطماع عن الريوع * وضاق بهم الامر فجعلوا يتتبعون رمام العظام على رؤس الكناسات ثم لا بها وهو ما ذبح قصاب ذبيحة اجتمع عليها الفوج بعد الفوج يتقاسمون شحمها بالكبران والخزف ثم كنا طرقا بلوغ واجترائه عن القوت فلم ينل منه أحد الا سقط بلمنه * وباد عن كسب نفسه وعهدي بهم يتتبعون سقاطات حب الشعير عن الارواث وهيهات ان الشعير لاعوز الانام * فكيف البهائم والانعام *

الشام جموا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة او يظفرون بنصرة وربما قطعوا المسلمين عن المسير بأن يقفوا على بعض المضايق ولما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه الخبر فجمع من عنده من عساكر الشام ثم قصد بلاد الفرنج واغار عليها ونهب دبورية وما يجاورها من القرى واسر الرجال وقتل واكثر وسبى النساء وغنم الاموال وفتح منهم الشقيف وكان على المسلمين منه اذى شديد ففرح المسلمون بفتحه فرحا عظيما وارسل الى صلاح الدين بالبشارة فلقيه فى الطريق ففت ذلك فى عضد الفرنج وانكسرت شوكتهم

(ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن وتغلبه عليه)

فى هذه السنة سير صلاح الدين اخاه سيف الاسلام طغدكين الى بلاد اليمن وامره بتملكها وقطع الفتن بها وفوض اليه امرها وكان بها حطان بن منقذ كما ذكرناه قبل وكتب عز الدين عثمان الزنجيلي متولى عدن الى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بارسال بعض اهله اليها لان حطان كان قوى عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين اخاه سيف الاسلام وسيره الى بلاد اليمن فوصل الى زبيد فخافه حطان بن منقذ واستشعر منه وتحصن فى بعض القلاع فلم يزل به سيف الاسلام يؤمنه ويهدى اليه ويتلطفه حتى نزل اليه فاحسن صحبته واعطاه مالم يكن يتوقعه من الاحسان فلم يثق حطان به وطلب منه دستورا ليقصد الشام فامتنع من اجابته اظهارا للرغبة فى كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى اذن له فاخرج اثقاله وامواله ودوابه واهله واصحابه وكل ماله وسير الجميع بين يديه فلما كان الغد دخل الى سيف الاسلام ليودعه فقبض عليه واسترجع جميع ماله فاخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير ثم حبسه فى بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل انه قتله وكان فى جملة ما اخذ منه من الاموال الذهب العين فى سبعين غلافا زردية مملوءة ذهبا عينا واما عز الدين عثمان الزنجيلي فانه لما سمع ما جرى على حطان خاف فسار نحو الشام خائفا يترقب وسير معظم امواله فى البحر فصادفهم مراكب فيها اصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل ما لعز الدين ولم يبق له الا ما صحبه فى الطريق وصفت زبيد وعدن وما معهما من البلاد لسيف الاسلام

(ذكر اغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج واعمالها)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق كما ذكرناه اقام اياما يريح ويستريح هو وجنده ثم سار الى بلاد الفرنج فى ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى الاقحوانة من الاردن وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن اخيه الى بيسان فدخلها قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبى وجحف الغور غارة شعواء فعم اهله قتلا واسرا وجاءت العرب فاغارت على جينين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وارسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا ولم يتحركوا للقتال فامر ابنى اخيه تقى الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فى من معهما فقاتلوا قتالا شديدا ثم ان الفرنج انحازوا على حاميتهم فنزلوا بالفولة فلما رأى صلاح الدين ما قد اثخن فيهم وفى بلادهم عاد عنهم الى دمشق

فاخطأها لما أراد الله من البلاء اجلى * واستبقاء مهلى * فعدلت عن الاذان الى الصباح بطلب الامان وجعلت لله على بعد ذلك نذرا أن لا اخرج مدة هذه الفتنة من دارى الا والشمس بيضاء نقيه * ولا أرجع ليلا الا وفى النهار بقيه * فهذه هى التى ثبطتنى عن الخدمه واقعدتنى عن الرسم فى مشاهدة اهله * فقضى الحاضرون عجبا من تلك الداهيه * وسألوا الله تعالى حسن السلامة والعافيه * وحكى عن الاستاذ أبى سعد عبد الملك بن عثمان الواعظ احد الصالحين * من عباد الله تعالى الموقنين * والساعين فى مصالح المسلمين * انه نقل الى دار كان يسكنها المرضى والزمنى من الفقراء وابناء السبيل فى يوم واحد من أيام هذه السنة أربعمائة ميت عن برح الجوع والخمصة على أن يعمر بتكفينهم ودفنهم فاتى خبازه الذى كان يتسلم جرايات المذكورين من جهته وهو فى حيرته يذكر انه قد بقى فى هذا اليوم عنده مما كسده على البيع أربعمائة منا خبز فسبحان من يقضى على من يشاء بالفناء مع امكان الاقوات * ووجود الكفايات * وقد

الحصار فأرسل صاحبها الى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ما نذكره يطلب منه ان ينجده ويرحل العسكر الماردانى عنه ويكون هو فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نور الدين فاجابه الى ذلك وأرسل رسولا الى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب ان يرحل عسكره عنه فلم يقبل شفاعته واشتغل صلاح الدين عنه بما نذكره من الفرنج فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ولم يبلغوا منها غرضا امرهم بالرحيل عنها وعاد الى ماردين فسار صاحبها الى صلاح الدين وكان معه حتى عبر معه الفرات على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فاقام حاجب الباب جماعة لاراقة الخمور واخذ المفسدات فبينما امرأة منهن فى موضع اذ رأت بعض أصحاب حاجب الباب فاضطربت وأظهرت انها مريضة وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال فتركوها وانصرفوا فاجتهدت بعدهم ان تقوم فلم تقدر وجعلت تصيح الكرب الكرب الى أن ماتت وهذا من أعجب ما يحكى وفيها فى عاشر ذى الحجة توفى الامير همام الدين تتر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة كان قد استخلف الامير عيسى بن اخى مودود وحج فتوفى ودفن بالمعلى مقبرة مكة وفيها فى شعبان توفى عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد أبو البركات النحوى المعروف بابن الانبارى ببغداد وله تصانيف حسنة فى النحو وكان فقيها صالحا وفيها توفى ابراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعى بجزيرة ابن عمر وكان فاضلا كثير الورع

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة)

(ذكر مسير صلاح الدين الى الشام وغارته على الفرنج)

فى هذه السنة خامس المحرم سار صلاح الدين عن مصر الى الشام ومن عجيب ما يحكى من التطير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده واعيان دولته والعلماء وارباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل منهم يقول شيأ فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وفى الحاضرين معلم لبعض اولاده فاخرج رأسه من بين الحاضرين وانشد

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد اليها الى ان مات مع طول المدة ثم سار عن مصر وتبعه من التجار واهل البلاد ومن كان قصده مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره عالم كثير فلما سار جعل طريقه على ايلة فسمع ان الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والاثقال مع أخيه تاج الملوك بورى الى دمشق وبقى هو فى العساكر المقاتلة لاغير فشن الغارات باطراف بلادهم واكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منهم احد ولا أقدم على الدنو منه ثم سار فاتى دمشق فوصلها حادى عشر صفر من السنة

(ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج)

فى هذه السنة ايضا فى صفر فتح المسلمون بالشام شقيفا من الفرنج يعرف بحبس جلدك وهو من اعمال طبرية مطل على السواد وسبب فتحه ان الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر الى

الشام

بعقبه ضيقت على مختنق فبينا انا اهيم بواتاه الجاذب وشداناه على ضيق المختنق اذ وثبت الىّ من بعض تلك الاويات امرأة فضربت اثنيى بركبتها ضربة سقطت منها مغشيا علىّ * فلم أشعر بعدها بشئ من معارف امورى * الى ان افقت من الغشى ببرد ماء رش بين وجهى وترائبى فنظرت الى قوم أجانب يشاهدوننى عاده انى * ويكاتمونى صورة ما عرانى * فاذا هم ساعة وجبتى بلحيى أدركونى * عائدين الى منازلهم فهرب منهم من أشفق على قتلى واستماحه دمى وتركنى برمق * وخلى الوتر فى عنقى * فصبرت ساعة الى ان استوفيت الافاقه * واستعدت القوة والطاقه * وعدت الى المنزل وسقطت من هول ذلك المصرع على الفراش عشرين يوما مدهوشا مبهوتا * مريضا مسبوتا * الى ان من الله علىّ بأوائل الاقبال * وزوال أكثر ما مسنى من ألم الاعتلال * فبكرت يوم أحسست بالخفة الى المسجد لاقامة الفرض وصعدت المئذنة على الرسم فلم أستتم التكبير حتى اختطف عمامتى من رأسى وهو أراد صاحبه رفيق

ان الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وأرادوا تخريب جامعها فارسل
النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته واخربنا
كل بيعة لكم فى بلادنا ولا نمكن احدا من عمارتها فتركوه ولما وصل الخبر الى صلاح الدين
بذلك اشار عليه من ينصح لعز الدين بالعود فقال يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ونعود
نعمرها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل)

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع امراءه وارباب المشورة عنده واستشارهم باى البلاد يبدأ
وأيها يقصد بالموصل ام بسنجار ام بجزيرة ابن عمر فاختلفت آراؤهم فقال مظفر الدين كوكبرى
ابن زين الدين لا ينبغى ان يبدأ بغير الموصل فانها فى ايدينا لا مانع لها فان عز الدين ومجاهد الدين
متى سمعا بمسيرنا اليها تركاها وسارا عنها الى بعض القلاع الجبلية ووافقه ناصر الدين محمد ابن
عمه شيركوه وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ليقطعه الموصل اذا ملكها وقد اجابه صلاح
الدين الى ذلك فاشار بهذا الرأى لهواه فسار صلاح الدين الى الموصل وكان عز الدين صاحبها
ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل واظهرا من
السلاح وآلات الحصار ما حارت له الابصار وبذلا الاموال الكثيرة واخرج مجاهد الدين من
ماله كثيرا واصطلى الامور بنفسه فاحسن تدبيرها وحصنوا ما بقى بايديهم من البلاد كالجزيرة
وسنجار واربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والاموال وسار صلاح الدين
حتى قارب الموصل وترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه
ومعهم نفر من اعيان دولته وقربوا من البلد فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله وملأ صدره
وصدور أصحابه فانه رأى بلدا عظيما كبيرا ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال وليس
فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم انه
لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا فقال لناصر الدين ابن عمه اذا رجعنا الى العسكر فاحمل
ما بذلت من المال فنحن معك على القول فقال قد رجعت عما بذلت من المال فان هذا البلد
لا يرام فقال له ولمظفر الدين غررتمانى وأطمعتمانى فى غير مطمع ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل
اخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا عنه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا
وشوكتنا ثم رجع الى عسكره وصبح البلد وكان نزوله عليه فى رجب فنازله وضايقه ونزل
محاذى باب كندة وانزل صاحب الحصن بباب الجسر وانزل اخاه تاج الملوك عند الباب العمادى
وانشب القتال فلم يظفر وخرج اليه يوما بعض العامة فنالوا منه ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين
احدا من العسكر يخرجون لقتال بل الزموا الاسوار ثم ان تقى الدين اشار على عمه صلاح الدين
بنصب منجنيق فقال مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه اخذوه ولو خربنا برجا
وبدنة من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير فالح تقى الدين وقال نجربهم به
فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات وخرج جماعة من العامة فاخذوه
وجرى عنده قتال كثير فاخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورمى بها
اميرا يقال له جاولى الاسدى مقدم الاسدية وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألما شديدا

أحوال الخانية بعد معاودة
ما وراء النهر)* قد كان
السلطان يمين الدولة وامين
الملة بعد انكشاف عسكر
الترك عنه يراعى ما يسفر
عنه تدبير ايلك خان
واخيه الكبير طغان خان
اذ كان أخوه يمالى
السلطان يمين الدولة
عليه لأيمان يزعم لزومها
اياه ومواثيق يدعى انعقادها
عليه ويظهر البراءة على
ألسنة رسله من فعلات
ايلك فى منابذته ومكاشفته
والتخطى الى حدود مملكته
ويورك ايلك الذنب عليه
فى اغرائه بما أتاه* ومكاتبته
فى البعث على ما جناه*
ولما ظهر لايلك خان* ان
اخاه طغان خان* قد جعله
عرضة للجناية وقلده طوق
تلك المكاشفة براءة منه
وخذلانا اياه وشقا للعصاه*
واستلاما له بما كسبت
داه* رأى ان يشتفى به
بحسم داء قرابته* ويعمل
بسيفه وضر بجنايته
فجمع جيوش ما وراء النهر
لقصده* واستدفاع مكره
وغدره* وسار حتى اذا
جاوز اوزجند شخوص قطت
ثلوج عظيمة سدت عليه
مسالك العقاب المفضية
اليه* فارتد عن وجهه
الى قابل حتى طاب الهواء*
وانحسر الشتاء* وخذته

(ذكر حصر بيروت)

ثم انه سار عن دمشق الى بيروت فنهب بلدها وكان قد أمر الاسطول المصرى بالمجىء فى البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب مالم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام وكان عازما على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد القى بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس فاسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى الفا وستمائة وستا وسبعين اسيرا فضربت بذلك البشائر

(ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة)

فى هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات الى الديار الجزرية وملكها وسبب ذلك ان مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعه اياها عز الدين اتابك المدينة والقلعة تقوية واعتمادا ارسل الى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه محب لدولته ووعده النصرة له اذا عبر الفرات ويطمعه فى البلاد ويحثه على الوصول فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تترى اليه يحثه على المجىء فجد صلاح الدين فى السير مظهرا انه يريد حصر حلب ستر اللحال فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به وقصد البيرة وهى قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفى طاعته وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذى عند البيرة وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين الى الشام قد جمعا العسكر وسارا الى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين الى حلب ثم تقدما الى دارا فنزلا عندها ليحفظاها امر لم يكن فى الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا الى الموصل وارسلا الى الرها عسكرا يحميها ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك اصحاب الاطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فاجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن الى ماطلب منه لقاعدة استقرت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام فانه استقر الحال ان صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها اليه وسار صلاح الدين الى مدينة الرها فحصرها فى جمادى الاولى وقاتلها اشد قتال فحدثنى بعض من كان بها من الجند أنه عد فى غلاف رمح اربعة عشر خرقا وقد خرقته السهام ووالى الزحف عليها وكان بها حينئذ مقطع وهو الامير فخر الدين مسعود الزعفرانى فحين رأى شدة القتال اذعن الى التسليم وطلب الامان وسلم البلد وصار فى خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف الى القلعة فسلمها اليه الدزدار الذى بها على مال اخذه فلما ملكها سلمها الى مظفر الدين مع حران ثم سار عنها على حران الى الرقة فلما وصل اليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى فسار عنها الى عز الدين اتابك وملكها صلاح الدين وسار الى الخابور قرقيسيا وماكسين وعرابان فملك جميع ذلك فلما استولى على الخابور جميعه سار الى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضا واقام بها يصلح شانها ثم اقطعها اميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن واتاه الخبر

اكثر الناس فى ذكر هذا الغلاء والبلاء * فمنه قول أبى نصر الراوهى الكاتب
قد أصبح الناس فى غلاء
وفى بلاء تداولوه
من يلزم البيت يود جوعا
او يشهد الناس يأكلوه
(ولابى محمد العبدلكانى الزوزنى)
لا تخرجن من البيوت
لحاجة أو غير حاجه
والباب أغلقه عليك
موثقا منه رتاجه
لا يقتنصك الجائعون
فى مطبخونك شوربا جه
وأمر السلطان يمين الدوله وامين المله بالكتب الى عماله بصب الاموال على الفقراء والمساكين فاستنفذ الله تعالى بهم امهجات قوم قد أشرفت على الهلاك * وافتكهم من بين حسك الاستئصال * فبقيت تلك السنة على حالها من القحط والغلاء الى ان ادركت غلات سنة اثنتين واربعمائة * فمن الله تعالى بازالة تلك الشده * واطفاء تلك النائرة المتقده * وتدارك عباده بعد استحكام الياس منهم بالغيوث الهاميه * والريوع الزاكية النامية * ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم

*(ذكر ما أفضت اليه

(ذكر اجتماع عز الدين وشاه ارمن)

في هذه السنة في ذي الحجة اجتمع اتابك عز الدين صاحب الموصل وشاه ارمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين وسبب ذلك ان رسل عز الدين ترددت الى شاه ارمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فارسل شاه ارمن الى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة اليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين فلم يجبه الى ذلك وغالطه فارسل اليه اخيرا مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه ارمن فاتاه وهو يحاصر سنجار يطلب اليه ان يتركها ويرحل عنها وقال له ان رحل عنها والا فتهدده بقصده ومحاربته فلما بلغه بكتمر الشفاعة فسوفه في الجواب رجاء ان يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك ابلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولا صلة واخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الاهمال والتواني عن صلاح الدين فسار شاه ارمن من خلاط وكان مخيما بظاهرها وسار الى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين الي وهو ابن اخت شاه ارمن وابن خال عز الدين وحموه لان عز الدين كان قد زوج ابنة قطب الدين وحضر مع شاه ارمن دولة شاه صاحب بدليس وارزن وسار اتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الاثقال وكان صلاح الدين قد ملك سنجار وسار عنها الى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير الى تقي الدين ابن اخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل اليه مسرعا واشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون وكان هوى صلاح الدين في الرحيل فرحل الى رأس عين فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه ارمن الى خلاط واعتذر بانه اجمع العساكر واعود وعاد عز الدين الى الموصل واقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بحرزم تحت ماردين عدة ايام

(ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب)

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك اسطولا وفرغ منه بالكرك ولم يبق الا جمع قطعه بعضها الى بعض وحملها الى بحر ايلة وجمعها في اسرع وقت وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فساروا في البحر وافترقوا فرقتين فرقة اقامت على حصن ايلة يحصرونه ويمنعون اهله من ورود الماء فنال اهله شدة شديدة وضيق عليهم واما الفرقة الثانية فانهم ساروا نحو عيذاب وافسدوا في السواحل ونهبوا واخذوا ما وجدوا من المراكب الاسلامية ومن فيها من التجار وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لا تاجرا ولا محاربا وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن ايوب ينوب عن اخيه صلاح الدين فعمر اسطولا وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الاسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا كريما فسار لؤلؤ مجدا في طلبهم فابتدأ بالذين على ايلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده فقاتلهم فقتل بعضهم واسر الباقي وسار من وقته بعد الظفر يقص اثر الذين قصدوا عيذاب فلم يرهم وكانوا قد اغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا الى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على الدخول الى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى واخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك الى اليمن فلما وصل لؤلؤ الى عيذاب ولم يرهم سار يقفوا اثرهم فبلغ رابغ وساحل الحوراء

ومعالبق من الذهب الاحمر
مرصعة بكل جوهر ثمين *
وياقوت وزين * ووراء
السماطين سبعمائة فيل
في تجافيف مشهره * بالوان
مسوره * بالمرايا والمراى
وعامة العسكر في سرابيل
قد كدت القيون * وردت
عن اجتلائها العيون *
ورتب الرجالة امام الخيول
في الترسة الواقيه * والجنن
الحاميه * والسيوف
المرهفه * والعوامل
المختلفه * وقام بين يديه
حجابه كالبدور * في ظلم
الديجور * قابضين على
قبائع سيوفهم هائبين
قدوه * وناظرين امره *
وأذن لهؤلاء الرسل على
هذه الهيئة حتى اتوه *
واقاموا من رسم الخدمة
ما افترضوه * ثم عدل بهم
الى الموائد في دار قد فرشت
بالبسط غير الجنة مزينة
للمتقين * معدة للعارفين *
وفي كل مجلس دست من
الذهب الاحمر من جفان
كالجواض والاطباق كالاف
قد انضم ما من صدره الى
قدمه * ايشاكلا من
الاواني الفائقه * والآلات
الناخرة الرائقه * وشيء
نلباص مجلسه طارم قد
بعثت الوانه * وعضاداته
بقضبان الذهب وصفائحه
وزينت مسامره بقسه

واخذ الادلكه وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال قد قاتلنا اهل الموصل بما فات ما رأينا بعد مثلها واوثق الادلكه وحلف انه لا يعود يقاتل عليها انفة حيث ضرب بهذه ثم ان صلاح الدين رحل من قرب البلد ونزل متأخرا خوفا من البيات فانه اقربه كان لا يأمن ذلك وكان سببه أيضا ان مجاهد الدين اخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل فكان احدهم يخرج من الباب وينزل الى دجلة ثم يلي عين الكبريت ويطفي المشعل فرأى العسكر الناس يخرجون فلم يشكوا في الكبسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل اليه قبل نزوله على الموصل ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله في الصلح فاقاما معه على الموصل وترددت الرسل الى عز الدين ومجاهد الدين في الصلح فطلب عز الدين اعادة البلاد التى أخذت منهم فاجاب صلاح الدين الى ذلك بشرط ان تسلم اليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك واجاب الى تسليم البلاد بشرط ان يتركوا انجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوا الى ذلك ايضا وقال عز الدين هو اخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى أن انكثها ووصلت أيضا رسل قزل ارسلان صاحب اذربيجان ورسل شاه ارمن صاحب خلاط فى المعنى فلم ينتظم امر ولا تم صلح فلما رأى صلاح الدين انه لا ينال من الموصل غرضا ولا يحصل على غير العناء والتعب وان من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره واصحابه سار من الموصل اليها

(ذكر ملكه مدينة سنجار)

لما سار صلاح الدين عن الموصل الى سنجار سير مجاهد الدين اليها عسكرا قوة لها ونجدة فسمع بهم صلاح الدين فمنعهم من الوصول اليها واوقع بهم واخذ سلاحهم ودوابهم وسار اليها ونازلها وكان بها شرف الدين امير اميران هندو أخو عز الدين صاحب الموصل فى عسكر معه فحصر البلد وضايقه والح فى قتاله فكاتبه بعض امراء الاكراد الدين به من الزرزارية ومن معه واشار بقصده من الناحية التى هو بها ليسلم اليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلا فسلم اليه ناحيته تلك الباشورة لا غير فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الامان فأمن ولو قاتل على تلك الناحية اخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة مدة لطالها ومنعها ولكنه عجز فلما طلب الامان اجابه صلاح الدين اليه فامنه وملك البلد وسار شرف الدين ومن معه الى الموصل واستقر جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار فانه كان قصد أن يسترده المواصلة اذا فارقه لانه لم يكن فيه حصن غيرالرها لا غير فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين انز وكان من اكابر الامراء واحسنهم صورة ومعنى

(ذكر عود صلاح الدين الى حران)

لما ملك صلاح الدين سنجار وقرر قواعدها سار الى نصيبين فلقيه اهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين باكين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم فلما سمع ذلك انكر على أبي الهيجاء ظلمه وعزله عنهم واخذه معه وسار الى حران وفرق عساكره ليستريحوا وبقى جريدة فى خواصه وثقات اصحابه وكان وصوله اليها اوائل ذى القعدة من السنة

لانداءه فبكر عائدا على ناره ولفت الشيرو هنا ناره وكان ورود رسلهما فى التنازع الذى تقدم ذكره فتراجعا القول فى البراءة عن جناية العبور واحالة بعضهم على البعض فى نقض المواثيق والعهود فخلاهم السلطان فى لغط القول حتى وصلوا بعبر التقار الى برد الاشتفاء واراد السلطان عين الدوله وأمين الملة بعد ذلك قراهم فأمر بتعبية جيوشه وتغشية خيوله فرتب العسكر سماطين عن جنبيه فى هيئة لو رآها قارون حين خرج على قومه اقال يا ليت لى مثل ما أوتى محمود انه لذو حظ عظيم وصفة مقامه انه اصطف من غلمانه على التقابل من الطرفين قرابة ألفى غلام من عقائل الترك فى الوان الديابج من بين سود وبيض وحمر وصفر وكهب وخضر وفيما يقرب من موقفه خمسمائة غلام من خاصته فى مثقلات الروم بمناطق من ذهب مرصعة بالجواهر واعمدة من جنسه فوق الاكتاف والعواتق وقد اطاف بهم من عظام الفيول أربعون فيلا على المحاذاة غواشيها ديابج الروم بمصائب

ذكر

الفاضل وزير صلاح الدين يسأله ان يأخذ له الامان ولاهله وماله وان يؤخره ثلاثة ايام حتى ينقل ماله بالبلد من الاموال والذخائر فسعى له الفاضل فى ذلك فاجابه صلاح الدين اليه فسلم البلد فى العشر الاول من المحرم هذه السنة واخرج خيمه الى ظاهر البلد ورام نقل ماله فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن اصحابه واطراحهم امره ونهيه فارسل الى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فامر له بالدواب والرجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الايام الثلاث قبل الفراغ فمنع من الباقى وكانت ابراج المدينة مملوأة من انواع الذخائر فتركها بحالها ولو اخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نفسه وامواله لكن اذا اراد الله أمرا هيأ اسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها الى صاحب الحصن نور الدين فقيل له قبل تسليمها ان هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو اخذت ذلك واعطيته جندك وسائر البلد اليه فارغا لكان راضيا لانه لا يطمع فى غيره فامتنع من ذلك وقال ما كنت لاعطيه الاصل وأبخل بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ودعا اليها صلاح الدين وامراءه ولم يكن دخل البلد وقدم له ولاصحابه من التحف والهدايا اشياء كثيرة

(ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من اعمال الشام)

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار الى الشام وقصد تل خالد وهو من اعمال حلب فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل اهلها وطلبوا الامان فأمنهم وتسلمها فى المحرم ايضا ثم سار منها الى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو اخو الشيخ اسمعيل الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكى وصاحبه وكان قد سلمها اليه نور الدين فبقيت معه الى الآن فلما نازله صلاح الدين ارسل اليه يطلب ان يقر الحصن بيده وينزل الى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فاجابه صلاح الدين الى ذلك وحلف له عليه فنزل اليه وصار فى خدمته وكان ايضا فى المحرم من هذه السنة

(ذكر وقعتين مع الفرنج فى البحر والشام)

فى هذه السنة فى العاشر من المحرم سار اسطول المسلمين من مصر فى البحر فلقوا بطسة فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الاموال والسلاح الى فرنج الساحل فقاتلوهم وصبر الفريقان وكان الظفر للمسلمين واخذوا الفرنج اسرى فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم اسرى وغنموا ما معهم وعادوا الى مصر سالمين وفيها ايضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحى الداروم الى نواحى مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا اليهم على طريق صدر وايلة فانتزح الفرنج من بين ايديهم فنزلوا بماء يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين اليه فاتاهم المسلمون وهم عطاش قد اشرفوا على الهلاك فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء فانشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فمطروا منها حتى رووا وكان الزمان قيظا والحر شديدا فى بر مهلك فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد الفريد وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله

(ذكر ملك صلاح الدين حلب)

وفى هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب الى حلب فنزل عليها فى المحرم أيضا فى الميدان

(ذكر فتح قصدار)

قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة يراعى ما يتجدد من اخبار الاخورين ايلك وطغان خان فيما تنازعاه من الامر فاما بخه اشتجار ذات بينهما استخار الله فى قصد قصدار اذ كان صاحبها قد ألم بجانب الجانية واخل بحمل المقاطعة اعتزازا بمناعة مملكته واغترارا بحصانة الطرق المفضية الى حلته وذلك فى جمادى الاولى سنة اثنتين واربعمائة وفصل السلطان عن غزنة الى بست مورّيا بقصد هراة حتى انتشرت الاخبار بغزنة واستفاضت الاحاديث بظاهر أمره ثم ركض الى ناحية قصدار فى الغلب الغلاب من رجاله ركضة طوت تلك الجبال الوعرة والمسالك الصعبة فلم يشعر صاحب قصدار الا بغلمان السلطان حول داره قبل أن يكتحل بضوء نهاره أو يحتفل لشد ازاره فنادى الامان الامان وبرز لقدم السلطان فالزمه السلطان بخمسة عشر ألف ألف درهم من جملة ما كان

وغيرهما فادركهم بساحل الحوراء فاوقع بهم هناك فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم اشد قتال واخذ خيلا من الاعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرسانا ورجالة فظفر بهم وقتل اكثرهم واخذ الباقين اسرى وارسل بعضهم الى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد بالباقين الى مصر فقتلوا جميعهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى توفي عز الدين فرخشاه ابن اخي صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق وهو ثقته من اهله وكان اعتماده عليه اكثر من جميع اهله وامرائه وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالادب وغيره وله شعر جيد من بين اشعار الملوك وكان ابتداء مرضه انه خرج من دمشق الى غزو الفرنج فمرض وعاد مريضا فمات ووصل خبر موته الى صلاح الدين وقد عبر الفرات الى الديار الجزرية فاعاد شمس الدين محمد بن المقدم الى دمشق ليكون مقدما على عسكرها وفيها مات فخر الدولة ابو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان ابوه وزير الخليفة واخوه استاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعا بالجانب الغربي منها وفيها توفي الامير ابو منصور هاشم ولد المستضيء بامر الله ودفن عند ابيه وفيها توفي ابو العباس احمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط وكان صالحا ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة ما لا يحصى

(ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها الى صاحب الحصن)

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بحورم تحت ماردين فلم ير اطمعه وجها وسار عنها الى آمد على طريق البارعية وكان نور الدين محمد بن قرا ارسلان يطالبه في كل وقت بقصدها واخذها وتسليمها اليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل الى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها واقام يحاصرها وكان المتولي لامرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها ليس له من الامر شيء مع ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين اساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيئا ولا فرق فيهم دينارا واحدا ولا قوتا وقال لاهل البلد قاتلوا عن نفوسكم فقال له بعض اصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم فلم يفعل شيئا وقاتلهم صلاح الدين ونصب المنجنيقات وزحف اليها وهي الغاية في الحصانة والمنعة وبها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان على حاله من الشح بالمال وتصرفه تصرف من ولت سعادته وادبرت دولته فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا الى السلامة وكانت ايام ابن نيسان قد طالت وثقلت على اهل البلد لسوء سيرته وعسفه وتضييقه عليهم في مكاسبهم فالناس كارهون لها يحبون لانقراضها وامر صلاح الدين ان يكتب على السهام الى اهل البلد يعدهم الخير والاحسان ان اطاعوه ويتهددهم ان قاتلوه فزادهم ذلك تقاعدا وتخاذلا واحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقابون الى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند واهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان واشتطوا في المطالب فحين صارت الحال الى ذلك اخرج ابن نيسان نساءه الى القاضي

الفاضل

وفرش من الديابج المثقلة بالاتدرك الابصار ثمنه غير سرة الذهب وفي الصدر مثقلة مقسومة وبيوت مضاعفة ومستديره * يشتمل كل منها على نوع من الجواهر التي اعيت امثالها اكاسرة العجم وقياصرة الروم ملوك الهند واقيال العرب وحمل الى المجلس اطباق صحاف من الذهب مملوءة بالمسك الاذفر والعنبر الاشهب والكافور والعطر والعود العبق وهلم جرا الى ما يملأ الابواع والايدي من اترجات مصوغه * ونارنجات مصنوعه * وما يشبه الفواكه من عقيان * وبخش وبهرمان * الى اواني لم يسمع بمثلها رقة اجسام * ودقة صنعة واحكام * وطاف على الرسل ولدان * كالدر المنثور واللؤلؤ المكنون * براح كالماء المعين * ورضاب الخرد العين * الى ان اشفقوا من عثرات العقول فاستأذنوا للقفول * وصرفهم السلطان يمين الدولة وامين الملة بهذه المأدبة وراقهم بما وجبته همته من تحقيق امانيهم * ورعاية حق الملح فيهم * وبقي الاخوان على جملتهما في المنافرة والمناقرة * والمكاوحة والمكاشفة الى ان توسط السفراء فقصاوا الامر بينهما على ما كف كلا منهما عن صاحبه على ما سنورد ذكره في موضعه ان شاء الله تعالى

فخافوا ان يسلمها اليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الامان والانعام فاجابهم الى ما طلبوا وسلموا اليه الحصن فرتب به دزدارا بعض خواصه واما باقى قلاع حلب فان صلاح الدين أقرعين تاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد لامير يقال له داروم الياروق وهو صاحب تل باشر واما قلعة اعزاز فان عماد الدين اسمعيل كان قد خربها فاقطعها صلاح الدين لامير يقال له سليمان بن جندر فعمرها وأقام صلاح الدين بحلب الى ان فرغ من تقرير قواعدها واحوالها ودواوينها واقطع اعمالها وأرسل منها لجميع العساكر من جميع بلاده

(ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى قبض عزالدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز وكان اليه الحكم فى جميع البلاد واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر فى مضرة صاحبه وكان الذى أشار بذلك عزالدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبى الخير الذى كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الامراء فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين فاظهر انه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيام فدخل اليه مجاهد الدين وحده وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته الى القلعة فاحتوى على الاموال التى لمجاهد الدين وخزائنه وولى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب وحكمهما فى دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ اربل واعمالها ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين على وهو صبى صغير ليس له من الحكم شئ والحكم والعسكر الى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر وهى لمعزالدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو أيضا صبى والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين وبيده أيضا شهرزور واعمالها ونوابه فيها ودقوقا ونائبه فيها وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعزالدين مسعود بعد ان أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة المالك واسمه عزالدين فلما قبض عليه امتنع صاحب اربل من طاعة عزالدين واستبد وكذلك أيضا صاحب جزيرة ابن عمر وارسل الخليفة الى دقوقا فحصرها واخذها ولم يحصل لعزالدين مسعود غير شهرزور والعقر وصارت اربل والجزيرة اضر شئ على صاحب الموصل وأرسل صاحبها الى صلاح الدين بالطاعة له والسكون فى خدمته وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ ومعه بشير الخادم الخاص الى صلاح الدين فى الصلح مع عزالدين صاحب الموصل وسير عزالدين معه القاضى محيى الدين أبا حامد بن الشهرزورى فى المعنى فأجاب صلاح الدين الى ذلك وقال ليس لكم مع الجزيرة واربل حديث فامتنع محيى الدين عن ذلك وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين الى الصلح الا بان تكون اربل والجزيرة معه فلم يتم أمره وقوى طمع صلاح الدين فى الموصل بقبض مجاهد الدين فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف وزلفندار عقوبة لهما ثم أخرج مجاهد الدين على ما نذكره ان شاء الله

(ذكر غزو بيسان)

على الامر بقوة شبابه * واستظهاره بمن شايعه من أصحابه * فاعتزل أبوه عن الولاية وتركها له مخليا بينه وبين ما كان يليه * وينفرد بالنظر والتدبير فيه * ومقتصرا على دراسة الكتب * ومطالعة الادب * اذ كان بها مغرما * وبالتذاذها دون سائر اللذات مغتنما * وكان منتجع الافاضل من اعماق البلاد يقتابه نهم كل مبدع خطابيانا * أو مبدع به ابوى وامتنانا * فما ينشب بعدان يقتابه * ويشهد بابه * حتى يستخصب جنابه * ويستجزل بره وثوابه * وكان صاحب الجيش أبو على محمد بن محمد ابن سيمجور لما فتح باب الاستعلاء على الرضى نوح بن منصور رام ان يستضيف ولاية الغرش الى ما يليه * وأن يجد من جانب الشار بن طاعته فى أوامره ونواهيه * فأظهرا التمرد عليه كراهة لاختياره على أربابه الملك الذين اعطوهم المقادة

الاخضر واقام به عدة أيام ثم انتقل الى جبل جوشن فنزل باعلاه واظهر انه يريد أن يبنى مساكن له ولاصحابه وعساكره واقام عليها اياما والقتال بين العسكرين كل يوم وكان صاحب حلب عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ومعه العسكر النورى وهم مجدون فى القتال فلما رأى كثرة الخرج كانه شح بالمال فحضر يوما عنده بعض اجناده وطلبوا منه شيأ فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلى نسائه فمال حينئذ الى تسليم حلب واخذ العوض عنها وارسل مع الامير طمان الياروقى وكان يميل الى صلاح الدين انه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك وباعها باوكس الاثمان اعطى حصنا مثل حلب واخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا ما اتى حتى ان بعض عامة حلب احضر اجانة وماء وناداه انت لا يصلح لك الملك وانما يصلح لك ان تغسل الثياب واسمعوه المكروه واستقرت لصلاح الدين بملكها وكان متزلزلا فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار واذا اراد الله امرا فلا مرد له وسار عماد الدين الى البلاد التى اعطيها فتسلمها واخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما ان عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لا يحتج بحجة ومن الاتفاقات العجيبة ان محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر * مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى ومما كتبه القاضى الفاضل فى المعنى عن صلاح الدين واعلمناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم وكتب أيضا أعطيناه ما لم يخرج عن اليد يعنى انه متى شاء أخذه لعدم حصانته وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد ان استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل ان يدخلها صلاح الدين فلما استقر هذا الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد اخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وانا حى والله لقد اخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وابكى ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم فى سرور اذ جاء انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل

(ذكر فتح صلاح الدين حارم)

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم وهى من اعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها الى صلاح الدين فراسله صلاح الدين فى التسليم وقال له اطلب من الاقطاع ما أردت ووعده الاحسان فاشتط فى الطلب وترددت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتمى بهم فسمع من معه من الاجناد انه يراسل الفرنج

ألطايه من أموال عمله فالتزمها ونقد اكثرها * وقبض السلطان على عشرين فيلا غنمها ها التى كان اعتقدها ليومى بؤسه وبأسه ووكل به من استوفى المال عليه ورجع عنه بعد ان رعى حق طاعته وضراعته باستخلافه عنه على ما كان يليه * وبسط يده فى أطراف عمله ونواحيه * الى غزنة ظاهرا شجبه * فائزا قدحه * عاليا يده * واريا زنده * صنعا من الله تعالى لمن يجتبيه من خيار خلقه * لعمارة أرضه وانارة حقه * والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم

(ذكر الشارين الوالد أبى نصر محمد بن أسد والشاه محمد ابنه وما أفضى اليه أمرهما)

قد كان يلقب كل من يلى أمر غرشستان بالشار سمة مصطلحا عليها تنبئ عن معنى التمليك ورتبة الاجلال والتعظيم وكان الشار أبو نصر واليها الى ان ادرك ولده الشاه وفيه لوثة مشهورة فخلعه

في هذه السنة في المحرم اطلق اتابك عز الدين صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل وسيره الى البهلوان واخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين فسار الى قزل أولا وهو صاحب اذربيجان فلم يمكنه من المضي الى البهلوان وقال مهما تختاره انا أفعله وجهز معه عسكرا كثيرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو اربل ليحصروها فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها ونهبوا وسبوا واخذوا النساء قهرا ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم فسار اليهم زين الدين يوسف صاحب اربل في عسكره فلقيهم وهم متفرقون في القرى ينهبون ويحرقون فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم والتقى بنفسه وعسكره على اول من لقيه منهم فهزمهم وتمت الهزيمة على الجميع وغنم الاربليون اموالهم ودوابهم وسلاحهم وعاد العجم الى بلادهم منهزمين وعاد صاحب اربل الى بلده مظفرا غانما وعاد مجاهد الدين الى الموصل فكان يحكي انني مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء افعال العجم فانني رأيت منهم مالا كنت أظنه يفعله مسلم بمسلم وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان

(ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب)

في هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى بلاد الاندلس وجاز البحر اليها في جمع عظيم من عساكر المغرب فانه جمع وحشد الفارس والراجل فلما عبر الخليج قصد غربي البلاد فحصر مدينة شنترين وهي للفرنج شهرا فأصابه بها مرض فمات منه في ربيع الاول وحمل في تابوت الى مدينة اشبيلية من الاندلس وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ومات عن غير وصية بالملك لاحد من أولاده فاتفق رأي قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو فقام في ذلك احسن قيام واقام راية الجهاد واحسن السيرة في الناس وكان دينا مقيما للحدود في الخاص والعام فاستقامت له الدولة وانقادت اليه بأسرها مع سعة اقطارها ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة في سائر بلادها وأصلح احوالها وعاد الى مراكش وكان ابوه يوسف حسن السيرة وكان طريقه الين من طريق ابنه مع الناس يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وهم اهل خدمته وخاصته واحبه الناس ومالوا اليه واطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك في جباية الاموال ما كان ابوه يأخذه ولم يتعده الى غيره واستقامت له البلاد بحسن فعله مع اهلها ولم يزل كذلك الى ان توفي رحمه الله تعالى

(ذكر غزو صلاح الدين الكرك)

في هذه السنة في ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو وجمع عساكره فأتته من كل ناحية وممن أتاه نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن وكتب الى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على من به وأمر بنصب المجانيق على ربضه واشتد القتال فملك المسلمون الربض وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقا عظيما عمقه نحو ستين ذراعا فأمر صلاح الدين بالقاء الاحجار والتراب فيه

هاتيك الجبال تزل عن اعاليها أقدام الغيوم وتتعلق دون مبانيها كرام الطيور وملك عليهما حصون جبالهما وديار دارهما وجبالهما بجيبها ويتتبع ما ينسب الى كل واحد منهما فيها الى ان صمد الامير ناصر الدين سبكتكين صمد أبي علي فاسترد ابا القاسم الفقيه شغلا بالبازل القرم عن النقي وبالعقاب المنقض عن الكركي وعلم ان قداني الوادي قطم على القرى وانضم الشاران الى الامير سبكتكين في نصرة الامير نوح فانتقسما من ابي علي حين ولى هزيما وتعرى عما تولاه واقتناه حديثا وقديما واستقل نحو جرجان لا يملك رأيا ولا عزيما ولم تزل بعد ذلك حالهما على جوانبهما في الامنة والسكون والبلاء المصون الى ان ورث السلطان يمين الدولة وامين الملة خراسان سكانه في أرضه يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ولما اذعن ولاة

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وهو صبي وجعل معه الامير سيف الدين يازكج وكان أكبر الامراء الاسدية وسار الى دمشق وتجهز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار الى بلد الفرنج فعبر نهر الاردن تاسع جمادى الآخرة من السنة فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفا فقصد بيسان فأحرقها وخربها وأغار على ما هنالك فاجتمع الفرنج وجاؤا الى قباله فلما رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه فأقام عليهم وقد استندوا الى جبل هنالك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الاسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضا فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة وأغار المسلمون على تلك الاعمال يمينا وشمالا ووصلوا فيها الى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول اليه والاقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود الى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعادوا الى بلادهم على عزم الغزو

(ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب)

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهز للغزو الى الكرك فسار اليه في العساكر وكتب الى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر الى الكرك وكان العادل قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه الى ذلك وأمره ان يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين الى الكرك في رجب ووافاه أخوه العادل في العسكر المصري وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون الى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه في القتال ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمي بالحجارة ليلا ونهارا وكان صلاح الدين يظن ان الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك وانهم يبذلون جهدهم في رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع فرحل عنه منتصف شعبان وسير تقي الدين ابن أخيه الى مصر نائبا عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاه واستصحب أخاه العادل معه الى دمشق وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيره اليها في شهر رمضان من السنة وأحضر ولده الظاهر منها الى دمشق

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة فتح الرباط الذي بنته أم الخليفة بالمأمونية وفيها في ذي الحجة توفي مكرم بن بختيار أبو الخير الزاهد ببغداد وروى الحديث وكان كثير البكاء وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار ابن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر ويعرف بالأبله فمن جملة شعره

أراق دمي لا بل أراق دمي * ظلما بظلم من ريقه الشبم
ذو قامة كالقضيب ناضرة * وناظر من سقامه سقمي
جعلت من وعده على أصدق الـ * ـوعد ومن وصله على التهم

(ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة)

(ذكر اطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم)

ف

قد تباه وسلوا الطاعة
تسليما وادلالا بحصانة
صياصيهما وقلاعهما *
ومناعة حواشيهما
وأشياعهما * وشهامة
للرضى على حقوق طاعتهما
وبوائق حرماتهما *
انهم أبو علي بمنازعتهما
ملكا وراثة * وطمع في
فضل مال اقتناه * فلم
يمهله أبو علي ان جرد اليهما
أبا القاسم الفقيه * أحد
أنياب دولته * وأركان
دعوته * في جيوش كثيفة *
وخيول على الآلاف
منيفة * فناهضهما في عقر
دارهما * متوغلا اليهما *
فوارع تصافح السماء *
وشوامخ تناطح الجوزاء *
ومتوغلا شغاب تردع على
السالك * مرود السموم
على غلائظ المسالك *
يناجزهما في تلك المقامات
التي يدار عندها بالرؤس *
ويقضى على النفوس *
ويلجئهما من مضيق * الى
مضيق * ويقفوهما بفريق
بعد فريق * حتى اجلاهما
عن قرارة بيتهما * الى قلعة
ورثاها أباهما في أخريات

(ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده)

في هذه السنة مات قطب الدين ايلغازي بن نجم الدين بن البي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين يولق ارسلان وهو طفل وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك ابيه وكان شاه ارمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته وهو رتب البقش مع ولده . وكان البقش دينا خيرا عادلا حسن السيرة سليما فأحسن تربية الولد وتزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه وكان النظام الدين هذا مملوك اسمه اولؤ قد تحكم في دولته وحكم فيها فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد ولم يزل الامر كذلك الى ان مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام في الملك وليس له منه الا الاسم والحكم الى النظام ولؤلؤ فبقي كذلك الى سنة احدى وستمائة مرض النظام البقش فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه اولؤ وضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل الى النظام وبيده السكين فقتله أيضا وخرج وحده ومعه غلام له والقى الرأسين الى الاجناد وكانوا كلهم قد انشاهم النظام واولؤ فاذعنوا له بالطاعة فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين واعمالها وقلعة البارعية وصور وهو الى الآن حاكم فيها حازم في افعاله

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ اسمعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعد أحمد في شعبان وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولا الى صلاح الدين ومعه شهاب الدين بشير الخادم في معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل فوصل دمشق وصلاح الدين يحصر الكرك فأقام الى ان عاد فلم يستقر في الصلح امر ومرضا وطلبا العودة الى العراق فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام الى ان يصطلحا فلم يفعلا وسارا في الحر فات بشير بالسخنة ومات صدر الدين بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين والدنيا وكان ملجأ لكل خائف صالحا كريما حليما وله مناقب كثيرة ولم يستعمل في مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى وفيها توفي عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندي الفقيه الشافعي رئيس اصفهان وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحج وله شعر فمنه

بالحمى دار سقاها مدمعي * ياسقى الله الحمى من مربع
ليت شعري والاماني ضلة * هل الى وادي الغضى من مرجع
اذنت عاوة للواشي بنا * ماعلى عاوة لو لم تسمع
أوتحرت رشدا فيما وشى * أوعفت عن خاقلبي معي

رحمه الله ورضي عنه وأرضاه

(ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها والوفاة شاه أرمن)

في هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق في ذي القعدة من السنة الماضية فوصل الى حلب وأقام بها الى ان خرجت السنة وسار منها فعبر

فكتبت اليه في جواب رقعته تأملتها فوجدتها تدل على حقد وقد عول فيها صيقل الوقاحة كيف دل يتوعد صاحبه بأن يضرب فكيه * ان لم يكف عنه كفيه وما نحن في هذا المعنى * وفيما اولى الله مولانا السلطان من الحسنى * الا كما قال المتنبي
ولله سر في علاك وانما كلام العدى ضرب من الهذيان
واما قولهم انا على الانتصار * وطلب الثار * فتلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين على انا نقول
ائن كان اعجبكم عامكم فعودوا الى حمص في القابل
فان الحسام الخضيب الذي قتلتم به في يد القاتل
فان قالوا ان العود احمد فذلك ولكن العود لمن حمد البدء لا لمن ذم * وصادف فيه مامر لاما ساء وغم * وقد رأوا في بدء لقائهم * كيف شرقت السيوف بدمائهم * وتحكمت النسور في أشلائهم * فان نشطوا ثانية فهاتيك

اسطحه فلم يقدر احد على الدنو منه لكثرة الرمى عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والاحجار من المنجنيقات فأمر ان يبنى بالاخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف ويلقون فى الخندق ما يطمه ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمى الحصن ليلا ونهارا وارسل من فيه من الفرنج الى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا الى نجدتهم عجلين فلما بلغ الخبر بمسيرهم الى صلاح الدين رحل عن الكرك الى طريقهم ليلقاهم ويصافقهم ويعود بعد ان يهزمهم الى الكرك فقرب منهم وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الارض وصعوبة المسالك اليهم وضيقها فأقام أياما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفا على نفوسهم فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بازائهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلا الى الكرك فلما علم صلاح الدين ذلك علم انه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار الى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد فلما وصل الى نابلس احرقها وخربها وقتل فيها واسر وسبى فاكثر وسار عنها الى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جينين فنهبها وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا فى طريقه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون ووصل الى دمشق

(ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها الى اولاد عبد المؤمن)

فى هذه السنة فى شعبان خرج على بن اسحق المعروف بابن غانية وهو من اعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة الى بجاية فملكها وسبب ذلك انه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله فكان عشرين قطعة وسار فى جموعه فارسى فى ساحل بجاية وخرجت خيله ورجاله من الشوانى فكانوا نحو مائتى فارس من الملثمين واربعة آلاف راجل ودخل مدينة بجاية بغير قتال لانه اتفق ان واليها سار عنها قبل ذلك بأيام الى مراكش ولم يترك فيها جيشا ولا ما يدفع العدو ويحفظها منه لأمنه الملثم ولم يكن فى حسابهم انه يحدث نفسه بذلك فارسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بنى حماد وصاروا معه فكثر جمعه بهم وقويت نفسه فسمع خبره والى بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلثمائة فارس فجمع من العرب والقبائل الذين فى تلك الجهات نحو ألف فارس فسمع بهم وبقربهم منه فخرج اليهم وقد صار معه قدر ألف فارس وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التى كانت مع والى بجاية الى الملثم فانهزم حينئذ والى بجاية ومن معه من الموحدين وساروا الى مراكش وعاد الملثم الى بجاية فجمع جيشه وخرج الى أعمال بجاية فأطاعه جميعها الا قسنطينية الهوى فحصرها الى ان جاء جيش من الموحدين من مراكش فى صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة الى بجاية فى البر والبحر وكان بها يحيى وعبد الله أخوا على بن اسحق الملثم فخرجا منها هاربين ولحقا باخيهما فرحل عن القسطنطينية وسار الى افريقية وكان سبب ارسال الجيش من مراكش ان والى بجاية وصل الى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها وخوفه عاقبة التوانى فجهز العساكر فى البر عشرين الف فارس وجهز الاسطول فى البحر فى خلق كثير واستعادوها

الاطراف للطاعة * والتزام حكم التباعة * واعطاء صفقة البيعة وفرع المنابر باقامة الخطبة وكلهم سمع واطاع * وبذل فى الخدمة والقربة المستطاع * أنهضت الى الشارين فى أخذهما باقامة الخطبة لما سوة امثالهما من ولاة الاطراف وضمناء الاعمال فتلقيانى بفروض الطاعة * والحرص على الاقتداء بالجماعة * وأمرا بالخطبة فأقيمت باسم السلطان بكورة الغرش فى شهور سنة تسع وثمانين وثلثمائة وورد على الشارين كتب المضارين الى بخارا عن هزيمة مرو يذكرون للشارين انهم على الاستعداد * والتأهب للمعاد * فانتظراهم ليأخذا من الانتصار * ودرك الثار * بنصيب فبعث الشار ابو نصر بها الى درج رقعة افردنى بها * يسألنى تأملها وانفاذها بأعيانها * الى السلطان ابقاء رسالة فى الموالاة * ومخالفة ذوى المناواة *

بغير قتال فظن صلاح الدين ان قوله صدق فعزم على ذلك حتى علم انه لا يمكن قطعه بالكلية فان المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه وأشار عليه أصحابه فاعرض عنه وأقام بمكانه من أول ربيع الآخر الى أن قارب آخره ثم رحل عنها الى ميافارقين وكان سبب ذلك ان شاه ارمن صاحب خلاط توفي بها تاسع ربيع الآخر فوصل الخبر بوفاته في العشرين منه فعزم على الرحيل اليها وتملكها حيث ان شاه أرمن لم يخلف ولدا ولا احدا من اهل بيته يملك بلاده بعده وانما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلفوا فاما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الاتابكي فانه أشار بالرحيل وقال ان ولاية خلاط أكبر وأعظم وهي سائبة لا حافظ لها وهذه لها سلطان يحفظها ويذب عنها واذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها فتردد في أمره فاتفق انه جاءه كتب جماعة من اعيان خلاط من أهلها وأمرائها يستدعونه ليسلموا اليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرا فان شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب اذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه بنتا له ليجعل ذلك طريقا الى ملك خلاط واعمالها فلما بلغهم مسيره اليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان ويبقى البلد بأيديهم فسار صلاح الدين وسير في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا الى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط وسار صلاح الدين الى ميافارقين واما البهلوان فانه سار الى خلاط ونزل قريبا منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن)

في هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فملك الاكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الامور وزيره القوام بن سماقا الاسعردي وكان عماد الدين بن قرا ارسلان قد سيره أخوه نور الدين في عساكره الى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار الى خرتبرت فملكها وهي بيد أولاده الى سنة عشرين وستمائة ولما حصر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد وكانوا خافوا ان يأخذها منهم فلم يفعل وردهم الى بلادهم وشرط عليهم ان يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه ورتب معه أميرا لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه

(ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين)

لما سار صلاح الدين الى خلاط جعل طريقه على ميافارقين فطمع في ملكها حيث كان صاحبها قطب الدين صاحب ماردين قد توفي كما ذكرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها الى شاه أرمن وعسكره فيها فلما توفي طمع في أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة

البهاري * وشرد الباقين في الارض حيارى * ثم وطالعت الحضرة بصورة أمر الشارين في الطاعة حتى خطيا من الاكرام بما توقعاه * وخطيا من الاعزاز والايثار بما اطلباه * وحضر الخدمة بعد ذلك الولد المعروف بشاه شاه فصادف ما استحقه من ترحيب وترتيب * وحظ من الايجاب والايثار رغيب * وغير ملة وهو بين الاغترار بسمة الملك * ولوثة في الطمع ما يسلم أمثالها عند الملك من الهلك * وهو على ذلك محتمل * وبلطف القبول والاقبال مقتبل * واذن من بعد للانصراف وراءه فصادف اذناب الدار الكريمة مشفوعا * والى الخلع الشريفة ووفق الهمة المنيفة مجموعا * وعاد الى أشب قرارة بيته ومثابة عزه الى أن عنت للسلطان غزوة أسباب ان يحتشد لها فضل احتشاد * ويستظهر بما حوله من قوة وعتاد * وأمراء جيوش

الى أرض الجزيرة فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين الذى كان سبب ملكه الديار الجزرية وسبب قبضه عليه ان مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى انه بذل له اذا سار اليها خمسين ألف دينار فلما وصل صلاح الدين الى حران لم يف له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ووكل به ثم اطلقه واعاد اليه مدينتى حران والرها وكان قد أخذهما منه وانما أطلقه لانه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لانهم كلهم علوا بما اعتمده مظفر الدين معه من تمليك البلاد فأطلقه وسار صلاح الدين عن حران فى ربيع الاول فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعز الدين سنجرشاه صاحب الجزيرة وهو ابن اخى عز الدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه بعد قبض مجاهد الدين وسار مع صلاح الدين الى الموصل فلما وصلوا الى مدينة بلد سير اتابك عز الدين والدته الى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة من اعيان الدولة يطلبون منه المصالحة ويبذلون له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم وانما أرسلهن لانه وكل من عنده ظنوا انهن اذا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك لاسيما ومعهم ابنة مخدومه وولى نعمته نور الدين فلما وصلن اليه أنزلهن وأحضر اصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله فأشار أكثرهم باجابتهن الى ماطلبن منه وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب وهما من بلد الهكارية من اعمال الموصل مثل الموصل لا يترك لامرأة فان عز الدين ما ارسلهن الا وقد عجز عن حفظ البلد ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر باعذار غير مقبولة ولم يكن ارسالهن عن ضعف وهن انما أرسلهن طلبا لدفع الشر بالتى هى أحسن فلما عدن رحل صلاح الدين الى الموصل وهو كالمتيقن انه يملك البلد وكان الامر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه وامتد عسكره فى تلك الصحراء بنواحى الحلة المراقية وكان يجرى بين العسكرين مناوشات بظاهر الباب العمادى وكنت اذ ذاك بالموصل وبذل العامة نفوسهم غيظا وحنقا لرده النساء فرأى صلاح الدين مالم يكن يحسبه فندم على رده النساء ندامة الكسعى حيث فاته الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ وجاءته كتب القاضى الفاضل وغيره ممن ليس له هوى فى الموصل يقبحون فعله ويشكرونه وأتاه وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل فانزله ومعه اخوه مظفر الدين كوكبرى وغيرهما من الامراء بالجانب الشرقى من الموصل وسير من المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكارى الى قلعة الجزيرة من بلد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الاكراد والهكارية كثير وبقى هناك الى ان رحل صلاح الدين عن الموصل وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من بالجانب الشرقى من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عز الدين صاحبها ان نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود الى القلعة وعاد يقتدى برأى مجاهد الدين وكان قد أخرجه كما ذكرناه ويصدر عن رأيه وضبط الامور واصلح ما كان فسد من الاحوال حتى آل الامر الى الصلح على ما نذكره ان شاء الله وحضر عند صلاح الدين انسان بغدادى اقام بالموصل ثم خرج الى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل الى ناحية نينوى وقال ان دجلة اذا نقلت عن الموصل عطش أهلها فملكها

الصوارم ماضية * والقشاعم ضارية * وما اشبه حال القوم بما قام به ابن الاشعث خطيبا فى قومه فقال ياقوم انه مابقى من عدوكم الا كما يبقى من ذنب الوزغة تضرب به يمينا وشمالا فما تلبث ان تموت وكذا المصباح اذا قارب انطفاءه توهج قليلا * ثم لم يغن ذلك عن حينه فتيلا * فالحمد لله الذى جعل سيوف مولانا خطيبا على منابر الرقاب اذ جعل ألسنة أعدائه تخطب فوق أسرة الاذقان واليه الرغبة فى ان يطيل بقاء مولانا ما برز يوم من حجاب امس * وطلع نفس من قرارة نفس * منصورا على من نابذه وناواه * ليودعه من بطن الارض ملحده ومثواه * وعن كتب سيرى الشارك كيف يفعل الله بالعاوين * ويلبسهم خزى الباغين * ويردهم اسفل السافلين * وقبل وبعد فالحمد لله رب العالمين * فكان الامر على ما حدست * وتفرست * فان ابالك اشلاف انحدر اليهم فملك عليهم دار الملك بخارا * واخذ معظم القوم

عليهم ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق فحضر عنده ونادمه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن فلما توفي أعطى اقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين في حمص واستعرض تركته وأخذ اكثرها ولم يترك الا ما لا خير فيه وبلغني ان شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت ابيه بسنة فقال له الى اين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

(ذكر الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل)

في هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور واذربيجان وقتل فيها من الخلق ما لا يحصى ودامت عدة سنين وتقطعت الطرق ونهبت الاموال وأريقت الدماء وكان سببها ان امرأة من التركمان تزوجت بانسان تركماني واجتازوا في طريقهم بقلعة من الزوزان للاكراد فجاء اهلها وطلبوا من التركمان وليمة العرس فامتنعوا من ذلك وجرى بينهم كلام صاروا منه الى القتال فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله فهاجت الفتنة وقام التركمان على ساق وقتلوا جمعا كثيرا من الاكراد وثار الاكراد فقتلوا من التركمان أيضا كذلك وتفاقم الشر ودام ثم ان مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جماعة من رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم واعطاهم الخلع والثياب وغيرها وأخرج عليهم مالا جما فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها وعادوا الى ما كانوا عليه من الطمأنينة والامان

(ذكر ملك الملثمين والعرب افريقية وعودها الى الموحدين)

قد ذكرنا سنة ثمانين ملك علي بن اسحق الملثم بجاية وارسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن العساكر واستعادتها فسار الى افريقية فلما وصل اليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب وانضاف اليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش وقد تقدم ذكر وصوله اليها ودخل أيضا من اتراك مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين اسمه بوزابة فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعهم علي بن اسحق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا اليه ولقبوه بامير المسلمين وقصدوا بلاد افريقية فملكوها جميعها شرقا وغربا الا مدينتين تونس والمهدية فان الموحدين أقاموا بها وحفظوها على خوف وضيق وشدة وانضاف الى الملثم كل مفسد في تلك الارض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم وقطعوا الاشجار وكان الوالي على افريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتي وهو بمدينة تونس فارسل الى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم جزيرة باشرا وهي بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها فطلب أهلها منه الامان فامنهم فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الاموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم وامتدت الايدي الى النساء والصبيان وتركوهم هلكى فقصدوا مدينة تونس فاما

الجاذبين ضمهم الى ملتهما * ووسمهم بالتشيع تحت رايتهما * لمناهضة الشارين واستلال الفرش عليهما * واساقة وبل العصيان * وكفران الاحسان * بهما فنهضا بالعدة والعديد * والبطش الشديد * واستلحقا ابا الحسن المنيعي الزعيم بمرو الروذ لمكانه من العلم وعواطف البذل * ومكارم تلك الشمائل والفعال * فسار اليهما في رجال قد كدمتهم التجارب * ونجذتهم النوائب * يعضون بأطراف الثنايا على الزبر * ويدخلون ولو في خرت الابر * ودهرا على الشارين تلك الناحية فأما الشار الكبير الوالد أبو نصر فاستشف استار العاقبة * واغتنم شمائل العافية * ولاذ بالامان الى الحاجب الكبير التونتاش مظهرا للبراءة من فعل ولده * وصادعا بالشر في الخاص والعام من عقوقه وتمرده * وفصل بشفاعته الى السلطان في ملاحظته بعين من لم

قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهي أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح
الدين عليها محصرها من أول جمادى الاولى وكان المقدم على اجنادها اميرا اسمه يرنقش ولقبه
أسد الدين وكان شجاعا عاقلا شهما يحفظ البلد فأحسن اليه واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات
والعرادات فلم يصل صلاح الدين الى ما يريده منها فلما رأى ذلك عدل من القوة والحرب الى أعمال
الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها ان اسد الدين يرنقش قد مال الينا في
تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد ان يكون لك في هذا الامر
نصيب وأنا ازوج بناتك بأولادي وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من ارسل
الى الاسد يعرفه ان الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد الى السلطان وأن من بخلاط قد
كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك واتفق ان رسولا وصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له
من الاستدعاء اليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل الى ميافارقين وقال
للاسد انت حتى تقاتل وأنا قد سعيت في تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط في يده وضعفت قوته
وأرسل يقترح اقطاعا ومالا فأجيب الى ذلك وسلم البلد سلخ جمادى الاولى وعقد النكاح لبعض
أولاده على بعض بنات خاتون وأقر بيدها قلعة هتاخ لتكون فيها هي وبناتها

(ذكر عود صلاح الدين الى بلد الموصل والصلح بينه وبين اتابك عز الدين)

لما فرغ صلاح الدين من امر ميافارقين واحكم قواعدها وقرر اقطاعاتها وولاياتها اجمع على
العود الى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل الى كفرزمار والزمان شتاء
فنزلها في عساكره وعزم على المقام بها واقطاع جميع بلاد الموصل واخذ غلاتها ودخلها واضعاف
الموصل بذلك اذ اعلم انه لا يمكنه التغلب عليها وكان نزوله في شعبان واقام بها شعبان ورمضان
وترددت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل وصار مجاهد الدين يراسل ويتقرب وكان
قوله مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من صحته فبينما الرسل تتردد في الصلح اذ مرض صلاح الدين
وسار من كفرزمار عائدا الى حران فلحقه الرسل بالاجابة الى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك
وكانت القاعدة ان يسلم اليه عز الدين شهرزور واعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من
اعمال وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف ارسل رسله فحلف عز
الدين له وتسلم البلاد التي استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حران فأقام بها
مريضا وأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسمت مادة الفتن وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين
قايماز رحمه الله واما صلاح الدين فانه طال مرضه بحران وكان عنده من أهله اخوه الملك العادل
وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته فحلف الناس
لاولاده وجعل لكل منهم شيئا من البلاد معلوما وجعل اخاه العادل وصيا على الجميع ثم انه عوفي
وعاد الى دمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما كان مريضا بحران كان عنده ابن
عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الاقطاع حمص والرحبة فسار من عنده الى حمص فاجتاز
بحلب واحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين واقام
بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها فعوفي وبلغه الخبر على جهته فلم يمض غير قليل حتى
مات ابن شيركوه ليلة عيد الاضحى فانه شرب الخمر واكثر منه فاصبح ميتا فذكروا والعهدة

وزاد * وامر بالكتاب اليه
في استنهاضه اسوة امثاله *
ثقة بخصوص حاله * وثمرة
لما فاض عليه من سجال
افضاله * فلزمه الخذلان *
عن المكان * واقعده عادي
واهية الاركان * وظل
يتردد بين السلوان والاذعان
* الى ان حقت عليه كلمة
العصيان * فأعرض
السلطان عند ذلك عن
تدبيره * واقبل على ما اهمه
من امر مسيره * حتى اذا
دان له ما قصد * وظفر عن
كثب وتزيد * وعاد بالفتح
سابقة الوائه * والنجح شارقا
ضيائه * جدد مكاتبته ايمانا
له من خيفة ان اوجسها *
وايناسا من وحشة ان
لابسها * واستبقاء للصنيعة
عنده من ان يتحيفه
أشياؤها * او يقتطع دون
الماء رشاؤها * فلم يزدد الا
كفورا ونفورا * وكان أمر
الله قدرا مقدورا * وعند
ذلك جرد السلطان حاجبه
الكبير ابا سعيد التونتاش
وقناه والي طوس ارسلان

من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقي الدين منها
وسبب ذلك انه كان قد استناب تقي الدين بمصر كما ذكرنا وجعل معه ولده الاكبر الافضل عليا
فارسل تقي الدين يشكو من الافضل ويذكر انه قد عجز عن جباية الخراج معه لانه كان حليما كريما
اذا اراد تقي الدين معاقبة احد منعه فاحضر ولده الافضل وقال لتقي الدين لا تحتج في الخراج
وغيره بحجة وتغير عليه بذلك وظن انه يريد اخراج ولده الافضل ليتفرد بمصر حتى يملكها اذا مات
صلاح الدين فلما قوي هذا الخاطر عنده احضر اخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده
العزيز عثمان واستدعى تقي الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع الاجناد والعساكر ليسير
الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وقد كتب اليه
يرغبه في تلك البلاد فتجهز للسفر اليه واستصحب معه أجناد العسكر وأكثرهم فلما سمع ذلك
صلاح الدين ساءه وعلم انه ان ارسل اليه يمنعه لم يجبه فارسل اليه يقول له اريد ان تحضر عندي
لاودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد في اقطاعه فصار اقطاعه حماة ومنبج
والمعرة وكفرطاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها وكان تقي الدين قد سير في مقدمته
مملوكه بوزابة فاتصل بقراقوش وكان منهم ما ذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد بلغني
من خبير بأحوال صلاح الدين انه انما حمله على أخذ حلب من العادل واعادة تقي الدين الى الشام
ان صلاح الدين لما مرض بحران على ما ذكرناه أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقي الدين
حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفي صلاح الدين بلغه ذلك فارسل الفقيه عيسى الهكاري
وكان كبير القدر عنده مطاعا في الجند الى مصر وأمره باخراج تقي الدين والمقام بمصر فسار مجدا
ولم يشعر تقي الدين الا وقد دخل الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يأمره بالخروج منها
فطلب ان يمهل الى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر انه يريد
الدخول الى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر ارسل اليه يطلبه فسار
الى الشام فاحسن اليه ولم يظهر له شيئا مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رحمه الله وأما أخذ
حلب من العادل فان السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه
وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك وكان صلاح الدين يعتمد عليه وكان عاقلا ذا مكر ودهاء
فاتفق ان الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنه وقدم غيره عليه فتأثر بذلك فلما
مرض صلاح الدين وعوفي سار الى الشام فسايره يوما سليمان بن جندر فجرى حديث مرضه
فقال له سليمان بأي رأي كنت تظن انك تمضي الى الصيد فلا يخالفونك بالله ما تستحي يكون
الطائر أهدى منك الى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال اذا أراد الطائر أن يعمل عشا
لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه وأنت سلمت الحصون الى أهلك وجعلت أولادك على
الارض هذه حلب بيد أخيك وحماة بيد تقي الدين وحمص بيد ابن شيركوه وابنك العزيز مع تقي
الدين بمصر يخرجه أي وقت أراد وهذا ابنك الآخر مع اخيك في خيمة يفعل به ما أراد فقال له
صدقت واكتم هذا الامر ثم أخذ حلب من اخيه وأخرج تقي الدين من مصر ثم أعطى اخاه
العادل حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لاولاده فلم ينفعه ذلك فصل لما
اراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ما نذكره

من هول المقام * أن تذوق
كأس الحمام * قبل ذوقها
بوقع السيوف والسهام
* وواصلوا الصبوح تلك
الحرب بالغبوق حتى هدموا
أحد أسوار الحصار
فرضها بالمنجنيق من
وقع الجلاميد وصدم المجانيق
وقاتلها أهل العسكر
منصبين على سائر الاسوار
كأنهم واقعة في شم
الهضاب * أو الارانب هاربة
من غضف الكلاب *
واشتبكت الحرب على تلك
الحال ضربا بالسيوف
القواضب * وأخذا باللحى
والذوائب * حتى سالت
المذانب من دفع النحور *
* واحترقت المتالع من غلق
الصدور * ورأى الشاه عند
ذلك من هول المطلع ما لم يكن
ثم كان * فدعا الامان الامان *
هيهات ان غضاب النفوس
اذا صادفت نجح المرام *
ووجه التشفي بالانتقام *
او فورة الاحقاد أو تفعل
أفعالها * وتنال من درك

الاقوياء فكانوا يخدمون ويعملون مايقوم بقوتهم وأما الضعفاء فكانوا يستطعمون ويسألون الناس ودخل عليهم فصل الشتاء فاهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء فاحصى الموتى منهم فكانوا اثنى عشر ألفا هذا في موضع واحد فما الظن بالباقي ولما استولى الملثم على افريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للامام الناصر لدين الله الخليفة العباسي وأرسل اليه يطلب الخلع والاعلام السود وقصد في سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فحصرها فاخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلموها الى الملثم فرتب فيها اجنادا من الملثمين والاتراك وحصنها بالرجال مع حصانتها في البناء وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت في البلاد ولما جرى فيها من التخريب والاذى وسار في صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل الى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا الى على بن اسحق الملثم ليقاتلوه وكان بقفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فغدروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك في ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس الى نصف رجب من السنة ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والاتراك فوصل اليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه فاكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم فلم ينج منهم الا القليل فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه الى قابس ففتحها وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وحملهم الى مراكش وتوجه الى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فارسل اليه الترك الذين فيها يطلبون الامان لانفسهم ولاهل البلد فأجابهم الى ذلك وخرج الاتراك منها سالمين وسير الاتراك الى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدو وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قرية وظهر ما انذر به المهدي بن تومرت فانه قال انها تخرب أسوارها وتقطع أشجارها وقد تقدم ذكر ذلك فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة واستقامت افريقية عاد الى مراكش وكان وصوله اليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة فارق الرضي أبو الخير اسمعيل القزويني الفقيه الشافعي بغداد وكان مدرس النظامية بها وعاد الى قزوين ودرس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل وكان من العلماء الصالحين وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين اهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ثم أصلح النقيب الطاهر بينهم وفيها توفي الفقيه مهذب الدين عبد الله ابن أسعد الموصلي وكان عالما بمذهب الشافعي وله نظم ونثر أجاد فيه وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص

(ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة)

(ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز الى مصر واخراج الافضل من مصر الى دمشق واقطاعه اياها)

في هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الافضل عليا من مصر الى دمشق واقطعها له واخذ حلب

من

بن تكيب جريه * ولم ينقل بسريرة * ولم يبذل في الطاعة والاخلاص سريرة * فقدره الى هراة بين ترابه اقتضته طلعته * واستنباطا وجيه خلاف الابن ومماثلته * وكتب جماله الى السلطان فورد في الجواب مااشتد رهق المؤاخذة * وعنت المعاقبة * وأما ابنه الشاه فتحصن بالقلعة التي اواها أيام السبجورية وهي التي سبق وصفها في مزة الجوانب * ومناعة المناكب * وصعوبة المصاعد * والسمو على متون الغيوم الرواكد * واستصحب اليها خواص غلمانه وخزائنه * وسائر حاشيته وبطانته * وقصده الحاجب أبو سعيد التونتاش وأبو الحرث ارسلان الجاذب في الجم الغفير من أعيان القواد * وأبطال الافراد * وتقاسما أركان الحصار وقذفا بالمجانيق المنصوبة * والعرادات الموضوعة * ومناوشة الحرب من جهات كادت تشاشات النفوس

وثقالها وترددت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام فلما كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر اللعين بهم واخذهم عن آخرهم وغنم اموالهم ودوابهم وسلاحهم واودع السجون من اسره منهم فارسل اليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده ان لم يطلق الاسرى والاموال فلم يجب الى ذلك واصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله ان ظفر به فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا ان هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان ويحدث باقترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك صحة ولم يهب من الرياح شيء البتة حتى ان الغلال الحنطة والشعير تأخر جذازها لعدم الهواء الذي يذري به الفلاحون فاكذب الله احدوثة المنجمين وأخزاهم وفيها توفي عبد الله بن بري بن عبد الجبار بن بري النحوي المصري وكان اماما في النحو رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)

اتفق أول هذه السنة يوم السبت وهو يوم النوروز السلطاني ورابع عشر اذار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية وكان القمر والشمس في الحمل واتفق أول سنة العرب وأول سنة الفرس التي جددوها أخيرا وأول سنة الروم والشمس والقمر في أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله

(ذكر حصر صلاح الدين الكرك)

في هذه السنة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الامكان ثم خرج من دمشق أواخر المحرم في عسكره الخاص فسار الى راس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل علي ليجتمع اليه من يرد اليه منها وسار هو الى بصرى جريدة وكان سبب مسيره وقصده اليها انه أتته الاخبارات البرنس ارناط صاحب الكرك يريد ان يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم واظهر انه اذا فرغ من اخذ الحجاج يرجع الى طريق العسكر المصري يصدهم عن الوصول الى صلاح الدين فسار الى بصرى ليمنع البرنس ارناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفا عليه وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن اخت صلاح الدين وغيره فلما سمع ارناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه فوصل الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا واخربوا واحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفا من العسكر الذي مع ولده الافضل فتمكن من الحصر والنهب والتخريب هذا فعل صلاح الدين

(ذكر الغارة على بلد عكا)

بضاعة نائم تفكرا * ثم أظهر تشكرا * وكتب ما هذا معناه أيتها القحبة * الرحبة * أتريني أغفل عما اسلفته يداي من خيانتي في الفراش وتمزيق ما خلفته عليك من مالي وقماشه واقدامك على جميع ما ارتكبته من فجور * وشربته من خمور * وضيعته من مالي في كل محظور ومنكور * وها انا عائد اليك وايم الله لاسحن عليك الدق وعلى والديك ولادقن يديك على رجليك ولاجعلنك عظة لربات الخدور * في الدور * يا كذا يا كذا واستأنف الشتم حتى علم انه قد اكتفى ثم طوى الكتاب ودفعه الى الغلام فطير به بعض ثقاته فقامت القيامة على اهله وشققن عدو اسعي من * وحرف من صورتهن * وفكرن في امرهن * فوجدن اصوب الآراء تفريغ الدار * وتقديم الابتدار * وفعلن ذلك دائبات على القلق * نابتات على الجوى والارق * فلما وصل الغلام الى الدار فاذا هي كالقاع القرق لا يلم بها الفجر ضرمه * ولا معلق وذمة * فبقي حيران

(ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل)

في هذه السنة في أولها توفي البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلد الجبل والري واصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ذا سياسة حسنة للملك وكانت تلك البلاد في أيامه آمنة والرعايا مطمئنة فلما مات جرى باصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والاحراق والنهب ما يجل عن الوصف وكان قاضي البلد رأس الحنفية وابن الخجندي رأس الشافعية وكان بمدينة الري ايضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة وتفرق اهلها وقتل منهم وخربت المدينة وغيرها من البلاد ولما مات البهلوان ملك اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان والخطبة له في البلاد بالسلطنة وليس له من الامر شيء وانما البلاد والامراء والاموال بحكم البهلوان فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ولحق به جماعة من الامراء والجند فاستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها ان شاء الله تعالى

(ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس الى صلاح الدين)

كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلي قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل اليها واقام عندها بطبرية ومات ملك الفرنج بالشام وكان مجذوما واوصى بالملك الى ابن اخته وكان صغيرا فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لانه لم يكن للفرنج ذلك الوقت اكبر منه شانا ولا اشجع ولا اجود رأيا منه فطمع في الملك بسبب هذا الصغير فاتفق ان الصغير توفي فانتقل الملك الى امه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ثم ان هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي فتزوجته ونقلت الملك اليه وجعلت التاج على راسه واحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية واعلمتهم انها قد ردت الملك اليه واشهدتهم عليها بذلك فاطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القمص وسقط في يديه وطولب بحساب ما جبى من الاموال مدة ولاية الصبي فادعى انه انفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد وضمن له انه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان القمص فاطلقهم فحل ذلك عنده اعظم محل واظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره ان شاء الله وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج وخرجت سالمة غانمة فوهن الفرنج بذلك وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم

(ذكر غدر البرنس ارناط)

كان البرنس ارناط صاحب الكرك من اعظم الفرنج واخبثهم واشدهم عداوة للمسلمين واعظمهم ضررا عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد اخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فاجابه الى ذلك وهادنه

الشار مثالها وما زالت تلك دعواه وهذه حاله حتى أخذوه أسيرا واستنزلوه عنوة وقسرا واستبيح ذلك الحريم بما حواه من درهم ودينار ومال واستطوار وأخذ حاجبه ووزيره بل نديمه وسميره بل قليله وكثيره فوضع عليه الدهق حتى أعفى بما عرفه من ذخائره وخبره من ودائعه وطلب عاقبة أوليائه وعماله والمتصرفين في اموره وأمواله حتى عروا من لباس اليسار وعرت أخلافهم دون الاستدرار وقوطع أبو الحسن المسيبي عن ارتفاعات العرش على ما علم ارتفاعاته منه قبل للشار تمكين منها واستخلف هنالك من تقوى يده في عمله وشحن الحصار بكوتوال يوثق بأمانته وبعث السلطان بعض خواصه لنقل الشار المأسور الى حضرته على سبيل ارفاق له من جهته فلما سلم اليه حمله في وثاقه نحو غزنة وسمعت بعض الثقات انه اتفق للغلام أن يكتب الى أهله بخبره وما لقيه في حالتي ورده وصدره ويبشرهم بمنصرفه فاستدعى الشار في عداله وأمره بتولي ذلك

ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع الا بعد الجد في الجهاد ثم رحل من الاقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم ير منهم أحدا ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل جريدة الى طبرية وقاتلها ونقب بعض ابراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة ولجأ من بها الى القلعة التي لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها وهي وأولادها فنهب المدينة واحرقها فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية وملكه المدينة وأخذ ما فيها واحراقها واحراق ماتخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة فاشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص ان طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها اخذناها وان اقام بها لا يقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم واهليهم فيضطر الى تركها ونفتك من اسر منا فقال له برنس ارناط صاحب الكرك قد اطلت في التخويف من المسلمين ولا شك انك تريدهم وتميل اليهم والا ما كنت تقول هذا واما قولك انهم كثيرون فان النار لا يضرها كثرة الحطب فقال انا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الاسلام فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريبا منه وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم واما المسلمون فانهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضا وقد وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم فاكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب

(ذكر انهزام الفرنج بحطين)

اصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا الى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض الا ان الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا هذا القتال بينهم والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم

يحواساته والتوسيع عليه في آلاته * ويجد آداة بحراساته من حيث لا يشعر باذيته * وفيها آباؤه من الغربة * كرماء في تضاعيف جوانبه ولا النهر في عروق الشجر * والماء في أصول الشجر * والتمس اسعافه بالسلام كان مغطا عنده فرد عليه * وأعيد بعض ما يصله اليه * وأما أبو القيم مراة فأذن له في ورود الباب * ولوحظ بعين الايجاب * وابتاع السلطان منهما خاص ضياعهما بالغرش حلالها عن عقدة الشبهة واستضافة اياها الى جملة ضياعه الملكية وأمر لهما بأثمان ما باعاه نقدا صلة لهما من من الفاقة * وذل الحاجة * ووقف الشيخ الجليل شمس الكفاة على الشار أبي نصر بجناح الاكرام والرعاية حتى أتاه الداعي * وقام به الناعي * وذلك في سنة ست وأربعمائة

(ذكر وقعة ناردين)

قد كان السلطان يمين الدولة *

أرسل صلاح الدين الى ولده الملك الافضل يأمره ان يرسل قطعة صالحة من الجيش الى بلد عكا ينهبونه ويخربونه فسير مظفر الدين كوكبري بن زين الدين وهو صاحب حران والرها وأضاف اليه قايماز النجمي ودلدرم الياروقي وهما من أكابر الامراء وغيرهما فساروا ليلا وصبحوا صفورية أواخر صفر فخرج اليهم الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود ثم انزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون وممن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين وله النكايات العظيمة في المسلمين ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم ينكر ذلك وكان فتحا كثيرا فان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج وسيرت البشائر الى البلاد بذلك

(ذكر عود صلاح الدين الى عسكره ودخوله الى الفرنج)

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية وقتل من قتل منهم وأسر من أسر منهم عاد عن الكرك الى العسكر الذي مع ولده الملك الافضل وقد تلاحقت سائر الامراء والعساكر واجتمع بهم وساروا جميعا وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثنى عشر ألف فارس ممن له الاقطاع والجامكية سوى المتطوعة فعبى عسكره قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمرهم بملازمته وسار على تعبية فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية وكان القمص قد انتمى الى صلاح الدين كما ذكرنا وكتبه متصلة اليه يعده النصرة ويمنيه المعاضدة وما يعدهم الشيطان الا غرورا فلما رأى الفرنج العساكر الاسلامية وتصميم العزم على قصد بلادهم ارسلوا الى القمص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرا من الفرسان فانكروا عليه انتماءه الى صلاح الدين وقالوا له لاشك أنك أسلمت والا لم تصبر على فعل المسلمين امس بالفرنج يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهدده البطرك انه يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته الى غير ذلك من التهديد فلما رأى القمص شدة الامر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والموازرة على حفظ بلادهم فاجابهم الى المصالحة والانضمام اليهم والاجتماع بهم وسار معهم الى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيأ وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا الى صفورية وهم يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى قد ملئت قلوبهم رعبا

(ذكر فتح صلاح الدين طبرية)

لما اجتمع الفرنج وساروا الى صفورية جمع صلاح الدين امراءه واستشارهم فاشار اكثرهم عليه بترك اللقاء وان يضعف الفرنج بشن الغارات واخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له بعض امرائه الرأي عندي اننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي فان وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فان الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار واقبل يريد قتال المسلمين والرأي ان نفعل فعلا نعذر فيه ونكف الالسنة عنا فقال صلاح الدين الرأي عندي ان نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فان الامور لا تجرى بحكم الانسان

ولا

ومثال من امثال الجيران فأخبروه بصورة الكتاب* وما خيف من الفضيحة بالعقاب* فدعا والي البلد* ولعن الكاتب ومن والاه* والكتاب ومن أملاه* واستمال في رد العمال بضمان اكده* واحسان جدده* وبلغ الخبر السلطان فضحك لاحتيال الشاعر عليه وقال كذا حق مثله ممن يستخدم الشاعر كاتبا* ووضع حرمته بالامس نائبا* ولما حل هو الى الباب تقدم السلطان بتجريده للسياط تأديبا له على ما أغفله من حق النعمة* وهتكه من ستر الحشمة* فجردا وأخذته عذبات العذاب فاكثر الضراعة والاستكانة* وشكا الى السلطان الذل والمهانة* فلما استوفى التأديب حقه دون أن يبلغ التكبير منتهاه* والعقاب أمده وسداه* أمر بازالته واستقالته* في موضع يصلح لامثاله* وأمر

وهو سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك وأجلس الملك الى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب فقال صلاح الدين ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فينال اماني ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد عليه غدراته وقام اليه بنفسه فضرب رقبته وقال كنت نذرت دفعتين أن أقتله ان ظفرت به احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا فلما قتله سحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن جأشه وأمنه وأما القمص صاحب طرابلس فانه لما نجا من المعركة كما ذكرناه وصل الى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث الا أياما قلائل حتى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة

(ذكر عود صلاح الدين الى طبرية وملك قلعتها مع المدينة)

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقي يومه وأصبح يوم الاحد عاد الى طبرية ونازلها فأرسلت صاحبتها تطلب الامان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها الى ذلك فخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الاسرى فأرسلوا الى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية أن يجمعوا ليقتلهم ثم علم أن من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه فبذل في كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصرية فأحضر عنده في الحال مائتا أسير منهم فأمر بهم فضربت أعناقهم وانما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج فأراح الناس من شرهم وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ففعل ذلك ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع في تلك الآكام والوهاد

(ذكر فتح مدينة عكا)

لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل الى عكا يوم الاربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فعجب هو والناس من ذلك لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وأنهم لم يسلم منهم الا القليل الا أنه نزل يومه وركب يوم الخميس وقد صمم على الزحف الى البلد وقتاله فبينما هو ينظر أين يزحف ويقاتل اذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الامان فأجابهم الى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى وصلوا بها الجمعة في جامع كان للمسلمين قديما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح الدين جامعا وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامي بعد ان ملكه الفرنج وسلم البلد الى ولده الافضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من اقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى وغنم المسلمون ما بقي مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقي والسكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فانها كانت

لم يهتد قبلها امثلها فسقت مخارق تلك الجبال * وسوت بين الاباطح والتلال * وكانما وجه الهواء كلوما اثرت الحوافر والاخفاف * فضلا عن الصاهر والاطراف * وضلت مهايع الطرق فلم تعرف الميامن من المياسر * ولا القادم من الماخر * واضطرت الحال الى الانعطاف * الى ان ياذن الله ثانيا في الانصراف * ولكل شئ حد شديد * وأمد عديد * واقبل السلطان على استئناف العدة والعتاد * واستكمال الميرة والازواد * واستدعاء اعيان الغزاة من اطراف البلاد * حتى ازاحت العلة والحديد * وباهى العقد بأخواته الفريد * وتضام الناس كقزع الخريف من كل وجه منثورا * ومن كل أوب محشودا ومحشورا * واقبل الربيع طيب القيل *

ويتهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة فضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا فلما رأى القمص شدة الامر علم انهم لا طاقة لهم بالمسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم انه لا سبيل الى الوقوف في وجوههم فامر أصحابه ان يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الارض نارا وكان الحشيش كثيرا فاحترق وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال فلما انهزم القمص سقط في ايديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا انهم لا ينجيهم من الموت الا الاقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم الا ان الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون الا وقد قتل منهم فوهنوا لذلك وهنا عظيما فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقي من الفرنج الى تل بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا انفسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لا غير وأخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان اخذه عندهم من اعظم المصائب عليهم وايقنوا بعده بالقتل والهلاك هذا والقتل والاسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين فحكى لي عن الملك الافضل ولد صلاح الدين قال كنت الى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي قال فنظرت اليه وقد علته كآبة وارْبدّ لونه وامسك بلحيته وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان قال فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا الى التل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الاولى الحقوا المسلمين بوالدي وفعل مثل ما فعل اوّلا وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالتل فصحت انا ايضا هزمناهم فالتفت والدي الي وقال اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة قال فهو يقول لي واذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى وبكى من فرحه وكان سبب سقوطها ان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه فلم يجدوا الى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الارض فصعد المسلمون اليهم فالقوا خيمة الملك واسروهم عن بكرة ابيهم وفيهم الملك واخوه والبرنس ارناط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج اشد منه عداوة للمسلمين واسروا ايضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية وكان من اعظم الفرنج شانا واسروا ايضا جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية وكثر القتل والاسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا واحدا ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احدا وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل

وأمن الملة * لما استحق
نواحي الهند الى حيث لم
تبلغه في الاسلام راية * ولم
تتل بها قط سورة أو آية *
فرحض عنها ادناس الشرك
وقشع دونها اغباش الكفر
وبنى بها مساجد يقوم فيها
دعاة الله بالاذان * الذي هو
شعار الايمان * ورأى أن يطوي
تلك الديار الى واسطة الهند
منتقما الله ممن يجحد توحيده *
ويضع لعبادة الانداد من
دونه تعالى خده ووريده *
وحكما فيه سيوفا طبعت
على غرار الاسلام وسقيت
بماء الايمان وصينت في
قراب دين الله * وانتضيت
بأيدي الاخيار والابرار
من اولياء الله * فندب الرجال
وفرّق الاموال * واخلص
اليقين * واستنصر الواحد
المعين * ونهض في الطم والرم *
والليل المداهم * وذلك في سنة
اربع واربعمائة وسار في
اخريات فصل الخريف ثقة
بطيب الهواء من جانب
الجنوب فاتفق عند اقتحامه
تلك الديار ان سقطت الثلوج

الامان فأمنهم على أنفسهم فساروا اليه ووفى لهم وسيرهم الى مأمنهم وأما صيدا فان صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها الى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها التاسع بقين من جمادى الاولى وأما بيروت فهى من أحسن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد مرة فبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من اخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهرا وغلبة فأرسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع ارسلوا يطلبون الامان فأمنهم على انفسهم واموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الاولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية ايام واما جبيل فان صاحبها كان من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل على شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فأحضره مقيدا عنده تحت الاستظهار والاحتياط وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه واطلق اسرى المسلمين الذين به واطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من اعيان الفرنج واصحاب الرأى والمكر والشر به يضرب المثل بينهم وكان للمسلمين منه عدو أزرق وكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتى بيانه

(ذكر خروج المركيش الى صور)

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين الى مدينة صور فأقام بها وهى اعظم بلاد الشام حصانة واشد امتناعا على من رامها فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف ان يقصد صلاح الدين صور وهى فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها وتركها وسار الى مدينة طرابلس فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين ولو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لأخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها وأراد ان يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل اخذها فكان ذلك سبب حفظها وكان امر الله قدرا مقدورا واتفق ان انسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش لعنه الله خرج فى البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح وضرب الاجراس وغير ذلك وما رأى ايضا من زى اهل البلد فوقف ولم يدر ما الخبر وكانت الريح قد ركدت فأرسل الملك الافضل اليه بعض اصحابه فى سفينة يبصر من هو وما يريد فأتاه القاصد فسأله المركيش عن الاخبار لما انكره فأخبره بكسرة الفرنج واخذ عكا وغيرها واعلمه ان صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها وحكى الامر له على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح فرد الرسول يطلب الامان ليدخل البلد بما معه

وأرسلان الجاذب فى الميسرة فى اليوم المذكور والبطل الفحول وجعل أبا عبد الله محمد بن ابراهيم الطائى على المقدمة فى عشائر العرب أحلاس الظهور * وأبناء الصوارم والذكور * ووقف فى القلب الحاجب التونتاش وسائر خواصه وغلمان داره رجال اذا اصطفوا فالجبال الشواهق * أو زحفوا فالسيول الدوافق * ونذر بهم عدو الله ملك الهند فقزع * من فاجئ الفزع الى من حوله من تكاكرته وأعيان جيوشه وباصرته ولجأ الى شعب جبل منيع المدخل * حصين المتوغل * صعب المرتقى والمتوقل * محتميا بالاحتياز * عن البراز * وبالاحتراس * من وقع الباس * ومد مقدم المسلمين بقبيله يراها الراؤن هضابا ثابتة * وجبالا نابتة *

مقصد للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقاصى البلاد وأدانيها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله ففرق صلاح الدين وابنه الافضل ذلك بجميعه على أصحابهما وأكثر ذلك فعله الافضل لانه كان مقيما بالبلد وكانت شيمته فى الكرم معروفة وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لاصلاح حالها وتقرير قواعدها

(ذكر فتح مجدل يابا)

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل الى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير الى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه وورد كتابه بذلك الى صلاح الدين وكانت بشارة كبيرة

(ذكر فتح عدة حصون)

فى مدة مقام صلاح الدين بعكا فرق عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك ما سد الفضاء وسير تقى الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين فى عسكر الى نابلس فأتى سبسطية وبها قبر زكريا فأخذه من أيدى النصارى وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على املاكهم وأموالهم

(ذكر فتح يافا)

لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا كما ذكرنا سار الى مدينة يافا وهى على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وكان عندى جارية من أهلها وأتى بجلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرا فسكنتها وأعلمتها انه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت ماله أبكى انما أبكى لما جرى علينا كان لى ستة اخوة كلهم هلكوا جميعهم وزوج واختان لا أعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة والباقى بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها الى باب فطرقه سيدها فخرج صاحب البيت فكلمهم ثم أخرج امرأة فرنجية فحين رأتها الاخرى صاحتا واعتنقتا وهما يصرخان ويبكيان وسقطتا الى الارض ثم قعدتا يتحدثان واذا هما أختان وكان لهما عدة من الاهل ليس لهما علم بأحد منهم

(ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت)

فأما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقى الدين ابن أخيه الى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم الا بوصول عمه صلاح الدين اليه فأرسل اليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول اليه فرحل ثامن جمادى الاولى ونزل عليه حادى عشره فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهى من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم الى أهليهم وبقى الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون

واعتدال برد الغداة والأصيل * استخار الله تعالى فى الرحيل * وسار كالبحر الاخضر تعتريه الاعاصير * والامر المحتوم تجنبه المقادير * فمدت وحوش الارض ماسوره * وطيور الهواء مقهوره * ولو استت الارض لرنت من ثقل الحديد * والمشى الوئيد * وحث الابطال فوق القب القياديد * وساق امامه ادلاء يهتدون اعماق تلك البلاد ولا الشمس عليها طالعه * ولا النجوم بينها مستقيمة وراجعه * وحث الركائب شهرين بين امارة * مهتدية الاغوار * بعيدة ما بين الاقطار * وبواد تضل فى ارجائها اسراب المسافر * وقفار فى دهنائها افواج العصافير * حتى اذا قارب القصد عن الحلول كتائب * وميزها عصائب * ورتبها كواكب * وقسمها مناسر ومقانب * ونصب اخاه الامير نصر بن ناصر الدين فى الميمنة فى كماة القواد * وحماة الافراد *

والنطرون وكل ما كان للاداوية

(ذكر فتح البيت المقدس)

لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم وكان قد أرسل الى مصر فأحضر الاسطول الذي بها في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة فأقاموا في البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه فحين وصل الاسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان الى البيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنا من ملكهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خلاص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير في جماعة من أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا يزكا فقاتلوه وقاتلهم وقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه فأهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لاهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية في العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقاتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطاني بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى ابن مالك وهو من أكابر الامراء وكان أبوه صاحب قلعة جعبر وكان يباشر القتال بنفسه كل يوم فقتل الى رحمة الله تعالى وكان محبوبا الى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى

واعيا بها الى اشبالها الرجوع * يتقدون في الاسداد نفوذ المشاقيص في العيدان * او البيارم في الحيطان * ويفسرعون البوارح كالوعول وينزلون عنها كتحدر السيول * وواصلها عليهم اياما تباعا بجذبهم بصدق البراز * الى البراز * بجذب النار للسليط والمغناطيس للحديد وكلما فارقوا تلك المضايق التقطهم الفرسان كما تلتقط الافراس البيادق ولم تزل هذه حالهم حتى انضم الى الاعين اكثر من والاه * ولبى معظم من دعاه * وعندها استشاد للبرور مستندا الى الجبل من حوله الاقبال كالقلل يقدا الصاع * واحتدالقراع وحمي الوطيس * واستوى المرؤس والرئيس * وصار اللقاء كفاحا من آخذ بالتلابيب * ومناقر

من متاع ومال فأجيب الى ذلك فردده مرارا كل مرة يطلب شيئا لم يطلبه في المرة الاولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به فبينما هو في مراجعاته اذ هبت الريح فسار فهو صور وسير الملك الافضل الشواني في طلبه فلم يدركوه فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرناه اعطى اهلها الامان فساروا كلهم الى صور وكثر الجمع بها الا انهم ليس لهم راس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم وليسوا أهل حرب وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة واعمالها له دون غيره فأجابوه الى ذلك فأخذ ايمانهم عليه واقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع في تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد في حصانتها واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها

(ذكر فتح عسقلان وما يجاورها)

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لاسباب منها انهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار ان تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم اليها ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع باخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان فأرسلا الى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما اقبح رد وسمعوهما ما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد في قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون الى السور فنالوا من باشورته شيأ هذا وملكهم يكرر المراسلات اليهم بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقاصي بلاد الفرنج وأدانيها وهم لا يجيبون الى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا انهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا واذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين اليها وكانوا قد قتلوا في الحصار أميرا كبيرا من المهرانية فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلونهم بثاره فاحتاطوا فيما اشترطوا لانفسهم وأجيبوا الى ذلك جميعه وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان

(ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان)

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبث السرايا في اطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام ويبنى وبيت لحم وبيت جبريل

وبث العساكر في أقطار مملكته يستنهض من يحمل حجرا * فضلا عمن يلقم القوس وترا * أو يحسن بالسيف أثرا * ومد في طول المطاولة كي يلحق عسكر السلطان بقوة وافيه وعدة متوافيه * أو يلجئ اولياء الله الى الاخلال * من فرط الملال * أو النفور من ضيق الصدور * ولم يعلم ان الله من وراء المؤمنين وان الله موهن كيد الكافرين * ولما علم السلطان من نيته في ارجاء القتال * تأخير النزال زاحف الى عدو الله بقلوب قد صقلها التوحيد * وبشرها الوعد وانذرها الوعيد ورماهم بالصيلم * من رجالة الديلم * وبالشياطين * من الافعانية الطاغين * رجال كالاجبال * مطوحة بالنفوس مذللة للاعين الشوس أو الليوث اخرجها الجوع

عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فقادوا فما شعروا الا بشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم ميناء صور والمسلمون في البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشواني الباقية بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شواني الفرنج فحين رأى من في شواني المسلمين الفرنج مجدين في طلبهم ألقوا أنفسهم في شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور في البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفي بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام

(ذكر الرحيل عن صور الى عكا وتفريق العساكر)

لما رأى صلاح الدين ان أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع في الايام القريبة كما ذكرناه بغير تعب ولا مشقة فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لاحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين فانه هو جهز اليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والاموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الامان ويرسلهم الى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فاجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤن اليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها وسنذكر ان شاء الله ما صار اليه الامر بعد ذلك ليعلم ان الملك لا ينبغي ان يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلأن يعجز حازما خير له من ان يظفر مفرطا مضيعا للحزم واعذر له عند الناس ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلفوا فجماعة يقولون الرأي ان نرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين فنريح ونستريح في هذا البرد فاذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها وكان هذا قول الاغنياء منهم وكأنهم خافوا ان السلطان يقترض منهم ما ينفقه في العسكر اذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الاموال من الدرهم والدينار فانه كان يخرج كل ما حمل اليه منها وقالت الطائفة الاخرى الرأي ان نصابر البلد ونضايقه فهو الذي يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب واخذنا باقي البلاد صفوا عفوا وبقي صلاح الدين مترددا بين الرحيل والاقامة فلما رأى من يرى الرحيل اقامته أخل بما رده اليه من المحاربة والرمي بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والاقوات لهم الى ذلك من الاعذار فصاروا مقيمين بغير قتال فاضطر الى الرحيل فرحل عنها آخر شوال وكان أول كانون الاول الى عكا فأذن العساكر جميعها بالعود الى اوطانهم والاستراحة في الشتاء والعود في الربيع فعادت عساكر الشرق

قيم المماليك فصار أصحاب المدن الثابتة فضلا عن فرقهم من الفرقة * يعتقدون عدتهم تلك الرفقة * وذلك فضل الله الذي أعز به الدين وأذل الالحاد والملحدين والحمد لله رب العالمين

(ذكر وقعة تبنين)

قد كان أنهى الى السلطان عين الدولة وأمين الملك أن بناحية تبنين قبيلة من جنس قبيلة الصيلان الموصوفة في الحروب وان صاحبها غال بها في الكفر والجحود غير آل جهدا في الطغوى والعنود * وانه محتاج الى ذوقه من كأسه * وحرقة من جمرات بأسه * ليعلم ان عز الاسلام عام * وان له من سطوة الله سهما كما اسائر أقيال الضلال * فعزم السلطان على غزوة اليه يرفع بها راية الاسلام * وينسخ معها راية الاصنام * ويلبع الكفر عليها بجيوب المعاطب

صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم في طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين واربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل باليان ابن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الامر وتحريره فاجيب الى ذلك وحضر عنده ورغب في الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال له ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم انك تجيبهم اليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فاذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت اعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الامر فيه عن اى شيء تنجلي ونحسب انهم اسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل باليان ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على اسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب امينا من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدي سبا ولو اديت فيه الامانة لملأ الخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان ولا يعجب السامع من ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحي من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس وكان الانسان لا يقدر ان يمشي ومن الدليل على كثرة الخلق ان أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة واطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقي بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطي وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمي ما بين رجل وامرأة وصبي هذا بالضبط واليقين ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم وكان جماعة من الامراء يلبسون الفرنج زي الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم وبالجملة فلم يصل الى خزائنه الا القليل وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من

كالهراقيب * ومضارب ما بين الرؤس الى العراقيب فكلما اشليت القبيلة للتهويل والتفخيم * واصطلم بالاظلاف والخراطيم مطارتها سحائب الزانات متلوية كالاراقم * منسابة الى حدق العيون اوثغر الملاقم * ورأى الكافر موقع أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الطائي من الفناء * وضراوته باسالة الدماء فانتحاه بأخشن من في جماعته شوكة * وأعظمهم شكة حتى أثخنوه ضربا على الهام وحطما من خلف وقدام وهو كالطود ثابت لا يزل شرف مقامه * ولا يكل دون الضرب بحسامه * متسمحا بالروح في نصرة الدين وطاعة رب العالمين * ورأى السلطان افضاء الكفرة عليه فأمده بكوكبة من خواصه * لاستخلاصه فاستنقذوه الى السلطان محشوقا بالسيوف * منقوطا

الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شئ عظيم فطلبت
الامان لنفسها ومن معها فامنها وسيرها وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس التى كان زوجها
الذى أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك واطلق مالها
وحشمها واستأذنته فى المصير الى زوجها وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس فاذن لها فأتته
وأقامت عنده واتته أيضا امرأة للبرنس ارناط صاحب الكرك وهو الذى قتله صلاح الدين
بيده يوم المصاف بحطين فشفعت فى ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين ان سلمت الكرك
اطلقته فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها
ومن تبعها وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والاقصى
وقمامة وغيرها مالا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له
ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا اغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع
ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وكان على راس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل
المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح
الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون فكبروا فرحا وأما
الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الارض أن تميد بهم لعظمها وشدتها
فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم فان الداوية بنوا
غربي الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هرى ومستراح وغير ذلك
وادخلوا بعض الاقصى فى ابنيتهم فاعيد الى الاول وامر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار
والانجاس ففعل ذلك اجمع ولما كان الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة
ومعهم صلاح الدين وصلى فى قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيى الدين بن الزكى قاضى
دمشق ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له
ان نور الدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه واتقانه وقال هذا
قد عملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الاسلام مثله فامر
باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة
وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ولما فرغ صلاح الدين من صلاة
الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه
فاحضروا من الرخام الذى لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطينى وغير ذلك مما يحتاجون
اليه قد ادخر على طول السنين فشرعوا فى عمارته ومحوا ما كان فى تلك الابنية من الصور
وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش
ان القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه
بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم اذا دخل الى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعل
فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظا لها فلما كشفت نقل
اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وادر عليهم الوظائف
الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر

بالاسنة كالحروف * فأمر
له بفصل يستريح الى سعيه
من ألم الجراح بجوارحه
فصار الفضل ملكا له بتزيه
من أعيان أهل عسكره ولم
تزل الحرب على حالها حتى
أهب الله النصر لأوليائه
وادار دائرة السوء على
أعدائه * فأخذتهم سيوف
الحق تحصدهم بين كل صاد
ومنعطف واد * ومدخل
ومغار * ومتعسف ومنار
وملكت عليهم القبلة التى
كانوا أعدوها حصونا واقيه
فصارت عليهم عواقبه
وأفاء الله على السلطان
وأوليائه غنائم رضت
الصدور عن دين الحسد
لاشتراك الكافة فى الغنى
المقصود * واستواتهم
فى كفاية الموجود * وفتح
الله نارد بن فتحا طرزبه شعائر
الاسلام اذلم تبلعه راية
الحق من لدن عهد النبى
صلى الله عليه وسلم الى زمن

والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر وبقي حلقته الخاص مقيما بعكا تنزل بقلعتها وردّ أمر البلد الى عز الدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية يجمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة

(ذكر فتح هونين)

لما فتح صلاح الدين تبنين امتنع من بهونين من تسليمها وهي من احصن القلاع وامنعها فلم ير التعريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سير اليها جماعة من العسكر والامراء فحصروها ومنعوا من حمل الميرة اليها واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الامان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها ووفى لهم بامانهم

(ذكر حصر صفد وكوكب والكرك)

لما سار صلاح الدين الى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الاردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه وسير طائفة اخرى من العسكر ايضا الى قلعة صفد فحصروها وهي مطلة على مدينة طبرية وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ اليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرا يقال له سيف الدين وهو أخو جاولي الاسدي وكان شهما شجاعا يجمع الى دين وعبادة فأقام عليه الى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة وكان قد صلى ورده من الليل الى السحر وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون الا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا الى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنهم ان يحفظوا قلعتهم الى ان أخذت أواخر سنة أربع وثمانين على ما سنذكره ان شاء الله وأتى الخبر الى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه مضافا الى ما ناله من أخذ شوانيه ومن فيها ورحيله عن صور ثم رتب على حصن كوكب الامير قايماز النجمي في جماعة أخرى من الاجناد فحصروها

(ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم)

في هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات وهو أكبر الامراء الصلاحية وقد تقدم من ذكره ما فيه كفاية وسبب قتله انه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب اذنا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ويجمع في سنته بين الجهاد والحج وزيارة الخليل عليه السلام ومن بالشام من مشاهد الانبياء وبين زيارة رسول الله صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين فأذن له وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكة فجعل ابن المقدم اميرا عليهم فساروا حتى وصلوا الى عرفات سالمين

والشام * وسار في أولياء الله الذين قد نشأوا على القراع * نشأ الاطفال على الرضاع * وضروا بدماء الكفار ضراوة الصقور بغاث الاطيار وقطع الى الذكور * أودية لم يقطعها غير طائر * أو حيوان عائر وخرق سباسب لم يطأها راجل ماش ولا ناعل حافر * وجهدهم في تلك القفار غلالات الشفاه * وبلالات الافواه فضلا عن سائر الاقوات حتى صنع الله لهم بأن بدوا منها الى فضاء يفضي الى ناحية القود ودونه نهر صخاب * أرضه ظراب وصفاح كظبي السيوف حداد يلقى شاطئه شعب جبل قد استند اليه الكافر مستظهرا بقبوله * ومتكثرا بأفناء رجاله وخيوله * فاحتال السلطان لاجتياز عسكره في مجاوزة النهر الى أعداء الله الكفرة الفجرة حتى عبروه

ابن الخطاب رضى الله عنه عند صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا وأما الفرنج من أهله فانهم أقاموا وشرعوا فى بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج وترك الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبتيات وغير ذلك وتركوا أيضا من الرخام الذى لا يوجد مثله من الاساطين والالواح والفص وغيره شيأ كثيرا ثم ساروا

(ذكر رحيل صلاح الدين الى صور ومحاصرتها)

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهى فى غاية ما يكون من الحسن فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها أياما فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث ان يتصل القتال على أهل البلد على ان الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من اهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فان المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال انما هو فى الساعد فزحف المسلمون مرة بالمجانيقات والعرادات والجروخ والدبابات وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شوانى وحراقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانبى الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم عليهم لان أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبيهم فكانت سهامهم تنفذ من احد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى البلد فارسل صلاح الدين الى الشوانى التى جاءته من مصر وهى عشر قطع وكانت بعكا فحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوه حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن فى الحساب وذلك ان خمس قطع من شوانى المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول اليه فباتوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم

السلطان عين الدوله وأمين الله عز اكتب الله له على يده وصنعا أتاح له التوفيق والتيسير من عنده * ووجد فى بيت به عظيم حجر منقور ذات كتابته على أنه مبنى منذ أربعين ألف سنة فقضى السلطان من جهل القوم عجبا اذ كان اهل الشريعة الغراء * والحق المنزل من السماء * على أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانا منها فى الالف الاخير وكل ما تساندت به الاخبار من أمارات الساعة موجوده وبابصار العيون وبصائر القلوب مشهوده * واستوى فيه أعيان العلماء فكل أجمع على انكار ذلك المنقور وعلى تزييف مثله من شهادات الصخور * وعاد السلطان وراءه بتلك الغنائم العظيمة فكاد عدد الارقاء من العبيد والاماء * يزيد على عدد الدهماء * ورضخت

عظم

ووقفوا في تلك المشاعر وأدّوا الواجب والسنة فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات فأمر بضرب كوساته التي هي امارة الرحيل فضربها أصحابه فأرسل اليه أمير الحاج العراقي وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الافاضة من عرفات قبله ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوساته فأرسل اليه يقول انني ليس لي معك تعلق أنت أمير الحاج العراقي وأنا أمير الحاج الشامي وكل منا يفعل ما يراه ويختاره وسار ولم يقف ولم يسمع قوله فلما رأى طاشتكين اصراره على مخالفته ركب في أصحابه وأجناده وتبعه من غوغاء الحاج العراقي وبطاطيهم وطماعتهم العالم الكثير والجم الغفير وقصدوا حاج الشام مهوّلين عليهم فلما قربوا منهم خرج الامر من الضبط وعجزوا عن تلافيه فهجم طماعة العراق على حاج الشام وفتكوا فيهم وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسبيت جماعة من نسائهم الا انهن رددن عليهم وجرح ابن المقدم عدة جروح وكان يكف أصحابه عن القتال ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم فلما أثخن بالجراحات أخذه طاشتكين الى خيمته وأنزله عنده ليمرّضه ويستدرك الفارط في حقه وساروا تلك الليلة من عرفات فلما كان الغد مات بمنى ودفن بمقبرة المعلى ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهوده فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى

(ذكر قوة السلطان طغرل على قزل)

في هذه السنة قوي أمر السلطان طغرل وكثر جمعه وملك كثيرا من البلاد فأرسل قزل الى الخليفة يستنجده ويخوّفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه وأرسل طغرل رسولا الى بغداد يقول أريد أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها اذا وصلت فأكرم رسول قزل ووعده بالنجدة وردّ رسول السلطان طغرل بغير جواب وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة فهدمت الى الارض وعفي أثرها

(ذكر ملك شرستي من الهند وانهزام المسلمين بعدها)

في آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغوري ملك غزنة الى بلاد الهند وقصد بلاد أجمير وتعرف بولاية السوالك واسم ملكهم كولة وكان شجاعا شهما فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة وهي حصن منيع عامر وملكوا شرستي وملكوا كوة رام فلما سمع ملكهم جمع العساكر فأكثر وسار الى المسلمين فالتقوا وقامت الحرب على ساق وكان مع الهند أربعة عشر فيلا فلما اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم فقال لشهاب الدين بعض خواصه قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لا يهلك المسلمون فأخذ شهاب الدين الرمح وحمل على الهنود فوصل الى الفيلة فطعن فيلا منها في كتفه ويجرح الفيل لا يندمل فلما وصل شهاب الدين الى الفيلة زرقه بعض الهنود بحربة فوقعت الحربة في ساعده فنفذت الحربة من الجانب الآخر فوقع حينئذ الى الارض فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه وحرصت الهنود على أخذه وكان عنده حرب لم يسمع بمثله وأخذه أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين فلم يتبعهم الهنود فلما أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمي على شهاب الدين من كثرة خروج الدم فحمله الرجال على أكفهم في محفة الليل أربعة وعشرين فرسخا فلما وصل الى لهاوور أخذ الامراء الغورية وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا وعلق على كل واحد منهم علبق شعير وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء وسار الى

من طريقين * وشغلوهم بالبأس من الجانبين * ودمها حدّة الكفاح بين الفريقين أمر السلطان بحمله على الكفار في غمامات النهر الهائل * والماء العضب الشاكل * ترجمهم عن طرف الساحل * وتقدمهم أشداق تلك الشعاب والمداخل واشتدت الحرب ضربا بالخناجر في الخناجر وبالقواضب في المناكب وأولياء الله في كل حال ظاهرون * والكافرون هم الصاغرون * حتى اذا كاد يحرم شباب النهار حمل المسلمون من جميع الجهات حملة أوجرت بهم لهوات تلك المخارم مضطرين فقاتلوا القبيلة التي كانوا بها معتزين * وتبعهم أولياء الله يردون الاعظم فالاعظم منها الى موقف السلطان فلم يبق الا ما جدّ في الهرب أو ضاق دون اقتناصه

فهرسة الجزء الثاني عشر من تاريخ الكامل

غزنة وأمر بعضهم فمشى اليها ماشيا فلما وصل الى غزنة أقام بها ليستريح الناس ويذكر ما فعله بملك الهند الذى هزمه سنة ثمان وثمانين ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله وكان متحكما فى الدولة ليس للخليفة معه حكم وكان هو القيم بالبيعة له وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها وكان حسن السيرة عفيفا عن الاموال وكان الذى سعى به انسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس فسعى به الى الخليفة وقبح آثاره فقبض عليه وقتله وفيها فى ربيع الآخر وقع حريق فى الحظائر ببغداد احترقت أحطاب كثيرة وسببه أن فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاما يأكله فغفل عن النار والطبيخ فعلقت النار واتصلت فاحترقت جميعها واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره وفيها فى شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى قاضى القضاة وكان ابن يونس من شهوده وكان يمشى ويقول لعن الله طول العمر وفيها فى المحرم توفى عبد المغيث بن زهير الحربى ببغداد وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير وصنف كتابا فى فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزى وكان بينهما عداوة وفيها توفى قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى وولى القضاء للمقتفى بعد موت الزينبى ثم للمستنجد بالله ثم عزل ثم أعيد الى المستضىء بأمر الله وفيها توفى على بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر وكان من الاولياء أرباب الكرامات وصحبته أيا مدة فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة رحمه الله وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها اسنان وفيها توفى نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن المنى الفقيه الحنبلى لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى

م

بحبال الطلب * وصب من دماء أولئك الارجاس ما تجمس به النهر الحاجز على طهارته * وامتنع من الشرب على غزارته * ولولا أن الليل ستر أثرهم * لاستلحم القتل أكثرهم * صنعا للدين بعث به رسوله المصطفى * صلى الله عليه وعلى آله الذين ارتضى * مظهرا له على الدين كله ولو كره المشركون فهو على الازدياد * الى يوم التناد وانصرف السلطان بأولياء الله غانما وفورا * وظاهرا منصورا * محمودا كاسمه مأجورا * وقد غنم ما يكل عن ذكره أنامل التحرير * ويضيق عن اثباته أدراج الاضابير * وتطايرت البشائر فى الآفاق * وخفقت عليها أجنحة الغروب والاشراق * والحمد لله رب العالمين * على عز الاسلام والمسلمين

{تم الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير ويليه الجزء الثانى عشر أوله ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة}

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تمت)